

الدكتور مأمون أمين زكي

ازدهار العراق تحت الحكم الملكي

١٩٢١ ـ ١٩٥٨

دراسة تاريخية، سياسية، اجتماعية مقارنة

دار الحكمة
لندن

ازدهار العراق تحت الحكم الملكي

١٩٢١ - ١٩٥٨

دراسة تاريخية، سياسية، اجتماعية مقارنة

تأليف:

الدكتور مأمون أمين زكي

بروفسور علوم سياسية، علم الاجتماع وحضارة الشرق الأوسط

الطبعة الأولى

٢٠١١

دار الحكمة

لندن

- ازدهار العراق تحت الحكم الملكي (١٩٢١-١٩٥٨)
دراسة تاريخية، سياسية، اجتماعية مقارنة

- **تأليف:** د. مأمون أمين زكي

- **الطبعة:** الأولى ٢٠١١

- **الناشر:** دار الحكمة - لندن

- **الاخراج الفني:** شركة MBG (INT) Ltd - لندن

ISBN: 1 904923 78 X

DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116

E-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk Website: www.hikma.co.uk

الفهرس



الإهداء

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾
صدق الله العظيم

أهدي عملي هذا إلى الأجيال الجديدة من العراقيين ليأخذوا عبرًا من أخطاء أسلافهم، لعلهم يهتدون.

وإلى عائلتي: زوجتي حنان عبود وأبنائي وقرة عيني أمين وياسمين ومريم، لولاهم لما بقي لحياتي معنى أو هدف.

شكر خاص

أود أن أقدم خالص شكري لشقيقتي الكبرى البروفسورة الطبيبة سانحة أمين زكي التي رعتني طفلاً رضيعًا وأرشدتني صبيًا ونصحتني شابًا وشاركتني في إنتاجي الثقافي رجلاً. وقد زودتني من تجاربها الشخصية بمعلومات غاية في الأهمية لإنتاج هذا الكتاب.

الدكتورة سانحة رفعت رأس والديها عاليًا حين دخلت الكلية الطبية في عام ١٩٣٦ كأول فتاة مسلمة في العراق تدخل هذا المجال الذي كان حكرًا على الفتيات المسيحيات واليهوديات والشبان الذكور. وقد تحدّت بذلك اعتراض العديد من الأقارب ورجال العائلة والعادات الاجتماعية المتحجرة، ثم تبعتها شقيقتها التي تصغرها بعامين البروفسورة الطبيبة المرحومة لمعان أمين زكي عميدة طب الأطفال، فأصبحتا بذلك الشقيقتان الطبيبتان سانحة ولمعان رائدتان فتحتا مجال الطب للأجيال الجديدة من الفتيات العراقيات لاحتراف هذه المهنة الإنسانية.

وتابعت الدكتورة سانحة دراستها في لندن عاصمة بريطانيا وحصلت على اختصاص في علم العقاقير (فارماكولوجي) ورجعت لتدرِّس في الكلية الطبية العراقية لعدة سنوات فخرّجت المئات من الشباب الأطباء والطبيبات.

ولم تكتفِ بذلك بل سافرت ثانية إلى لندن وحصلت على دبلوم الطب النفساني والأمراض العقلية، وفي عام ١٩٧٦ شاركت مع نخبة من العلماء الأوربيين في اكتشاف عقار لعلاج حالات معينة من مرض انشطار الشخصية

(الشيزوفرينيا) فدخل اسمها في دوائر المعارف (الانسايكلوبيديات) العالمية لعلم الطب . أما إنتاجها العلمي الغزير فمشروح بالتفاصيل في كتاب كوركيس عواد الموسوم، معجم المؤلفين العراقيين، الجزء٢، صفحة ٣٠ .

لقد كنتِ خير شقيقة حنون لنا نحن إخوتكِ، ورفعت اسم عائلتكِ عاليًا ومثلتِ بلادكِ العراق خير تمثيل كعالمة طبية على المستوى العالمي، فشكرًا لكِ (أبلة سانحة) وألف شكر.

شقيقكِ

المؤلف : المأمون

تمهيد

انبثقت في ذهني فكرة كتابة هذا السفر بعد ما حلت الكوارث والانهيارات الحضارية في وطننا الحبيب العراق العريق، مهد الحضارات ومنبع القوانين ومنبت الثقافة والمدارس والتعليم، ولا جدوى هنا من تكرار الحقائق التاريخية المجيدة التي تملأ كتب ومصادر جميع مكتبات العالم لما قدمه العراقيون القدامى من السومريين إلى البابليين والكلدانيين وما أنجزوه من عطاءات خالدة كاختراع الكتابة والعجلة والزراعة والنظام الإداري البيروقراطي وتقسيم الزمن إلى دقائق وساعات وأيام وسنين.. الخ مما تعتبر الأركان الأساسية للعالم الحديث، ومرورًا بالعصر العباسي الذهبي حين أصبحت بغداد عاصمة الدنيا وأكبر مركز للعلم والرياضيات والطب والصيدلة والفلسفة والفقه والأدب تحت رعاية هارون الرشيد ونجله الفيلسوف المأمون الذي جمع جهابذة الإنتاج العلمي بكافة أنواعه تحت مظلّة دار الحكمة في بغداد التي كانت تحتوي على أكبر عدد من المصادر العلمية وتجتذب القاصي والداني من جميع أنحاء المعمورة من طلبة العلوم والمعرفة.

ثم انهارت تلك الصروح الشامخة في عام ١٢٥٨ تحت سنابك خيول جحافل المغول المتأخرة التي اجتاحت المنطقة وأرعبهم حجم البناء الحضاري لبغداد فدمروها وأحرقوها وأحالوها إلى رماد وجعلوا نهر دجلة يجري بدم سكانها وحبر كتبها ومخطوطاتها. ودخلت منطقة ما بين النهرين في فترة سبات عميق استمرت لقرون عديدة وتناوبت غزوها جيوش الفرس والأتراك

وبقيت تحت الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وانهيار حكم الأتراك العثمانيين وخروج كيان جديد هو المملكة العراقية الهاشمية من ركامها في عام ١٩٢١ تحت عرش الملك فيصل ابن الحسين الذي قاد مملكته وسط مشاكل داخلية وعداء دول مجاورة كبرى كدول فارس التي طمعت بأراضي ومياه المنطقة الشرقية، بينما كان الملك فيصل قد حارب الأتراك بالتحالف مع الإنكليز وكانت تركيا جاهدة لابتلاع الموصل ومنطقة شمال العراق الغنية بالبترول، إلا إن فيصل استطاع أن يقود مملكته كالربان الماهر الذي يناور مسار سفينته بين لجج أمواج البحر العاتية، فوحد بحصافته بين المكونات السكانية والعشائر المتنازعة تحت مظلة السلطة المركزية في بغداد وركز أسس الدولة العراقية، وقبل أن يسلم روحه الطاهرة إلى بارئها حقق بحكمته إنجازًا تاريخيًا فريدًا بحصوله على استقلال رسمي وإدخال مملكته عضوًا في عصبة الأمم وعلى اعتراف جميع دول العالم بها. وبقي العراق يتقدم بخطى ثابتة في جميع نواحي الحياة، إلى أن - وبعد سبعمائة سنة من اجتياح المغول - وقع انقلاب عام ١٤/٧/١٩٥٨ فتوقفت وانهارت جميع الإنجازات التي تحققت منذ عام ١٩٢١. واستمر تدهور العراق وانتهى في بداية القرن الواحد والعشرين بنهاية كارثية حيث قتل العراقي أخيه العراقي بدون سبب ونُهبت الثروات وانهارت الدولة وأُبطل القانون وتداعت أسس الحضارة بعد ذلك الماضي المجيد.

استندتُ في دراستي على المنهجية الموسومة في العلوم الاجتماعية بـ (الاعتماد على المعلومات المتوفرة Use of Available Data) مستنيرًا بالعديد من المصادر والوثائق الرسمية التي استحصلتها من المكتبات البريطانية في لندن والوثائق التي أصدرتها الحكومة العراقية، إضافة إلى الكتب التاريخية والمذكرات التي كتبها المسؤولون الأوائل الذين وضعوا اللبنات الأساسية للعراق الحديث واستمروا بتشييد أركانه وبنيته العليا على مدى ما يقرب من الأربعة عقود انتهت في عام ١٩٥٨. وقد توخيت الالتزام الموضوعي غير المنحاز في

تحليلاتي مؤكدًا الجوانب الإيجابية والسلبية لذلك العهد ابتغاء إظهار الحقائق بدون خشية لومة لائم.

ولكم كانت رغبتي شديدة أثناء جمعي للمعلومات أن تتاح لي فرصة مقابلة أعمدة وقادة العهد الملكي من أمثال المغفور لهم الأمير عبد الإله ونوري باشا السعيد وصالح جبر وتوفيق السويدي وعلي جودت الأيوبي والدكتور محمد فاضل الجمالي، وكذلك رحمهم الله أقطاب المعارضة مثل كامل بيك الجادرجي والأستاذ حسين جميل والأستاذ محمد حديد، إلاّ إن ذلك لم يتسنى لي نظرًا لرحيلهم جميعًا إلى رحاب السماء. غير إني حظيت بمقابلة أحد رجال العهد الملكي والذي يعتبر من الرعيل الثاني الذي حكم العراق وهو المرحوم خليل كنّة الذي تبوأ عدة مناصب وزارية في سني الأربعينيات والخمسينيات، قابلته أثناء تواجدي في بغداد عام ١٩٨٩ في شقته وكان آنئذٍ شيخًا طاعنًا في السن لكنه متمالكًا لقدراته الذهنية وقد استقيت منه معلومات وافية عن تلك الحقبة من تاريخ العراق. وقد بدا لي السيد كنّة نموذجًا طيبًا لحصافة ونضوج وكفاءة المسؤولين الذين حكموا العراق في ذلك الزمن.

أرجو أن أكون قد قدمت خدمة ولو بسيطة لإرشاد الأجيال الجديدة من العراقيين وإعطائهم فكرة واضحة لما كان عليه بلدهم في منصف القرن العشرين ليتخذوا من ذلك نبراسًا يقتدون به، وأسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت لتحقيق ذلك الهدف.

المأمون

المقدمة

ثمة هدفان أساسيان لهذا الكتاب. الهدف الأول هو تسليط الأضواء على الخصائص المميزة للعهد الملكي في العراق والتي طالما تعرضت للتحريف والهجمات الظالمة، وتحليل تلك الخصائص بأسلوب موضوعي خالٍ من التحيز، ولمناقشة المعتقدات الخاطئة التي سادت لعدة عقود واقتنع بها جيلنا والجيل الذي سبقنا بكونها حقائق ثابتة لا تقبل الشك أو النقاش. إضافة إلى ذلك محاولة تصحيح الصورة النمطية السلبية، أو بالأحرى المنحطة، التي خلقتها الدعايات المغرضة عن ذلك العهد الذي دام من عام ١٩٢١ إلى ١٩٥٨ وحقق العراق أثناءه تطورات جوهرية كبرى في معظم نواحي الحياة.

أما الهدف الثاني فهو تحذير أبنائنا من الأجيال الجديدة من العراقيين وتجنيبهم الأخطاء التي ارتكبها جيلنا والجيل الذي سبقنا بالانجرار وراء الشعارات البراقة الفارغة وعدم تقديرنا للإنجازات التي حققها قادة ذلك العهد بحكمتهم وواقعيتهم وخلقهم ونزاهتهم وخططهم المحكمة والتي أدّت إلى خلق كيان العراق ومن ثم تطويره بعد ثلاثة عقود فقط ليسير بخطوات مدروسة وثابتة نحو التقدم وتعزيز مقومات الدولة الحديثة وتماسك مكوناتها السكانية الأثنية والدينية وامتزاجهم.

لقد شهد البلد في عقد الخمسينيات أعلى مستويات الازدهار الاقتصادي والحضاري والتعليمي، وكانت مشاريع الإعمار والبناء الداخلي قائمة على قدم وساق، بينما على مستوى السياسة الخارجية تبوأ العراق مكانة دولية محترمة

نتيجة لما أحرزته قيادته من دراية دبلوماسية مبنية على المنطق السليم والإدراك الواقعي لقدرات وقابليات العراق كبلد صغير، وعدم الركون إلى أحلام اليقظة وافتعال الشعارات التي تحمس وتهيج الغوغاء والدبكات والتظاهرات وهز القبضات في الهواء وغيرها من أوجه السلوك الجمعي الأهوج الذي لا يقدم جهود البناء والتقدم الوطني. وقد أطلقتُ على القيادة الجماعية التي حكمت العراق أثناء العهد الملكي اسم «النخبة الكلاسيكية» نظرًا لكونهم طمحوا وخططوا للعراق أن يصبح مملكة دستورية ديمقراطية تماثل الممالك الديمقراطية الأوروبية الكلاسيكية.

أنا متيقن بأن كتابي هذا سيثير الامتعاض بين الكثير من إخواني العراقيين والعرب بما يتضمنه من أفكار ومعلومات تتناقض بشكل قطعي وتصطدم مع الاعتقادات والصور النمطية التي سادت عقول الرأي العام لعدة عقود، وكنتُ منذ مطلع شبابي مقتنعًا بها مع أبناء جيلي واعتبرناها بمثابة الحقائق الثابتة التي لا تقبل الجدل أو حتى المناقشة. إلاّ أنني وبعد مروري بتجارب عديدة وطويلة وبعد أن توسعتُ في دراساتي (أطروحتي لشهادة الدكتوراه معنونة Social Change in Iraqi Role of the Power Elite التطورات الاجتماعية في العراق: دور النخبة الحاكمة) وقيامي بتدريس حضارات الشرق الأوسط لعدة سنين توصلت إلى نتائج تخالف جميع آرائي السابقة وآراء جيلي والأجيال التي سبقتنا، تلك الآراء التي تبنيناها استنادًا على شعارات عاطفية خاوية أطلقتها قوى المعارضة في العراق والبلاد العربية ضد النظام الملكي الذي حكم العراق لقرابة الأربعة عقود، وقد أطلقت تلك الشعارات بدون تمحيص أو وعي ناضج لظروف العراق الجغرافية والديموغرافية والاقتصادية وطبيعة الوشائج بين مكوناته الأثنية والدينية والمذهبية، وعلاقاته بدول الجوار. وقد لجأت القوى المعارضة إلى المزايدة في هجماتها ضد النظام الملكي والتباري في إطلاق الشعارات العدائية مما أدّى إلى تأجيج الجيش الذي خلقته النخبة الحاكمة في

سني العشرينيات من القرن العشرين تحت قيادة المغفور له الملك فيصل الأول الذي امتلك من الحكمة والكفاءة الإدارية والدراية الدبلوماسية والقابليات القيادية والزعامة الكارزمية، فقرر أن يفتح أبواب القبول في الجيش أمام كل من أراد الانتساب إليه استنادًا على نظام الكفاءة بغض النظر عن الانتساب العائلي أو الطبقي.

إلاّ أن ذلك الجيش تنكر، مع الأسف، لمن خلقه ورعاه وطوره فقام بعض الضباط بانقلاب عام ١٩٥٨ الذي أدّى إلى قتل والتمثيل بجثث وسحل أبناء وأقارب الملك فيصل من النساء والرجال، وكذلك تعرضت بعض العناصر من أولئك الذي بنوا وطوروا الأركان الأساسية مع أبنائهم ونسائهم إلى القتل والتمثيل بهم بأساليب بشعة لا تقبلها الإنسانية ولا الأخلاق الكريمة ولا الشهامة العربية ولا الدين الإسلامي الحنيف بمبادئه السامية التي بشر بها الرسول محمد عليه الصلاة والسلام والذي قال بأحد أحاديثه «اجتنبوا المثلة حتى بالكافر والكلب العقور».

وأود هنا أن استشهد بالإمام الشافعي كما قال «أنا اعتقد بأن رأيي هو الصحيح ولكنه يحتمل الخطأ، ومعارضي يعتقد أن رأيه هو الصحيح ولكنه يحتمل الخطأ. هذا رأينا ومن جاء بأحسن منه قبلناه».

أرجو مخلصًا ممن يجد خطأً في معلوماتي أو تحليلاتي أن يناقشني بأسلوب متمدن يؤدي إلى دحض آرائي بالمنطق السليم، لعلنا نتوصل إلى الحقيقة وبدون اللجوء إلى الاتهامات العشوائية كـ (عميل الاستعمار) أو (الرجعي والانهزامي) الخ.... الخ من المصطلحات الغوغائية الفارغة التي كانت أحد الأسباب الأساسية التي خلخلت عراقنا الحبيب وأدت إلى تدهور جميع أركانه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

شرعتُ بتاليف هذا الكتاب استنادًا على خبرتي وخلفيتي الشخصية كالآتي:

ـ ولدتُ في محلة الفضل في بغداد في دار والدي محمد أمين زكي ابن علي آغا وأجدادي الذين سكنوا تلك الحارة منذ القدم، وكانوا ضباطًا خدموا في الجيش العثماني لعدة أجيال. وعشتُ الأحداث الكبرى التي شهدها العراق ومررتُ بمعظم التجارب التي أدّت إلى أوضاع العراق الحديث. وكان والدي مؤلف الطوبوغرافيا والجغرافيا، يمتلك واحدة من أكبر المكتبات الخاصة في العراق، وكانت تحتوي على كتب ودوريات ووثائق باللغات التركية والفرنسية والألمانية والعربية، لذا ترعرعنا نحن أولاده في جو ثقافي عميق.

ـ لم أكن قد بلغتُ السادسة من العمر في بداية صيف عام ١٩٤١ وأتذكر كالحلم الطائرات البريطانية الجبارة ذات الأجنحة السوداء والبيضاء التي اجتاحت سماء بغداد أثناء حرب رشيد عالي الكيلاني، وكان أفراد عائلتنا في فجر ذلك اليوم نائمين على سطح الدار الكبير. أيقظتنا المرحومة والدتي جميعًا وهي ترتعد خوفًا وهرعنا نازلين إلى الطابق الأرضي حيث جمعنا المرحوم والدي، الضابط والمحارب القديم الذي شارك في معارك سلمان باك والكوت أثناء الحرب العالمية الأولى، جمعنا في إحدى غرف الدار القديم، وقد ساعدت شخصيته الهادئة والمهيبة على تهدئة روعنا.

ـ كنتُ في الصف السادس في مدرسة المأمونية الابتدائية للبنين التي كانت بنايتها قرب وزارة الدفاع في محلة الميدان من شارع الرشيد، حين اندلعت مظاهرات عنيفة صاحبها دوي رصاص الرشاشات بما دعيت (الوثبة) في شهر كانون الثاني من الشتاء القارص البرد لعام ١٩٤٨، وكان مدير المدرسة الأستاذ عبد الرحمن التوتونجي رجلاً أنيقًا مهيبًا جمعنا في القاعة الخارجية من المدرسة وألغى الدروس وصرفنا ناصحًا أن نتوجه مباشرة إلى بيوتنا.

وقد كان شقيقي المرحوم المحامي خلوق أمين زكي في تلك السنة تلميذًا في كلية الحقوق وقام بدور رئيسي في قيادة تلك المظاهرات، وقد أصيب بجرح عميق في فكه جراء إصابته بحجر أثناء ما دعي (بمعركة المستشفى)

بعد أن اشتبك بعراك وصرع بلكماته أحد ضباط الشرطة وبعض الأفراد، وقد التحمت قوات الشرطة مع المتظاهرين الذين اعتصموا في المستشفى الملكي الواقع قرب باب المعظم.

ـأول مظاهرة شاركتُ فيها في حياتي كانت ما دعيت (بالانتفاضة) في عام ١٩٥٢ والتي بدأت من كلية الصيدلة ثم انتشرت واجتاحت العراق تظاهرات عنيفة سقط فيها العديد من القتلى والجرحى، وأتذكر أن أحد زملائنا وكان شابًا قوي البنية يمارس رياضة المصارعة وأتذكر اسمه الأول (نوري)، قتل شرطيًا بسكينة ومثل بجثته، فالقي القبض عليه وحوكم وأعدم داخل السجن بعد أيام قلائل.

ولما لم تتمكن قوات الشرطة من السيطرة على الأوضاع، نزل الجيش بقواته المدرعة والبنادق الرشاشة إلى الشوارع بقيادة أركان الجيش الفريق نور الدين محمود الذي أُسندت إليه رئاسة الوزارة وتمكن الجيش من كبح جماح الاضطرابات وإعادة النظام والهدوء إلى الشوارع ورجع تلاميذ الثانويات والكليات إلى صفوفهم الدراسية.

ـ أُطلقت علينا لأول مرة في تاريخ العراق قنابل الغازات المسيلة للدموع في عام ١٩٥٦ أثناء التظاهرات التي اجتاحت بغداد والعراق غداة قيام بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالهجوم على الشقيقة مصر إثر تأميم الرئيس المصري جمال عبد الناصر لقناة السويس واندلاع حرب ما دعي (العدوان الثلاثي على مصر). وقد اعتصمنا في كلية الآداب والعلوم التي كانت بنايتها بالقرب من باب المعظم، ولا أزال أتذكر شعور الحرقة التي تسببها تلك الغازات الرهيبة في جميع أنحاء الجسم، وقد تداعى بعض الفتيان والفتيات جراء تعرضهم واستنشاقهم لذلك الغاز مما حدا بي إلى إسنادهم وإنزالهم إلى الطابق الأسفل حيث كانت دورات المياه وحنفيات ماء الشرب وقد نصحنا بعض زملائنا من تلاميذ الكلية الطبية بتبليل المناديل والمسح على أنوف وشفاه الفتيان

والفتيات الذين أوشكوا على الإغماء.

ودخلت بعض قنابل الغاز إلى مختبر كلية العلوم في الطابق الثاني فاشتعلت النار في بعض المواد القابلة للاحتراق مما جعل فرق الإطفاء تأتي برفقة الجيش واندفعت المياه من خراطيم الإطفاء نحو الحريق فتجمعنا جميعًا في الطابق الأول قرب المدخل.

ولا أزال أتذكر إن ضابطًا شابًا يقارب عمرنا أراد ان يتفاوض مع المتظاهرين فاختار التلاميذ بضعة أفراد وكنت أنا من ضمنهم ونزلنا إلى الشارع وبدأ النقاش مع الضابط وكان فتى غاية في الأدب وحُسن الكلام وأخبرنا بأنه سيسمح لنا بإنهاء الاعتصام وحَلَفَ بشرفه العسكري بأنه لن يلقي القبض على أحد. وقد وفى الضابط بعهده وفسح المجال لنا فخرجنا من خلف بناية الكلية ودخلنا في حارة كانت تسمى (السور) التي تؤدي إلى حارة (المجارية)، ومنها إلى شارع الفضل، ومن ثم توجهنا إلى ساحة واسعة كانت تقع في نهاية شارع غازي (الكفاح لاحقًا)، وقبيل باب الشرقي حيث ألقى بعض قادة الجبهة الشعبية خطبًا حماسية هاجمت الحكومة العراقية وسياستها الممالئة للغرب ومُجد الرئيس جمال عبد الناصر بكونه زعيم معركة التحرر العربي وقائد الأمة العربية. ثم انفض الاجتماع وتفرق المتظاهرون.

هبت الشبيبة في جميع البلاد العربية لتأييد مصر الشقيقة والهتاف بحياة الرئيس جمال عبد الناصر وتطوع الكثير منهم بغية الالتحاق بالمقاومة الشعبية ومساعدة مصر في حربها ضد الاعتداء الثلاثي، وقد علمنا أن شقيقي خلوق أمين زكي الذي كان والدي قد بعثه إلى جامعة دمشق للحصول على شهادة القانون بعد أن فُصِل من كلية الحقوق في بغداد لنشاطه السياسي، كان من ضمن المتطوعين الذين قاتلوا في مدينة السويس وقد أصيب بشظية قنبلة جرحته في كتفه.

في صباح يوم قائض هرعتُ إلى شارع الرشيد مع مجاميع البشر الهائلة التي

نزلت إلى شوارع بغداد صباح يوم ١٤ / ٧ / ١٩٥٨ مهللين، راقصين وهاتفين يجتاحنا فرح جنوني ونحن نحتفل بشروق شمس عهد الثورة (المباركة) والقضاء على (أعتى قلعة للاستعمار الإنكلو - أمريكي) في الشرق الأوسط وسقوط (حكام العهد الملكي البائد) (الخونة وأذناب الاستعمار) وبداية العهد الجمهوري الجديد الذي سيحقق جميع الأهداف التي يطمح لها الشعب من العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر والصعود بالعراق إلى أعلى درجات التقدم والازدهار وليكون رأس رمح تطور البلاد العربية وقيادتها لتحقيق أماني الوحدة العربية الكبرى، والقضاء على إسرائيل واسترجاع فلسطين لأهلها وتعزيز كرامة ومكانة البلاد العربية إلى أعلى الحدود بين الأمم. وتشابكت الأيدي مع بعض الرجال الأكراد المرتدين الزي الكردي وتصاعدت الهتافات قائلة:

(كرد وعرب فد حزام......

وحرية عرب وأكراد حطمنا حلف بغداد)[1]

وقد رأيت بأم عيني جثة المغفور له الأمير عبد الإله الممزقة تسحل في المجاري الجانبية من شارع الرشيد وإحدى كرتي عينيه متدلية خارج محجرها وأعضاءه التناسلية مقطوعة والحبل الذي يسحل به يمر تحت إبطيه وبين فكيه المشوهين. ثم رفعت الجثة وعلق ما تبقى منها من سيـ ج حديدي كان في الطابق الثاني من عمارة كانت مقابل مدخل وزارة الدفاع الرئيسي، وكان في طابق العمارة الأرضي (مقهى الدفاع) الواسع الذي يأمه العديد من الناس يوميًا.

كذلك رأيت العديد من جثث الأموات، قسم منهم لرجال شقر أغلب الظن من الأجانب الوافدين للعمل في الشركات، وكانت تلك الجثث تسحل بالحبال ببطئ وسط الازدحام وبعض الغوغاء يطعنوها بالمدي أو يضربونها بالأحذية والنعل.

١) فد: باللهجة العراقية تعني واحد (فرد).. وحلف بغداد سيُشرح بالتفاصيل.

واستمرت الاحتفالات والمهرجانات والأفراح وكانت الآمال واسعة وضّاءة تبشر بخير عميم لكافة أبناء الشعب من جميع الطبقات. وانتشرت في جميع أنحاء العراق صور الضابطين اللذين قادا الانقلاب، العميد (الزعيم) الركن عبد الكريم قاسم ونائبه العقيد الركن عبد السلام عارف اللذين «حررا العراق من رقبة الاستعمار».

كان الاستياء المتفشي بين الناس ضد العهد الملكي مبني على عدة أسباب، قسم منها صحيحة والقسم الآخر نابع عن جهل ومبالغات الحركات المعارضة. أول هذه الأسباب هو النفوذ الإنكليزي وتدخله في شؤون العراق. فبريطانيا العظمى هي التي وحّدت الأيالات العثمانية الثلاث الموصل وبغداد والبصرة بكيان واحد دعي بالمملكة العراقية وجلبت في عام ١٩٢١ الأمير فيصل ابن الشريف حسين الهاشمي وسليل آل بيت الرسول (عليه الصلاة والسلام)، ونصبته ملكًا على عرش العراق. وقد استاء العراقيون من الإنكليز واعتبروهم قوة غاشمة استعمارية تمتص ضروع العراق الاقتصادية، خصوصًا النفط وتستعبد قادتهم.

كان لهذه الشكوى ما يبررها، ولكن العراق في بداية عهده احتاج إلى قوة عظمى تسنده وتبني مقوماته السياسية والإدارية والاقتصادية والتعليمية وغيرها من الأركان الأساسية للدولة الحديثة فضلاً عن الحفاظ عليه من جشع دول الجوار، خصوصًا إيران وتركيا اللتان ما فتئتا تطمعان بمياه وخيرات العراق. لهذه الأسباب وأخرى عديدة رضي القادة الأوائل تحت إرشاد فيصل الأول، من أمثال نوري السعيد وياسين الهاشمي وعلي جودت الأيوبي وجعفر العسكري وبقية (النخبة الكلاسيكية) الحاكمة إعطاء تنازلات مكلفة وجوهرية تمس الاستقلال لأجل إرضاء الدولة العظمى إلى حين وصول كيان العراق إلى بر الأمان. وفعلاً حقق العراق تدريجيًا خطوات واسعة وهامة نحو التحرر من هيمنة الإنكليز، كانضمامه لعصبة الأمم كدولة ذات سيادة معترف

بها دوليًا، ثم التخلص من المعاهدات الجائرة التي وُقعت في عقود العشرينيات والثلاثينيات، وإغلاق القاعدتين العسكريتين الشعيبة والحبانية، وتحرير نصف واردات العراق من جشع شركات النفط الأجنبية. على أمل أن يتحقق التأميم التام مستقبلاً وتحت الظروف المناسبة. هذا وكان رئيس الوزراء نوري السعيد والأمير عبد الإله ووزير المالية علي ممتاز الدفتري يخططون للسيطرة على ٨٠٪ من الأراضي العراقية الغنية بالنفط والتي لم يجر اكتشافها، وهو نفس القانون رقم ٨٠ الذي تبناه الزعيم عبد الكريم وأعلنه كأكبر إنجاز اقتصادي لعهد الانقلاب، بينما كان المشروع برمته على طاولة التخطيط تحت رعاية الذوات الثلاثة المذكورين أعلاه.

كان نظام الاستعمار للدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا في طريقه للانحسار بعد الحرب العالمية الثانية. فقد تحررت الهند في عام ١٩٤٧ بطريقة المقاومة السلمية بقيادة المهاتما غاندي، وبدأت عدة دول في قارة أفريقيا تتخلص من جور استعمار بريطانيا وفرنسا تدريجيًا عن طريق اللجوء إلى الأمم المتحدة ثم استحصال العضوية فيها كدول مستقلة ذات سيادة كاملة. لهذه الأسباب ولحدوث تطورات دولية أخرى كان قادة العهد الملكي يطمحون للتخلص من الهيمنة البريطانية على المدى القريب. وأكبر دليل على تقلص نفوذ الإنكليز هو استدعاء الحكومة العراقية لشركات كبرى أمريكية وألمانية وفرنسية وحتى روسية للمشاركة في مشاريع مجلس الإعمار الكبرى التي كانت قائمة على قدم وساق في جميع أنحاء البلاد وخصص لها ملايين الدولارات النفطية والتي كان يسيل لها لعاب تلك الشركات. ولم تحظَ الشركات الإنكليزية بأي امتيازات خاصة تزيد على امتيازات شركات الدول الأخرى.

إلاّ إن المعارضة السياسية من اليمين إلى اليسار اعترضوا على تعاون النخبة الكلاسيكية مع بريطانيا واعتبروا ذلك نوع من الخنوع والعمالة للاستعمار، ولم يبادر أي من قادة المعارضة سواء من اليمين القومي من أمثال مهدي

كبة وفائق السامرائي وصِدّيق شنشل، أو من عناصر اليسار ككامل الجادرجي وحسين جميل ومحمد حديد وطلعت الشيباني، لم يبادر أو يحاول أحد من أولئك السادة تفهم الاحتياجات الحيوية للعراق ولا الظروف الخطيرة التي تحيط به من الخارج ولا طبيعة العلاقات بين الأقليات القاطنة بين حدوده، بل شجبوا سياسة الدولة برمتها وجاهروا بعدائهم حتى ضد الإنجازات الكبرى التي حققها النظام الملكي أثناء السنين الست الأخيرة والتي تقرب من الإعجاز كما تبين تفاصيل مشاريع مجلس الإعمار لاحقًا.

وقد ساهم الانقلاب الذي قامت به منظمة الضباط الأحرار تحت قيادة ((البيك باشي) وهو اصطلاح تركي يلفظ بين باشي أي المقدم) المغفور له جمال عبد الناصر، ومن ثم نجاحه في طرد الإنكليز من مصر وتأميمه لقناة السويس، ساهم ذلك الانقلاب بتأجيج الحماس في العراق والمطالبة بتحقيق نفس النتائج التحررية التي حققها الرئيس جمال في مصر. وكانت إذاعة (صوت العرب من القاهرة) تبث الدعايات العدائية ضد النظام الملكي الهاشمي مما كان يحفزنا نحن الشباب على الانطلاق بتظاهرات واضطرابات تهدف لإسقاط النظام الملكي وتأسيس نظام جمهوري ثوري ينضم تحت قيادة الرئيس جمال عبد الناصر ويحقق الوحدة الكبرى مع مصر وسوريا وبقية البلاد العربية، وكانت هذه الشعارات تشعل نيران الحماس الوطني وتدفع الناس للهياج والعنف.

أما الشكوى الشعبية الثانية فكانت انحراف النظام البرلماني العراقي وعدم نزاهة انتخاب النواب.

فقد امتعضت الجهات السياسية والأنتلجنسيا من مضمون الباب الثاني من دستور ١٩٢٥ الذي أعطى الملك حقوق تتجاوز السلطات المقررة لرئيس دولة ديمقراطية، وفي عام ١٩٤٣ عُدِّل الدستور ومنح العرش (وكان آنذاك الأمير عبد الإله وصيًا على الملك الصبي فيصل الثاني ويقوم مقام الملك) حق

بإقالة رئيس الوزراء، ولم يكن هذا الحق ممنوحًا للملك سابقًا[٢].

إلاّ إن المتتبع لتاريخ العراق الحديث يدرك بأن لا الملك فيصل الأول ولا الملك غازي ولا الوصي عبد الإله استبدوا بصلاحياتهم ولم يصدروا أي قرارات فردية، ولم يستعمل أي منهم الحق في إقالة الوزارة بشكل رسمي. بينما مقارنة بالبلاد العربية الأخرى فقد أقال الملك فاروق حسب الدستور المصري وزارة مصطفى النحاس بالرغم من إن عملية العصرنة والديمقراطية كانت قد بدأت في مصر منذ القرن التاسع عشر.

أما في عام ١٩٤٣ فقد لجأ الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد إلى تعديل الدستور ومنح العرش حقوق إضافية نتيجة للاضطرابات التي اجتاحت العراق غداة وفاة الملك فيصل الأول، والتي استمرت لمدة عقد كامل من الزمن. وقد اضطر الأمير عبد الإله إلى اتخاذ مثل هذه الخطوة لأجل السيطرة على الأمن وتعزيز الاستقرار إثر الفوضى التي اكتنفت العراق بعد حرب رشيد عالي في عام ١٩٤١. هذا الإجراء ليس غريبًا على النظم الديمقراطية في الأحوال الحرجة، حتى في الدول الأوروبية المتقدمة. فقد أضطر رئيس جمهورية فرنسا الجنرال تشارلس ديغول إلى زيادة صلاحيات رئيس الجمهورية بما يزيد على صلاحيات رئيس الوزراء والبرلمان لأجل إنهاء أوضاع الاضطرابات والارتجاجات التي اجتاحت الجمهورية الفرنسية الرابعة أثناء الحرب العالمية الثانية، وباتخاذه لذلك الإجراء استطاع الجنرال ديغول بسط الاستقرار تدريجيًا وإعادة الأمان إلى فرنسا.

وفي بداية عقد الخمسينيات بدأت الحركات السياسية تتنامى وتتبلور خصوصًا بعد اندلاع التظاهرات في بعض أرجاء العراق في عام ١٩٥٢ بما دعيت (بالانتفاضة) وازدادت مطالب الجهات الوطنية للإصلاح الاجتماعي

---

٢) فائز عزيز أسعد، انحراف النظام البرلماني في العراق، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥)، صفحة ٧٥.

والسياسي وخصوصًا الاحتجاج على تدخل الدولة السافر في الانتخابات النيابية ولتزوير نتائجها مما قلل احترام الرأي العام للبرلمان ولشرعية النواب المنتخبين كما يبين التصريح الآتي لأحد الطامحين بالنيابة في انتخابات عام ١٩٥٤:

رشحت في منطقة الفلوجة عام ١٩٥٤ وقد قامت السلطات الإدارية بتوقيف المؤيدين بموجب المادة ٤٣ من نظام العشائر، وإن المتصرف (المحافظ) استدعاني وهددني أنه مستعد لتوقيف كافة أبناء الفلوجة وقال «لا تعتقد بأني أو الحكومة نسمح لغير خليل كنة وعبد العزيز عريم أن يفوز بالانتخابات»[٣].

هذه المعلومات صحيحة، وكانت هذه الممارسات غير الدستورية والمنافية لمفهوم الديمقراطية أوضح الأوجه السلبية للنظام البرلماني العراقي أثناء العهد الملكي. وقد قدمت الأحزاب والنقابات وأساتذة الكليات والجهات السياسية الأخرى العديد من المذكرات إلى الأمير عبد الإله ورؤساء الوزارات شاجبة بعنف تدخل الحكومة في الانتخابات.

وقد تقبل الأمير عبد الإله والملك فيصل الثاني وبعض رؤساء الوزراء تلك الاحتجاجات، إلاّ إنهم عللوا سلوك الدولة بأن معظم العناصر (الوطنية) التي طمحت بالنيابة لم يكونوا يطالبون بالمشاركة بالتنافس على المراكز السياسية داخل إطار النظام القائم، بل هاجموا ذلك النظام وجاهروا بعدائه وطالبوا بالإطاحة به، مما جعل السلطة التنفيذية أن تلجأ إلى تلك الأساليب العنيفة لأجل الحفاظ على كيان المملكة الهاشمية. ولم يكن هذا التعليل مقبولاً من قبل الرأي العام عهدئذٍ، ولكن كانت هذه قناعات حكام النخبة الكلاسيكية وعلى رأسهم السياسي المخضرم نوري السعيد.

---

٣) محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة، ج١ (بغداد: وزارة الدفاع، مطبعة الحكومة، ١٩٦٠)، الصفحات ٣٢٣ - ٣٢٤.

الجدير بالذكر هنا إنه في تلك المرحلة من تاريخ العراق كان ثمة رأي عام يتنامى ويزداد نفوذًا تدريجيًا ويؤثر في صناعة القرار[٤]. وكان حكم الرعيل الأول من القادة المؤسسين على وشك الانتهاء حيث كانت الطبقة الوسطى المثقفة تتوسع باضطراد، وظهرت كوادر جديدة من الشباب الذين نالوا الشهادات العالية واطلعوا على النظم البرلمانية الغربية وطمحوا بالدخول في المعترك السياسي ويحلّوا محل شيوخ العشائر الجهال، وبعد رحيل جيل السياسيين الذين ترجع جذورهم إلى العهد العثماني سواء كانوا عسكريين أو مدنيين من أمثال نوري السعيد وعلي جودت الأيوبي وتوفيق السويدي ومزاحم الباجحي. وقد كان الأمل بالتغيير الجذري البناء براقًا واضحًا وبأن التحسن لا محالة منه وكانت بعض السيدات الحاصلات على شهادات عالية بدأن بالطموح بالمساهمة في المعترك السياسي إلى جانب إخوانهن الشبان.

أما الشكوى الأخرى للجهات السياسية (التقدمية) فهي نظام ما دعي بالإقطاع وملكية الأراضي الشاسعة. ولم يكن في العراق نظام إقطاع بالمعنى المفهوم فالنظام الإقطاعي الذي ساد أوروبا كان تحت هيمنة الإقطاعيين، وكان الملك وحاشيته والوزراء هم أصحاب الأراضي والإقطاعيات الكبرى، أي إن الدولة كانت تحكم من قبل نبلاء الإقطاع. بينما في العراق لم يمتلك الملوك جميعًا سوى ممتلكات محدودة لم تزد كثيرًا عن أي ثري عراقي. ولم يمتلك معظم رؤساء الوزراء والوزراء سوى رواتبهم أو بضعة عقارات. أما من دعوا بالإقطاعيين من رؤساء العشائر وملاك الأراضي والمزارع الواسعة فقد كان معظمهم تحت هيمنة الدولة التي جلبتهم تحت حكمها عن طريق إدخالهم في المجلس النيابي كنواب وأعيان، ومن ثم جعلت أرزاقهم من ماء سقي أراضيهم تحت قرارات الدولة. ولم يهيمن الإقطاعيون مهما كانت صولتهم

٤) صبحي عبد الحميد، أسرار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق: البداية، التنظيم ـ التنفيذ ـ الانحراف (بغداد: مطبعة الأديب البغدادية، ١٩٨٣)، صفحة ٢٠.

على الدولة لأن الجيش والقوة الجوية وسلاح الدروع إضافة إلى سلك الشرطة جعلت الحكومات العراقية أقوى من العشائر مجتمعين. هذا فضلاً عن إن النظام الزراعي في العراق كان يسد كافة الحاجات التي يتطلبها الشعب بمختلف طبقاته من العليا إلى الدنيا وبأسعار جد مناسبة، وبتصدير الفائض إلى مختلف البلاد العربية وغيرها. لذلك لم يرتأي العهد الملكي التدخل في الشؤون الزراعية وتحديد سلطة الملاك خشية أن يتوقف الإنتاج وتقل وفرة الغلل الحيوية لإطعام البشر والحيوان. فشرعت الدولة بتوزيع الأراضي الأميرية على الشبان الذين يرغبون بممارسة الزراعة الحديثة وشجعتهم على منافسة أولئك الذين دعوا بالإقطاعيين.

كان أكثر ما أثار حفيظة الجهات السياسية الوطنية هو دخول العراق في حلف بغداد الذي دعي بحلف الاستعمار الإنكلو-أمريكي. وقد اجتهد بطل ذلك الحلف رئيس الوزراء نوري السعيد الذي بذل قصارى جهوده لتحقيقه بأن مصلحة العراق تقتضي الارتباط بحلف مع إيران وتركيا وباكستان مبني على التعاون العسكري والاقتصادي والاستراتيجي وبمؤازرة دول الغرب العظمى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. لذا فقد علق نوري السعيد على منتقديه بقوله «إن المعارضة يظنون أنهم أشد وطنية مني، إلاّ إنني أعتقد بأن سياستي هي الأوفر حظًا والأحسن للوصول إلى الغايات الوطنية التي ننشدها جميعًا».

ومما أجج أوار المعارضة وزاد في عنفها وحِدّتها وقوف المغفور له رئيس الجمهورية آنذاك السيد جمال عبد الناصر، الذي أضحى رمز الكفاح القومي العربي التحرري ضد سياسة الأحلاف وانتمائه إلى حركة (الحياد الإيجابي) مع رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو والرئيس اليوغسلافي جوزيف تيتو وغيرهم من شخصيات العالم الثالث.

وبعد تأميم الرئيس عبد الناصر قناة السويس في عام ١٩٥٦ ونجح بمساعدة

الرئيس الأمريكي دوايد دافيد آيزنهاور والرئيس السوفياتي نبكيتا خرونشيف في صد العدوان الذي شنته فرنسا وإنكلترا وإسرائيل على مصر، أصبح الرئيس عبد الناصر بشبابه الغض (٣٨ عامًا) وقامته الفارعة يمثل الفارس العربي والبطل المحرر الذي تاقت له البلاد العربية لعدة قرون. وحين أعلن عبد الناصر أهدافه في تحقيق الوحدة العربية الكبرى لم يبق لدى الرأي العام العربي أدنى شك بأنه الزعيم المنتظر لتحقيق جميع طموحات البلاد العربية. ولم يختلف موقف المعارضة في العراق بجميع الأحزاب من اليمين إلى اليسار عن ذلك الموقف وخرجنا بمظاهرات صاخبة نطالب بتأييد سياسة الرئيس جمال وسقوط حلف بغداد وسقوط النظام الملكي والعائلة الهاشمية.

غير أن النخبة الكلاسيكية وعلى رأسها السياسي المخضرم نوري السعيد والأمير عبد الإله (ولي العهد) والملك فيصل الثاني اجتهدوا بأن مصلحة العراق تقتضي البقاء في حلف بغداد لأسباب استراتيجية واقتصادية وحضارية. فقد أمن الحلف للعراق حدوده مع دولتين مجاورتين قويتين طامعتين بخيراته وهما إيران وتركيا، وعزز سبل التعاون العسكري وأزال احتمالات الخلاف معهما. كذلك ازدادت فرص التعاون الاقتصادي بين الدول الثلاث، فالأنهار والروافد العراقية العديدة والغزيرة معظمها تنبع من تركيا وإيران، مما يجب أخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار، وقد خطط الحلف لتعزيز وتصعيد التعاون الزراعي والتجاري لدول الحلف. هذا فضلاً عن إن الأضرحة الإسلامية المقدسة من قبل سكان الدولتين من الأتراك والإيرانيين، جميعها تقع داخل حدود العراق وتستجلب الزوار من تلك البلدان مما يزيد التفاهم والتفاعل الحضاري بين شعوب المنطقة.

لهذه الأسباب وللحاجة إلى دعم دول عظمى مثل إنكلترا وأمريكا، أصرت الحكومة العراقية على التمسك والبقاء في الحلف رغم معارضة الأكثرية الشعبية الساحقة، واعتبرت تلك المعارضة مبنية على شعارات عشوائية وعاطفية لم

تدرك مصلحة العراق.

خلاصة القول أن معظم الأوجه السلبية للعهد الملكي والتي اشتكت منها المعارضة كانت على وشك الزوال. وكانت أوضاع العراق العامة تبشر بالتطور السريع وبصعوده بخطوات واضحة المعالم نحو الازدهار الاقتصادي والحضاري العام بقيادة النخبة الكلاسيكية الحاكمة حين وقع انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ الذي أجهض جميع تلك التوقعات العملية الواعدة، وانهارت أركان الصرح الذي بناه المغفور له الملك فيصل الأول وحاشيته حيث وقع العراق تحت حكم قادة مستبدين، وتهاوى الاقتصاد وانحدر الجيش وانحط مستوى التعليم وتلاشى دور القانون والمحاكم، وقُتلت الممارسات الديمقراطية القليلة والأولية التي توفرت في العهد الملكي واندفع العراق نحو أعماق الهاوية كما تبين فصول هذا السفر.

المؤلف

المأمون

الفصل الأول

ولادة الدولة العراقية

في بداية الحرب العالمية الأولى بدأ الجيش البريطاني اجتياح بلاد الرافدين، وفي عام ١٩١٧ سقطت العاصمة بغداد على يد الجنرال مود. وفي شهر تشرين الأول / أكتوبر / ١٩٢٠، تعين السير برسي كوكس (Sir Percey cox) مندوبًا ساميًا، وأخذ على عاتقه تأسيس دولة باسم (المملكة العراقية) تحت الانتداب البريطاني.

قوبل قرار الانتداب بالرفض من قبل معظم السكان لتنصل بريطانيا عن وعودها السابقة للقادة العرب بمساعدتهم على خلق دولة مستقلة كاملة السيادة، فانفجرت ثورة عارمة في معظم أنحاء البلاد في عام ١٩٢٠ دعيت تاريخيًا (بثورة العشرين) ضد الانتداب إلاّ أن الجيش البريطاني تمكن من سحق الثورة، ومضت السلطات البريطانية قدمًا في خطتها لتأسيس المملكة العراقية حسبما تقتضيه مصالحها كدولة استعمارية عظمى.

في تلك الأثناء كان ثمة عدة مرشحين لعرش العراق وكان أكثرهم بروزًا هم: الأمير فيصل ابن الشريف حسين وشقيقه الأمير عبد الله، والسيد طالب النقيب، وعبد الرحمن النقيب وعبد العزيز آل سعود، والفريق الركن هادي باشا العمري الذي شغل مركز رئيس أركان الجيش العثماني، وينتمي إلى عائلة العمري العربية العريقة والقاطنة في لواء الموصل منذ قرون. إلا أن السير برسي كوكس قرر بأن الأمير فيصل كان الأوفر حظًا والأكثر شعبية بين سكان

العراق لكونه هاشميًا، ومن سبط الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام)، وهو يحظى بتأييد بريطانيا العظمى.

وفي ١٢/آذار/مارس/١٩٢١ انعقد مؤتمر القاهرة تحت رئاسة السير ونستون تشرشل، واتخذ المؤتمر قرارًا بتأسيس مملكة عربية في العراق، وأن يكون فيصل ابن الحسين ملكًا لها، وستكون المملكة الجديدة دستورية ديمقراطية. فهللت الصحف المحلية وأعلنت بأن ذلك الابن الملكي قد ترك الحجاز متوجهًا إلى العراق.

وقد أصر فيصل بأنه لن يستلم العرش إلا بعد أن يحظى بتأييد أكثرية سكان العراق، فلذلك ولأول مرة في تاريخ العراق أجري استفتاء لانتخاب حاكمه. وقد كتب المندوب السامي السير برسي كوكس الرسالة الآتية يصف فيها إجراءات الانتخاب الملكي(١):

في تاريخ ١٩/آب/أغسطس/١٩٢١ بعث المندوب السامي في بلاد الرافدين تلغرافًا إلى وزير المستعمرات مفاده:

استلم في دائرة المستعمرات الساعة ٤:٢٤ ب.ط ١٩/آب/أغسطس/١٩٢١. تشير نتائج الاستفتاء الذي أجري في العراق لتحقيق رغبة الشعب العراقي، بأن الأكثرية تؤيد فيصل، فلقد ساهم ما لا يقل عن مليون شخص في الانتخابات، وهذا الرقم يمثل ٩٦٪ من الناخبين الذين ايدوا فيصل بينما كانت نسبة المعارضين ٤٪، وقد تقرر تاريخ تتويج فيصل في اليوم الثاني والعشرين من أغسطس. الرسالة موجهة على وزير الخارجية دائرة المستعمرات ٤٠٩، ونسخة منه إلى القاهرة. القسطنطينية. أورشاليم (القدس). دمشق. جدة ٢١٣٠. طهران ٢٢٢. (مترجم حرفيًا).

وهكذا بدأ عهد ما دعوتهُ حكم «النخبة الكلاسيكية» أو قيادة القومية المحافظة التي اتسمت بانتهاج طريق التعقل والواقعية في التعامل مع الدولة

(١) Government of Great Britain, Intelligence Reports of Sir Percy Cox

العظمى بريطانيا. وقد اختار المؤلف اسم النخبة الكلاسيكية لأن الملك فيصل وحاشيته من القادة العراقيين الأوائل قرروا أن يخلقوا مملكة دستورية ديمقراطية برلمانية على غرار الممالك الدستورية الأوروبية الكلاسيكية، وقد دام ذلك النظام في العراق لمدة ٣٧ سنة، وانتهى بانقلاب عسكري عام ١٩٥٨. وتبين القائمة الآتية أسماء عناصر النخبة الكلاسيكية الذين حكموا العراق منذ تأسيسه في عام ١٩٢١ وحتى سقوط النظام الملكي في عهد الملك فيصل الثاني عام [٢]١٩٥٨.

الاسم	المناصب التي تقلدها	الفترة الزمنية
جعفر العسكري	عسكري، وزير، دبلوماسي، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٣٦
ياسين الهاشمي	رئيس وزراء، وزير، عضو البرلمان	١٩٢١ - ١٩٣٦
نوري السعيد	عسكري، وزير، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨
طه الهاشمي	عسكري، وزير، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨
جميل المدفعي	وزير، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨
عبد الوهاب مرجان	وزير، رئيس مجلس النواب، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٢٨
ساسون حزقيل (يهودي)	وزير، عضو البرلمان	١٩٢١ - ١٩٢٥
توفيق السويدي	وزير، دبلوماسي، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨
علي جودت الأيوبي	وزير، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨
ناجي شوكت	وزير، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٤١
مزاحم أمين الباجهجي	وزير، دبلوماسي، رئيس وزراء	١٩٢١ - ١٩٥٨

٢) أنظر علاء جاسم محمد الحربي رجال العراق الملكي (لندن: دار الحكمة ٢٠٠٤).

رشيد عالي الكيلاني	وزير، رئيس وزراء	١٩٢١-١٩٤١
صالح جبر	وزير، رئيس وزراء	١٩٣٨-١٩٥٦
الدكتور محمد فاضل الجمالي	وزير، دبلوماسي، رئيس وزراء	١٩٤٦-١٩٥٨
عبد الله الدملوجي	دبلوماسي، وزير	١٩٢٥-١٩٥٨
أحمد مختار بابان	وزير، رئيس وزراء	١٩٤٨-١٩٥٨
ساطع الحصري (سوري)	مدير عام، وكيل وزارة	١٩٢١-١٩٤١
نصرت الفارسي	وزير ودبلوماسي	١٩٣٥-١٩٥٨
رستم حيدر (سوري)	وزير	١٩٢١-١٩٤٠
صبيح نجيب	عسكري، دبلوماسي، وزير	١٩٢١-١٩٣٨
تحسين علي	وزير، عضو البرلمان	١٩٢١-١٩٤٦
سعيد القزاز	متصرف (محافظ)، وزير	١٩٥٢-١٩٥٨
خليل كنة	وزير، عضو البرلمان	١٩٥٠-١٩٥٨
صالح صائب الجبوري	عسكري، وزير	-١٩٥٨

وهناك أسماء ذوات آخرون مما لا يتسع المجال لذكرهم ممن ساهموا ببناء المملكة.

حين ولدت المملكة العراقية كانت هنالك فوارق ذهنية عميقة بين النخبة الحاكمة والجماهير. فالأكثرية الساحقة كانوا يعتبرون أنفسهم مسلمون عثمانيون لفترة طويلة بعد سقوط الدولة العثمانية. وقد كان السبب الأساس لقبولهم فيصل ملكًا لهم هو خلفيته العائلية لكونه من آل البيت. وقد توقع الكثير من العراقيين أن يقوم فيصل بتأسيس نظام حكم ديني يشابه الدولة

العثمانية الإسلامية كما إن العديد من الناس كانوا بانتظار رجوع العثمانيين للتعاون مع فيصل[٣].

إلاّ أن القيادة العراقية الجديدة آمنت بأفكار أخرى مبنية على الفكرة القومية الحديثة بدلاً من الهوية الدينية التقليدية. فقد اعتبروا العراق كدولة قومية تنتمي إلى العالم العربي، وخففوا التأكيد على الانتماء الديني. إلاّ أن الفرد العراقي لم يتخلص من انتمائه الديني حتى عقد الثلاثينيات، وكان ذلك التغيير في الذهنية نتيجة تبني القيادة الجديدة مناهج تدريسية حديثة بدلاً من تأكيدها على الدين[٤].

وقد كانت الخطوط الأساسية لنظام الحكم العراقي الجديد مبنية على تقاليد عربية إلا أن بنية المملكة ومجلس الوزراء والبرلمان والنظام الإداري جُعِلَتْ مشابهة لنظام دولة بريطانيا. لذلك فإن العديد من المؤسسات السياسية والإدارية والاجتماعية التي بقيت سائدة في العراق منذ القرون الوسطى بدأت تتداعى وحلت محلها ما يعتبر مؤسسات عصرية مستمدة من ممالك دول الغرب. لذا فإن شرائح الشعب العراقي التي بقيت محتفظة بالعقلية العثمانية القروسطية بدأت مباشرة بعد ولادة النظام الملكي تشهد التغييرات الجذرية الآتية:

١ ـ لقب خليفة المسلمين وأمير المؤمنين الذي اكتسبه سلاطين آل عثمان منذ محمد الفاتح عام ١٤٣٠م أُبدل إلى لقب ملك دستوري أسوة بملوك أحدث دول أوروبا.

٢ ـ كان مركز الخلافة يحتوي على السلطات الروحية والسياسية والدينية والعسكرية، وقد أطلق السلطان عبد الحميد الثاني على نفسه لقب ظِلُ الله

٣) علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١) صفحة ٣٥٩.

٤) أبو خلدون ساطع الحصري، مذكراتي في العراق (بيروت: دار الطليعة ١٩٦٧) الصفحات ٢٤٥-٢٤٦.

على الأرض. بالمقارنة لم يتسنم الملك فيصل أي سلطات دينية أو روحانية بل أعلن نفسه ملكًا علمانيًا سلطاته محددة بقوانين ودستور، بالرغم من إنه ينتمي إلى آل بيت الرسول محمد (علية الصلاة والسلام).

٣ ـ كان أهم ما امتاز به النظام العراقي الجديد هو حكم القيادة الجماعية، ولم يستبد طوال العهد الملكي فرد واحد في الحكم. فقد استشار الملك فيصل الأول أفراد النخبة الحاكمة (النخبة الكلاسيكية) واستمع إلى آرائهم حتى في المسائل الحيوية المتعلقة بشؤون الدولة. وقد بقي النظام الملكي مبنيًا على القيادة الجماعية ولم يستبد بالحكم لا الملك غازي، ولا الأمير عبد الإله الوصي، ولا الملك فيصل الثاني، بل استمروا على نهج سياسة فيصل الأول.

بينما انفرد سلاطين آل عثمان بصناعة القرار وإصدار القوانين عن طريق (الفرمان السلطاني). لذلك كانت سياسات العهد الملكي مبنية على التمحيص وأكثر عقلانية، وأقرب إلى ممارسات الدولة الحديثة.

أما بعد انقلاب ١٩٥٨ فقد انفرد الزعيم عبد الكريم قاسم، قائد الانقلاب، بالحكم وإصدار القرار بعد أن أعطاه الشارع العراقي لقب (الزعيم الأوحد). كذلك وبعد أن سيطر الرئيس صدام حسين على الحكم أصبحت جميع مقدرات العراق الداخلية والخارجية والمالية بيده يتصرف بها حسبما يشاء، وأطلق صدام شعار (إذا قال صدام، قال العراق)، وأجبر الشعب العراقي برمته على تبني ذلك الشعار وكل من عارضه عوقب بالموت الزؤام.

٤ ـ كانت الموارد الاقتصادية للامبراطورية العثمانية تعتبر ملكًا صرفًا للسلطان ومن فضله يوزعها على مؤسسات ومقتضيات الدولة حسب إرادته مثلما كانت الأوضاع المالية في الامبراطوريات القديمة. بينما تأسست منذ بداية حكم فيصل الأول سياسة مالية خضع لها الملك حيث عُين له راتب معين ومخصصات وكذلك للوزراء وأعضاء الدولة الكبار نزولاً إلى أصغر موظف. أي أن الملك لم يملك القرار في إدارة شؤون الدولة المالية، بل أخذت الدولة

العراقية على عاتقها تصريف الشؤون المالية عن طريق الوزارت المتخصصة. بينما بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ أصبحت واردات الدولة تُدار عشوائيًا حسب إدارة الأفراد الذين حكموا العراق.

٥ ـ طول تاريخ الحكم العثماني مارس منصب شيخ الإسلام دورًا غاية في الأهمية في تطبيق القوانين استنادًا على تفسير القرآن والسنة النبوية الشريفة، وبكونه أعلى مرجعية دينية بعد السلطان لذلك كانت المحاكم تلتمس آرائه المستمدة من الشريعة الإسلامية للتوصل إلى إصدار الأحكام. وفي بعض الحالات النادرة التي اقتضت إزاحة السلطان عن العرش بسبب عدم كفاءته أو إذا ثبت انحرافه عن تعاليم الدين الحنيف أو ممارسة الكبائر التي تتعارض مع الشريعة، فقد كانت فتوى شيخ الإسلام شرطًا أساسيًا لإزاحة ذلك السلطان. وقد استحصلت فتوات من دائرة شيخ الإسلام لإزاحة السلطان سليم الثالث (١٨٠٧) بعد ان اتهم بتقليد الحضارة الغربية، وقد اعتبر علماء الدين هذا السلوك انحرافًا عن الدين[٥]. هذا وقد صدرت فتاوى شيوخ الإسلام لإزاحة السلطان عبد العزيز (١٨٧٦)[٦]، والسلطان مراد الخامس (١٨٧٦) وأخيرًا السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، وهو الرجل المؤمن الذي أطلق صرخته (يا مسلمو العالم اتحدوا ضد عالم الكفار). ولم يستطع القادة العلمانيون الذين استلموا الحكم من إزاحته إلا بعد أن أجبروا شيخ الإسلام على إصدار فتوى بذلك مخافة حصول هياج بين الجماهير. إلا إن القادة الجدد استحصلوا تلك الفتوى عن طريق تهديد شيخ الإسلام ما أكسب ذلك القرار صفة الشرعية أمام الشعب.

أما في العراق الحديث، وتحت حكم فيصل والنخبة الكلاسيكية فلم

---

٥) Zein N. Zein. The Struggle for Arab Independence (Beirut: Khayats, 1960) P.10

٦) Ibid

يؤسس مركزًا أو دائرة لشيخ الإسلام أو لأي سلطة دينية مشابهة وتمارس دورًا في إدارة الدولة.

٦ ـ منصب الصدر الأعظم بُدل إلى لقب رئيس الوزراء أسوة بالدول الحديثة.

٧ ـ كان لسلاطين آل عثمان جناح في بلاطهم أو قصورهم مخصص للحريم أو ما يدعى نساء السلطان الذي يضم زوجاته ومحظياته، حسب فكرة ما ملكت الأيمان. وكان المسؤول عن قسم الحريم يلقب (حريم أغاسي) أي رئيس الحريم، وهو أيضًا رئيس الخصيان. والخصيان هم رجال استؤصلت رجولتهم بعد قطع خصاهم أثناء ما كانوا غلمانًا فأصبحوا رجالاً بدون رجولة. وقد كانت هذه الممارسة تجري لأجل الحفاظ على النساء لذلك فقد استلم أولئك الخصيان واجبات حراسة النساء وجناح الحريم وحتى حماماتهن. وقد استطاع بعض الخصيان أن يقتربوا من السلطان وحصلوا على مراكز عالية نسبيًا. كذلك فإن بعض الجواري والمحظيات اللواتي تمتعن بجمال باهر استغللن تعلق السلطان ورجال الدولة بهن فأصبحن ذوات نفوذ في المجتمع.

بالمقارنة لم يمتلك الملك فيصل حريمًا ولا جناحًا للحريم والخصيان، ولم يتزوج بسوى زوجة واحدة (السيدة حزيمة). وباكتفائه بزوجة واحدة بالرغم من إنه كان في ميعة الشباب، فقد ضرب الملك نموذجًا فذًا للعائلة الحديثة، وقد حذا القادة العراقيين حذو الملك باكتفائهم بزوجة واحدة بينما بقي تقليد تعدد الزوجات ممارسًا في عدة دول أخرى.

٨ ـ كان من أهم أوجه التحديث والعصرنة التي شهدها العراقيون مباشرة بعد زوال الحكم العثماني هو تبني النظام الإداري المبني على ما يدعى في علم الإدارة بنظام الاستحقاق (The Merit system) الذي يستند على التعليم والتعيين في الوظائف والترفيع أو الفصل حسب كفاءة الفرد فقط بغض النظر عن الخلفية العائلية أو الطبقة الاجتماعية أو الجنس أو العرق أو الانتماء الديني.

ففي العهد العثماني وإلى حد القرن التاسع عشر كانت العوائل الغنية في جميع أنحاء الامبراطورية تستنكف من التعليم وتعتبره وسيلة للطبقات الأقل مكانة للحصول على وظيفة حكومية يعتاشون بها بينما أبناء الطبقة العليا يعتمدون على واردات أراضيهم الواسعة وما يجنيه لهم فلاحيهم من تلك الأملاك. إلاّ إنه وقبل نهاية القرن التاسع ونتيجة الاختلاط بالمجتمعات الأوروبية أصبح التعليم العالي مصدر فخر للعوائل الراقية وأخذ الشبان يطمحون بالدراسة في الدول الأوروبية فأصبحوا مهندسين وأطباء وأساتذة ومحامين(٧)، بينما بقيت الطبقات الفقيرة تتمرغ في جهل وتخلف مظلم وإملاق مدقع.

أما النساء والفتيات فقد كنّ محرومات بشكل يكاد يكون مطلق من الحصول على التعليم أو ممارسة الأعمال وكان جل ما يطمحن به هو الدخول في الكتاتيب (الملالي) الدينية المخصصة للبنات لأجل حفظ القرآن الكريم، ومن ثم يفترض بهن أن يقرن في بيوتهن منتظرات من يتقدم لطلب أيديهن من ذويهن للزواج.

وأضرب هنا مثلاً عائلتنا، فقد كان أفراد أسرة والدتي المرحومة الحاجة فوزية ابنة المرحوم الحاج محمد صالح (بيك) الهرمزي جميعًا من رجال القانون وكان والدها مدعيًا عامًا مما أهله على الحصول على لقب البكوية من السلطان، وكذلك كان جميع أولاده الذكور حاصلين على شهادات في القانون. وقد أخبرتنا والدتي بأن والدها (جدي) كان قد نُقل من أيالة الموصل إلى أيالة بغداد في عام ١٩٠٥ حينما كانت طفلة وقد وضعوها هي وشقيقتها التوأم في جهة الهودج على ظهر البعير ووضعوا أختهما التي تكبرهما بخمسة سنوات في الجهة الثانية من الهودج لأجل الموازنة، ووصلوا إلى بغداد بعد أن استغرقت السفرة عدة اسابيع حيث أدخل الأب والدتي في إحدى الكتاتيب

(٧ Sydney N. Fisher, The Middle East: A History, 4 edit (New York: McGraw – Hill ,Inc. 1990) P.350

في بغداد، وهنا لاحظ الأب أن ابنته فوزية قد ختمت القرآن وأظهرت ذكاءً فطريًا واضحًا في تعلم اللغتين العربية والتركية مما حدا به أن يدخلها المدرسة الابتدائية للبنات حيث استمر تفوقها على زميلاتها الصغيرات. وبعد عامين قرر الوالد أن تكتفي البنت بما حصلته من التعليم وتبقى في البيت أسوة ببقية العوائل المحافظة بالرغم من رغبتها الشديدة لمواصلة دراستها. لذلك فإن شقيقها الأكبر رفعت (بيك) الهرمزي الذي يكبرها بما يزيد على العشرين عامًا والذي كان يشغل وظيفة قائمقام (ترفع بعدئذ إلى متصرف (محافظ) فحصل على لقب البكوية أسوة بوالده) هب لمساعدة شقيقته الصغرى وهرع إلى والده وقبل يديه ضارعًا أن يسمح للبنت الحادة الذكاء للاستمرار في تعليمها الابتدائي. وبالفعل تعلمت والدتي مبادئ الحساب والتاريخ والجغرافيا واللغتين العربية والتركية، وقد كان ذلك نادرًا بين بنات جيلها وكان معظم معلماتها من الشابات اليهوديات والمسيحيات. غير أنها قطعت دراستها وتزوجت وأنجبت أطفالاً حسبما تقتضيه تقاليد تلك الفترة الزمنية. وبطبيعة الحال لم تتمكن والدتي من استغلال تعليمها للحصول على عمل أو وظيفة لأن ذلك لم يكن مقبولاً اجتماعيًا ولم يفدها تعليمها بسوى مساعدة والدي لتعليمنا نحن أبناءها في واجب المدرسة[٨].

أما في العهد الجديد وبعد زوال الحكم العثماني فقد شهد العراقيون انفتاحًا واسعًا في مجالات التعليم والوظائف ففي خلال السنوات الأولى تضاعف عدد الخريجين وتمكن العديد من الشباب من الجنسين من المسلمين واليهود والنصارى والأكراد وجميع الشرائح الاجتماعية من الانخراط في سلك التعليم والحصول على البعثات الدراسية في الخارج أو الدخول في وظائف الدولة. وكان من أوضح دلائل الأفكار العصرية للملك فيصل وأفراد النخبة الكلاسيكية من أمثال ياسين (باشا) الهاشمي وجعفر (باشا)

---

٨) من أرشيف العائلة.

العسكري وساطع الحصري وغيرهم هو تثبيت نظام الرواتب المتساوية للذكور والإناث ولجميع الذين يمتلكون المؤهلات المتساوية حسب نظام الاستحقاق المذكور سابقًا. ومن الجدير بالذكر بأن مساواة رواتب الذكور والإناث والسود والبيض لم تمارس حتى في أمريكا إلى نهاية القرن العشرين وبعد احتجاجات واعتصامات عنيفة قامت بها النساء بقيادة (غلوريا ستاينم) والدكتور القس (مارتن لوثر كنغ) الذي تزعم حركة الحقوق المدنية (Civil Right Movement) في أمريكا ودفع حياته ثمنًا لذلك.

ارتبط النظام الإداري للدولة العراقية والجيش والمؤسسات الفنية بنظام التعليم، فخريجو الجامعات كانوا سداة تلك المؤسسات. وقد بدأت جهود تعصير النظام التدريسي منذ عقد العشرينيات وبداية الثلاثينيات حيث استعان فيصل ومن جاء بعده من النخبة الكلاسيكية برهط من المربين الأكفاء أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأساتذة: ساطع الحصري، وطه الراوي، ومحمد أمين زكي علي، وفهمي المدرس، والدكتور محمد فاضل الجمالي، وعلي مظلوم وغيرهم ممن استماتوا في بناء المدارس في بعض أنحاء العراق وخططوا المناهج الحديثة وألفوا الكتب والأطالس والخرائط حسبما تتحمله ميزانية الدولة المحدودة آنئذٍ.

وقد استمر النظام الدراسي بالتطور والتقدم بجميع مراحله وأصبحت الدراسية العراقية معترف بها في أوروبا وامريكا ومعظم أنحاء العالم.

الخطوط الأساسية للدولة العراقية الحديثة
تحت حكم الملك فيصل الأول

بعد زوال حكم الأتراك وبعد أن أخمدت السلطات البريطانية الثورة العراقية ضد الانتداب في عام ١٩٢٠، كانت الخطوط الأولى التي اتخذت هي إقامة حكومة مؤقتة في شهر تشرين ألول / أكتوبر / ١٩٢٠ برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشراف بغداد كتوطئة لتأسيس نظام الحكم الدائم. وبعد انتخاب أكثرية الشعب فيصل ابن الحسين ملكًا على العراق وعلى رأس النخبة الكلاسيكية الحاكمة، شرعت القيادة الجديدة بإزالة المؤسسات العثمانية القروسطية المذكورة أعلاه وبدأ العراق يشهد مخاض ولادة المقومات الأساسية للدولة الحديثة وفي إرساء وتركيز وتطوير تلك المؤسسات الجديدة تدريجيًا. وقد استمرت تلك التطورات بالنمو رغم الاهتزازات العنيفة التي عانى منها العراق بعد اختفاء شخصية الملك فيصل الكارزمية عن المسرح السياسي بوفاته عام ١٩٣٣ والخلافات التي شبت بين عناصر النخبة الحاكمة والجيش، تلك الخلافات التي دفعت العراق إلى أتون حرب غير متكافئة ضد بريطانيا سنة ١٩٤١ والنهاية المفجعة التي أدّت إلى دخول العراق تحت الاحتلال البريطاني المباشر.

كانت أولى تلك المقومات هي إعلان العراق ملكية دستورية، وما تبع ذلك من تقنين وتحديد وظائف السلطات الثلاث القضائية والتنفيذية والتشريعية وتحديد سلطات الملك، فضلاً عن تخطيط نظام إداري جديد للألوية (المحافظات) ولدوائر الدولة. وقد أعلن فيصل كونه ملكًا سلطاته محدودة بدستور، ثم استعان بجهود كبار رجال القانون العراقيين والأجانب، وقد تكللت تلك الجهود بتشريع أول دستور عراقي في عام ١٩٢٥ الذي تضمن بنودًا مستمدة من دساتير ممالك أوروبا الحديثة.

ولا يمكن الإحاطة بخصائص العهد الملكي بدون شرح ولو بنبذة قصيرة

لأسس ذلك النظام الذي انبثق من أول دستور أمرر في عام ١٩٢٥ والظروف التي أحاطت بذلك الحدث.

أنيطت مناقشة وكتابة مسودة القانون الأساسي العراقي بلجنتين: لجنة بريطانية، وأخرى عراقية وكان أعضاء اللجنة البريطانية هم (Major W. G. Young) (الرائد و. ج. يونغ) و(M. E. Drower) م. ي. دروير و(Sir Percy Cox) السير برسي كوكس المندوب السامي في العراق. وقد استندت اللجنة البريطانية على دساتير النمسا ونيوزيلاند وبعض الممالك الديمقراطية الصغيرة التي يضاهي حجمها المملكة العراقية لرسم الخطوط الأساسية للدستور العراقي[٩].

وقد أنفذ الملك فيصل تلك المسودة إلى اللجنة العراقية المكونة من ناجي السويدي (وزير العدل) وساسون حزقيل (وزير المالية) ورستم حيدر (سكرتير الملك) وهم من كبار رجال القانون لأجل الاطلاع عليها وإبداء آرائهم. وقد رفضت اللجنة العراقية تلك المسودة مباشرة لسببين: الأول أنها تمنح العرش سلطات أكثر مما تقتضيه مصلحة الدولة، والثاني أن الدستور لم يأخذ بنظر الاعتبار خصائص الثقافة العراقية ومصلحة الشعب. لذا فقد قامت اللجنة العراقية بتحرير مسودة دستور جديدة أرسلت إلى دائرة المستعمرات في لندن مما أدّى إلى نقاشات مطولة بين الطرفين.

وقد استندت اللجنة العراقية على مبادئ حقوق الإنسان المستمدة من افكار الثورة الفرنسية إضافة إلى إدراج بعض المبادئ الواردة في دساتير بعض الدول العربية والإسلامية كإيران وتركيا ومصر. أخيرًا مزجت المسودتان بلائحة جديدة مرضية للطرفين العراقي والبريطاني، وفي خريف عام ١٩٢٣ انتهت المناقشات بإتمام كتابة مسودة القانون الأساسي والتي أصبحت أساس

---

٩) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث (صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٧٥) صفحة ٢٠٥.

الدستور العراقي الجديد . وبالرغم من إن الدستور لم يحقق الاستقلال التام من بريطانيا، إلاّ أن المناقشات دلت بوضوح على الأطلاع الواسع والكفاءة القانونية للفريق العراقي الذي استطاع أن يستخلص من الدولة العظمى المهيمنة أكثر ما يمكن استخلاصه لحماية مصالح المملكة الوليدة والشعب العراقي .

كان إعلان الدستور يقتضي الحصول على موافقة المجلس التأسيسي والذي لم يكن قد شُكل. لذا فقد صدرت إرادة ملكية لانتقاء أعضاء المجلس التأسيسي واجتماعه في يوم ٢٤ /تشرين الثاني/أكتوبر/١٩٢٢ إلا إن الخلافات التي اندلعت بين رؤساء العشائر وممثلي الأقليات المختلفة أخرت تأليف المجلس ولم يكتمل ذلك إلا في ٢٢ /شباط/فبراير/١٩٢٤ وبعدها صدرت موافقة المجلس في يوم ١٠ حزيران/يونيو/١٩٢٤ على الدستور وأصبح نافذًا في يوم ٢٧ /آذار/مارس/١٩٢٥ بعد أن وقِعَ وأعلن من قبل الملك فيصل[١٠].

وقد انتقى المؤلف بنودًا أو موادًا معينة من الدستور العراقي الأول لأجل اطلاع القارئ على القواعد الأساسية للنظام الملكي الذي استمر من عام ١٩٢١ إلى الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ ولإبراز أوجه العصرنة التي حققها ذلك النظام .

القسم الأول : حقوق الشعب

تحدد المواد ٥ إلى ١٨ من الدستور حقوق الشعب وقد اختيرت المواد ٦ و٧ و٨ و١٠ نظرًا لعلاقتها بهذه الدراسة .

المادة ٦ : سوف لن تمارس أي تفرقة أمام القانون بين الشعب العراقي استنادًا على العرق أو الدين أو اللغة .

المادة ٧ : الحرية الفردية محفوظة ضد أي مخالفات . يمنع إلقاء القبض أو

١٠) الحكومة العراقية القانون الأساسي العراقي (بغداد : مطبعة دار السلام ١٩٢٢) .

اعتقال أو عقاب أو الإجبار على تبديل المساكن أو فرض الخدمة العسكرية إلا استنادًا على القانون. التعذيب والنفي خارج المملكة ممنوعان منعًا باتًا.

المادة ٨: المساكن ودور الإقامة مصانة من الانتهاك والدخول غير المشروع فيها إلاّ في ظروف معينة وبالوسائل القانونية.

المادة ١٠: الملكية الفردية محمية بالقانون. تحديدًا وضع اليد على الملكية ممنوع إلا حسب القانون. السُخرة (الإجبار على العمل بدون اجور) ومصادرة الملكية ممنوعة منعًا باتًا. لا يسمح بمصادرة الأملاك بدون تعويضات إلاّ للمصلحة العامة. أي إن مصادرة الملكية يجب أن تكون مبنية على ظروف معينة تجرى حسب المواد القانونية.

المادة ١٢: للشعب حرية الكلام والصحافة والاجتماعات والدخول في الجمعيات داخل حدود القانون.

القسم الثاني: الملك

المادة ١٩: السيادة هي ملك الشعب وهي وديعة موثقة من لدن الشعب للملك فيصل ابن الحسين ولورثته من بعده.

المادة ٢١: بعد اعتلائه العرش يأخذ الملك القسم أن يحافظ على الدستور وعلى استقلال البلاد وأن يخدم الأمة.

المادة ٢٥: الملك مصوون وغير مسؤول.

المادة ٢٦: الملك هو رئيس الدولة الأعلى. فهو يوافق على القوانين ويأم بإعلانها ثم يشرف على تنفيذها. الملك يصدر الأوامر لإجراء الانتخابات لمجلس النواب ولافتتاح البرلمان. الملك يفتح ويغلق ويؤجل ويحل البرلمان استنادًا على المواد القانونية.

للملك أن ينتقي رئيس الوزراء، وحسب توصية رئيس الوزراء يعين الوزراء ويقبل استقالتهم. ويحق للملك تعيين الأعيان وقبول استقالتهم.

الملك هو القائد العام للقوات المسلحة. له حق إعلان الحرب بعد الحصول على موافقة مجلس الوزراء. للملك الحق أن يتفاوض على المعاهدات ولكن لا يحق له ان يوقعها إلاّ بعد الحصول على موافقة البرلمان.

يمارس الملك صلاحياته عن طريق الإرادة الملكية. وتصدر هذه الإرادات الملكية بعد طلب من رئيس الوزراء أو الوزير المسؤول وبعد الحصول على تواقيعهم.

البرلمان: إن السلطة التشريعية في العراق هي بمثابة مشاركة بين البرلمان والملك. ويتكون البرلمان من مجلسين هما مجلس النواب ومجلس الأعيان. إن للملك الحق أن يفتتح البرلمان شخصيًا بخطاب، أو ينيب عنه رئيس الوزراء أو أي وزير لأجل أن يوجه الخطاب ولإلقاء كلمة الافتتاح من العرش.

لا يقل عمر عضو مجلس النواب عن الثلاثين عامًا ولا يقل عمر العين عن الأربعين عامًا. الأعيان يعينون من قبل الملك من بين الأشخاص ذوي السلوك الجيد والذين حازوا على ثقة الشعب ومن الذين قدموا خدمات جليلة للدولة والأمة.

يخدم الأعيان لمدة ثمان سنوات قابلة للتجديد وإعادة تعينهم. ويجري تبديل الأعيان بين فترة أربع سنوات ولا يجب أن يزيد الأعيان على ربع عدد مجلس النواب. وفي عام ١٩٢٨ كان عدد الأعيان ٢٠.

أما مجلس النواب فهو كيان منتخب على أساس إن كل نائب يمثل ٢٠ ألف مواطن من الذكور. إن دورة مجلس النواب تقوم على أربع فترات وكل فترة لمدة سنة واحدة تبدأ من اليوم الول من شهر كانون الأول/ديسمبر. للنواب الحق في إعادة انتخابهم. وينتخب النائب من منطقة انتخابية واحدة ولكنه يعتبر ممثلاً عن الوطن بأجمعه. التشريع يبدأ من مجلس النواب أو يُطلب من الدولة. يحق لأي نائب باقتراح أي موضوع ما عدا القضايا المتعلقة

بالمالية، ويستوجب أن يؤيد النائب من قبل عشرة من زملائه النواب، ويحق لأي نائب أن يسأل أو يطلب إيضاح من الدولة.

اجتماعات المجلسين تكون مفتوحة لعامة الشعب، إلاّ إذا طلب أحد الوزراء أو أربعة أعيان أو عشرة نواب أن تجري المناقشات بجلسة خاصة.

وقد بلغ عدد النواب في عام ١٩٢٨ إلى ٨٨ نائبًا، ١٣ منهم من لواء بغداد، وكان من بينهم نائب مسيحي ونائبين يهوديين. ومن لواء الموصل ١٢ نائبًا بضمنهم مسيحي واحد ويهودي واحد. ومن لواء البصرة ٨ نواب منهم مسيحي ويهودي. أما الأكراد فقد مثلهم ١٠ نواب.

ولأجل أن يأخذ الأكراد تمام حصتهم في الاشتراك في إدارة الحكومة المركزية فقد كان لهم اثنين من الأعيان، وكان وزير المالية ووزير الأشغال والمواصلات من الأكراد[١١].

القسم ٤ : مجلس الوزراء، المادة ٤٦

الوزراء يختارهم الملك. ويجب أن لا ينقص عددهم عن الستة ولا يزيد على التسعة. يستوجب لأي شخص أن يعّين لحقيبة وزارية أن يكون حائزًا على عضوية البرلمان. وإذا لم يكن العضو نائبًا أو عينًا فليس له حق الاحتفاظ بحقيبته الوزارية لأكثر من ستة اشهر إلا إذا عُين عينًا أو انتخب نائبًا. هذا النظام هو نسخة طبق الأصل من النظام البرلماني البريطاني، إذ يفترض بأعضاء الهيئة التنفيذية ـ رؤساء الوزراء والوزراء ـ أن يكونوا أعضاءً في السلطة التشريعية ـ البرلمان ـ أي إما نواب أو لوردات[١٢]. وهنا يجدر تقديم دراسة قصيرة مقارنة بهدف الإحاطة بخصائص وتطور النظام الديمقراطي وتطبيقه

---

١١) عبد الرزاق الحسني. تاريخ العراق السياسي الحديث ج٢، صفحة ١٣٠.

١٢) Charels Hauss, Comparative Politics: Domestic response to Global Challenges, 4thed.(wadsworth/Thomson Fearning, USA) P.P.83-87

في مختلف الدول، فعلى سبيل المثال يستوجب النظام الأمريكي أن يكون أعضاء الكونغرس - النواب والشيوخ - منفصلين عن مجلس الوزراء لأجل إعطاء المعارضة مجالاً أوسع وجعل النظام السياسي أكثر ديمقراطية. ففي النظام الإنكليزي إذا فاز أحد الأحزاب بأكثرية المقاعد البرلمانية، فالنظام يستوجب اختيار رئيس الحزب الفائز رئيسًا للوزراء الذي يختار زملاءه الوزراء من نفس الحزب الحائز على الأكثرية البرلمانية مما يضيق مجال المعارضة نظرًا لانتماء أعضاء مجلس الوزراء وأكثرية النواب لنفس الحزب ويحملون نفس الأفكار والإيديولوجيا[١٣]. بينما في أمريكا حيث يتنافس على السلطة حزبان فقط هما الحزب الديمقراطي والحزب الجمهوري، وقد ينتخب رئيس الجمهورية من أحد الحزبين ويكون مجلس الوزراء تحت هيمنته. بينما غالبًا ما يفوز الحزب الآخر بأكثرية المقاعد في مجلس النواب والشيوخ أو أحد المجلسين مما يعطي مجالاً أوسع للمعارضة وللحد من سلطة الهيئة التنفيذية، أي الرئيس ومجلس وزراءه[١٤].

إن نظام السلطات الثلاث - التشريعية والتنفيذية والقضائية - والمتبع في معظم الدول الديمقراطية في العالم الحديث هو وليد أيديولوجيات حقبة عصر التنوير التي سبقت الثورة الفرنسية حيث تبنّى فلاسفة ذلك العهد فكرة الحد من سلطة الملوك فتقدم الفيلسوف الإنكليزي الاقتصادي والاجتماعي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) (John Locke) بفكرة تحديد وتوزيع السلطة (Check and Balance of Power) على ثلاث سلطات متساوية القوى، لأجل موازنة وتحديد سلطات الملوك الذين طغوا على شعوبهم بعد انتهاء فترة العصور المظلمة وأفول طغيان الكنيسة الكاثوليكية وانبثاق عصر النهضة الذي اكتسب الملوك أثناءه سلطات استبدادية مبنية على مبدأ حق الملوك المقدس

١٣) Ibid

١٤) Ibid, P.P. 27-30

(The Divine Right of the King) الذي لا يمكن الاعتراض عليه. إضافة إلى ذلك فقد هيمن الملوك على المصادر الاقتصادية بما يدعى بالنظام المركنتالي (التجاري العالمي) (Mercantillsm)[١٥]. فتمكن الملوك بذلك من احتكار الامتيازات السياسية لبلدانهم لمدة تناهز الثلاث قرون. وقد أقنع الملوك بعض مثقفي بلدانهم لإصدار دراسات تبرر فكرة حق الملوك المقدس وممارستهم الاستبدادية فانبرى نيكولو ميكافيلي وتوماس هوبز ورينيه ديكارت وكتبوا بهذا الشأن مؤكدين أن استبداد الملوك يؤدي إلى استقرار البلاد وازدهارها. ونتيجة تلك الدراسات فقد وفر عصر النهضة المجال للشعوب الأوروبية أن تحصل على التعليم الحر الذي حرموا منه طوال عهود طغيان الكنيسة الذي ولّى وشرعت أوروبا تبني المدارس والمؤسسات التعليمية التي بدأت تدرس الفلسفة اليونانية والنظام الديمقراطي والهندسة والمنطق وغيرها والتي وصلتها من الفلاسفة المسلمين عن طريق الأندلس مما أدّى إلى بزوغ فجر عصر التنوير والأفكار العصرية والنظم الدستورية والاجتماعية الحديثة*.

استفادت النخبة العراقية الحاكمة من تطورات الديمقراطية في بريطانيا ومن المستشارين الإنكليز وحاول الملك فيصل الأول وأتباعه تطبيق ممارسات الدولة البريطانية في تنظيم العلاقات بين سلطات الدولة وخصوصًا السلطتين التشريعية والتنفيذية، فقد حدد الدستور العراقي بأن مجلس الوزراء (السلطة التنفيذية) مسؤول عن إدارة الشؤون العامة، وإن الوزراء مسؤولين أمام مجلس النواب (السلطة التشريعية) في جميع الشؤون التي تديرها الوزارت المختلفة. وإذا ما صوت مجلس النواب بسحب الثقة عن مجلس الوزراء فعلى مجلس الوزراء أن يستقيل. أما إذا كان تصويت سحب الثقة موجهًا لوزير واحد فعلى ذلك الوزير أن يستقيل.

---

١٥) John W. McConnel, The Basic Teachings of the Great Economists, (New York: The New Home library, 1943) P. P. 141-145

ومن الممكن تأجيل قرار سحب الثقة بطلب من رئيس الوزراء، إلاّ إن التأجيل يجب أن يتجاوز ثمانية أيام. وخلال تلك الأيام الثمانية لا يمكن حل مجلس النواب. وبهذه الفقرة ضمن الدستور العراقي لمجلس النواب والنواب المنتخبين شعبيًا بعض التأثير على مجلس الوزراء.

هذا وكانت الدولة تميل لتشجيع الحياة الحزبية كأحد المكونات الأساسية للدول الديمقراطية الحديثة. وبعد تتويج الملك فيصل في عام ١٩٢١ كان ثمة خمسة أحزاب فاعلة في العراق وتشارك في الحياة السياسية وتسعى جميعها إلى تحقيق استقلال العراق.

في خلال بضعة سنوات كان العراق يتطور بسرعة مما يدعى في علم السوسيولوجيا الحضارة السياسية كليريكية الثيوقراطية (Parochial Political Culture) التي سادت أثناء الدولة العثمانية إلى الحضارة السياسية المبنية على الخبرة الذاتية (Subjective Political culture) إلى ما يدعى نظام الأوليغاركية (Oligarchy) أي الحكم الجماعي النخبوي(١٦).

هذا وقد كان أحد أوجه التطورات المهمة التي أضطلعت بها المملكة العراقية أثناء عقد العشرينيات هو تبديل نظام الأقسام الإدارية. فقد كانت بلاد الرافدين أثناء العهد العثماني مقسمة إلى ثلاث ولايات وهي ولاية الموصل في الشمال وولاية بغداد في الوسط وولاية البصرة في الجنوب وكانت كل ولاية يديرها والٍ معين من قبل السلطان في اسطنبول، وكانت الولايات مقسمة إلى مناطق إدارية تسمى (سنجق) وكل سنجق يحكمة قائمقام مرتبط بالوالي.

أما بعد تأسيس النظام الجديد فقد أعيد تقسيم العراق. ففي عام ١٩٢٧ صدر قانون تقسيم العراق إلى أربعة عشر أقسام إدارية، كل قسم يدعى لواء ويحكم من قبل متصرف (أصبح اللقب بعد ذلك محافظ). وكان المتصرف

---

١٦) See Hauss, P.P. 279-280

يمثل السلطة المركزية في بغداد وهو مسؤول عن إدارة لوائه ومرتبط بوزارة الداخلية ويساعد من قبل مجلس إداري.

هذا وقد كانت صحة المواطنين من الأمور الإدارية الأساسية التي أعارها العهد الجديد اهتمامًا خاصًا وقد شهدت الأوضاع الصحية تطورًا واضحًا حيث شرعت القيادة الجديدة بمساعدة الإنكليز وعصبة الأمم ومتصرفي الألوية ببناء مؤسسات صحية حديثة (مستوصفات)، بجانب المدارس والمؤسسات التعليمية التي بدأت تنتشر تدريجيًا في الألوية والنواحي.

في يوم ٢١ / ٥ / ١٩٢٥ وهو التاريخ الذي أعلن فيه الدستور العراقي كانت الوزارة تتألف من الأعضاء التالية أسمائهم:

- ياسين الهاشمي - رئيس الوزراء
- ساسون حزقيل - وزير المالية
- عبد الحسين الكاظمي - وزير المعارف
- عبد المحسن السعدون - وزير الداخلية
- عبد المحسن السعدون - وزير المواصلات والعمل
- مزاحم أمين الباجحي - وزير العدلية (وكالة)
- ياسين الهاشمي - وزير الخارجية (وكالة)
- ياسين الهاشمي - وزير الدفاع (وكالة)
- إبراهيم الحيدري - وزير الأوقاف

ومن بين الأقليات في المجلس الوزاري كان ساسون حزقيل وزير المالية (يهودي) وعبد الحسين الكاظمي وزير التعليم (شيعي)، الذي اعتبر من ضمن الأقليات بالرغم من إن عدد الشيعة في العراق لا يقل عن عدد السنة.

منذ بداية العهد الجديد كان ثمة اتجاه قوي من قبل الملك فيصل والدولة لتشجيع تأسيس أحزاب سياسية مبنية على أيديولوجيات عصرية حديثة أسوة بالأحزاب الأوروبية، فقد كانت الأحزاب تعتبر نواة الدولة الديمقراطية

الحديثة. وقد كان ثمة حزبان سياسيان فاعلان في بغداد منذ العهد العثماني هما حزب العهد وحزب حرس الاستقلال، وكان الهدف الأساس لكلا الحزبين هو الدفاع عن مصالح العرب تحت حكم الأتراك. وبعد تتويج الملك فيصل في عام ١٩٢١ تأسست ثلاثة أحزاب سياسية أخرى وهي(١٧):

١. حزب التقدم، بقيادة عبد المحسن السعدون.

٢. حزب الشعب، بقيادة ياسين الهاشمي.

٣. الحزب الوطني، بقيادة جعفر أبو التمن.

هذه الأحزاب الجديدة الثلاث كانت أهم أهدافها تحرير العراق من الانتداب الإنكليزي، والتقارب مع البلاد العربية.

وقبل انتهاء عقد العشرينيات اهتز العراق لانتحار السيد عبد المحسن السعدون مما أدى إلى انحلال حزبه، إلاّ أن النخبة الحاكمة واصلت جهودها نحو التقدم والازدهار.

أوجه التغييرات الاجتماعية

كان العراق في يوم وفاة الملك فيصل الأول عام ١٩٣٣ قد قطع مرحلة تطورية غاية في الصعوبة منذ ولادته في عام ١٩٢١ تحت قيادة فيصل والنخبة الكلاسيكية حيث بدأ يخرج من المرحلة الثيوقراطية العثمانية ووقف على عتبة الدخول في المرحلة العصرية بعد أن هيمنت الدولة على العشائر والأقليات الجامحة وبعد دمج وتكامل أجزاء البلاد ووقايتها من أطماع دول الجوار بمساعدة بريطانيا، وحصوله على شبه الاستقلال ودخوله لعصبة الأمم، ومن ثم انتشار التعليم في المدن الكبرى الذي هيأ العراق للنفوذ إلى المرحلة العصرية ثقافيًا وتقنيًا واقتصاديًا.

---

١٧) كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي: وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي (بيروت: دار الطليعة، الطبعة ١٩٧٠) الصفحات ٢٤ ـ ٢٥.

أما بعد وفاة الملك فيصل، فقد تعرقلت تلك الجهود مرحليًا بسبب الخلاف الذي شب بين عناصر النخبة الحاكمة تحت قيادة الملك الشاب غازي الأول، ثم انتعشت ثانية بعد الحرب العالمية الثانية تحت قيادة الأمير الشاب عبد الإله الذي استلم الوصاية على عرش الملك الطفل فيصل الثاني (٤ سنوات) بعد وفاة المغفور له والده غازي في عام ١٩٣٩، واكتسابه لخبرات في الإدارة الداخلية ومتطلبات الدبلوماسية والسياسة الدولية. وقد حاول الأمير عبد الإله أن يتبع خطوات عمه المغفور له الملك فيصل الأول في انفتاح الذهنية والتعاون مع عناصر النخبة الكلاسيكية الحاكمة في سبيل بناء العراق، خصوصًا بعد أن تمكن رئيس الوزراء نوري السعيد من زيادة حصة العراق من أرباح شركة النفط (I. P. C) إلى المناصفة في عام ١٩٥٢ والشروع بتنفيذ برامج بناء جبارة لم يشهدها العراق لا في العهد العثماني ولا بعد انقلاب ١٤ /٨/ ١٩٥٨، حين كان العراق في تلك السنة وقبل الانقلاب متقدمًا على جميع البلاد العربية ومعظم العالم الثالث في اندفاعه نحو العصرنة والتطورات الحضارية في جميع نواحيها حسب إحصائيات المؤسسات الدولية[١٨].

إذن مر العراق بمرحلتي تطورات جوهرية: الأولى في عقد العشرينيات والثانية في عقد الخمسينيات. ففي عام ١٩٢١ لم يكن هناك شعب موحد بكل مكوناته السكانية تحت هوية عراقية موحدة، بل كانت غالبية المجتمع العراقي تنتمي إلى العشائر المتناحرة، والخلاف المذهبي متفشيًا، وكانت معظم أوجه الحياة باقية على ما كانت عليه منذ القرون الوسطى، فلم تكن ثمة وسائل اتصالات ولا مواصلات ولا كهرباء مما جعل الأوضاع العامة غاية في التردي ومن الصعوبة بمكان السيطرة عليها. وقد تمكنت الدولة بقيادة وحنكة الملك فيصل الأول وبمساعدة الإنكليز من بسط هيمنتها على جميع مناطق العراق. إلا أن النظام الجديد واجه عقبة كأداء جديدة وهي شعور الكراهية

١٨) أنظر الفصل الذي يبحث مشاريع مجلس الاعمار في هذا الكتاب.

الطاغي ضد نظام الانتداب ووجود الإنكليز في العراق، وبقاء شعور الولاء بين أكثرية الشعب نحو الأتراك بسبب انتمائهم الديني. وقد جابه الفريق جعفر العسكري صعوبات جمة في جهوده لخلق جيش عراقي مبني على الشعور القومي، فقد رفض العديد من رفاقه في السلاح أثناء الحرب العالمية الأولى ممن حاربوا في صفوف الجيش العثماني الاستجابة لطلبه لمؤازرته كما تبين المذكرة التالية التي تظهر مدى الخلاف الذي دب بين النخبة الحاكمة الجديدة المتعاونة مع الإنكليز وأكثرية سكان العراق الذين بقوا موالين للأتراك وكانوا يرشحون الأمير العثماني برهان الدين نجل السلطان عبد الحميد لعرش العراق.

> يقول جعفر باشا (العسكري) بأنه يواجه صعوبات جمّة إلاّ إنه قد يكون شديد الحساسية بهذا الشأن. ويؤكد جعفر بأن أصحابه الضباط الذين لم يخدموا بجيش الملك إنهم ليست لديهم رغبة في التعاون معه لتأسيس جيش عربي في بلاد ما بين النهرين. فقد أعلنوا أن الحكومة العربية الجديدة محكوم عليها بالسقوط وإنهم بانتظار عودة الجيش التركي لأجل استعادة مراكزهم العسكرية معهم، لذلك فإن شعور الولاء نحو الأتراك سوف يكون واحدًا من المصاعب الكبرى التي يجب على الحكومة العربية أن تتعامل معها[١٩].

فعندما تكونت الحكومة العراقية المؤقتة في ٢٥/١٠/١٩٢٠ أي قبيل مجيء الأمير فيصل ليتوج ملكًا على العراق، طمح جعفر العسكري الذي كان وزيرًا للدفاع ببناء جيش عراقي حديث فعيّن صهره الجنرال نوري (باشا) السعيد رئيسًا لأركان الجيش، وقرر أن يفتح أكاديمية عسكرية في العراق، فاختار صديقه وابن حارته القديمة (محلة الفضل) وزميل صفه في الدراسة

---

١٩) The Government of Great Britain, Intelligence Reports Of Sir Cox,No. I, office of High Commissioner, Baghdad. 15 November 1920 L/P&S/10/962

المقدم (البيك باشي) محمد أمين زكي ابن الضابط علي (آغا) ليؤسس مدرسة الضباط نظرًا لكون المقدم أمين زكي كان قد عين مدرسًا في الأكاديمية العسكرية العثمانية لتخرجه بالمركز الأول لدورته فأطلق عليه لقب (محمد أمين باش) وكلمة باش تعني باللغة التركية الأول أو الرأس. وكان لهذا الرجل مؤلفات في الطوبوغرافيا العسكرية والجغرافيا. وقد باشرت الأكاديمية عملها بعد أن رتب المقدم أمين زكي برامجها وبدأت بقبول الشبان ممن رغب في الدخول في الجيش العراقي، إلا إن الأكاديمية أغلقت أبوابها بعد أقل من عام بسبب اختلاف الضباط الإنكليز مع المقدم محمد أمين زكي بعد ان اتهموه ببقائه مواليًا للعثمانيين[٢٠].

أما الضباط القوميين العرب من الذين شاركوا في الثورة العربية إلى جانب الشريف حسين وبمعية الأمراء فيصل وعبد الله، ونوري السعيد وجعفرالعسكري، فبالرغم من عدم ولائهم للأتراك فقد كان ولائهم قوميًا عربيًا بحتًا فانتابهم شعور عنيف بالتمرد على سلطات الانتداب البريطاني وأوشكت الأوضاع أن تقود إلى ما لا يحمد عقباه كما تبين الحادثة التالية مع الضابط مهدي الرحال التي كادت أن تؤدي إلى انفجار أحد معسكرات العراق:

كان المقدم مهدي صالح الرحال المولود في ناحية الرحالة في العراق من عائلة عربية وتخرج من الأكاديمية العسكرية في اسطنبول وكانت تجمعه علاقة صداقة ومبادئ مع جعفرالعسكري ونوري السعيد وبقية الضباط القوميين الذين ثاروا على العهد الطوراني الذي حكم الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم تمردت فئة منهم على نظام الانتداب الإنكليزي وكانوا

٢٠) انظر الكتاب الرسمي لاستقالة المقدم محمد أمين زكي ابن علي (آغا) من مركز مدير مدرسة الضباط، المؤرخ ١٩٢١/٨/٢٥، والموقع من قبل وزير الدفاع جعفر باشا العسكري.

يطمحون بإقامة دولة عربية موحدة، كما وعدهم الإنكليز ثم نكثوا بوعودهم وقد كان المقدم مهدي الرحال ضابطًا في معسكر (بادوش) في الموصل والذي كان تحت إمرة الماجور (الرائد) (دي ميك)، وكان دي ميك يعامل الضباط العراقيين بعجرفة، وقد أصدر بعض الأوامر بطريقة مهينة إلى المقدم مهدي الرحال الذي كان أعلى منه رتبة فما كان من الرحال إلا وهجم على الميجر دي ميك وأوسعه لكمًا وركلاً وسط تصفيق وتهليل الضباط القوميين الذين فرحوا لغضبة المقدم الرحال لكرامته ولجرأته لإهانة الضابط الإنكليزي، وأوشك الأمر أن يتطور إلى ما لم تحمد عقباه بين الجيش العراقي ومراتب الجيش الإنكليزي في معسكر بادوش لولا هروع جعفر العسكري ونوري السعيد لتهدئة الأوضاع هناك.

كل هذه الأوضاع السلبية واجهت الدولة الجديدة لخلق جيش وطني، إلا أن جهود جعفر العسكري ونوري السعيد وصبيح نجيب وغيرهم تمخضت ما بين ١٩٢٣ و١٩٣٠ عن تأسيس جيش صغير لكنه عصري وقد بقي ذلك الجيش مخلصًا للملك فيصل الأول ولم يتدخل في سياسة البلاد.

مشكلة العشائر والأقليات

النظام العشائري أو القبلي يتعارض بشكل عكسي مع مفاهيم الدولة الحديثة المبنية على تركيز السلطة في عاصمة واحدة وتتطلب من جميع المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم، الولاء لتلك السلطة المركزية ومن يترأسها سواء كان ملكًا أو رئيسًا. بينما يدين أفراد العشائر بالولاء لشيوخهم الذين كانوا لا يخضعون إلى أي سلطة عليا ويمارسون سلطات تكاد تكون مطلقة على أبناء عشائرهم الذين تجمعه وإياهم قرابة الدم. لذلك فإن قبائل الشرق الوسط سببت مشاكل للدول التي عاشت في كنفها، كذلك واجهت الدولة الحديثة في العراق عقبات كأداء في جهودها في بسط نفوذها على

العشائر وتهدئتها بسبب توزيع الأراضي الزراعية والمياه، وبسبب الانتساب الديني والمذهبي. فعلى سبيل المثال كانت القبائل القاطنة في منطقة الفرات الأوسط تنتسب إلى المذهب الشيعي وكانت تدين بالطاعة إلى رجال الدين في المدينتين المقدستين النجف وكربلاء وكانوا قد تعرضوا للاضطهاد من قبل السلطات العثمانية السنية، مما استوجب على النخبة الحاكمة أن تتخذ جميع الإجراءات لكي تزيل شكوك تلك العشائر ومحاولة استرضائها وكسب ولائها. هذا فضلاً عن مشكلة القبائل البدوية الرحالة التي كانت تتنقل بحثًا عن الماء والكلأ بين مناطق العراق والكويت والسعودية لعدم تحديد الحدود بينهم في بداية عقد العشرينيات وكانت تلك العشائر تدين بولائها لشيوخها المنتشرين في تلك المناطق، لذلك فقد تقدم السير بيرسي كوكس المفوض السامي من حكومة الهند في الخليج ورسم على خارطة البلاد العربية خطوط الحدود بين العراق والكويت والسعودية، ولأجل قضية توطين القبائل الرحل خرج كوكس باختراع جديد ما أسماه المناطق المحايدة[٢١].

لذا فقد استوجب على النخبة الحاكمة إيجاد حل لمشكلة العشائر العراقية وإزالة شكوكها وكسبها إلى جانبها فتمكنت بقيادة الملك فيصل الحكيمة من تحقيق ذلك باتخاذ خطة ذات هدفين: الهدف الأول سياسي حيث أدخلت شيوخ العشائر في البرلمان العراقي كنواب وأعيان مما جعلهم يكتسبون سلطات سياسية ورسمية إضافة إلى سلطاتهم العشائرية التقليدية، والهدف الثاني اقتصادي عن طريق تقنين توزيع كميات المياه لسقي أراضيهم الزراعية مما جعل المصادر الاقتصادية والمعيشية لتلك العشائر ترتبط بالدولة، وبذلك تعززت هيمنة السلطة المركزية على تلك المناطق. هذا وقد دخل أبناء العشائر في القوات العسكرية وفي المدارس التي أسستها الدولة في المناطق القريبة منهم مما جعلهم يفقهون معنى الهوية والمواطنة العراقية.

---

٢١) محمد رشيد الفيل، الحدود (دبي: مركز الخليج للكتب ١٩٩٩) صفحة ٢٦٥.

أما مشكلة الأقلية الكردية فإنها الأخرى كانت معقدة بل تزيد تعقيدًا على مشكلة القبائل العربية لكون الأكراد، بالرغم من إنهم مسلمون، هم مجموعة أثنية وحضارية تختلف عن الأكثرية العربية في العراق. وقد بقيت معضلة الأكراد غير قابلة للحل لعدة عقود وعلى مر العهود والحكومات التي مر بها العراق.

عدديًا، يكوّن الأكراد سدس السكان وهم ملتزمون التزامًا شديدًا بحضارتهم ولغتهم غير السامية ولباسهم القومي ونمط معيشتهم الذي يلائم مناطق سكناهم في البقاع الشمالية الجبلية الوعرة من العراق. وهم ما انفكوا يطمحون بالاتحاد مع إخوانهم الأكراد القاطنين في تركيا وإيران وسوريا لأجل خلق دولة كردية موحدة يعيش فيها الأكراد كمواطنين من الدرجة الأولى بدلاً من بقائهم كأقلية تعيش في كنف شعوب أخرى.

وطوال عقد العشرينيات لم يألوا الأكراد جهدًا لأجل تحقيق حلمهم لتأسيس دولتهم القومية فأرسلوا الرسل إلى عصبة الأمم وإلى الدولة العظمى بريطانيا وغيرها، وقد أراد المعتمد السامي السير أ. ت. ولسون إقناع السلطة العراقية بأن من المستحسن دمج أكراد العراق مع أكراد تركيا. إلا إنه أدرك استحالة ذلك نظرًا لارتباط المنطقة الشمالية اقتصاديًا مع العراق وإن فصل المنطقة الكردية العراقية عن العراق يعني فصل كردستان عن أسواقها الطبيعية في بغداد[٢٢].

كان الأكراد في تلك الفترة منقسمين إلى مجموعتين، المجموعة الأولى القاطنة في لوائي الموصل وأربيل والتي قبلت بمقترحات المعتمد السامي فأصبحوا عراقيين لهم ما لإخوانهم العرب من حقوق وواجبات، أما الأكراد القاطنون في لواء السليمانية فقد رفضوا فكرة الانضمام إلى العراق فظل ذلك

٢٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث. مصدر سابق، الجزء الثالث. صفحة ٢٦٣.

اللواء تحت الهيمنة البريطانية يحكمه موظف بريطاني مسؤول أمام المندوب السامي ويعاون في ذلك مجلس منتخب[٢٣]. لذلك فقد بقيت السليمانية متصرفية يحكمها متصرف مؤقت على أن يعين من قبل المندوب السامي ومستشار بريطانيا ريثما يُبَتُّ في مصير ذلك اللواء. لذلك فقد بقيت تلك الترتيبات جارية إلى صدور بروتوكول ١٩٢٣/٤/٣٠ بين بريطانيا والعراق والذي جعل منطقة السليمانية تحت الإدارة العراقية وأصبحت السليمانية لواء كبقية الألوية العراقية تديره وزارة الداخلية. وفي عام ١٩٢٦ توصلت الدولتان العراقية الفتية والتركية إلى رسم الحدود بين البلدين ودخلت الموصل ضمن العراق وأصبح الشمال بأكمله داخل حدود الدولة العراقية.

أما الأقلية الأثنية ـ الدينية الأخرى التي شكلت عقبة كأداء أمام الدولة الفتية فقد كانت مشكلة الآثوريين، وهم قوم جاءوا من جنوب شرق الأناضول قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى هربًا من اضطهاد الأكراد، وقد حازوا على رضا القوات البريطانية لخدمتهم في جيش الاحتلال أو قوات الليفي (Levy). هؤلاء الآثوريون لا تربطهم أي روابط مع أي من مكونات الشعب العراقي، وقد بقوا معزولون وغير مرحب بهم لأنهم تعاونوا مع قوات الاحتلال البريطانية. وقد تملك الآثوريين بسبب دعم قوات الاحتلال لهم بشعور القوة الذي لم يناسب عددهم الضئيل فأرادوا أن ينفصلوا عن الدولة العراقية ويؤسسوا دولة مستقلة لهم في شمال العراق وقد استمرت قضية مطاليب الآثوريين تسبب صداعًا للدولة إلى أواسط عقد الثلاثينيات أي بعد وفاة الملك فيصل وأثناء حكم الملك غازي، كما سيبحث في فصل لاحق في الكتاب.

تبين هذه المعلومات المشاكل الكبرى التي واجهت النخبة العراقية على الجبهتين الداخلية والخارجية في بداية العهد الوطني، والجهود الجبارة التي بذلت من قبل القيادة لأجل الوقوف في وجه أطماع البلاد المجاورة وخصوصًا

---

٢٣) نفس المصدر السابق، الصفحات ٢٥٧ ـ ٢٧٥.

إيران وتركيا اللتان كانتا تخططان دائمًا لاستلاب مناطق من الأراضي العراقية نظرًا لخصوبتها وغناها في المصادر الطبيعية، إضافة إلى مواجهة طموحات الأقليات التي كانت سابقًا خاضعة للدولة العثمانية ثم سنحت لها الفرصة بالتمرد بعد زوالها وولادة الدولة الجديدة والصغيرة نسبيًا.

فقد كانت طموحات الأقليات من أهم أولويات القيادة العربية العراقية الجديدة نظرًا لكون النخبة العراقية الحاكمة كانت قد عانت من عنت الحكم الطوراني الشوفيني الذي استلم مقاليد الحكم في أوائل القرن العشرين فلذلك فإن النخبة العراقية الجديدة تفهمت طموحات الأقليات وتعاطفت معها جهد الإمكان دون الإخلال بالمصالح القومية للعراق. لذلك فقد دخلت القيادة العراقية بمفاوضات عديدة للاستماع لطلباتهم، وقد كانت لتلك السياسة الحكيمة تحت قيادة فيصل والنخبة المحيطة به نتائج ناجعة، فبالإضافة إلى إعطاء حق التمثيل لليهود والنصارى في البرلمان، منحت الدولة للأقليات الامتيازات الآتية:

احتوى مجلس الوزراء على حقيبتين وزاريتين خصصتا للأقليات، وجلس أربعة عشر نائبًا كرديًا من أصل ٨٨ في البرلمان لمتابعة المصالح الكردية. وكذلك فقد كان ٢٤٪ من قوات الشرطة و١٤٪ من القوات المسلحة منحت للأكراد مع ٣٣٪ من العاملين في السكك الحديدية.

هذا وقد عينت وزارة العدل ١٣ موظفًا (قضاة وكتاب) في المناطق الكردية وكان ١٠ أفراد منهم من الأكراد. وكان أولئك الأفراد الذين اختيروا لسلك القضاء من العناصر المشهورة بالشرف والاستقامة والسمعة الطيبة.

وقد جعلت إجراءات المحكمة في المنطقة في الشمال باللغة الكردية وعين عشرة أكراد من قبل وزارة العدل في المناطق غير الكردية.

هذا وافتتحت ٢٥ مدرسة في المنطقة الكردية وكانت ٥ مدارس منها خصصت للمسيحيين. وفي تلك المدارس الخمس استعملت لغتان للتدريس

وهما اللغة الكلدانية المستعملة خصيصًا من قبل المسيحيين واللغة العربية. أما بقية المدارس فقد كان التدريس باللغة الكردية. لذلك فإن عددًا كبيرًا من اليهود والمسيحيين والأكراد والتركمان تعينوا مدرسين في المدارس العراقية عبر البلاد.

أما محكمة التمييز فإنها تعكس نموذجًا حيًا للتفكير التقدمي الحر للنخبة الحاكمة وتسامحها مع جميع فئات الشعب بغض النظر عن انتمائهم الديني أو الأثني فقد تعين القاضي اليهودي داود سمرة رئيسًا لمحكمة التمييز والمسيحي أنطوان شماس عضوًا أولاً، والمسلم عبد اللطيف الشواف عضوًا ثانيًا في المحكمة[٢٤].

كانت الخلافات الأثنية والمذهبية والدينية داخل المملكة العراقية الوليدة عميقة جدًا وصعبة الحل، إلاّ إن الملك فيصل الأول اعتمد على عاملين للتغلب على تلك الصعاب. العامل الأول هو كونه من آل بيت الرسول (صلى الله عليه وسلم) الشريف مما جعله مقبولاً من الشيعة الذين يكونون نصف الشعب العراقي تقريبًا. ولأنه ينتمي إلى عائلة سنية فقد تبعه المنتمون إلى المذهب السني، الذين يكادون يكونون النصف الآخر، طواعية ودانوا له بالولاء وكذلك الأقلية الكردية التي كان التزامها الديني عميقًا سواء كانوا شيعة أو سنة فقد قبلوا فيصل ابن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ملكًا عليهم. العامل الثاني الذي لا يقل أهمية عن انتماء فيصل العائلي هو شخصيته الدبلوماسية الحصيفة وخبرته وحنكته السياسية التي أقنعت أتباعه والأكثرية من وجهاء البلد لقبوله ملكًا عليهم. وقد كان لخلق جيش عصري من قبل الرعيل الأول من الضباط تأثيرًا عميقًا في تعزيز هيمنة الدولة على مناطقها.

هكذا كان وضع المجاميع السكانية لبلاد الرافدين حين توج فيصل ملكًا على العراق والظروف العامة التي كانت غاية في التأخر، فاستطاع الملك وبطانته

---

٢٤) هاشم جواد، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٤٦).

المخلصة من خلق كيان جديد اسمه المملكة العراقية وبجهود القيادة تماسكت مكونات ذلك الكيان، وانصهرت الأقليات ببوتقة الهوية العراقية وتوحدت، ومن ثم بدأت الدولة مشاريع بتطوير التعليم والصحة والإدارة والمتطلبات الأخرى للمجتمع العراقي الحديث الذي بدأ يتكيف للقرن العشرين بعد سبات طويل في ظروف قروسطية عتيقة.

تطور التعليم

مر تطور التعليم في العراق بمرحلتين: الأولى منذ بداية الملك فيصل الأول عام ١٩٢١ وحتى وفاته في ١٩٣٣، مع بيان الاهتمام الشديد الذي أبدته النخبة الحاكمة لرعاية وتطوير التعليم رغم قلة الموارد المالية الواردة في خزينة الدولة.

أما المرحلة الثانية فتبين تطور التعليم في عقد الخمسينيات من القرن العشرين وبعد تدفق الواردات المالية على الدولة نتيجة توقيع المعاهدة الجديدة مع شركة النفط العراقية (I.P.C) وتحسن الأوضاع الاقتصادية في العراق بشكل عام، وستبحث مرحلة التعليم الثانية في فصل لاحق.

حين تأسست المملكة العراقية وتوج الأمير فيصل بن الحسين ملكًا لها عام ١٩٢١ كان عدد الذين يقرأون لا يزيد على ١٪ من مجموع الشعب[٢٥]. وكان التعليم يكاد يكون مقصورًا على الأطفال الذين يدرسون القرآن الكريم على أيدي ملالي قساة شبه جهال في كتاتيب واقعة في الأزقة القديمة. وكانت ثمة بعض المدارس التي تهيأ التلاميذ للدراسة العسكرية أو التعليم وغيرها في مدارس أسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، لذلك فقد كان تحسين واستصلاح النظام التعليمي من أهم أولويات القيادة الجديدة وانصب التركيز على

٢٥) Henry A. Foster, The Making of Modern Iraq, (New York: Russ & Russ 1935) P.256

النهوض بالتعليم كعلاج لمعظم المشاكل الاجتماعية. وكان تدهور التعليم في بغداد والعراق عمومًا يعزى لعدة اسباب. أولها كان التدريس أثناء العهد العثماني يجري باللغة التركية مما أبعد معظم سكان العراق الذين يتكلمون اللغة العربية. السبب الثاني هو إن شريحة كبيرة من الطبقة الغنية ازدرت التعليم باعتباره وسيلة لبعض الفقراء للحصول على وظيفة حكومية. بينما الشباب الأغنياء في غنى عن ذلك فهم سيرثون الثروة والجاه من آبائهم، لذا فقد كانت الفكرة السائدة هي إن التعليم لا يليق بمكانة الأغنياء والوجهاء.

بعد عام ١٩٢١ وحينما حلت اللغة العربية محل التركية كاللغة الأساسية للتعليم هرع الكثير من الشباب ومن جميع الشرائح للدخول في المدارس. وقد عمدت الدولة على تطوير مناهج التعليم فأدخلت فيها دراسة التاريخ العربي الإسلامي مع التأكيد على الإنجازات الكبرى التي حققها العرب في تاريخهم القديم منذ عهد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وعهود الراشدين والأمويين والعباسيين وما حققوه من إنجازات كبرى في مجالات العلم والطب والفلسفة وغيرها مما أغنى التراث العلمي الإنساني بأجمعه.

وخلال عشر سنوات أدخلت الدولة عدة تحسينات على نظام التعليم، وبحلول عقد الثلاثينيات أصبحت برامج المدراس في العراق مشابهة لنظام التعليم الإنكليزي الحديث وجعلت مراحل التعليم على ثلاث فترات: المرحلة الابتدائية ٦ سنوات، المرحلة المتوسطة ٣ سنوات، والمرحلة الثانوية سنتان. إلا إن النظام الدراسي الجديد واجه بعض المشاكل الأساسية كالآتي[٢٦]:

أ ـ التحول من اللغة التركية إلى اللغة العربية اقتضى بالضرورة استبدال المدرسين القدامى غير المتمكنين من اللغة العربية بآخرين يجيدون اللغة العربية مما سبب بعض التأخير والارتباك.

ب ـ اضطر المدرسون إلى تخصيص فترات طويلة يوميًا لتعليم التلاميذ

---

(٢٦) Ibid

اللغة العربية مما سبب إهمال تدريس المواد التعليمية الأخرى المتطلبة لتهيأة الطلاب لمراحل أعلى.

ج ـ كان المعلمون الأكفاء من الندرة بمكان ما جعل إيجاد واستخدام المعلمين القادرين على التردديس بمستوى جيد مشكلة صعبة جابهت القادة العراقيين الأوائل. إلاّ إن الدولة حلت هذه المعضلة باستجلاب مدرسين ومدرسات كفؤين من البلاد العربية.

د ـ كان لوجود الأقليات الأثنية والمذهبية والحضارية كالأكراد والتركمان واليزيدية في الشمال والشيعة والسنة وسكان المدن والريف متطلبات معينة مما استوجب الدولة لتوفير تدريبات مناسبة للمدرسين لأجل إرضاء مطاليب كل فئة وإبقاء رغبة جميع الفئات للاستزادة من العلم.

وبسبب هذه الظروف حرصت الدولة على جعل التعليم مهنة مرغوبة فحسنت الرواتب وقامت بدفع نفقات التعليم العالي داخل وخارج العراق حيث أرسلت البعثات إلى مصر وإنكلترا والولايات المتحدة. وفي عام ١٩٢٧ أخذت الدولة على عاتقها دفع نفقات المعيشة والطعام والملابس ومصروف الجيب إضافة إلى توفير كتب الدراسة مجانًا، مما أدّى إلى اجتذاب العديد من الشباب للدخول في مهنة التعليم. وفي عام ١٩٣١ وصل عدد المتدربين من الذكور والإناث إلى ١٧٨ متدربًا[٢٧]. وقد كان للشباب من الدول العربية الشقيقة من خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت وبعض المدرسين الأوروبيين دورًا مهمًا في تخرج كوادر من الشباب العراقي عالية الكفاءة، وتشير الجداول الآتية إلى اهتمام الدولة بشؤون التعليم وتأثير ذلك الاهتمام على زيادة وتطور التعليم.

---

٢٧) هاشم جواد، صفحة ١٠٥.

جدول (١)

(النسبة المئوية من خزينة الدولة المخصصة للتعليم بين ١٩٢٠ و١٩٣٠)[٢٨]

السنة	المبلغ المصروف	النسبة المئوية
١٩٢٠_١٩٢١	١٣٠,٣٦٠	٢,٣
١٩٢٤_١٩٢٥	١٧٠,٠٦٨	٣,٩
١٩٢٦_١٩٢٧	١٨٤,١٦٣	٤,٤
١٩٢٧_١٩٢٨	٢٠٥,٦٥٠	٥,٠
١٩٢٨_١٩٢٩	٢٣٢,٨٧٨	٥,٣
١٩٢٩_١٩٣٠	٢٧٠,٤٣٨	٦,١

وقد أدّى تخصيص الدولة لمبالغ أكبر تدريجيًا للتعليم إلى زيادة مطردة في أعداد المدارس الابتدائية والثانوية وعدد التلاميذ المنتسبين إليها كما تبين الجداول الآتية[٢٩]:

٢٨) المصدر السابق، صفحة ١٠٦.

٢٩) المصدر السابق.

جدول (٢)

ازدياد عدد المدارس الابتدائية في العراق وعدد التلاميذ ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٠

السنة الدراسية	عدد المدارس الابتدائية	عدد التلاميذ
١٩٢٠ _ ١٩٢١	٨٤	٦,٧٤٣
١٩٢١ _ ١٩٢٢	١٥١	١٥,٢٧٥
١٩٢٢ _ ١٩٢٣	١٧٣	١٧,٢٣٥
١٩٢٣ _ ١٩٢٤	١٩٨	١٨,٥٥٨
١٩٢٤ _ ١٩٢٥	٢٢١	٢٠,٦٥٤
١٩٢٥ _ ١٩٢٦	٢٢٨	٢٢,٧١٢
١٩٢٦ _ ١٩٢٧	٢٤٩	٢٤,١٧٠
١٩٢٧ _ ١٩٢٨	٢٦٤	٢٦,٧٠٦
١٩٢٨ _ ١٩٢٩	٢٧١	٢٨,١٠٣
١٩٢٩ _ ١٩٣٠	٢٩١	٣٠,٨٨٨

يلاحظ من الجدول أعلاه إن عدد المدارس الابتدائية وعدد تلاميذها قد تضاعف خلال العام الدراسي ١٩٢٠ - ١٩٢١ ومن ثم أصبحت زيادة عدد المدارس المطردة ٢٠ مدرسة وعدد التلاميذ ٢٠٠٠ سنويًا إلى أن بلغ عدد المدارس ٢٩١ في عام ١٩٣٠ بعد أن كان ٨٤ في عام ١٩٢١ أي بزيادة أكثر من ثلاثة أضعاف بينما زاد عدد التلاميذ لنفس الفترة من ٦٧٤٣ إلى ٣٠٫٨٨٨ أي ما يقارب الخمسة أضعاف. لقد حققت حكومة الملك فيصل الأول هذا التقدم السريع في التعليم بالرغم من شحة مواردها ودخلها المحدود.

جدول (٣)

ازدياد عدد المدارس الثانوية في العراق وعدد التلاميذ ما بين ١٩٢٠ - ١٩٣٠ [(٣٠)]

السنة الدراسية	عدد المدارس الثانوية	عدد التلاميذ
١٩٢٠	صفر	صفر
١٩٢١	صفر	صفر
١٩٢٢	٤	؟
١٩٢٣	٤	٢٣٣
١٩٢٤	٤	٣٢٦
١٩٢٥	٥	٥٨٣
١٩٢٦	٨	٧٢٩
١٩٢٧	١١	١٠٨٦
١٩٢٨	١٣	١٣٢٢
١٩٢٩	١٣	١٢٢٢
١٩٣٠	١٥	١٨٦٣

تضاعف عدد المدارس الثانوية في عهد الملك فيصل الأول ما يقارب الأربعة مرات بينما عدد التلاميذ ازداد بأكثر من ٨ أضعاف.

أما بخصوص تعليم الأقليات فقد افتتحت ٢٥ مدرسة في المناطق الكردية

---

٣٠) المصدر السابق.

وكانت خمسة مدارس منها خصصت للمسيحيين. وفي هذه المدارس الخمس استعملت اللغة الكلدانية[٣١] ـ وهي لغة خاصة يستعملها المسيحيون فقط ـ بجنب اللغة العربية للتدريس. لذلك فإن أعدادًا كبيرة من تلك الأقليات التي تخرجت من تلك المدارس اصبحوا مدرسين وتعينوا في المدارس في طول البلاد وعرضها.

وتبين المعلومات الآتية التي أوردها في مذكراته السيد عبد الجبار الراوي مدير الشرطة العام في العراق أثناء العهد الملكي، جهود أحد الأساتذة من الرعيل الأول من المربين ـ أمين زكي ـ والعراقيل التي واجهها في محاولاته لنشر التعليم والمدارس في المناطق النائية من العراق أثناء عقد العشرينيات وحين كان السيد الراوي آنذاك ضابطًا في سلك الشرطة في لواء الموصل. صفحة ٩٥.

المعارف في الموصل

تعدّ مديرية المعارف[٣٢] في اللواء من الدوائر المهمة التي استأثرت باهتمام الجميع بعد تأسيس الحكم الوطني الذي كان بأمس الحاجة إلى المتعلمين الواعين ليأخذوا مكانهم في العراق الجديد. كان أمين زكي مديرًا لمعارف لواء الموصل، وكان رجلاً عالمًا، يتقن اللغة الفرنسية كأهلها، مثقفًا، كثير المطالعة والتتبع، ولا سيما فيما يتعلق بالعلوم الحديثة. وأذكر أني حدثته يومًا عن كتاب «تاريخ العالم» المطبوع حديثًا، فطلب مني أن أعيره إياه، ليقارنه بنفس الكتاب المطبوع باللغة الفرنسية الذي كان في حوزته. وكان محبًا لنشر التعليم وتأسيس المدارس في كل

٣١) الحسني، ج٢، صفحة ١٣٠.

٣٢) مديرية التربية.

أنحاء الموصل. ومن العقبات الكبيرة التي واجهها عدم قبول اليزيدية تأسيس مدرسة لهم، وبصعوبة كبيرة أقنع رئيس اليزيدية، فأسس أول مدرسة ابتدائية لليزيدية في (باعذرة) مركز شيخهم.

كان استعمال السيارات خارج الموصل نادرًا، لقلة وجود السيارات ولعدم وجود طرق مهيأة ملائمة لمسيرها. وقد سافرت مرةً مع مدير الشرطة تحسين علي ومدير المعارف أمين زكي إلى مركز ناحية (عشائر السبعة)، فلما وصلنا إلى القرية، وجدنا الناس مجتمعين وهم شاكو السلاح، وفهمنا بعدئذ أنهم حين شاهدوا السيارة من مسافة بعيدة وهي تسير باتجاههم، ظنوا أنها (بلية أو آفة) وتجمعوا بسلاحهم ليقاتلوها، إلا أنه ظهر واحد من أهل القرية كان قد رأى السيارة في الموصل فصاح بهم: هذه (طرامبيلة). فتفرقوا، ورجعوا.

هذه الإحصائيات والمعلومات تشير إلى الجهود الحثيثة التي كانت تبذلها الفئة الحاكمة لمكافحة الأمية ونشر التعليم، إلا إن عدد المتعلمين بقي ضئيلاً مقارنة بأعداد غير المتعلمين خصوصًا بين أبناء العشائر التي كانت الدولة دائبة لإيصال المدارس إليها حسبما يقتضيه الوقت.

● **الخدمات الصحية**: كان الجهل متفشيًا بين الأكثرية العظمى من سكان بلاد الرافدين أثناء العهد العثماني وكانوا على اعتقاد راسخ بأن الأمراض تأتي بإرادة ربانية عليا وهي أيضًا تشفى بنفس الإرادة - هذا إذا شفيت - وإذا حدثت وفاة بسبب المرض فرحمة الله على المتوفى وإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان الناس يلجأون إلى المشعوذين والسحرة طلبًا لشفاء المرض، حيث كان الطب الحديث يكاد يكون معدومًا.

وقد كان لأولئك المشعوذون نفوذًا شديدًا على معظم الناس نظرًا لكونهم

يتكلمون نفس اللغة العامية ويستغلون معتقدات الجُهّال بالجنون والشياطين والسعالي - جمع سعلوة وهي جنيّة أنثى - وبأنهم على علم تام بالأساليب التي تمكنهم من التعامل مع تلك الكائنات الخفية وكان معظم السحرة والمشعوذين يتخذون مراكزهم في الأسواق حيث يتجمهر الناس لشراء حاجاتهم[٣٣].

وأتذكر من قصص العجائز في دار عائلتنا وأنا طفل أثناء سني الأربعينيات من القرن الماضي بأنه في حالة إصابة أحد الأشخاص بالجنون فقد كان أهل المجنون يأخذونه أو هي إلى الساحر (المتخصص) الذي يخبر الأهل بأن جنون ذلك الشخص متأتٍ من تقمص روح شيطانية شريرة قد دخلت جسم المريض فيشرع بضرب ذلك الشخص البائس - سواء كان ذكرًا أو أنثى - بعصاة غليظة ضربًا مبرحًا وهو يصرخ (مخاطبًا الروح الشيطانية) أخرج أيها الملعون واترك جسد هذا الصبي أو الفتاة بينما الشخص المريض يصرخ من آلام الضرب القاسي وفي عدة حالات يؤدي الضرب إلى الوفاة فيلتفت المشعوذ إلى أهله قائلاً بأن الروح الشريرة لم تخرج إلاّ بعد ان قتلت ذلك الشخص الذي بُرِئَ الآن وسيدخل الجنة - بإذن الله - ثم يقبض أجور (أتعابه)، ويقفل أهل الميت راجعين إلى دارهم ليحزنوا ويندبوا وهم موقنون بأن سبب الوفاة هو تلك الروح الشريرة التي تقمصت جسد مريضهم المنكود الحظ، إلاّ إن ذلك الرجل - الساحر الذي قتل المريض ضربًا - قد طرد الروح الشيطانية وإن المريض الذي شفي قد سكن الجنة. هكذا كانت الخرافات مهيمنة على سواد الناس في العهد العثماني. أما لعلاج بقية الأمراض فقد كان العوام يلجأون إلى العطارين الذين يبيعونهم بعض الأعشاب وينصحون باستعمال وسائل بدائية تفتقر إلى أبسط الأسس العلمية قائلين للمريض « هذا دواؤك وعند الله شفاؤك ».

إلا إن قادة النظام الجديد في العراق وبالتعاون مع السلطات البريطانية تبنوا خطوات جديّة للنهوض بالمستوى الصحي والوقائي والتعليم الطبي في

٣٣) علي جليل الوردي، مصدر سابق، ج١، الصفحات ٢٦٩ - ٢٧٣.

العراق. وقد كانت أول خطوة اتخذت بهذا الصدد هي تنظيف الأزّقة التي كانت تستعمل من قبل الصغار كمراحيض يتغوطون ويتبولون بها اثناء لعبهم خارج بيوتهم. وكانت تلك القذارة سببًا أساسيًا في انتشار الأوبئة والأمراض السارية القاتلة كالهيضة (الكوليرا) والطاعون وغيرها التي تنقلها الحشرات كالذباب والبعوض والبراغيث. ونتيجة السياسات الوقائية الصارمة وتأسيس مراكز صحية حديثة فقد اختفت تلك الأوبئة الرهيبة التي كانت تفتك بألوف البشر في بغداد وبقية المدن.

فحين دخل الجيش البريطاني بغداد عام ١٩١٧، أنشأت الإدارة العسكرية قسمًا للصحة المدنية أنيطت مسؤلياته لطبيب عسكري هو الكولونيل (العقيد) باتي (Colonel Batty) الذي وضع الخطوط الأساسية للنظام الصحي في العراق وكان مساعده طبيب شاب هو الكابتن (النقيب) هاري سندرسن (Captain Harry C. Sinderson) الذي أصبح لاحقًا أول عميد للكلية الطبية الملكية[٣٤].

وما بين عام ١٩٢١ و١٩٣٠ بنت الحكومة ٢٨ مستشفى و٩١ مستوصفًا منتشرة في معظم أنحاء العراق. وبسبب انتشار المؤسسات والمستشفيات والخدمة الطبية بأجور زهيدة وبسبب النتائج الجيدة بتحسن صحة المرضى، اقتنع الكثير من البسطاء بأن النظام الصحي الجديد يشفيهم وأولادهم فبدأوا يعتقدون بمصداقية وفاعلية الوسائل الصحية الحديثة.

وفي أيلول/سبتمبر/١٩٢١ تأسست وزارة الصحة وعين الدكتور حنا خياط (مسيحي) وزيرًا لها ولكن الأمر ألغي وألحقت المؤسسة بوزارة الداخلية. بعد ذلك تأسست في بغداد جمعية طبية سميت الجمعية الطبية البغدادية قام بإدارتها أطباء من الجيش البريطاني، ثم انضم إليها الأطباء العراقيون

٣٤) سالم الدملوجي، الكلية الطبية العراقية: من خلال سيرة ذاتية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٣) صفحة ١٩٣.

العائدون من الخارج. وبعد حوالي عشرة أشهر عقدت الجمعية المذكورة اجتماعًا في مستشفى العزل القديم ببغداد حضره عدد كبير من الأطباء وألقى الميجر (الرائد) هيجز (Major Hegas) كلمة أكد فيها على ضرورة تأسيس مدرسة لدراسة الطب وقد أثارت الكلمة نقاشًا بين مؤيدي الفكرة من أمثال الأطباء سامي شوكت وأمين المعلوف وهاشم الوتري، والأطباء المعارضين لفتح كلية لدراسة الطب الدكتور فائق شاكر الذي فضل إرسال الشباب لدراسة الطب في الخارج[٣٥].

وقد كان الرأي السائد مؤيدًا لفتح كلية لدراسة الطب وكان الملك فيصل الأول متحمسًا للفكرة ولكن بقي التنفيذ قيد الدرس إلى حين توفر الأبنية والأطباء والمستشفيات والتسهيلات الضرورية لتعليم الطلاب وقد تكللت الجهود بافتتاح الكلية الطبية الملكية العراقية في تشرين الأول / أكتوبر / ١٩٢٧، واستقبلت الدفعة الأولى من تلاميذها وكان عددهم عشرين طالبًا أكملوا الدراسة بعد خمس سنوات وتخرجوا في نهاية ربيع عام ١٩٣٢ وحصلوا على لقب دكتور في الطب وكانت تلك أول وجبة تخرجت من الكلية الطبية الملكية[٣٦]. وقد اقتضت الدولة من أولئك الخريجين أن يخدموا في المؤسسات الصحية لمدة خمس سنوات مقابل دراستهم الطبية المجانية.

وبحلول عام ١٩٣٠ ونتيجة للتعليم والتدريب وبناء المؤسسات الطبية العديدة أخذ لجوء الشعب العراقي إلى الطب الحديث يتزايد طرديًا كما يبين الجدول الآتي بأن عدد المراجعين للمستوصفات الحديثة قد تزايد في عشر سنوات لما يقارب الستة أضعاف[٣٧].

---

٣٥) المصدر السابق.

٣٦) نفس المصدر، صفحة ١٩٤.

٣٧) Foster, Opcit. P. 266

جدول (٤)

تقدم الخدمات الطبية في العراق من ١٩٢١ ـ ١٩٣٠

عدد المرضى الذين راجعوا المستوصفات	السنة
٧١٤,٤٦٢	١٩٢١
٥٧٥,٦٣٥	١٩٢٢
٨٨٦,٢٩٤	١٩٢٣
١,٠٧١,٨٨٦	١٩٢٤
١,٢٨٩,٦٠٤	١٩٢٥
١,٦٠٤,٩	١٩٢٦
١,٦٣٩,٨٦٦	١٩٢٧
٢,٥٩٠,٢٦٢	١٩٢٩
٣,٠٩٩,٩٣٤	١٩٣٠

وقد تبنت المدارس في جميع أنحاء العراق حملات توعية صحية وأصبح التعليم الصحي موضوعًا عموميًا ودارجًا. وبحلول عام ١٩٢٥ بدأ التلاميذ يخضعون للفحص الطبي رسميًا وبفترات محدودة ويتلقون التلقيح الطبي حسبما تقتضي الحاجة. هذا وقد شرعت الحكومة بإصدار نشرة صحية للإصابات المرضية في مختلف أنحاء العراق ونوع الأمراض وأسبابها ووسائل الوقاية والشفاء منها[٣٨].

٣٨) الوقائع العراقية، عدد ٣١١ في ٢٥/حزيران/١٩٢٥، صفحة ٣.

وخلال حكم فيصل الأول عقد العراق عدة معاهدات صحية عالمية كالآتي[٣٩]:

١ ـ The International Agreement of Brussels for Treatment of Venereal.

٢ ـ The International Agreement of Brussels for Treatment of Venereal Diseases 1924 - 1928.

اتفاقية بروكسل للأمراض الزهرية ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨.

٣ ـ The Agreement at the conference of New Eastern States for Regulation of Pilgrim Traffic from These States to Mecca.

معاهدة وقعت في بيروت لبلدان الشرق الأوسط لتنظيم السفر إلى مكة المكرمة ١٩٢٩.

٤ ـ The Dangerous Drug Con. In Geneva of 1925 - 1930.

معاهدة المواد الطبية الخطرة ـ جنيفا ـ ١٩٢٥ ـ ١٩٣٠.

٥ ـ The International Sanitory Convention of 1926 - 1931.

معاهدة الصحة الدولية ١٩٢٦ ـ ١٩٣١.

وقد قدمت تلك الكلية خدمات جليلة في ميدان الطب وتخرج منها العديد من الأطباء الذين واصلوا دراساتهم وحصلوا على أعلى الشهادات من أشهر الجامعات الأوربية والبريطانية والأمريكية، ثم تبوأوا مراكز مرموقة في البحوث الطبية على المستوى الدولي والعالمي أذكر منهم الأسماء التالية على سبيل المثال لا الحصر:

● **الأستاذ الدكتور خالد القصاب**: ولد في بغداد عام ١٩٢٤ من عائلة عراقية عريقة وتخرج في الكلية الطبية الملكية العراقية عام ١٩٤٦. مارس

---

٣٩) Foster, Opcit. P. 266

الطب في بغداد وحين انفجرت حرب فلسطين بين العرب والصهاينة تطوع مع الوفد الطبي لجمعية الهلال الأحمر في نابلس (١٩٤٨) ونال نوط الهلال الأحمر لخدماته أثناء معركة جنين التي أحرز بها الجيش العراقي نصرًا على العصابات الصهيونية تحت قيادة الضابط العراقي عمر علي. التحق الدكتور القصاب للعمل في المستشفيات البريطانية فحصل على شهادة (FRC) من كلية الجراحين في لندن وحين عاد إلى بغداد نال مرتبة الأستاذية (١٩٧٠) وكان مسؤولاً في الدراسات العليا في الكلية وأصبح الرئيس المؤسس لجمعية السرطان العراقية ومستشارًا في منظمة الصحة العالمية[٤٠].

● **الأستاذ الدكتور فرحان باقر**: ولد في قضاء الكاظمية عام ١٩٢٦ وتخرج في الكلية الطبية عام ١٩٤٧. حصل على درجة الماستر (M.S.C) في الطب الباطني وقضى السنة الثالثة رئيسًا للأطباء المقيمين في مستشفى مدينة نيويورك تحت مظلة كلية نيويورك الطبية. نشر خلال هذه الفترة ٣ بحوث في مجلات أمريكية. حصل على عدة شهادات وزمالات منها (F.C.C.P) في عام ١٩٥٤ من كلية الأمراض الصدرية الأمريكية وغيرها FRCAMFCP. أستاذ زائر لجامعة كاليفورنيا وسان فرانسيسكو. عضو أستشاري لمنظمة الصحة العالمية في الإسكندرية لمدة سنتين. ووما زاد من انتشار سمعة الدكتور باقر وتعزيز مكانته العلمية دوليًا البحوث العديدة التي نشرها في المصادر الطبية العالمية الكبرى[٤١].

٤٠) سالم الدملوجي، مصدر سابق، صفحة ٢٣٠.

٤١) رسالة شخصية كتبها البرفسور - الدكتور فرحان باقر بتاريخ ٢٧/٥/٢٠٠٩ بخط يده، بعد أن طلبها المؤلف منه، فتفضل بإرسالها مشكورًا. أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.

انظر أيضًا كوركيس عواد، معجم المؤلفين العراقيين: في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٨٠٠-١٩٦٩ (بغداد: مطبعة الإرشاد ١٩٦٩) ج٢، صفحة ٤٨٨.

● **الدكتور إحسان رؤوف البحراني**: لم أتمكن مع الأسف من الحصول على معلومات كافية عن هذا الطبيب العراقي الكبير، ولكن أخبرتني شقيقتي الدكتورة سانحة أمين زكي بأن الدكتور إحسان وشقيقه زهير البحراني احتلا مراكز طبية مرموقة على المستوى العالمي، وقد ورد اسم إحسان في معجم كوركيس عواد ج١ صفحة رقم ٧.

● **الأستاذة الدكتورة لمعان أمين زكي**: من مواليد بغداد ١٩٢٢ والدها محمد أمين زكي (بيك) ابن علي (آغا) نال لقب (البيكوية) من الجيش العثماني بعد أن تسنم رتبة (البيك باشي) وتلفظ بين باشي، أي آمر الألف نفر، والرتبة تعادل (المقدم) وهي الرتبة التي دخل بها أمين زكي في الجيش العراقي في عام ١٩٢٠ حينما كان زميل صفه جعفر (باشا) العسكري وزيرًا للدفاع. ويعود الفضل للأب أمين زكي في تشجيع ابنته سانحة أمين زكي للدخول في كلية الطب في عام ١٩٣٦ وكانت أول فتاة مسلمة تدخل الكلية الطبية رغم اعتراض بعض رجال العائلة وعدم رضاهم أن تجلس فتاة مع الشباب في نفس الصف. بعد ذلك أدخل الوالد ابنته لمعان التي تصغر شقيقتها سانحة بعامين، وبذلك أصبحت الشقيقتان الطبيبتان سانحة ولمعان رائدتان فتحتا الأبواب لبنات جنسهما من الفتيات العراقيات ليتخصصن في مجال الطب.

بعد تخرجها في كلية طب بغداد (١٩٤٥) حازت الدكتورة لمعان أمين زكي على دبلوم صحة الأطفال من جامعة لندن وعلى عضوية كلية الأطفال الملكية (لندن) ثم على زمالة الأطباء الملكية (لندن) وبعدها رجعت لتمارس الطب في بغداد.

مسؤوليات عالمية اضطلعت بها الدكتورة لمعان[٤٢]:

- عضو اللجنة المشرفة على دراسات التسمم بالزئبق جامعة ماكيل (كندا).
- رئيس المؤتمر العاشر لاتحاد جمعيات طب الأطفال لدول الشرق الأوسط والبحر المتوسط (١٩٧٥).
- استشارية صحة الطفل في منظمة الصحة العالمية.
- عضو الهيئة الإدارية لاتحاد جمعيات طب الأطفال العالمية ١٩٧٧ - ١٩٧٩.
- رئيسة اتحاد جمعيات طب الأطفال لدول الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط ١٩٧٥ - ١٩٧٨.

مسؤوليات محلية:

- مديرة مؤسسة لرعاية الأمومة والطفولة في وزارة الصحة العراقية ١٩٣٥ - ١٩٥٨.
- أستاذة ورئيس فرع طب الأطفال في كلية طب بغداد ١٩٦٩ - ١٩٧٩.
- رئاسة لجنة الدراسات العليا لطب الأطفال - جامعة بغداد ١٩٧٠ - ١٩٧٩.
- مؤسسة ورئيسة جمعية أطباء الأطفال العراقية ١٩٦٧ - ١٩٧٩.
- عضو مؤسس لجمعية رعاية المعاقين في العراق.
- عضو جمعية حماية الأطفال التي منحتها (نوط النجمة الفضية)

---

٤٢) د. أديب توفيق الفكيكي، تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث، الجزء الأول، الباب الثاني (بغداد: شركة النصر للطباعة المحدودة ١٩٨٩) الصفحات ١٧٧ - ١٧٨. انظر أيضًا سالم الدملوجي - مصدر سابق، ملحق (١) الصفحات ٢٤٧ - ٢٤٨.

لأعمالها المميزة في خدمة الطفولة في العراق.

- عضو جمعية البيت العربي التي تأسست لرعاية اللاجئين الفلسطينيين، ثم حولت نشاطها إلى تأسيس دور الحضانة لأبناء الموظفات والعاملات.

● الأستاذ الدكتور سالم فاروق الدملوجي[٤٣]:

ولا يسعني هنا إلا أن اذكر بإكبار الأستاذ (البروفسور) سالم فاروق الدملوجي (ولادة الموصل، ١٩٢٣) الذي كان وزوجته الدكتورة لمعان أمين زكي شريكان في الدراسات والإنتاج العلمي. وللدكتور سالم العديد من البحوث العلمية التي نشرت في أمهات المصادر الطبية العالمية.

مكانة الدكتور سالم الدملوجي الدولية:

- انتخب عضوًا فعالاً في جمعية أطباء الصدر الأمريكية (١٩٥٣).
- انتخب زميلاً في كلية الأطباء الأمريكية (١٩٥٦).
- انتخب رئيسًا للاتحاد الدولي لأمراض الصدر والتدرن ـ منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط (١٩٧٦ ـ ١٩٨٢).
- ترأس اجتماع الاتحاد الدولي الذي عقد في بغداد عام ١٩٧٩.
- عمل خبيرًا في منظمة الصحة العالمية لفترات مؤقتة.

تمثل هذه الأسماء نخبة من خريجي كلية طب ـ بغداد الذين ارتفعوا بمستوياتهم ليبلغوا أعلى المراكز العلمية الدولية، رافعين بذلك اسم العراق بين أمم العالم، وتنافسوا مع أعظم العقول الطبية في أنحاء المعمورة، ونشرت أبحاثهم في أمهات المصادر والإنسايكلوبيديات العالمية.

ولكن هل نال أولئك الأطباء العمالقة حقهم بالاحترام والتقدير من قبل

---

٤٣) كوركيس عواد، مصدر سابق، ج٢، الصفحات ٢٢ ـ ٢٣.

حكومتهم؟ كلاّ مع الأسف. فحين استولى الرئيس صدام حسين على الحكم عام ١٩٧٩ وترأس حكومة حزب البعث أحال ٤٨ طبيبًا من أكبر الأساتذة والعقول العلمية على التقاعد قسرًا لا لسبب سوى أنهم لم ينظموا إلى حزب البعث بل نذروا أنفسهم للبحوث العلمية التي خدمت العراق والإنسانية جمعاء، ثم كرسوا حياتهم لتدريس وتخريج الألوف من الأطباء العراقيين من الأجيال الجديدة. أحالهم الرئيس صدام حسين على التقاعد بجرة قلم وبشكل مهين، بما سمته الصحافة البريطانية (مجزرة مدينة الطب) كما أخبرني الدكتور فرحان باقر الذي كان من ضمن الذين أجبروا على التقاعد.

خسر العراق أولئك الأطباء الأساتذة الأفذاذ، ولم يكن من السهل تعويضهم بكوادر طبية جديدة تضاهي خبرتهم.

والجدير بالذكر هنا هو أنه أثناء العهد الملكي كان أطباء العراق ينتمون إلى جميع الطوائف العرقية والدينية والمذهبية والسياسية بدون أي تفرقة. ويضم كتاب الأستاذ الدكتور سالم الدملوجي أسماء أطباء أكراد وعرب وتركمان وأرمن ومسيحيين وممن انتموا إلى الأحزاب السياسية المختلفة. وكان العديد من طلاب الكلية الطبية الذين زاملوا الدكتور سالم - قبل خلق الكيان الصهيوني - من اليهود. فقد كان القبول في الكليات وبقية المجالات يتم حسب نظام الاستحقاق الذي سبق شرحه، ويقبل التلاميذ حسب معدلات درجاتهم، وقد أصبح عدد من أولئك اليهود من أشهر الأطباء والأساتذة في العراق وعلى سبيل المثال كرجي ربيع وجاك عبودي وغيرهم[٤٤].

---

٤٤) الدملوجي، مصدر سابق، الفصل الثاني: أساتذة الكلية الطبية الملكية العراقية (١٩٤٠ - ١٩٤٦).

حين اندلعت الحرب العالمية الأولى في شهر حزيران/يونيو عام ١٩١٤ بين دول أوروبا كانت الأكثرية العظمى من سكان الدولة العثمانية بجميع انتماءاتهم ضد تدخل الامبراطورية العجوز، وتوخوا الأمان بالبقاء خارج الحرب. إلاّ إن الثلاثي الطوراني جمال باشا، وأنور باشا، وطلعت باشا الذين هيمنوا على جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تحكم الأمبراطورية المتداعية، والذين طمحوا بتحقيق أمجاد عسكرية، وقّعوا في شهر آب/أغسطس/١٩١٤ معاهدة سرية مع السفير الألماني في أسطنبول، البارون فون واجنهايم (Baron Von Waggenheim) أعلنت الدولة العثمانية على أثرها وقوفها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر دخل الجيش العثماني في الحرب بعد أن أجبر شيخ الإسلام خيري أفندي، تحت ضغوط القادة الثلاث، أن يصدر فتوى إعلان الجهاد ويحث المسلمين للمشاركة في الحرب ضد الحلفاء الكفار.. أعداء الإسلام(٤٥).

وهكذا استطاع جمال وطلعت وأنور استغلال مقام شيخ الإسلام وأن يهيجوا المشاعر الدينية لجماهير المسلمين الذين استجابوا لفتوى الجهاد ونهضوا جميعًا عربًا وأكرادًا، سنة وشيعة، متأثرين بالشعراء والخطباء وهتفوا جميعًا بحياة السلطان محمد رشاد خليفة المسلمين وحامي حمى الدين.

قائد مسلم واحد فقط هو الشريف حسين بن علي (شريف مكة) لم يستجب لنداءات وفتاوى المسلمين بسبب طموحه بالاستقلال عن الأتراك بعد أن وعده الإنكليز عن طريق لورد هوراشيو هربرت كتشنر (Lord Horatio Herbert Kitchner) الذي أعطاه وعودًا ومواثيق إنه إذا أخذ جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية والألمان، وإذا ما فاز الحلفاء في الحرب فإنهم سيساعدوه

---

٤٥) علي جليل الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٤ (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١) الصفحات ١٢-١٤.

على تأسيس دولة عربية مستقلة يجلس هو على عرشها. وهنا واجه الشريف حسين خيارين: إما أن يحارب تحت راية الدولة العثمانية والحصول على رضا السلطان العثماني المسلم، أو التحالف مع الحلفاء (الكُفّار) والحصول على الاستقلال والجلوس على عرش دولة عربية كبرى مستقلة مسنودة من قبل القوى العظمى للحلفاء.

وقد لجأ الشريف حسين (كبير أشراف مكة) إلى نجليه عبد الله وفيصل يستشيرهم بصدد الخيارين الذين أمامه. وهنا ظهرت حصافة ونضوج أفكار فيصل (ملك العراق لاحقًا) إذ نصح والده بأن وعود اللورد كتشنر لا تزيد عن كلام معسول لا يسنده أي سند وسيتمكن كتشنر من التنصل عن وعوده بعد أن يحقق الحلفاء النصر[٤٦].

أما عبد الله فقد أيد عرض اللورد كتشنر ناصحًا والده أن يأخذ ما أمكن من المواثيق من أصدقائه الإنكليز. ويبدو أن الشريف حسين كان يميل إلى رأي عبد الله وفكرة الجلوس على عرش المملكة العربية الكبرى فتحدى الفتاوى الداعية لتأييد السلطان وفي ١٠/٧/١٩١٦ أعلن الثورة على الدولة العثمانية. وقد طالب الحسين الحلفاء أن تكون الدولة العربية التي وعدوه بها تضم في جوانبها فلسطين، ولبنان، وسوريا، والأردن، والعراق، وشبه الجزيرة العربية.

وبينما كانت الثورة العربية مشتعلة لمساعدة الحلفاء، وكان الشريف حسين يتفاوض مع السير هنري مكماهون (Sir Henry Mc Mahon) المندوب السامي الإنكليزي في مصر والسودان لتخطيط معالم الدولة العربية الكبرى الموحدة، كان الحلفاء في السر يتفاوضون على تفتيت واقتسام الدولة العربية التي تحت الحكم العثماني. وقد أسفرت تلك المفاوضات عن توقيع معاهدة

---

٤٦) George Antonious, The Arab Awaking (London: Hamus Hamilton, 1938) P. 142

سايكس - بيكو في ١٦ / ٥ / ١٩١٦ والتي بموجبها حصلت دول الحلفاء على حصص في العالم العربي كالآتي[٤٧]:

١. تحصل روسيا على إقليم إرزروم، وتريبزاند، ووان، وبتليز المعروفة باسم (أرمينيا التركية)، إضافة إلى مناطق تقع شمال كردستان.

٢. تحصل فرنسا على الخط الساحلي لسوريا، وولاية أدنا.

٣. تحصل بريطانيا العظمى على شمال أرض الرافدين وبغداد، وميناء حيفا وعقرا في فلسطين.

٤. المنطقة الواقعة ما بين المناطق الفرنسية والبريطانية ستكون كونفدرالية لبلدان عربية أو دولة عربية واحدة. وتقسم تلك الأراضي إلى مناطق نفوذ لفرنسا وإنكلترا.

لم يعرف الشريف حسين بخدعة وخيانة كـ.شنر ومكماهون والحلفاء إلا في عام ١٩١٧ بعد أن اندلعت الثورة البلشفية (الشيوعية) في روسيا التي أعلنت انسحابها من الحرب وكشفت على الملأ معاهدة سايكس – بيكو وانسحبت منها. إلا إن الآوان كان قد فات على الشريف حسين والعرب لعمل أي شيء بخصوص الحيف الذي وقع عليهم.

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، شهدت منطقة الشرق الأوسط تنافسًا للمطامع التي لا تنتهي بين فرنسا وإنكلترا على استعمار البلاد العربية وحصل خلاف بين من سيستأثر بأي من المواقع. وفي عام ١٩١٨ قسمت سوريا إلى ثلاث مناطق عسكرية: القسم الشرقي المسيطر عليه من قبل الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل، والقسم الغربي تحت السيطرة الفرنسية، والقسم الجنوبي تحت سيطرة الإنكليز. وقد ادعى الحلفاء أن هذه التقسيمات مؤقتة إلى حين استتباب الأمور وتحقيق الاستقلال العربي. إلاّ أنه اتضح فيما

---

٤٧) George Lenzowski: The Middle East in World Affairs – New York: Cornel University Press

بعد أن هذه الخطة من ضمن خداع الحلفاء للعرب وسياسة الاستعمار المبنية على فكرة فرق تسد. فهب فيصل مطالبًا بحقوق أبناء جلدته العرب ولمدة سنتين شد الرحال من عاصمة أوروبية إلى أخرى يطالب دول الغرب بتحقيق وعودهم وإعطاء العرب استقلالهم، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح حيث بقيت القوى العظمى تماطل وتوعده بوعود فارغة.

وفي يوم ١٩٢٠/٣/٨ عقد ممثلون من العراق وسوريا اجتماعًا وأعلن الأمير فيصل نفسه ملكًا على سوريا استنادًا على التأييد الكاسح من الشعب السوري(٤٨). إلا إن الفرنسيين لم يعترفوا بخطوة فيصل وبدأوا خططهم للإطاحة بالنظام الملكي السوري الوليد والعرش الهاشمي لذا فقد بدأ الجنرال الفرنسي هنري غورو (General Henry Gouraud) الذي تعين مدير شؤون الحلفاء في سوريا، بدأ يحوك المؤامرات لإسقاط حكم فيصل في سوريا فقام بدسائس هائلة لتأجيج الاضطرابات فأطلق إشاعات بأن المسيحيين قد أحرقوا المصحف الشريف وانتهكوا أعراض البكارى من الشيعة.. فهبت مجاميع من الشيعة وهجمت على المسيحيين وقتلت عددًا منهم، فاغتنم الجنرال غورو هذه الحادثة فهجم على الشيعة بقيادة ٤ آلاف جندي فرنسي لينتقم من المسلمين الشيعة أشنع انتقام، فأحرق بيوتهم وأعدم العشرات من رجالهم.

ويستند العلامة الاجتماعي علي جليل الوردي على مذكرات المربي الكبير ساطع الحصري حيث يقول أن الحصري سأل الضابط العراقي ياسين الهاشمي الذي كان مع قوات فيصل في دمشق، سأله عن إمكانية محاربة الفرنسيين، فأجاب الهاشمي أن الجيش العربي لا يستطيع الصمود أمام الفرنسيين لأكثر من ساعتين بسبب قلة السلاح والعتاد.

وقد استغل الجنرال غورو الشغب الديني فشرع بالتقدم لاجتياح دمشق،

---

٤٨) Sydney N. Fisher, The Middle East: A History, 4edit (New York: McGraw - Hill ,Inc. 1990) P. P. 416-417

وحين وصلت أخبار زحف الجنرال غورو أدرك الملك فيصل أن ليس أمامه سوى الحرب فعين المقدم يوسف العظمة على رأس المتطوعين المنادين بقتال الفرنسيين. وبالفعل شرع المتطوعون يتوافدون إلى منطقة ميسلون ومعهم بعض الأسلحة والعتاد البسيط الذي أثار سخرية الضابط العراقي والعسكري المحنك ياسين الهاشمي. وقد قرر قائد القوات العربية يوسف العظمة الخروج بنفسه إلى جبهة القتال فذهب ليودع الملك فيصل وجرى بينهم حوار مهم نورده هنا لمغزاه التاريخي الخطير.

يوسف: أتلقى أوامر جلالتكم.

الملك فيصل: بارك الله فيك. إذن أنت مسافر إلى ميسلون؟

يوسف: نعم يا مولاي، إلا إذا كنتم لا تودون ذلك وقد سمعتم الإنذار الخطير (وكان يوسف يشير إلى إنذار الجنرال غورو).

الملك فيصل: ولماذا كنت تصر بشدة على الدفاع المسلح؟

يوسف: لأني لم أكن أعتقد بأن الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والإنسانية ويقدمون على احتلال دمشق، وكنت أتظاهر بالمناورة للمقابلة بالمثل.

الملك فيصل: وهل يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم؟

يوسف: إذن فهل يأذن لي جلالة الملك أن أموت؟

الملك فيصل: بعد أن انتهت الأمور إلى هذا الحد يجب أن نموت جميعًا شرفاء وننقذ البلاد.

يوسف: إذن أنا أترك ابنتي الوحيدة ليلى لدى جلالتكم.

وفي الساعة الخامسة من صباح يوم ١٩٢٠/٧/٢٤ اندلعت معركة ميسلون واستمرت لبضع ساعات فقط[٤٩]. في الواقع لم تكن معركة بل

---

٤٩) Ibid, P. 417

مذبحة، فقد كان لدى القوات الفرنسية عشرة طائرات والعديد من الدبابات والمدافع والرشاشات، بينما لم يمتلك جيش العرب حتى طائرة واحدة، وكان لديهم بضعة مدافع والقليل من العتاد. وقد أبدى الجيش العربي صمودًا وبسالة واضحة. فقد استشهد منهم ٤٠٠ رجل ما عدا الجرحى، وهي نسبة عالية لجيش مكون من بضعة آلاف، وكان بين القتلى عدد من رجال الدين الذين اعتبروا القتال في ميسلون جهادًا في سبيل الله. وقد استشهد القائد يوسف العظمة بصلية رشاش فضرب بذلك مثلاً رائعًا بالشجاعة والتضحية والإيمان بمعتقداته حتى الموت.

إلاّ أنه يتضح بأن المرحوم يوسف العظمة راهن على المناورة و«البلف Bluffing» معتقدًا أن باستطاعته تحقيق نجاحات سياسية ضد الفرنسيين بدون إراقة الدماء. وكان ذلك التفكير دليل على السذاجة وعدم إدراك بخصائص قوات الاستعمار التي لا تهتم بشيء سوى خدمة مصالحها. أما شعارات حقوق الإنسان والقوانين الدولية التي يطلقها الغرب فإنها تصبح عبارة عن هراء حين يجد الجد وتُهدد مصالحها.

وقد تكررت مأساة ميسلون وعدم إدراك القادة العرب لقدراتهم لمواجهة الغرب في العراق عام ١٩٢٠، وعام ١٩٤١، وفي مصر عام ١٩٦٧، وبعد ذلك انهيار العراق في بداية القرن الواحد والعشرين، هذه الكوارث الكبرى أدت إلى تراجع البلاد العربية وإجهاض خططهم للنهوض ببلدانهم وتحقيق التقدم والرفاه لشعوبهم المظلومة المتأخرة.

بعد معركة ميسلون التفت جماهير العرب حول فيصل ابن الحسين لأنه لم يضعف أمام قوة فرنسا وتحداها بإعلانه النظام الملكي المستقل في سوريا. وقد أقلقت شعبية فيصل قوى الانتداب وكانت فرنسا شديدة التشكيك في نوايا فيصل الذي كانت بريطانيا العظمة تؤيد ترشيحه لعرش العراق، ويبدو ذلك من الرسالة السرية الآتية الصادرة من المندوب السامي الإنكليزي في العراق

والموجهة إلى وزير المستعمرات البريطاني[٥٠]:

برقيتي عدد ٩٧١ لهذا اليوم. نُشرت المعلومات الآتية في (تيمز) هذا المساء مشيرة إلى تقرير في الديلي إكسبريس بأن الحكومة الفرنسية تعارض إذا ما أصبح فيصل ملكًا على بلاد وادي الرافدين. الأمير فيصل الذي أسس التجنيد الإجباري في سوريا لغرض محاربة فرنسا، والذي هاجم جيشه القوات الفرنسية لا يمكن أن يصبح ملكًا على بلاد الرافدين دون أن يهدد المصالح الفرنسية (وكما نعتقد أيضًا) المصالح الإنكليزية. الدولة الفرنسية لا تعتبر ترشيحه (أي الأمير فيصل) كسلوك ودّي. إن لندن مدركة كل الإدراك لوجهة النظر الفرنسية ونحن معتقدون بشأن طموح الشيخ الحجازي والذي هو طامح بعرش آخر، سوف لن نسمح له بتأجيج الشقاق بين فرنسا وإنكلترا، حيث إن مصالح هاتين الدولتين متطابقة في بلدان العرب.

المعلومات الواردة في البرقية أعلاه تكشف عن وجود شكوك عميقة متبادلة بين الملك فيصل ودول الاستعمار التي أرادت أن تفرض نظام الانتداب على البلاد العربية مع فيصل أو بدونه. العامل الأساس الذي أثر على تفكير فيصل وسياسته تجاه العرب وتجاه دول الاستعمار الكبرى هو إدراكه لمقدار الضعف والتأخر الرهيب الذي تعاني منه الدول العربية، مقارنة بالقوة الهائلة والقدرة التي تمتلكها دول الاستعمار. فبعد التجارب الكبرى التي مر بها، توصل فيصل للتفريق بين الشعارات العاطفية والأناشيد الحماسية والأهازيج الشعبية والأشعار التي تمجد عنترة العبسي وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي وغيرهم من الأبطال والقادة الذين فتحوا الدنيا قبل قرون عديدة، وبين

---

٥٠) Government of Great Britain, Telegram from the high Commissioner for Mesopotamia to the Secretary of State for the Colonies. No. 396, 16 August 1921. L/ P&S/10/919

السياسة الواقعية التي يتطلبها القرن العشرين في مواجهة بلدان تمتلك أعلى الإنجازات العلمية والتكنلوجية وأعتى آلة حربية عرفها تاريخ البشر.

وفي عام ١٩٢٠ اندلعت ثورة العراقيين من عشائر الفرات الأوسط ضد الاحتلال الإنكليزي وانتشرت إلى باقي أنحاء العراق، إلا إن جبروت الجيش البريطاني وسلاحه الفتاك كسر شوكة الثوار الذين أبدوا أروع أوجه البسالة في قتالهم ضد دبابات وطائرات الإنكليز، بينما كان سلاح الثوار عبارة عن بنادق قديمة ومسدسات وفؤوس وحتى وسائل صيد الأسماك (الفالة)[٥١].

ويصف السيد عبد الرزاق الحسني ثورة العشرين وصفًا يجعل كل عراقي فخورًا بالانتماء إلى هذا الشعب المجيد العزيز النفس الذي يأبى الضيم والخضوع للأجنبي، فيقول:

لم يقتصر انتصار الثوار على احتلال مدن الفرات الأوسط وطرد الجالية البريطانية من معظم قصباته وقراه، فقد أخليت «الخضر» و«سوق الشيوخ» و«قلعة سكر» كما عزلت «قصبة السماوة» عن الطريق البرية واستولى الثوار على «دلتاوة» و«بعقوبة» و«مندلي» و«شهربان» و«خانقين» و«لواء ديالى» وأسسوا حكومات محلية في بعض هذه القصبات والقرى. وسرعان ما سرت الثورة إلى لوائي كركوك وأربيل سريان النار في الهشيم. وكانت سلطات الاحتلال في «لواء الدليم» تعتمد على الشيخين علي السلمان ومحروث الهذال، ولكن سرعان ما قتل جماعة الشيخ ضاري رئيس قبيلة زوبع المقدم ليجمان (Liutanant Colonel Leachman) في (خان النقطة) بين بغداد والفلوجة في اليوم ١٢/٨/١٩٢٠ فاندلع لهيب الثورة من «الفلوجة» إلى

٥١) الفالة: هي آله تشبه الرمح يستعملها سكان الأهوار لصيد الأسماك. وقد استعملها الثوار من أبناء تلك المنطقة أثناء الثورة حيث كانوا يختبئون بين الأحراش فإذا رأى أحدهم جنديًا إنكليزيًا باغته بطعنه في بطنه بواسطة الفالة ثم يسحبها بعنف فيرى الشاب الإنكليزي التعيس الحظ أمعائه تخرج مع الفالة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

«عنة» حيث اندحر الإنكليز في هذا اللواء أيضًا[٥٢].

وكانت القوات الإنكليزية في العراق الصالحة للخدمة الفعلية عبارة عن (٤٢٠٠) جندي بريطاني و(٣٠٠٠٠) جندي هندي فأمَدّتْ حكومة الهند القيادة العسكرية في العراق بالرجال والعتاد بما يزيد على ١٣٠٠٠٠ جندي بين بريطاني وهندي وأجنبي، فكان من البديهي، كما يقول الحسيني أن تتغلب القوة على الحق[٥٣].

هذه العبارة الأخيرة تعتبر بيت القصيد ودعامة السياسة التي تبناها الملك فيصل الأول بعد جلوسه على العرش في عام ١٩٢١. فقد كانت معركة ميسلون والثورة العراقية دروسًا مُرّة تعلم منها بأن اللجوء إلى القوة والثورات المسلحة لأجل تحقيق الاستقلال هو بحكم المستحيل وإن بإمكان دول الاستعمار تكرار مذابح سوريا والعراق في أي بلد حسب قرارات لندن وباريس. لذلك فقد كان أمام الملك فيصل خياران: الخيار الأول أن يلتحق مع الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال الفوري فيبقى الاحتلال ويتفتت العراق وتضيع الموصل إلى تركيا والبصرة إلى إدارة الهند ويُزاح هو، ثم يجيء الحلفاء بشخص من بعده يقبل صاغرًا بعرش ما يتبقى من العراق بعد ضياع الأرض والثروات وكل الأهداف المتوخاة. أما الخيار الثاني فهو التريث واتباع سياسة الكياسة والرزانة وتحقيق الأهداف عن طريق ربط المصالح المتبادلة واتباع الخطوات البطيئة التي تؤدي في النهاية إلى تحقيق الأهداف تدريجيًا.

وبحصافة رأي ونضوج سياسي اختار الملك فيصل المسار الثاني فاستطاع أن يحقن الدماء وأن يحقق معظم أهدافه عن طريق التضحية مؤقتًا ببعض المصالح ومن ثم اتباع سياسة خذ وطالب، وتمكن بتلك الحكمة وبمساعدة

---

٥٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج١ الطبعة الثالثة (بيروت: مطبعة دار الكتب، ١٩٧٥) صفحة ١٤٥.

٥٣) المصدر السابق، صفحة ١٤٦.

أتباعه المخلصين من بناء كيان الوطن الجديد بجميع مكوناته، لبنة بعد لبنة وجزء بعد جزء وطبقة فوق طبقة كما يبني البنّاء الحاذق وكانت النتيجة بعد عشر سنوات فقط ظهور صرح العراق الحديث الذي بقيت أراضيه ومكوناته متماسكة من شمال الموصل إلى جنوب البصرة حتى عام ١٩٥٨ .

كان الهدف الصعب الأول الذي اضطلع الملك فيصل فيه وحققه بمساعدة الإنكليز ومساعدة بطانته هو خلق كيان العراق ودمج مكوناته وجعله دولة قابلة للحياة . أما الهدف الثاني، أو بالأحرى الحمل الثقيل الثاني، الذي توخاه فيصل وحكومته فكان التعامل مع جبروت الإنكليز ومحاولة استخلاص ما يمكن من حقوق ومصالح العراق الوطنية والقومية من بريطانيا العظمى التي تفرض سيطرة سلطتها الانتدابية على العراق . ولم تكن جهود ومحاولة إرضاء أطماع بريطانيا والاحتفاظ بمؤازرتها، وبنفس الوقت إرضاء الرأي العام العراقي، نقل عنتًا عن خلق وتكوين العراق . لأن معظم الشعب العراقي كان يكره الإنكليز كراهية التحريم .

الملك فيصل والإنكليز

حين اعتلى فيصل بن الحسين عرش العراق في صبيحة الثالث والعشرين من آب / أغسطس / ١٩٢١ في احتفال جرى في ساحة السراي في بغداد، كان شابًا لم يتجاوز السادسة والثلاثين . ولكنه كان على جانب كبير من الدراية بطبيعة أوضاع العراق وبالتعقيدات التي تنطوي عليها مسؤولية حكمه . فقد رافق العديد من الضباط الشباب العراقيين الذين شاركوه في ثورة العرب (١٩١٦) التي قادها والده، واكتوى بالاخفاق الذريع في سوريا وعاصر ثورة سنة ١٩٢٠ في العراق واطلع على أوضاع العلاقات الأثنية والعشائرية والدينية والمذهبية ومدى التخلف الذي ورثه العراق من الحكم العثماني والمشاكل التي خلفها الجيش البريطاني بعد العنف الذي استُعمِل لتثبيت الاحتلال في العراق .

وفي حفل مبايعته ملكًا على العراق من قبل الطوائف المسيحية الكاثوليكية في كنيسة الكلدان في يوم ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٢١ وبوجود المس جرترود بيل - الذي كان لها وللسير بيرسي كوكس المندوب السامي، دورًا كبيرًا في اختيار فيصل - ألقى الملك خطابًا قال فيه «اسمحوا لي أن أقول إن العراق بقي ٨٠٠ سنة تحت الحكم الأجنبي ينتقل من استبداد إلى استبداد حتى وصل إلى هذه الدرجة من التأخر. أما أنا فلا أطلب أن تصبروا على هذا العهد الطويل، بل أعطوني عوض كل مائة سنة، لا بل عوض كل مائتي سنة، سنة واحدة. وبعد انقضاء أربع سنوات تعالوا نناقش الحساب، فأعطيكم تفاصيل عن الأعمال التي قمت بها»[٥٤]. وهكذا بدأ المغفور له الملك فيصل الأول حكمه بوعود للعراقيين بجميع أطيافهم بالشروع ببناء وتطوير العراق بأسرع ما يمكن.

سبق أن أشرنا إلى إن أول حكومة عراقية كانت قد تشكلت برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب في ٢٥ / ١١ / ١٩٢٠. وبما إنها كانت وزارة مؤقتة فقد قدمت استقالتها حال تبوء الأمير فيصل العرش حسب متطلبات الحكم الدستوري. وقد أراد الملك أن يكلف واحدًا من العناصر التي يعتمد عليها ويقوم باختياره هو، إلا إن المندوب السامي السير بيرسي كوكس أصر على تعيين السيد عبد الرحمن النقيب لرئاسة الوزارة الثانية والتي تشكلت في ٣٠ / ٩ / ١٩٢١ [٥٥]. وقد كانت نيّة الحكومة البريطانية تمديد الانتداب بشكل معاهدة تتضمن سيطرة استعمارية مبطنة خوفًا من تكرار الانفجار.

لذلك فقد بدء شوطًا صعبًا من مفاوضات عسيرة بين الطرفين، الحكومة العراقية تصبو إلى تحقيق أكثر ما يمكن من الاستقلال وتقرير المصير، بينما

---

٥٤) علاء نورس: فيصل الأول (جامعة الإمارات العربية المتحدة - إدارة المطبوعات، ٢٠٠٨) صفحة ٨٣.

٥٥) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج (بيروت: دار الكتب، ١٩٧٦) صفحة ٤٨.

الطرف البريطاني يصر على تثبيت سلطته الاستعمارية وخدمة مصالحه في العراق. فبدأت المفاوضات بين الجانبين لعقد المعاهدة المقترحة، وأكد العراقيون على رفض الانتداب البريطاني وأي معاهدة تتضمن بنود الانتداب البريطاني أو أي معاهدة تتضمن بنود الانتداب، بينما أصر الإنكليز على وجوب عقد معاهدة بين بريطانيا والعراق تحتوي على فرض الانتداب بدون ذكر هذا المصطلح، وتذكر المس بيل إن كلمة الانتداب كانت مكروهة عند العراقيين[٥٦].

وشهدت بغداد تجمعات شعبية في عام ١٩٢٢ ألقيت فيها الخطب الحماسية ضد الإنكليز، وقابل بعض الوجهاء والزعماء السياسيين الملك فيصل الذي قال لهم «أنه لا يمكن أن يقوم بعمل ضد رغبات الشعب، وأعرب عن رغبته في أن يطلعوا الناس على موقفه هذا».

وفي يوم ٢٤/٨ أصيب الملك بالزائدة الدودية، واضطر لإجراء عملية جراحية لاستئصالها، فتولى المندوب السامي السير بيرسي كوكس إدارة البلاد فقام بخطوات تعسفية عنيفة حيث نفى كل من عارض الانتداب وقصفت القنابل الإنكليزية القبائل التي عارضت السياسة الإنكليزية واستمر القمع التعسفي، وبعد القضاء على حركات التمرد أجبر كوكس وزراة عبد الرحمن النقيب الثانية على توقيع المعاهدة في ١٠/١٠/١٩٢٢ وبذلك ثبت نظام الانتداب في العراق[٥٧].

وقد وافق الملك فيصل مرغمًا على معاهدة الانتداب لأن مملكته الوليدة كانت مهددة من عدة جهات داخلية وخارجية. فأراد الملك ان يربط مصالح الإنكليز مع حكومته لأجل الحصول على مساعدتهم في تثبيت ركائز دولته والحؤول دون انفصال الأقليات كالأكراد والآثوريين والاستقلال في شمال العراق.

٥٦) علاء نورس، مصدر سابق، الصفحات ٨٦-٨٧.

٥٧) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج٣، الصفحات ١٥-١٧.

أما التهديد الخارجي فقد تعرض العراق لهجمات القبائل النجدية على قبائل جنوب العراق في شهر آذار من عام ١٩٢٢ وألحقت بها خسائر جسيمة في الأرواح والأموال وقد تكررت تلك الغارات من العشائر النجدية على القبائل العراقية، لذلك فقد عقد مؤتمر في كربلاء في ١٣ و١٧ نيسان / إبريل من عام ١٩٢٢ حضره العلماء ورؤساء العشائر والوجهاء، وحضره وزير الداخلية توفيق الخالدي ليشارك في المباحثات، وبعد نقاشات ومفاوضات طويلة أدرك فيها المجتمعون وضع العراق المعرض للأخطار فوقعوا وثيقة رفعت للملك فيصل ليتخذ الإجراءات اللازمة « لحفظ مصلحة البلاد العامة والحفاظ على الأماكن المقدسة وقبور الأولياء وسلامتها من جميع طوارئ العدوان وخصوصًا عادية الإخوان . . . أي القبائل النجدية الوهابية »[٥٨].

لهذه الأسباب لم يكن أمام الملك فيصل وحكومته مندوحة سوى اللجوء إلى الدولة العظمى بريطانيا والإقرار بمطالبها بخدمة مصالحها مقابل الحصول على حمايتها إلى حين تتمكن المملكة حديثة الولادة من تثبيت وتماسك أركانها والتطور إلى الحد الذي يمكنها من الدفاع عن حياضها.

واستمرت المفاوضات بين أخذ ورد بين الملك وبريطانيا لمدة عام كامل واستطاع الملك فيصل أن ينتزع مبدأً مهمًا نحو استقلال العراق مفاده (يتعهد جلالة ملك بريطانيا أن يسعى لإدخال العراق في عضوية جمعية الأمم في أقرب وقت ممكن (المادة السادسة من المعاهدة))[٥٩].

ولما أدركت الحكومة البريطانية أن الشعب العراقي يعارض بشدة المعاهدة التي أكرهت الوزارة النقيبية على توقيعها في ١٠ / ١٠ / ١٩٢٢ وكانت أحزاب المعارضة في إنكلترا تستنكر الاحتلال البريطاني للعراق ونفقاته الباهضة رأت

٥٨) كاظم نعمة، الملك فيصل الأول والإنكليز والاستقلال (بيروت : الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٨) الصفحات ١٠٨ - ١٠٩ .

٥٩) انظر جريدة العراق، عدد ٧٦٧، ٢٤ / ١١ / ١٩٢٤ .

أن تقلل مدة المعاهدة من عشرين سنة إلى أربع سنوات فاستدعت السير بيرسي كوكس إلى لندن وأصدرت بروتوكولاً في ٣٠/٤/١٩٢٣ بتخفيض مدة المعاهدة وبذلك استطاع الملك من تخفيف سورة المعارضة إلى حد ما[٦٠].

هذا وقد فاجأت الوزارة أزمة مالية شديدة اضطرتها إلى الاستقالة في ١٥/١١/١٩٢٣، وقد وافق ذلك رغبات الملك فيصل، فقد أراد تبديل تلك الوزارة بعد أن أنجزت الانتخابات المقتضاة للمجلس التأسيسي وبعد أسبوع كلف الملك جعفر العسكري لتأليف الوزارة العسكرية الأولى التي تألفت في يوم ٢٦/١١/١٩٢٣. وقد حسمت هذه الوزارة موضوع المعاهدة بشكل نهائي، ثم اتمت الانتخابات للمجلس التأسيسي وجمعته في ٢٧/٣/١٩٢٤، واستحصلت مصادقة المجلس على دستور المملكة وقانون مجلس النواب، ثم استقالت حسب البروتوكول الدستوري بعد إنجازها لتلك المهمات[٦١].

وقد ضجت المعارضة بالاحتجاج على المادة (١٩) من القانون الأساسي لأن مشرعي القانون منحوا الملك بموجبها صلاحيات واسعة تزيد على صلاحيات الملوك في النظم الديمقراطية الغربية، وقد برر المشرعون ذلك لسببين: أولاً إن المملكة الوليدة قليلة التجربة والممارسة مع نظام سياسي ليبرالي، ثانيًا إن المرحلة البدائية التي تمر بها الدولة وطبيعة مكونات السكان المختلفة تستوجب قيام حكم مركزي قوي ذي صلاحيات واسعة لأجل ضمان تماسك الدولة[٦٢].

بعد استقالة وزارة جعفر العسكري كلف الملك فيصل في ٤/٨/١٩٢٢ السيد ياسين الهاشمي أن يؤلف الوزارة. وقد كان السيد الهاشمي على رأس المعارضة في المجلس التأسيسي، وترأس لجنة تدقيق المعاهدة العراقية ـ الإنكليزية وعارضها باعتبارها مجحفة بحق العراق. والجدير بالذكر هنا أن

---

٦٠) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج٣، صفحة ٢١.

٦١) نفس المصدر، الصفحات ٢٤ ـ ٢٧.

٦٢) كاظم نعمة، صفحة ١٥٤.

السيد الهاشمي لعب دورًا هامًا لتحقيق إنجازات تاريخية مهمة في خدمة السياسة الخارجية للعراق. فخلال السنوات الثلاث التي مضت منذ اعتلاء فيصل لعرش العراق اندمج «إقليم» البصرة مع بغداد وأصبح جزءًا من الدولة العراقية الناشئة، ثم رسمت الحدود بين العراق ونجد (جنوبًا) استنادًا على معاهدة المحمرة لعام ١٩٢٢ وبروتوكول العقير لعام ١٩٢٣، وخططت الحدود مع الكويت عام ١٩٢٣ واتفاقية بحرة التي كانت قيد المفاوضات[٦٣].

إلاّ إن القادة العراقيين بقوا يعتبرون الكويت جزءًا من لواء البصرة العراقي مما تسبب بمشاكل دولية كبرى استمرت خلال العهود التي مر بها العراق وحتى بداية القرن الواحد والعشرين[٦٤].

لم يشأ السيد ياسين الهاشمي أن يتحمل مسؤولية إمرار المعاهدة البريطانية العراقية، لذلك فقد اعتذر عن الاضطلاع برئاسة الوزارة إلى أن استقالت وزارة جعفر العسكري التي استحصلت موافقة المجلس التأسيسي لإمرار المعاهدة والانتهاء من هذا الموضوع الشائك الذي سبب الكثير من الاحتجاجات الشعبية والاهتزازات داخل الدولة.

وقد واجهت وزارة الهاشمي مشاكل على المستويين الداخلي والخارجي. فقد تمرد الزعيم الكردي المعروف الشيخ محمود وأخذ ينشر الرعب في القرى الشمالية فارضًا الأتاوات على الأهالي المسالمين، فجردت الدولة حملة عسكرية احتلت لواء السليمانية في يوم ١٩/٧/١٩٢٤ وضمت السليمانية إلى

---

٦٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج٣، صفحة٣٣.

٦٤) طالب الملك غازي بالكويت قبل وفاته، وفي سني الخمسينيات حاول رئيس الوزراء نوري السعيد دمج الكويت في الاتحاد الهاشمي مع العراق والأردن، وبعد انقلاب ١٤/٨/١٩٥٨ أعلن (الزعيم) عبد الكريم قاسم الكويت كقضاء عراقي ولكنه فشل في إلحاقه بالعراق وقتل، وأخيرًا اجتاح الرئيس صدام حسين الكويت في عام ١٩٩٠ مما أدى إلى حرب كبرى شنتها قوات الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة حسب المادة المتعلقة بـ (Collective Security) الأمن العام لميثاق الأمم المتحدة، وقد تعرض العراق لهجوم شامل وتكبد خسائر هائلة في الأرواح والأموال.

الوحدات الإدارية العراقية وأُرسِل متصرف (محافظ) عُيِّنَ من بغداد لإدارتها. أما في الجنوب فقد عصى الشيخ سالم الخيون رئيس بني أسد في لواء المنتفق فقامت الدولة بإخضاعه لسلطة العاصمة بغداد.

أما التحدي الأكبر الذي جابه الوزارة الجديدة والملك فيصل هذه الفترة فهي قضية احتمال ضياع منطقة الموصل الشمالية الغنية بالمصادر إلى تركيا. ففي تلك الفترة بدأ البريطانيون يدركون الحجم الهائل لمخزون النفط في شمال العراق وضرورة السيطرة عليه لأجل تعويض خسائر الحرب العالمية الأولى التي استنزفت أموالاً ومصادر طبيعية جسيمة ثمنًا للنصر ضد ألمانيا وحلفائها.

في نفس الوقت أصبح الجنرال مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا للجمهورية التركية بعد أن أسقط السلطنة العثمانية وألغى الخلافة الإسلامية وأعلن تركيا دولة قومية علمانية. وقد أدرك أتاتورك أن المناطق المحيطة بلواء كركوك في شمال العراق، والتي تسكنها جالية تركمانية، تحتوي على مخزون كبير من النفط فطمع بإلحاق شمال العراق بدولته خدمة للمصالح القومية لتركيا.

أما المملكة العراقية الوليدة فقد أعلن الملك فيصل والنخبة الكلاسيكية انتمائهم إلى القومية العربية وبأن العراق جزء من البلاد العربية، وبما أن منطقة الموصل تسكنها قبائل عربية عريقة، فهي ترجع للعراق.

اعترضت تركيا على مطالبة العراق بالموصل وعلى اتفاقية الهدنة ومؤتمر لوزان التي لم تكن بصالحها[٦٥]. وتفاقمت القضية بين الجمهورية التركية، الدولة الأكبر والأقوى عسكريًا والعراق الناشئ الضعيف والقابع تحت الانتداب البريطاني، فاحيلت القضية إلى عصبة الأمم لحلها، فتم تشكيل لجنة وصلت إلى بغداد في يوم ١٥ / ١ / ١٩٢٥ ثم ذهبت إلى المنطقة المتنازع عليها فلبثت فيه أكثر من شهرين تحقق وتدقق. وكانت اللجنة تضم ممثلين من السويد

٦٥) جاريث ستانفيلد، العراق: الشعب والتاريخ والسياسة (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٧) صفحة ٥٤.

وهنغاريا وبلجيكا، ولكن اتضح خلال المداولات بأن عصبة الأمم واللجنة المبعوثة من قبلها خاضعة كليًا للنفوذ البريطاني وإن قرار اللجنة لإدماج الموصل مع مساحة المملكة العراقية يتوقف على قبول العراق لاتفاقية نفط تمليها بريطانيا حسب مصالحها.

وهكذا وجدت وزارة السيد ياسين الهاشمي نفسها أمام تهديد سافر، أما المصادقة على اتفاقية النفط وإما ضياع ولاية الموصل.

ولأجل إيضاح موقفها بشكل قاطع، قدمت لندن إلى فيصل والحكومة العراقية الإنذار التالي[٦٦]:

> يجب على الحكومة العراقية أن تفهم إن مسودة المعاهدة كما هي عليه تمثل السبيل الوحيد الذي في وسع حكومة صاحب الجلالة أن تنال به للعراقيين الحدود التي يعدونها أساسية لمستقبل العراق. فإذا هم رفضوا قبول هذه المعاهدة أو إذا خلقوا مصاعب في طريق قبولها، فليس لهم أن يتوقعوا مساعدة في المستقبل من حكومة صاحب الجلالة.

وبعد مداولات مطولة من البرلمان توصل مجلس الوزراء بأن ضياع المنطقة الشمالية برمتها إلى تركيا سيكون دائمي وإلى الأبد بينما الموفقة على المعاهدة مع بريطانيا هو قرار مرحلي تتطلبه الضرورة الآنية ومن الممكن تبديله في المستقبل مع الاحتفاظ بمنطقة شمال العراق.

لذا قرر مجلس الوزراء في جلسته الخاصة بتاريخ ٥ / ٣ / ١٩٢٥ الموافقة على إبرام اتفاقية النفط مع شركة النفط التركية بالشروط التي يريدها المساهمون بدعم من بريطانيا. كما قرر مجلس الوزراء تحويل وزير المواصلات السيد مزاحم الباججي توقيع الاتفاقية نيابة عن الحكومة حيث كانت شؤون النفط في ذلك الحين تدار من قبل وزارة المواصلات. وقد قام السيد مزاحم الباججي

٦٦) كاظم نعمة، مصدر سابق، صفحة ١٧١.

بتوقيع الاتفاقية بتاريخ ١٤/٣/١٩٢٥ تنفيذًا لقرار مجلس الوزراء بعد أن كان الباججي من المعارضين لتلك المعاهدة[٦٧].

بعد الفراغ من عقد المعاهدة العراقية ـ البريطانية الثانية بدأت الجهود تركز على تحسين العلاقات بين تركيا والعراق. فقد أولى الملك فيصل والقادة العراقيون أهمية خاصة للعلاقات مع دولتي الجوار الأكبر والأقوى، تركيا وإيران نظرًا لأن معظم مصادر مياه بلاد الرافدين تنبع منهما إضافة إلى العلاقات التاريخية والدينية والحضارية الوثيقة التي تربطهم. وبعد مفاوضات قصيرة قررت تركيا الخضوع للأمر الواقع، وفي ١٥/٥/١٩٢٦ قرر مجلس الوزراء العراقي الموافقة على مسودة المعاهدة التي وضعتها الحكومة البريطانية. وثبتت علاقات حسن الجوار بين العراق وتركيا. وقد أوفد نوري سعيد إلى أنقرة لتوقيع المعاهدة الثلاثية في ٥/٦/١٩٢٢ بالنيابة عن الحكومة العراقية، والسير رونالد جارلس لندزاي، السفير فوق العادة لبريطانيا العظمى في إنقرة، والدكتور توفيق رشدي بيك، وزير خارجية الجمهورية التركية[٦٨].

هبت المعارضة والصحافة وانتلجنتسيا تشجب المعاهدة لأنها جعلت نفط العراق تحت هيمنة شركة نفط العراق (I.P.C). والتي هي في الواقع تحت هيمنة بريطانيا، ولأن المعاهدة لم تجعل الحكومة العراقية شريكًا في شركة النفط ولم تخول العراق في المشاركة بصناعة القرارات المتعلقة بنفطه. وكان كل من رشيد عالي الكيلاني، وزير العدل، ومحمد رضا الشبيبي، وزير المعارف قد استقالا بعد اطلاعهما على مسودة المعاهدة[٦٩].

---

٦٧) عبد الله إسماعيل، مفاوضات العراق النفطية: ١٩٥٢–١٩٦٨ (لندن: LAAM LID، 1989) الصفحات ٦ ـ ١٧.

٦٨) Turkey No.1 (1926) Treaty Between the United Kingdom and Iraq and Turkey. Regarding the Settlement of the Frontier between Turkey and Iraq -Angra, June 5, 1926-

٦٩) Muhsin Al-Mosawi: iraq`s Oil (Baghdad: Al-Jumhuriyah Printing 1973) P. P. 4-46

بعد توقيع المعاهدة الثلاثية قدم رئيس الوزراء ياسين الهاشمي استقالته إلى الملك في ٢١/٦/١٩٢٦ فقبلت، ثم أسند الملك رئاسة الوزراء إلى السيد عبد المحسن السعدون الذي كان مؤمنًا بفائدة المعاهدة لمصلحة العراق ورد على المحتجين ضدها بمذكرة وجهها إلى رئيس مجلس النواب شارحًا الأسباب الموجبة لعقد المعاهدة قائلاً «لأن العراق قد حصل فيها على فوائد جمّة منها، اعتراف تركيا بالعراق كدولة مستقلة، وتأمين استقرار الأحوال في المنطقة الشمالية، بتأليف لجنة الحدود الدائمة»[٧٠].

بعد ذلك بادرت القيادة العراقية إلى استئناف المفاوضات مع بريطانيا لتعديل المعاهدة البريطانية ـ العراقية لسنة ١٩٢٢ والمعدلة بمعاهدة ١٩٢٦ إلا إن اللجان التفاوضية الوزارية التي تألفت لهذا الغرض لم تجد من الجانب البريطاني أي تقبل للعروض العراقية في التعديل. وقد كان الملك فيصل يحرص أشد الحرص على تعديل معاهدة ١٩٢٢ والمطالبة باستقلال العراق، إلا إنه لجأ إلى التعقل والهدوء في مفاوضاته مع الإنكليز مخافة أن يثير رد فعل سلبي من الدولة العظمى ويعرض جهوده للخطر. ومع ذلك فقد أثارت طموحات الملك شكوك الإنكليز.

يقول المؤرخ عبد الرزاق الحسني إن الملك فيصل شعر بأن الإنكليز غير راضين عنه رضا تامًا وإذا ما أصر على تعديل المعاهدة بما لا يلائمهم سيحدث ما لا تحمد عقباه ولن يتمكن من قيادة العراق نحو إلغاء معاهدة الانتداب وملحقاتها وتحقيق الاستقلال والحصول على عضوية عصبة الأمم. ولما طال النقاش بين فيصل والجانب الإنكليزي ولما أرادت وزارة المستعمرات أن تقف على التفاصيل، كتب إليها معتمدها في بغداد[٧١]:

إن الملك فيصل يناصب بريطانيا العظمى العداء. الملك

---

٧٠) كان المرحوم عبد المحسن السعدون يشير إلى المادة الأولى من المعاهدة التي سبق ذكرها.

٧١) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج٢، صفحة ١٣٧.

فيصل يناصر المعارضة ويشجع سرًا المعارضين والمتطرفين، ينبغي أن يعرف بأنه ملك دستوري لا يجوز له أن يتدخل في شؤون الدولة فيتركها لرؤساء الحكومة والبرلمان ويجب عليه أن يترفع عن المنازعات السياسية.

هذه الوثيقة التاريخية تدحض جميع الاتهامات التي وجهتها المعارضة ويطلقها بعض المؤرخين للانتقاص والتشكيك بوطنية الملك فيصل الهاشمي نحو العراق والعرب جميعًا، وتظهر بوضوح حنكته ونضوجه الدبلوماسي في التعامل مع دولة عظمى تمتلك جميع الوسائل العسكرية والاقتصادية والاستخباراتية لخلق أو تدمير دول بكاملها، أثناء تلك الحقبة التاريخية. فقد كان من السهل على رؤساء العشائر ورجال الدين والمثقفين والشعراء وجميع عناصر المعارضة أن ينتقدوا قرارات الملك فيصل والنخبة الحاكمة بدون التمعن بالظروف المحلية والدولية التي يواجهها الرجل وأتباعه المخلصين. والنقطة الجديرة بالتأكيد هنا هي أنه لم يتفضل أي أحد من عناصر المعارضة بتقديم أي بديل منطقي وعملي لتلك السياسة وليخدم العراق والعرب بشكل أفضل. بل اكتفوا بالصراخ والسباب والتجريح لأجل تأجيج الغوغاء والبسطاء من الناس. فمن الواضح أن الإنكليز هم الذين نصبوا فيصل ملكًا على العراق وخلقوا بنية المملكة العراقية. وهذه الحقيقة ينتقدها الجميع ويعتبروها سُبّة بالملك ويصفونه كونه صنيعة أو عميل الإنكليز.

إلا إن تلك النعوت المهينة كانت جائرة وغوغائية ولم تأخذ بنظر الاعتبار أن إنكلترا وفرنسا هما الدولتان اللتان انتصرتا في الحرب العالمية الأولى، لذا فقد فرضتا سيطرتهما على معظم أنحاء العالم وجميع بلاد الجزيرة العربية، ولم يكن ثمة أي مجال لمقاومة أو حتى نقاش تلك السيطرة. وقد باءت جميع محاولات المقاومة المسلحة بالفشل. لذلك كان أمام النخب الحاكمة في العراق وسوريا وبقية دول الهلال الخصيب خياران: إما المقاومة ومواجهة

الدمار الشامل، أو الاعتراف بضعف بلدانهم بالمقارنة بجبروت القوى العظمى ومن ثم محاولة الحصول على حقوقهم الشرعية بشكل تدريجي عن طريق المفاوضات والدبلوماسية الحكيمة. وقد جسد الملك فيصل الخيار الثاني لأجل تلافي الكوارث التي حلت بمصر بعد عصيان أحمد عرابي، وما حل بسوريا بعد معركة ميسلون، والعراق بعد ثورة العشرين، فاتخذ سياسة (خذ وطالب) تدريجيًا لأجل الحصول على الأهداف المتوخاة عن طريق الدبلوماسية وربط المصالح المشتركة، وقد كان أفراد حاشيته المخلصون من قادة العراق خير معين له في هذا السياق. ولكن لنرى ما كان موقف المعارضة العراقية نحو سياسة الكياسة والتعقل التي اتبعها الملك وحقق عن طريقها تماسك أجزاء العراق وتلاحم عشائره وأقلياته من شماله إلى جنوبه تحت هيمنة الحكومة المركزية في بغداد، إضافة إلى جهوده الشاقة في مفاوضاته مع الدول العظمى. فقد انبرى الشاعر العراقي الشهير معروف الرصافي والذي كان أحد اقطاب المثقفين الذين «احترفوا» المعارضة بدون أي منطق أو تمعن، انبرى يهاجم الملك والقيادة بكل مناسبة.

ففي عام ١٩٢٧ فاض نهر دجلة فيضانًا هائلاً أغرق الكثير مما كان على ضفافه من بيوت ومبانٍ، من جملتها البلاط الملكي. فانتهزها الرصافي فرصة للهجوم ببذاءة على الملك وحاشيته فقال:

ليت شعري أبلاط أم ملاط أم لواط

أم مليك بالمخانيث محاط

غضب الله على ساكنه

فتداعى ساقطًا ذاك البلاط

وصف الرصافي بلاط الملك باللواط ونعت أتباعه الذين حاربوا في الحرب العالمية الأولى وحازوا على أعلى أوسمة الشجاعة كما يعترف بذلك حتى

المؤرخين الأجانب، نعتهم الرصافي بالمخانيث.

وقد تمادى الرصافي في التهم على فيصل ومحاولة الإقلال من شأنه حين ألقى قصيدته البائية في مجتمع غاص بالأدباء:

لـنـا مـلـك تـأبـى عـصـابـة رأسـه

غـيـر سـيـف الـتـيـمـسـيـين عاصبًا

ولـيـس لـه مـن أمـره غـيـر أنـه

عـدد ايـامًـا ويـقـبـض راتـبـا

وقد حز في نفس الملك فيصل وهو بخلفيته البدوية والذواقة للشعر والأدب والعارف بأثرها في نفوس العرب، وآلمه أن يهجوه الرصافي بهذا الهجاء القاسي. ولكن هل عاقب الملك فيصل، وهو ابن الملوك ومن سبط الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) الشاعرَ الرصافي؟ كلا بل أرسل إليه أحد أقرب أتباعه، نوري السعيد واستدعى الرصافي لمقابلته وسأله الملك «يا أستاذ الرصافي أنا الذي يعدد أيامًا ويقبض راتبًا، وأنا منشغل بالمشاكل والتحديات وبهموم أمة بأسرها؟»[٧٢].

ثم أجرت الدولة للرصافي راتبًا سخيًا ودخل نائبًا في البرلمان العراقي. ولو كان الرصافي قد هجا بشعره السلطان العثماني، أو الوالي، أو أي موظف كبير لوجد نفسه نزيل السجون العثمانية الرهيبة، ويتلقى (الفلقة) والركل والإهانات.

يبدو هنا بوضوح بأن السيد الشاعر معروف الرصافي كان يهجو الدولة ويحرض ضد الملك لأجل أن يستغل الكره المتفشي ضد الإنكليز ولأجل أن يبدو أمام الدهماء بصفة البطل الوطني الذي يتحدى الإنكليز «وعملائهم» ولكن ما إن استلم الراتب ومنصب النائب في البرلمان حتى أصبح مؤيدًا

---

٧٢) عبد الكريم حسان خضير «شعراء في حياة الملك فيصل» ذاكرة عراقية، بغداد، العدد ١٤٨٦، السنة السادسة، الإثنين ٢٠/٤/٢٠٠٩.

للنظام وكف عن الهجاء. وكان معظم أقطاب المعارضة بنفس عقلية ونفسية الرصافي.

وبعد أن تعقدت العلاقات بين الملك فيصل والإنكليز كما تبين الوثيقة المذكورة أعلاه تقرر نقل المفاوضات إلى لندن، واستدعت وزارة المستعمرات المندوب السامي في بغداد لهذا الغرض. وتلقى الملك فيصل في ٢٢ / ٧ / ١٩٢٧ رسالة من القائم بالأعمال البريطاني بشأن تعديل المعاهدات والاتفاقيات ومسألة دخول العراق لعصبة الأمم.

وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر / ١٩٢٧ بدأت المفاوضات في لندن وترأس الجانب العراقي رئيس الوزراء جعفر العسكري. وبعد مفاوضات صعبة دامت لمدة شهر كامل رجع جعفر العسكري بدون تحقيق أي تقدم نظرًا لتعنت الإنكليز.

بعد سبعة سنوات من ولادة العهد الملكي كان العرق قد قطع شوطًا كبيرًا في مجال التقدم في نواحي التعليم والجيش والاقتصاد والصحة العامة (انظر الجدول ٤ في الفصل الأول رجاءً). وبدأت آمال القيادة والشعب تتطلع نحو عام ١٩٢٨، وهو عام انتهاء معاهدة ١٩٢٢ بموجب البروتوكول في ٣٠ / ٤ / ١٩٢٣ وتنتهي الظروف الاستثنائية التي دعت لتوقيع تلك المعاهدة المرفوضة شعبيًا وقيادةً. غير إن ظهور أطماع تركيا في منطقة الموصل وما جاورها وحاجة العراق إلى الاحتفاظ بتلك المناطق وجميع أراضيه قد جعل من الضروري عقد المعاهدة الجديدة (١٩٢٦) التي مددت أجل المعاهدة الأولى إلى ٢٥ سنة، مما أدى إلى تأجيل الهدف الذي يصبو إليه كل عراقي ألا وهو الاستقلال التام من سطوة الامبراطورية البريطانية وكل سيطرة أجنبية. ولكن مع ذلك فإن اتفاقية ١٩٢٦ لم تمس أحكام المادة الأولى من الاتفاقية العسكرية التي قضت بتولي العراق المسؤولية التامة لشؤون النظام الداخلي والدفاع ضد اي اعتداء خارجي، كما إنها تضمنت حق العراق في مطالبة بريطانيا في

كل أربع سنوات ان تنظر في المسائل الداخلية كالقضايا المالية والعسكرية والشؤون الخارجية وخصوصًا استقلال العراق ودخوله لعصبة الأمم.

استنادًا على هذه التفاصيل تمكن الملك فيصل من الاتصال مع بعض الساسة الإنكليز ممن اقتنعوا بوجهة نظره. ولما عقد المجلس النيابي جلسته الأربعين في يوم الإثنين الموافق ٦ / ٥ / ١٩٢٩ تلى رئيس الوزراء توفيق السويدي منهاج وزارته المتفائل وتطرق بصفته وزيرًا للخارجية بالوكالة للعلاقة بين إنكلترا والعراق فقال:

«تعلمون أيها السادة أن العراق لم يقبل بمعاهدة ١٩٢٢، بما فيها من قيود، إلاّ حرصًا على سلامة كيانه، واعتمادًا على حسن نية الحليفة العظمى (كذا!!.. كان الحري برئيس الوزراء أن يكون أكثر صراحة ويقول استنادًا على المصالح المتبادلة) التي أعربت في فرص مختلفة عن استعدادها لمعاضدته على السير في مضمار الرقي والتكامل، حتى يصبح في وقت قريب قادرًا على النهوض بنفسه، وتحمل الأعباء التي تترتب عليه كدولة مستقلة»[٧٣].

وفي ١٤ / ٩ / ١٩٢٩ استحصل الملك فيصل على وعد من الحكومة البريطانية بإدخال العراق عصبة الأمم وإهمال المعاهدات القديمة وستنظم علاقات دبلوماسية جديدة بعد حصول العراق على الاستقلال ودخول العصبة[٧٤].

وقد رحب الملك فيصل بهذا التطور في علاقة العراق مع بريطانيا واستلم السيد عبد المحسن السعدون ـ الذي تولى رئاسة الوزارة بعد توفيق السويدي ـ كتابًا جاء فيه إن الحكومة البريطانية طلبت من السكرتير العام لعصبة الأمم

---

٧٣) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، ج٣، صفحة ٥١.

٧٤) علاء نورس، المصدر السابق، صفحة ١٤١.

في ٤ / ١١ /١٩٢٩ أن يبلغ أعضاء المجلس بالخبر الآتي: (قررت حكومة صاحب الجلالة بعد إمعانها النظر في جميع الظروف أن تقترح عملاً بأحكام الفقرة (١) من المادة (٣) من المعاهدة العراقية - الإنكليزية المعقودة في ١٣ / ١ / ١٩٢٦ أن توصي بإدخال العراق عضوًا في عصبة الأمم المتحدة في عام ١٩٣٢) وكان رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون قد ذكر في جلسة مجلس النواب في ١١ / ١١ / ١٩٢٩ إن تلك الخطوة ذات أهمية تاريخية عظيمة، فبدخول العراق عصبة الأمم تلغى جميع المعاهدات والاتفاقيات السابقة وتعقد اتفاقيات جديدة على أساس استقلال العراق[٧٥].

لم يكن هذا القرار التاريخي سهل المنال، بل استطاع الملك فيصل استحصاله بعد نقاشات ماراثونية حادة مع المندوب السامي السير هنري دوبس وصلت في بعض الأحيان إلى تأزم العلاقة بين الجانبين. ولكن بعد الأطلاع على الأوضاع المستجدة في العراق وبعد الاستماع إلى آراء الملك فيصل اقتنع دوبس بفكرة استقلال العراق وتمكن من إقناع وزارة الخارجية البريطانية بدخوله لعصبة الأمم استنادًا على معاهدة ١٩٢٦ مخافة أن تتدهور الأمور في العراق وتفقد إنكلترا مصداقيتها وتتعرض مصالحها للخطر في ذلك البلد ذو الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي تتنافس عليه القوى العظمى، «وإن أفضل سبيل لتحقيق الرخاء في العراق وارتباطه في بريطانيا العظمى ومصلحتنا هو السعي لانضمامه إلى عصبة الأمم في أقرب وقت ممكن»[٧٦].

ولكن اتهامات المعارضة والفئة المتعلمة الكارهة للإنكليز استمرت على أشدها وانهالت الهجمات في مجلس النواب على الوزارة ورئيسها السيد عبد المحسن السعدون واتهموه بعبارات جارحة بالتخاذل والخضوع للإنكليز مما جرح كرامته، وهو شيخ عشائره وسيد قومه، والمعتز بسمعته فقرر أن ينتحر

---

٧٥) نفس المصدر السابق.

٧٦) كاظم نعمة، مصدر سابق، صفحة ١٩٥.

بعد أن كتب الرسالة الآتية لولده والتي توضح تباين إدراك الدولة والمعارضة لواقع العراق تجاه الدولة العظمى:

«ولدي وعيني ومستندي، علي....[77]

أعفُ عني لما ارتكبته من جناية لأنني سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقًا وشرفًا، الأمة تنتظر خدمة، الإنكليز لا يوافقون، ليس لي ظهير، العراقيون طلاب الاستقلال ضعفاء عاجزون، بعيدون كثيرًا عن الاستقلال، هم عاجزون عن تقدير نصائح أرباب الناموس مثلي، يظنون إني خائن للوطن، وعبد الإنكليز، ما أعظم هذه المصيبة، أنا الفدائي الأشد إخلاصًا لوطني، قد كابدت أنواع الاحتقارات، وتحملت المذلات، محضًا في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها آبائي وأجدادي مرفهين.

ولدي! نصيحتي الأخيرة لك هي:

١. أن تحترم أخوتك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك.

٢. أن تخلص للملك فيصل وذريته إخلاصًا مطلقًا.»

«عبد المحسن السعدون»

هذه الرسالة المفجعة التي كتبها رئيس الوزراء المرحوم عبد المحسن السعدون قبيل انتحاره في أواخر عام ١٩٢٩ وقبل توقيع معاهدة ١٩٣٠، تعطي صورة واضحة لضعف العراق وعجزه أمام الجبروت البريطاني. وبنفس الوقت توضح الرسالة الأسباب التي دفعت الملك فيصل وبطانته (النخبة الكلاسيكية)

---

٧٧) انظر عبد الرزاق الحسني، ج٢، صفحة ١٧٨.

وخصوصًا رئيس الوزراء نوري السعيد إلى مجاراة الدولة الاستعمارية الكبرى والتعامل معها ولو عن طريق تقديم تنازلات مهينة تتطلبها المرحلة، واتباع سياسة خذ وطالب لأجل الحصول على حقوق تدريجيًا بدلاً من اللجوء إلى مواجهة غير متكافئة تؤدي نتائجها إلى دمار العراق الوليد، وتحطيم كل الإنجازات التي حققتها النخبة الحاكمة وبالنتيجة خضوع العراق التام للاحتلال الإنكليزي، ولم ينس الملك فيصل المحاولات الفاشلة التي قام بها الوطنيون في مصر وسوريا والعراق ضد دول الاستعمار، وكيف انتهت تلك المحاولات بنهايات مفجعة لكل العرب. فقد كان أمام قادة العراق خيران واضحان لا لبس فيهما: إما اللجوء إلى السلاح لأجل إخراج الإنكليز من الوطن، وهذا خيار انتحاري فقد كان الجيش الإنكليزي بعديد قواته وتقنيته الهائلة وحيازته أفتك أنواع السلاح الجوي والمدرع والآلي قادر على سحق أي مقاومة عراقية بكل سهولة، ثم تفتيت الأراضي التي ساعد الإنكليز على دمج أجزائها لبناء مساحة المملكة العراقية، وذلك عن طريق السماح لتركيا لابتلاع منطقة الموصل في شمال العراق والتغاضي عن اغتصاب إيران للمناطق الشرقية والجنوبية وشط العرب مما يؤدي إلى اختفاء اسم وكيان العراق.

أما الخيار الثاني فهو اتخاذ قرار مرحلي بالخضوع مؤقتًا لطلبات الإنكليز ومن ثم استعمال سياسة الكياسة والتخطيط على المدى البعيد لاستحصال استقلال العراق ودخوله في عصبة الأمم عام ١٩٢٣ كما اتُفِقَ مع بريطانيا العظمى. وهذا ما فعله الملك فيصل وبطانته، حيث اعتبروا معاهدة ١٩٣٠ مع كل سلبياتها بمثابة خطوة هامة وإيجابية في بداية طريق الاستقلال الذي سيحققه العراق بعد حين، ولتلافي العنف والحرب والتعرض إلى أسلحة الإبادة كما فعل المستر تشرتشل مع بعض العشائر العراقية.

ولكن العراق كان يغلي بالكراهية ضد الإنكليز وكل من يتعاون معهم مما حدا بالبعض إلى المناداة بالجهاد في سبيل الحفاظ على دينهم ولأجل نيل

حريتهم واستقلالهم وكانت مشاعر رجال الدين والانتلجنتسيا ضد إبرام أي معاهدة مع الإنكليز لاقتناعهم بأن الإنكليز مخادعين ولا يمكن الركون إليهم والوثوق بمواعيدهم. وقد انعكست هذه المشاعر بين نواب البرلمان فبينما كانت المفاوضات جارية بين الوفدين العراقي والبريطاني، عقد مجلس النواب حفلة افتتاح دورته الاعتيادية في تشرين الثاني لسنة ١٩٢٩، وتناول النواب موضوع المعاهدة التي كان العراق على وشك توقيعها مع بريطانيا العظمى التي أكدت بأن بدون المعاهدة لن يحصل العراق على استقلاله ولن يدخل عضوًا في عصبة الأمم، إلا إن النواب اسمعوا رئيس الوزراء السيد محسن السعدون انتقادًا لاذعًا وسخروا من سذاجته لثقته بوعود الإنكليز مما جرح كرامة السيد السعدون وهو السيد المحترم وسليل أسرة عربية كريمة وزعيم قبيلة عريقة ذات مركز متميز، فألقى خطابًا أوضح فيه سياسته وعلل أسباب قبوله للمعاهدة[٧٨]:

> إن التصريح البريطاني بقبول العراق في عصبة الأمم في عام ١٩٣٢ ليس بقليل الأهمية، بل هو ذو أهمية عظيمة، فبدخول العراق بعصبة الأمم تلغى جميع المعاهدات والاتفاقيات وتعقد اتفاقية جديدة على أساس استقلال العراق. إن هذا التصريح قد أعطي من قبل الحكومة البريطانية. إن الأمة التي تريد الاستقلال أن تتهيأ له.. ولا يكون ذلك بالكلام والأقوال الفارغة، فالاستقلال يؤخذ بالقوة والتضحية.

الواضح إن السيد السعدون كان يؤمن أن سياسة التدرج في العلاقات العرقية البريطانية أمر لا بد منه وإنه ليس من مصلحة العراق اتباع سياسة صدامية مستعجلة. وقد كان سلوكه طوال حياته السياسية يتصف بطابع الرزنة والاعتدال وكان يحكّم العقل اعتمادًا على إمكانات العراق، إضافة إلى

(٧٨) علاء نورس، مصدر سابق، صفحة ١٤٢.

إنه آمن بإمكانية استعمال المنطق والحق في التفاهم مع الإنكليز وبأن أهداف العراق القومية ستتحقق مع الزمن.

كان السيد السعدون على علم بمشاعر الغضب والكراهية المتفشية بين فئات الشعب ضد الإنكليز، إلا إنه كان بنفس الوقت يفرق بين مشاعر العواطف الجياشة والحماس الشديد، وما بين واقع العراق المأساوي والعاجز عن مقارعة قوى عظمى كبريطانيا. لذلك وقع الرجل الحساس الشريف في حيص بيص ولم تتحمل كرامته اتهامات الرأي العام والنواب له ووصمه بكونه صنيعة للإنكليز فقرر إنهاء حياته وأطلق النار على نفسه في يوم ١٣/ ١١/ ١٩٢٩ [٧٩].

فماذا كانت الحلول المتوفرة أمام الملك فيصل الأول وبقية أعضاء النخبة الحاكمة؟ هو اللجوء إلى الانتحار الجماعي والخلاص من جور الإنكليز كما فعل السيد السعدون؟ هل هو إعلان الجهاد ضد قوة عسكرة غاشمة لا تضاهي جبروتها أي قوة في العالم ومواجهتها بواسطة البنادق التي تمتلكها العشائر والتعرض لضربة عسكرية تبيد الألوف وتكون النتيجة دخول العراق تحت الاحتلال العسكري الإنكليزي كما حدث في سوريا بعد معركة ميسلون ضد فرنسا؟

أم إن الحل الأفضل هو اللجوء إلى الأناة والتعقل والدبلوماسية وإعطاء التضحيات الآنية ومن ثم المطالبة بالحقوق الشرعية على المدى البعيد؟ وقد آثر الملك فيصل وبقية النخبة الحاكمة الحل الأخير وقبول المعاهدة على علاتها وتحقيق شبه استقلال ودخول عصبة الأمم وبعد ذلك المطالبة بالمزيد تدريجيًا.

بعد رحيل عبد المحسن السعدون تسنم رئاسة الوزارة السيد ناجي السويدي الذي بذل جهودًا حثيثة لتغيير بعض بنود المعاهدة، إلاّ إن حكومة بريطانيا لم توافق على التبديل حرصًا على مصالحها العسكرية والمالية والاستراتيجية في العراق ومنطقة الخليج.

---

٧٩) كاظم نعمة، صفحة ٢٥٥.

وفي يوم ٢٣ / ٣ / ١٩٣٠ اختار الملك فيصل نوري السعيد لرئاسة الوزارة نظرًا لتوافق أفكاره السياسية مع أفكار الملك وخصوصًا بصدد المعاهدة الجديدة. فاختار نوري السعيد زملاءه من الموظفين الإداريين الذين اشتغل معهم في الثورة العربية، وفي نفس يوم تشكيل الوزارة كتب السيد السعيد رسالة للملك جاء فيها:

أن أهم مسألة سنضعها أنا وزملائي نصب أعيننا ونبذل كل ما في وسعنا لإنجازها طبق رغبات جلالتكم ورغبات الأمة هي وضع المعاهدة الجديدة بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية التي سنبدأ بعون الله تعالى في البحث فيها خلال العشرة أيام على أساس الاستقلال التام. يعلم صاحب الجلالة إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية قد وعدت في تصريحها المؤرخ ١٤ / ٩ / ١٩٢٩ بأنها تتعهد بإدخال العراق عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ بلا قيد ولا شرط، وإنها ستشرع في مفاوضات الحكومة العراقية لعقد المعاهدة بروح حُرة لتعيين صلاتها بها على أساس مقترحات المشروع البريطاني المصري. وقد صرحت مرارًا بأنها لا ترغب إلا في تاسيس دولة عراقية تكون صديقة.

وتكللت المفاوضات بإنجاز معاهدة في يوم ٣٠ / ٦ / ١٩٣٠ وقعها رئيس الوزراء نوري السعيد عن الجانب العراقي، والسير فرنسيس همفريس عن الجانب البريطاني[٨٠].

كان في المجلس ٨٨ مقعدًا، أيد المعاهدة (٦٩) وعارضها ثلاثة عشر، وتغيب عن الجلسة خمسة نواب[٨١].

اندلعت المظاهرات والاحتجاجات في بعض المناطق وفي البرلمان، وتركزت

٨٠) عبد الرزاق الحسني، ج٢، صفحة ١٧٨.

٨١) المصدر السابق، الصفحات ٢٢٣ - ٢٢٤.

المعارضة ضد ثلاث بنود في المعاهدة وهي:

١ . إن سياسة العراق الخارجية سوف تخضع لقرارات بريطانيا.

٢ . وجوب وقوف العراق مع بريطانيا في حالة دخول الأخيرة في حرب.

٣ . تقوم بريطانيا بإنشاء قاعدتين عسكريتين بمطاراتها في العراق.

وقد اعتبرت المعارضة هذه البنود بمثابة تمديد لمعاهدات الانتداب وإبقاء العراق مكبلاً تحت الاستعمار الإنكليزي، فهبت تطالب بإلغاء المعاهدة أو على ألقل إبدال هذه المواد بمواد أخرى تضمن للمملكة العراقية حريات أكثر واستقلال حقيقي.

واتفق حزبا الإخاء الوطني والحزب الوطني العراقي على تأليف جبهة متحدة ضد قرارات الهيئة الوزارية ووقع الحزبان المعارضان هجومًا في مساء ٢٢ / ١١ / ١٩٣٠ هذا نصه:

أ. المعاهدة (معاهدة ٣٠ / ٦ / ١٩٣٠) فاسدة وجائرة ويجب تعديلها.

ب. إن المجلس النيابي الحالي (الذي وافق على المعاهدة) لا يمثل البلاد ويجب أن يحل.

ج. إن الوزارة التي ستؤلف في المستقبل يجب أن تعمل على الأساسين الأول والثاني.

ووُقع الاتفاق من قبل السادة: ياسين الهاشمي، ورشيد عالي، وحكمت سليمان، وجعفر أبو التمن، وتوفيق السويدي، ومولود مخلص، ومحمود رامز. وكان الاعتراض هو تضمن المعاهدة بناء بريطانيا لقواعد عسكرية لها في العراق مما جعل السادة الأفاضل المذكورة أسمائهم يعتبرون ذلك انتقاصًا من السيادة الكاملة للعراق وبقاءه تحت الاحتلال وإلغاء بند السماح للإنكليز ببناء قواعد عسكرية في أي منطقة من مناطق العراق.

وقد القى النائب المعارض محمود رامز بيك كلمة شديدة اللهجة في مجلس النواب العراقي عكس فيها موقف المعارضة، اقتبس منه ما يلي:

رأي الشعب عن المعاهدة: نداء إلى أبناء الأمة إنكم على علم بنفسية رجالنا ووطننا، لذلك فقد اتبعتم أساليب لإبعاد الوطنيين عن الميدان ومحاربتهم بشراسة. وإني أحذركم بأن للصبر حدودًا، فإننا محبطون وفاقدي الأمل. فالأسى واليأس يؤديان إلى الانفجار.. وقد حلت الساعة التي تواجه فيها مصيرنا مهما غلا الثمن.. فالعض على الشوارب والتنهد بأسى لن يحقق شيء بعد فوات الفرص.

لذلك فأنا أنادي على أبناء هذا الوطن أن يتوحدوا ويرفضوا هذه المعاهدة والكفاح ضدها لأجل إلغائها لأنها تهدف إلى إبقاء الانتداب والاستغلال والاحتلال والاستهتار بحقوق الوطن. ويجب أن نبدأ جهود مقاومة المعاهدة قبل افتتاح المجلس النيابي. وانا أدعو أبناء هذه الأمة أن يحافظوا على شرف آبائهم وأجدادهم الحزينين والمدفونين في تربة هذا الوطن. كفانا مهازل.. أيها الأخوة[٨٢].

هذه نبذة من كلمة ألقاها نائب أمام المجلس النيابي ونشرتها الجرائد العراقية. وأود أن أتساءل هنا في أي عهد من العهود التي مرت على العراق سواء العهد العثماني أو أي فترة بعد انقلاب ١٤/٨/١٩٥٨ كان ممكن لشخص مسؤول أو غير مسؤول أن يتجرأ ويوجه انتقادًا للدولة بمثل هذا الهجوم العنيف دون أن يتعرض للسجن والتعذيب وحتى الموت؟

هذه الممارسات التي ولدت في عهد فيصل الأول بين السلطتين التشريعية والتنفيذية تثبت بأن النظام السياسي والبرلماني في العراق كان يشهد نمو إحدى الركائز الأساسية للديمقراطية الصحيحة ألا وهي إفساح المجال للإفصاح عن

---

٨٢) انظر جريدة البلاد، بغداد، عدد ٢١٠ في ٢١/٧/١٩٣٠. المقالة الافتتاحية من قبل النائب محمود رامز.

الآراء والاعتراض على سياسة الدولة بشكل لم يسبق له مثيل، ولم يسمح بممارسة هذا الحق في أي عهد من العهود بعد سقوط النظام الملكي.

وإن الشاعر معروف الرصافي قد تجنى على نظام المملكة العراقية الفتية حين أنشد شعره المشهور الذي صفق له الكثيرون حين قال:

علم ودستور ومجلس أمة

كل عن المعنى الصحيح محرف

فإن تلك الاعتراضات والاستقالات تدل على إن نواب وأعيان مجلس الأمة لم يكونوا دمىً محاطة بهيبة كاذبة ويجلسون على مقاعدهم الوثيرة لأجل التصويت بـ«موافق» واستلام رواتبهم وإمرار قرارات الملك والوزراء الذين يأتمرون بأوامر بريطانيا، بل في الواقع كان لبعض النواب والأعيان آرائهم الخاصة التي يتمسكون بها ويعبرون عنها بحرية وصراحة وبأن مجلس الأمة بحالته تلك كان يمثل ولادة صحية لمؤسسة تشريعية تمثل مختلف المواقف تجاه سياسة الدولة.

إلا إن النقطة الجديرة بالذكر هنا هي إن المجتمع العراقي كان بغالبيته عشائريًا، وأفراد العشائر متمسكون بالولاء المطلق لشيوخهم ويؤيدهم في الانتخابات النيابية. وكان النظام يتطلع إلى نمو الطبقة الوسطى لكي تتسع وتشمل جماعات ضغط واتحادات ونقابات وغيرها من المؤسسات التي تكوّن أساس الديمقراطية في الدول الليبرالية الغربية.

إذن جوبهت المعاهدة باعتراض من بعض الفئات الشعبية من قبل بعض السياسيين الكبار من أتباع الملك فيصل من أمثال علي جودت الأيوبي، وياسين الهاشمي، وناجي السويدي فكتبوا مقالات في الجرائد العراقية شاجبين المعاهدة لكونها مجحفة بحق العراق وتبقيه تحت الهيمنة البريطانية، مما جعل رئيس الوزراء نوري السعيد أن يعقد اجتماعًا مع ياسين الهاشمي ويؤكد له بأن توقيع المعاهدة بدون أي تعديل هو الشرط الأساس الذي فرضته بريطانيا

لأجل منح العراق الاستقلال التام ومن ثم مساعدته للدخول في عصبة الأمم. وأكد نوري السعيد إن المعاهدة لا تخلو من بعض البنود التي تخدم مصلحة العراق، كالمادة الرابعة التي تستوجب بريطانيا أن تحمي العراق في حالة تعرضه لأي اعتداء، علمًا بأن تركيا وإيران ما تزالان طامعتان بأراضي وموارد العراق.

هذا فضلاً عن أن المادتين الرابعة والخامسة من الملحق المالي الصادر في ١٩/٨/١٩٣٠ ترجعان إدارة السكك الحديدية وميناء البصرة إلى الحكومة العراقية مما يوفر مصدرين اقتصاديين مهمين للعراق[٨٣].

ثم اقترح نوري السعيد أنه مستعد للاستقالة مباشرة إذا ارتأى ياسين الهاشمي وبقية نواب المعارضة أن باستطاعتهم عقد معاهدة أحسن مع بريطانيا العظمى. فشعر الهاشمي بحراجة الموقف واقترح على نوري البقاء في منصبه وقبول المعاهدة وسينظر بها ثانية في المستقبل.

وقد صرح نوري السعيد في عدة مناسبات «لو إن العراق كان من القوة بحيث يقف بوجه إنكلترا لما وافقت على المعاهدة».

وفي مذكرة قدمها رئيس الوزراء نوري السعيد للمجلس النيابي يبرر فيها إبرام المعاهدة قال فيها:

> لقد مضى على البلاد سنوات عشر سار بها بخطوات متتابعة نحو الهدف الأساس ألا وهو الاستقلال التام. إن هذه المعاهدة لم توقع إلا بعد جهود عظيمة. وقد ضمنت دخولنا في العصبة وإلغاء الانتداب وتمتع البلاد بالحقوق التامة.. إن الأمم لا تدار بالعواطف فحسب، مهما كانت تلك العواطف شريفة، ولا بالسعي وراء المستحيلات، وإنما تدار بالعقل وبتدبير الواقع الممكن.

---

٨٣) عبد الرزاق الحسني، ج٣، صفحة.

وهنا يجدر مراجعة وتحليل شخصية نوري السعيد كما وردت في مجلة Time [٨٤]:

لقد كنت دائمًا اتبع الأفكار العملية واتجنب المثاليات غير الواقعية. أما الأشخاص الذين عارضوني فهم يتوخون المثاليات والأفكار الطوبائية. إن عقيدتي دائمًا تجنب الاعتماد على المثاليات، ولكن ما هو متوفر واستعمله بشكل عملي. لا تنتظر أن تصبح جميع الأمور متوفرة بشكل كامل لأجل صناعة القرار، لأن ذلك يفوت الفرص المتاحة لتحقيق ما يمكن أن يكون حقق ما هو مستطاع وخطط للمستقبل.

ولكن بالرغم من الاستياء الذي أحدثته المعاهدة بين مثقفي العراق وبعض النواب إلاّ إن ردة فعل الشعب عمومًا لم تكن على نطاق واسع، بسبب قلة المتعلمين الذين كانوا مبعثرين في المدن الكبرى. وبالرغم من جهود الدولة الحثيثة لنشر التعليم في جميع أنحاء العراق، فإن الجهل الذي كان سائدًا لعدة قرون، ولم يكن بالإمكان مكافحته في فترة عشر سنوات، لذلك فقد كان الوعي السياسي في تلك الفترة محدودًا. وبسبب عدم وجود طبقة متعلمة واسعة تنظم الفعاليات السياسية لعامة الشعب، فإن الدولة، أي دولة، تكون قادرة على إمرار سياساتها بسهولة. فجماعات الضغط التي تمثل الفئات الشعبية المختلفة تكوّن العمود الفقري للنظام الديمقراطي باعتبارها القنوات التي تصب بواسطتها مطاليب الشعب في السلطات التشريعية والتنفيذية وهي التي تعكس رغبات الرأي العام بخصوص القضايا الحيوية.

فالنائب أو العين في أمريكا مثلاً يجعل قاعدته الانتخابية مستندة على ما تطالبه به جماعات الضغط (عمال، وفلاحين، ومدرسين، ومجاميع أثنية... الخ) ويتبنى تلك المطاليب لأجل ضمان الحصول على أصواتهم الانتخابية. ثم تدرج تلك المطاليب في قرارات السلطتين التشريعية والتنفيذية بعد مناقشتها

---

٨٤) Time, June 17, 1957, P. 24

والإقرار بصلاحيتها وبكونها لا تتعارض مع الدستور أو قوانين البلاد. لذلك فإن جماعات الضغط تكوّن بنية الأحزاب السياسية وتلتف حول قادة تلك الحزاب لأجل إيصالهم إلى السلطة ثم التمكن من التأثير على قرارات الدولة بما يلائم مصالحها.

ولم يكن ثمة جماعات ضغط في العراق بالمعنى المفهوم في عالم الغرب، وكانت الأحزاب السياسية تفتقر إلى الأيديولوجيات المستمدة من إدارة الفئات الشعبية، بالرغم من إن بعض الأحزاب اقتبست بعض المفاهيم السائدة في دول الغرب والتي تجعل تطبيقها في العراق من الصعوبة بمكان لعدم وجود المناخ السياسي أو الحضاري الملائم لها. فعلى سبيل المثال جماعة الأهالي التي تبنت فكرة الاشتراكية الفابية (Fabian Socialism) التي هي أيديولوجية حزب العمال البريطاني. والاشتراكية الفابية هي أن تؤمن بالتطبيق التدريجي للاشتراكية وتعتمد على رأي عام واعٍ وكان معظم أتباعها في إنكلترا من أصحاب الثقافات العالية. لذلك لم تكن هذه الأفكار تلائم الأوضاع في العراق.

أما الأحزاب القومية فقد كانت تنادي بالاستقلال والوحدة العربية ومقارعة الاستعمار وغيرها من الشعارات الوطنية، إلا إنها لم تبلور أيديولوجية واضحة توجه مسارها السياسي ولم تحدد آليات ثابتة تمكنها من إنجاز أهدافها.

لهذه الأسباب كانت معظم المفاوضات والقرارات في العراق بيد الملك فيصل والنخبة الحاكمة. وقد استطاع فيصل بحصافته وشخصيته الهادئة ومكانته المحترمة من إقناع المعارضة في البرلمان برجاحة قبول المعاهدة كما هي لأنها تخدم مصلحة العراق على المدى البعيد[٨٥].

وفي نهاية عام ١٩٢٩ كانت عصبة الأمم لا تزال تناقش فيما إذا كان العراق قادرًا على تحقيق الاستقلال وحكم نفسه والتأهل لدخول العصبة.

٨٥) عبد الرزاق الحسني، ج٢، الصفحات ٢١٦ - ٢١٨.

وفي ١٣ / ١ / ١٩٣٠ ناقش مجلس العصبة الشروط العامة التي يجب توفرها قبل إنهاء الانتداب. فقرر الطلب من لجنة الانتداب أن تقدم توصياتها. وبعد مشاورات اللجنة وفحصها لتقرير الحكومة البريطانية بشأن التقدم الذي حققه العراق منذ عام ١٩٢١ أشارت اللجنة بما يلي[٨٦]:

إنها ترغب بانضمام العراق إلى عصبة الأمم عندما يتم تحقيق بعض الشروط، وعلى الأخص أن يتبين إن العراق قادر على الوقوف بنفسه وأن تؤمن ضمانات وافية لاحترام كل الالتزامات في المعاهدة لصالح الأقليات العرقية والدينية.. وموقف المواطنين الأجانب بخصوص القضايا القضائية والحرية الدينية والمساواة الاقتصادية.

وفي يوم ٢٣ / ٦ / ١٩٣٠ تمكنت لجنة الانتداب من اتخاذ قرار على ضوء ما لديها من المعلومات المبنية على التقارير المرفوعة إليها من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠ لتكون قادرة على تبني وجهة نظر محددة بخصوص المقترح البريطاني بإنهاء الانتداب في العراق. ومع ذلك فإن اللجنة طلبت من مجلس العصبة أن يقرر الشروط العامة الواجب نشرها قبل أن ينهي الانتداب. وبقيت القضية قيد نقاشات اللجنة.

وفي آب ١٩٣١ زار سير همفريس فيصل في باريس لبحث حقوق الأقليات والحقوق القضائية للأجانب والمساواة بينهم. وبعد مداولات فيصل مع همفريس أعطت الحكومة العراقية موافقتها على تلك الطلبات شريطة أن تكون الضمانات للأقليات لا تتعدى ما تمارسه الدول الأوربية نفسها.

وفي ٢٨ / ١ / ١٩٣٢ بحث مجلس عصبة الأمم التقرير الخاص للّجنة بشأن الاقتراح البريطاني لانضمام العراق وإدرج في التقرير المقتضيات التي يجب أن تتوفر في الأقاليم المنتدبة لتكون جاهزة لنيل الاستقلال وهي:

١. وجود حكومة مستقرة.

٨٦) كاظم نعمة، صفحة ٣٠٠.

٢ . يجب أن تكون الحكومة قادرة على حفظ الأمن.

٣ . يجب أن تمتلك الحكومة موارد مالية كافية.

٤ . أن يكون للدولة سلطات قضائية وتشريعية.

وأوصى مجلس العصبة بتشكيل لجنة لاستحصال الضمانات التي تتعهد بها الحكومة العراقية لتوفير تلك المستلزمات.

وفي ٩/٥/١٩٣٢ تقدمت لجنة مجلس الأمة بتقريرها ومسودة البيان الصادر عن الحكومة العراقية. وفي ٣/١١/١٩٣٢ صوتت جمعية عصبة الأمم لصالح انضمام العراق إلى عصبة الأمم[٨٧].

وهكذا أصبح العراق أول دولة عربية تنال استقلالها السياسي، وتعين السير همفريس سفيرًا لبريطانيا لدى العراق، واعترفت بسيادته أمم العالم.

بعد الجهود المضنية التي ذللت العقبات الجمة وبعد تحقيق ذلك الإنجاز الكبير ألقى الملك فيصل الأول خطابًا في المهرجان الشعبي الذي شهدته بغداد في يوم ٦/١١/١٩٣٢ لمناسبة هذا «الحدث التاريخي» جاء فيه:

> أشكر وأهنئ نفسي وشعبي على هذا اليوم الذي نفضنا فيه غبار الذل، وفزنا بعد جدال سياسي دام ما ينوف عن (١١) سنة بالأماني الكبرى التي كنا نصبو إليها، وهي إلغاء الانتداب، واعتراف الأمم بنا، وبأننا أمّة حرة ذات سيادة تامة. وأرى نفسي سعيدًا أن أصرح بأن هذا الفوز لم يكن ثمرة جهد شخصي أو أشخاص. بل هو محصول سعي الأمة بأجمعها.
>
> حيث كانت في أثناء هذا الجهاد مثالاً للصبر والحكمة وطول الأناة، ولم أرَ منها طول مدة هذا الكفاح سوى المعضدة، والتباعد عن وضع حجر عثرة في السبيل الذي سرت عليه للوصول إلى

---

٨٧) Edith & E. F. Penrose, Iraqi: International Relation and National Development (London: Ernest Benn Ltd. 1978) P. 59

هذا اليوم السعيد، هذا اليوم الذي أخذنا فيه مقعدنا بين الأمم.
لقد قطعنا هذه المرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر، وها نحن على أبواب عهد جديد[٨٨].

حقًا إنها كانت مرحلة شاقة مليئة بالعوائق والمطبات والصعود والهبوط. فبعد أن احتفل الملك فيصل بجلوسه على عرش سوريا، عانى من إفلاس حكومته واندحار جيشه على يد الجنرال الفرنسي غورو، وفقد عرشه. ثم اعتلى عرش بلد عشائري لا حدود معينة له ويضم مختلف المجاميع البشرية فاستطاع بذكائه وحلمه ومكانته المحترمة وخلال مدة عقد واحد من توحيد الأقليات الأثنية والعرقية والدينية وتمكن من صهرها في بوتقة شعب واحد هو الشعب العراقي، وحاز على ولاء العشائر المتناحرة وأدخل شيوخهم في المجلس النيابي بعد أن أسسه فيصل، وثبت حدود الدولة العراقية الحديثة بعد أن استخلص المناطق المتنازع عليها من تركيا وغيران بمساعدة الإنكليز، وبنى دولة متماسكة الأركان، وأخيرًا وقبل وفاته ألغى الانتداب الإنكليزي وحصل على الاستقلال ثم أدخل العراق في عصبة الأمم، وبذلك أصبح العراق أول دولة عربية تحقق هذا الإنجاز العظيم.

مما لا ينكر تاريخيًا إن المملكة الهاشمية كانت من صنع الإنكليز، وقد تكونت المملكة وتطورت نتيجة المساهمات التي قدمها الإنكليز في مجالات الإدارة والري، والزراعة، وبناء البنية الاقتصادية التحتية بجميع مقتضياتها. وقد ساهمت بريطانيا مساهمة كبرى في تقديم الاستشارات للقادة العراقيين بهدف إقامة دولة قابلة للحياة بعد أن تمكنت الحكومة المركزية المسنودة من قبل الإنكليز من الحد من الطموحات الانفصالية للأقليات وتوحيدها داخل مساحة الدولة العراقية التي بناها الإنكليز.

وقد كتب المندوب السامي السير هنري دوبس يقول «لو انسحبت قوات

---

٨٨) علاء نورس، الصفحات ١٤٤ ـ ١٤٥.

الاحتلال من العراق، فإني أعتقد إن الدولة العراقية كانت إما تلاشت خلال بضعة أشهر أو بقيت ملتصقة بشكل ضئيل بشريط أرض على امتداد نهر دجلة بين سامراء والكوت فقط ولضاعت بقية المناطق»[٨٩].

وبعد أن تكللت جهود الملك فيصل والنخبة الكلاسيكية الحاكمة في تحقيق استقلال رسمي ودخوله عضوًا في عصبة الأمم توجه فيصل لتحسين وتثبيت علاقات العراق مع دول الجوار فزار إيران، التي كان العراق قد ارتبط معها بعلاقة حسن جوار منذ عام ١٩٢٩، ثم زار تركيا، إلا إن المنية وافته في عام ١٩٣٣ وهو في قمة عمره الإنتاجي حيث كان في سن (٤٨) عامًا.

وهكذا فقد استلم الملك فيصل وحاشيته، النخبة الكلاسيكية بلاد الرافدين في عام ١٩٢١ من الأتراك وكانت عبارة عن أراضٍ مهملة معظم سكانها من العشائر والبدو، وخلال عقد واحد من الزمن حولوها إلى المملكة الهاشمية العربية المتماسكة الأطراف والمعترف بها عالميًا ووضعوها على أعتاب القرن العشرين.

تقييم إنجازات عهد الملك فيصل الأول

لأجل فهم مرحلة مخاض وولادة الدولة العراقية، ودور الملك فيصل القيادي وبطانته «النخبة الكلاسيكية» الحاكمة والظروف التي أحاطت بتلك المرحلة وعلاقة كل ذلك ببريطانيا، ينبغي دراسة الخلفية التاريخية للفترة التي سبقت ولادة الدولة والإرهاصات الفلسفية التي سادت أوروبا في تلك الفترة.

ففي بداية القرن العشرين كان العالم يتوقع بداية عهد جديد مبني على توقعات النظرية الاجتماعية المتفائلة المستقاة من أفكار جهابذة علم الاجتماع الحديث أثناء القرن التاسع عشر من أمثال أوجست كونت، وكارل ماركس،

٨٩) Great Britain, Foreign Affairs. Fo 40 61163 E 862/6/93. Letter of 4-December 1928, from Sir H. Dobbs, Baghdad, to Mr. Amer, London

وأميل دوركهايم، وماكس فيبر وغيرهم من الذين بشروا بأن العالم على أعتاب مرحلة ستحتم اندفاعه نحو التقدم والتطور المتواصل وإن البشرية ستشق طريقها نحو مستقبل منير برّاق مبني على سيادة العقلانية المنطقية للإنسان نتيجة لانتشار العلوم والتعاون بين البشر لاكتشاف حقائق علمية جديدة وتطوير الاختراعات التي أنجزت وأحدثت تغييرات جوهرية حسّنت معظم نواحي الحياة كاختراع قوة البخار التي أنتجت الماكنة الحديثة والمعامل الجبارة ووسائل الزراعة العصرية والقاطرات والبواخر وغيرها التي اختصرت فترات الإنتاج الزراعي وضاعفته، وحسنت طرق المواصلات، ثم اكتسح توماس أديسون باختراعه للكهرباء لجج الظلام وأحال الليل إلى نهار، فضلاً عن مجيء اليكساندر غراهام بيل باختراعه الجديد الهاتف (التلفون)، وحلول السيارات والطائرات محل الحصان والعربة، واكتشاف العقاقير الطبية الحديثة وتقدم علوم الطب، وعلى الصعيد السياسي والاجتماعي انتشار النظم الديمقراطية التي شكمت سلطة الملوك والحكام الجائرين ورفعت شأن الطبقة المتوسطة المثقفة ووسعتها، كل هذه المستجدات أسدلت الستار على العالم القديم الذي كان مبنيًا على الخرافات والوسائل التقنية العتيقة والعبودية واستبداد، ودفعت بالبشر إلى العصر الحديث وأفرزت اعتقاد قوي بإمكانية التفاهم العقلاني بين شعوب العالم. وقد اعتبرت تلك الاختراعات والاكتشافات برهانًا ساطعًا على صحة الفلسفة المتفائلة ونتصارًا باهرًا ضد نقيضتها الفلسفة المتشائمة التي نادى بها فلاسفة المدرسة الفيزيوقراطية من أمثال القس روبرت مالثوس وريكاردو وتلامذتهم المحدثين والتي عارضت التفاؤل ونحت نحو التشاؤم وبأن هذه الاختراعات مبنية على دخان المعامل، وهي لن تدوم ولن تكوّن بديلاً اقتصاديًا للأرض والزراعة التي ستبقى المصدر الوحيد الموثوق به لعيش الأحياء، وإن التاريخ البشري سيبقى دائمًا مبتليًا بفترات القحط وشظف العيش التي تلي فترات الرخاء والرفاه والاكتفاء، ولن يتمكن الإنسان من

استعمال تلك الاختراعات الحديثة لأجل السيطرة على مصيره.

لذا فإن مفكري المدرسة المتفائلة الحديثة أعلنوا مصداقية مبادئهم وإن الإنسانية سائرة نحو مستقبل زاهر بشكل حتمي.

إلا إن أولئك المفكرين المتفائلين فاتهم أو تجاهلوا أن الاختراعات الحديثة اشتملت أيضًا على إنتاج أفتك الأسلحة ووسائل الحرب والدمار التي يتمكن الإنسان من قتل أخيه الإنسان بأعداد هائلة وبأسرع وقت عن طريق المدافع الرشاشة والدبابات والطائرات القاذفة والمتفجرات الجديدة، وحين استعملت تلك الأسلحة الحديثة في الحرب العالمية الأولى استفاق الفلاسفة المتفائلون على عظم تفائلهم وأدركو أن رهانهم على المنطق العقلاني للبشر الذي سيؤدي إلى تضاؤل أسباب الخلاف والبغضاء بين الشعوب كان وهمًا عميقًا وخطيرًا. وانتعشت إثر ذلك مدرسة الدورانية الاجتماعية[٩٠] التي آمن بها العديد من المفكرين الاجتماعيين الغربيين أمثال وليام غراهام سمنر والتر باجهت وهربرت سبنسر والبيون سمول وهوفر وغيرهم من الذين استمدوا فلسفتهم تلك من نظرية (جارلس دارون) الطبيعية (القرن ١٩) والتي هي أقرب إلى المدرسة المتشائمة، والتي تؤمن بمبدأ العنف والصراع الحتمي بين المجاميع البشرية، والتنازع على البقاء والبقاء للأصلح والتي استخفت بفلاسفة التفاؤل بكونهم سُذّج ومبادئهم طوبائية خيالية، وعدم فهمهم الواقعي لعلاقات البشر. وقد امتزجت معتقدات الدارونية الاجتماعية بأفكار (الميكافيلية) لفيلسوف عصر النهضة (نيكولو ميكافيلي) التي تحلل الكذب والخداع والخيانة والغدر والاغتيال وجميع أنواع الأساليب التي تتعارض مع الأخلاق لأجل تحقيق الأهداف استنادًا على المبدأ الميكافيلي القائل (الغاية تبرر الواسطة) والتي استعملته دول أوروبا لإضفاء الشرعية على استعبادهم للشعوب الضعيفة.

(٩٠ Nicholas S. Timasheff, Sociological Theory: Its Nature & Growth (New York: Random House, 1967) P. P. 61-72

بهذه المبادئ الغدارة قام قادة دول الغرب ـ بريطانيا وفرنسا ـ بخداع قادة العرب فبسط ت.هـ.لورنس (لورنس العرب) وهـ. مكماهون وونستون تشرتشل وغيرهم وعودهم بالاستقلال والوحدة العربية والعزة إذا ما ثاروا على حكامهم الأتراك المسلمين. وقد ابتلع القادة العرب طُعُمْ الوعود الخلابة وصدقوا أقوال قادة الغرب استنادًا على حضارة البدو المبنية على احترام كلام الشرف ووعود الرجال التي لا ينقضها إلاّ الرجل عديم الشرف، والنخوة والشهامة وغيرها من المفاهيم التي كانت تكوّن أسس العلاقات الاجتماعية بين سكان الصحارى العربية البدو. وقد استُغِلتْ مفاهيم الشرف تلك خير استغلال من قبل المؤمنين بالدارونية الاجتماعية والميكافيلية وتمكنوا من خداع العراب البسطاء، ومن ثم نكثوا بجميع تلك الوعود والعهود المعسولة بعد أن تعاون العرب معهم أثناء الحرب وأسقطوا الدولة العثمانية.

وبعد انتهاء الحرب اكتشف العرب خطأهم التاريخي الهائل بعد مؤتمر سان ريمو (١٩١٩) الذي افتضحت أثناءه نوايا الحلفاء الاستعمارية وكشفوا وعد بلفور ومعاهدة سايكس ـ بيكو وكذلك وُقعت معاهدة فرساي التي خلقت عصبة الأمم والتي هيمنت عليها الدولتان العظيمتان المنتصرتان فرنسا وإنكلترا وفرضوا نظام الانتداب. وهكذا وجد العرب أنفسهم يواجهون تلكما الدولتين اللتين كانتا تمتلكان أفتك أنواع السلاح واقوى الجيوش وتمارسان المفاهيم الميكافيلية – الدارونية الاجتماعية، وكان أهم هدف لهما هو السيطرة على المصادر الطبيعية للمنطقة وخصوصًا مصادر النفط التي اكتشفت في معظم مناطق الشرق الأوسط في تلك الفترة التاريخية، وحين بدأ النفط يكوّن عصب الصناعة وأهم مصدر اقتصادي يقرر مصير المنافسات الاستعمارية لتلك الدول ويحسم الفوز لكل من يمتلك المزيد منه.

واجه فيصل ذلك الجبروت العسكري وتلك المبادئ الرهيبة حين اعتلى العرش وأدرك بأنه لا مناص له من مسايرة بريطانيا العظمى إذا ما أراد أن

يخلق كيانًا جديدًا اسمه العراق. فمما لا شك فيه تاريخيًا أن المملكة العراقية الهاشمية كانت قد ولدت وترعرعت على أيدي خبراء وسياسيين إنجليز. لأجل خدمة مصالحهم الاستراتيجية والاقتصادية الحيوية والجوهرية لامبراطوريتهم التي كانت في ذلك الحين لا تغيب عنها الشمس. فوافق الملك فيصل وبطانته أي النخبة الكلاسيكية الحاكمة على مطاليب وشروط بريطانيا الجائرة واعتبروا تلك القرارات مرحلية، وركنوا إلى سياسة خذ وطالب لأجل حقوقهم وبنفس الوقت يحصلون على دعم الدولة العظمى ضد الطامعين والحصول على مساعداتها وإنجاز أكثر ما يمكن إنجازه من التقدم والتطور. وبالفعل فقد تمكن فيصل وبطانته ما بين عام ١٩٢١ وعام ١٩٣٢ أن يحققوا إنجازات تقرب من الإعجاز في حجمها وعمقها.

وقد كانت المشاعر والعواطف الشعبية عمومًا مفعمة بالكراهية ضد الإنكليز النصارى (الكفار) منذ دخولهم للعراق أثناء الحرب العالمية الأولى ووصموا الذين تعاونوا معهم كما تبين الأغنية العراقية (الطقطوقة) أو باللهجة العراقية (البستة) الحزينة غاية في الحزن وتُغنى بعد نهاية مقام الصَبا وقد غناها مطرب المقام العراقي الكبير المرحوم الأستاذ محمد القبنجي في أوائل حياته الفنية، ثم غناها المطرب المعروف المرحوم يوسف عمر في سني الخمسينيات، وقد نسيت كلماتها وأتذكر بعضًا منها كالآتي:

يا الحب يا الغالي يا الحب، صهري يخون وياي

يا عبودة لا يا حبيبي يا الحب

ومن كلماتها:

رِدهُمْ يا السلمان رِدهُمْ، ذولة الإجوا كفّار

يا عبودة لا يا حبيبي يا الحب

همّة ثلاثة همّة، الخانوا السلطان

يا عبودة لا يا حبيبي يا الحب

طالب وخزيعل طالب، ومبارك الخوام

يا عبودة لا يا حبيبي يا الحب

ولا أزال أتذكر كيف ترقرقت عينا والدتي المرحومة بالدموع حين سمعنا يوسف عمر يغني هذه الأغنية وأخبرتنا أن الأغنية ظهرت أثناء معركة سلمان باك (المنطقة المسماة بعد سلمان الفارسي، أحد صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي اقترح حفر الخندق حول المدينة المنورة ورد بذلك الكفار ومنعهم من احتلالها). وكان الناس تستنجد بسلمان الفارسي (رضي الله عنه) لأجل رد الكفار الجدد الذين جاءوا لاحتلال بغداد. أما عبودة فهي إحدى العشائر العراقية، والأسماء التي وردت في الأغنية فهم الذين اتهموا بالتعاون مع الإنكليز وخانوا السلطان، أما (الأصهار) فهم العرب والأتراك المسلمون.

وقد بقيت المشاعر والعواطف الشعبية المفعمة بالكراهية ضد الإنكليز المسيحيين (الكفار) أثناء الحكم الملكي حيث استمر الانتماء العام إسلاميًا، ثم تطور شعور العداء ضد الإنكليز على أسس قومية ووطنية باعتبار إن بريطانيا كانت تستعمر العراق.

غير إنه لا يمكن لأي باحث لتلك الفترة التاريخية أن ينكر أن الأفكار والمساهمات التي قدمها الإنكليز على شكل تخطيط وخبرات في مجالات نظام الدولة والإدارة والري والزراعة والتعليم والصحة ومعظم مجالات الحياة العصرية الأخرى. فقد جلب الإنكليز معهم أفكار عصر التنوير في القوانين الحديثة وحقوق الإنسان والحرية الفردية وغيرها إضافة إلى العلوم الحديثة واختراعات الثورة الصناعية، وهي نفس المستجدات التي سحبت أوروبا من دياجير عصور الظلمات وأدخلتها في ملكوت جديد يسطع بأنوار العلوم والفنون والتقنية الحديثة التي مكنت دول الغرب من التسلط على العالم. فلذلك، ونتيجة لجلبهم لهذه التطورات، فقد ساهم الإنكليز أثناء عقد

العشرينيات مساهمة أساسية في تقدم العراق وتطوره ليصبح دولة حديثة قابلة للحياة، بالرغم من إنهم فعلوا ذلك لأجل خدمة امبراطوريتهم ولتوفير الرفاه لكوادرهم العاملة في العراق. إلا إن الحكام والإداريين العراقيين استفادوا فوائد كبيرة من خبرات الإنكليز في خلق وتكوين وإدارة بلاد الرافدين، وقد تطور العراق على المدى البعيد ليصبح دولة تضاهي دول الجوار ولها مكانة عالمية مرموقة. ويتفق المؤرخ حنا بطاطو مع الرأي القائل لولا الإنكليز لكان تحقيق تلك الإنجازات أقرب إلى المحال[٩١].

إضافة إلى النظم السياسية والإدارية الحديثة التي جاء بها الإنكليز فقد أدخلوا الاختراعات والتغييرات العصرية الآتية:

● **الكهرباء**: أدخل الإنكليز الكهرباء إلى العاصمة بغداد بعد احتلالها فأحالوا الليل إلى نهار بعد أن كانت أزقة بغداد تنار بالليل بواسطة الفوانيس النفطية التي كان شعاعها لا يبعد سوى بضعة أشبار عن فتيلها. وكانت عقول سكان بغداد مليئة بأخبار (الطناطل والجن والسعالي) الذين يتربصون في ظلمات الأزقة لكل من يتجرأ بالبقاء خارج داره في هجيع الليل. ثم انتشر الكهرباء تدريجيًا إلى المدن الأخرى. وكنتيجة لذلك شهد العراقيون دخول المذياع (الراديو) الذي انتشر في البيوت والمقاهي، والهاتف (التلفون) والثلاجات والبطاريات وغيرها من الآلات الكهربائية التي سهلت معظم نواحي الحياة.

● **الطائرات**: شوهدت الطائرات الإنكليزية لأول مرة في العراق أثناء

---

٩١) حنا بطاطو، العراق: الطبقات الاجتماعية، والحركات الثورية من العهد العثماني لقيام الجمهورية. الكتاب الاول، ترجمة عفيف الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٠) صفحة ٤٣.

الحرب العالمية الأولى وهي تقصف بقنابلها جيوش أعدائها، ويقول السيد تحسين العسكري الذي كان ضابطًا عثمانيًا وهو يصف معارك العمارة في العراق ١٩١٥ [٩٢]:

في هذه المعركة فاجئتنا أول طائرة حربية من سلاح الجو البريطاني حلقت في سماء العراق فألقت الرعب الشديد في قلوب العشائر وبلغ من تأثيرها في نفوسهم أن صاروا يهزجون في غيبوبة من الوعي وهم يشيرون إلى السماء:

متعجب خالق له بعيرة

لو تكدر تخلق طيارة

ولكن بعد أن تعودوا على رؤيتها سخر البعض من طيارات الإنكليز بالأهزوجة التالية:

طيارة طارت فوك بيها إنكليزي

ضربت سبع بمبات دسمع يا ط...ي

وبعد انتهاء الحرب بنى الإنكليز عدة مطارات عسكرية وجلبوا طائرات وانخرط بعض الشبان في سلك الطيران العسكري وتخرجوا ضباطًا طيارين وكان الرعيل الأول من أولئك الشبان يضم محمد علي جواد، وناطق محمد الطائي، وموسى علي، وناصر الجنابي، وحفظي عزيز، ثم تبع ذلك الرعيل الثاني والثالث الذي ضم كل من أكرم مشتاق، وبهجت رؤوف، وسامي فتاح، وأرميا ناصر، ثم تبعهم بعد ذلك طه عبد الجليل وصباح نجل (نوري باشا السعيد) الذي أصبح بعد ذلك مدير مصلحة الخطوط الجوية التي أسست بمساعدة الإنكليز، ثم افتتحت كلية الطيران العسكري، وبنيت المطارات المدنية واستعملت الطائرات للسفر ونقل البضائع والبريد.

---

٩٢) تحسين العسكري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، طبعة ٢ (دبي: جلوبال انفورميشون تكنلوجي (GIT) ٢٠٠٤) صفحة ٨١.

● **المواصلات** : أسس الإنكليز مديرية السكك الحديدية واستنسخوا النظام البريطاني في إدارة انطلاق ووصول القاطرات في مواعيد محددة ومضبوطة. وقد بقيت إصطلاحات إدارة السكك باللغة الإنكليزية لفترة طويلة. وكان العديد من الناس يسمون القطار (الريل) وهي الكلمة الإنكليزية (Rail) والتي تعني قضبان السكة الحديدية للقاطرات. وقد ارتبطت بغداد مع البصرة وكركوك والموصل بالقطارات وبنيت محطات في المدن الصغيرة الواقعة بين المدن الرئيسية، وكانت تلك القطارات تستعمل للسفر والنقل والتجارة.

ثم ازداد عدد اللوريات والسيارات والحافلات التي سهلت وسرعت عمليات نقل الركاب والبضائع والتجارة وأخذت تحل تدريجيًا محل العتالين والحيوانات والعجلات القديمة التي كانت تسحبها الخيول والبغال والحمير.

أما المجالات الأخرى فقد كانت وسائل الترفيه كالموسيقى الغربية الكلاسيكية والحديثة والفونوغراف، وانبهر العراقيون بالسينما. وقد أخبرتني شقيقتي الكبرى الدكتورة سانحة بأن البغداديين شاهدوا السينما لأول مرة في أواخر عقد العشرينيات، وكانت هي صبية وشاهدت الأفلام الصامتة لممثلي تلك الحقبة في سينما الرشيد وسينما الوطني الواقعتين في شارع الرشيد بالقرب من ساحة حافظ القاضي. وكانتا تعرضان الأفلام الصامتة لمشاهير ممثلي تلك الحقبة من أمثال تشارلي تشابلن، ورودولف فالانتينو، الشاب الغرنوق الوسيم الذي سحر نساء العالم، وحين توفي وهو في ميعة شبابه جراء المرض انتحرت عدة شابات في أوروبا بسبب وفاته. بعدها بنيت عدة دور عرض مثل سينما الرافدين في شارع الرشيد وسينما الزوراء، وكانت عروسة السينمات في سني الأربعينيات هي سينما غازي التي كانت تعرض أفلام أشهر الممثلين من أمثال كلارك كابل، وجاري كوبر، وتابرون باور، وهيدي لامار، وماريا مونتير وغيرهم، وكانت السينمات تكتظ بالشباب من الجنسين أيام الأعياد وفي أمسيات أيام الخميس قبل عطلة نهاية الأسبوع ثم انتشرت

دور السينما في الألوية وبقية المدن.

كذلك انبهر العراقيون حين شاهدوا لأول مرة الإنكليز وهم يمارسون الفعاليات الرياضية الحديثة ككرة القدم والسلة والطائرة وكرة المضرب (التنس) والملاكمة وألعاب الساحة والميدان، كمسابقات الركض، والقفز، ورمي القرص والثقل والرمح وغيرها من الألعاب الأولمبية. ولم يكن في العهد العثماني أي نوع رياضة سوى (الزورخانة) وهي كلمة فارسية تعني بيت القوة حيث كان يمارس فيها (الزورخانجية) رياضة التمارين بالأثقال والمصارعة بالطريقة القديمة. وكان من أشهر المصارعين القدامى في بغداد الأسطى غني وعباس الديك ومجيد لولو.

وحسب مقتضيات ممارسة الألعاب الحديثة فقد بنى الإنكليز الساحات والملاعب التي تستلزمها تلك الألعاب كساحات الكرة التي أنشأوها في معسكرات الجيش الإنكليزي والعراقي ثم ادخلو الرياضة في مناهج دراسات المدارس الابتدائية والثانوية. وقد برز عدد كبير من الرياضيين ممن تخرجوا من المدارس أو انتظموا في صفوف الجيش في أواخر العشرينيات وأثناء الثلاثينيات أذكر منهم الضابط الطيار حفظي عزيز (ملاكم) والضابط منير عبد الجبار (ملاكم ومصارع ولاعب كرة قدم) و(الرئيس) النقيب الطيار طه عبد الجليل، كابتن فريق الطيران (ملاكم ومصارع ولاعب كرة قدم) وشقيقه الصغير هاشم عبد الجليل (ملاكم ولاعب كرة قدم) وأبطال كرة القدم ناصر جكو، وتوما، وحمة بشكة وغيرهم ممن سمعت عنهم من شقيقي المرحوم خلوق وبعض الرياضيين القدامى.

وفي عام ١٩٣٦ ساهم العراق في أولمبياد برلين تحت رعاية الفوهرر أدولف هتلر وكان الفريق العراقي برئاسة الأستاذ أكرم فهمي وكان شابًا فارع القامة مفتول العضل وسامته تضاهي نجوم هوليوود، وقد شارك في ذلك الحدث التاريخي الرياضي في ألعاب القوى السيد (لاحقًا الدكتور) نجم الدين محيي

السهروردي الذي كان من ألمع نجوم ألعاب الساحة والميدان في العراق.

وفي سني العشرينيات شهد سكان مدينة بغداد لأول مرة أحواض السباحة التي بناها الإنكليز في نادي العلوية في ناحية الكرادة ونادي السكك في حارة الصالحية وبعد ذلك مسبح المعارف الذي بني أمام البلاط الملكي في محلة الكسرة ومحاذٍ لشارع الزهاوي.

وفي عقد الثلاثينيات بني ملعب الكشافة الذي كان يستضيف المباريات المحلية والدولية لفترة طويلة. كذلك بني في نفس الفترة النادي الأولمبي الرياضي الملكي. وكانت معظم هذه الفعاليات تحت إشراف المستشار الإنكليزي (Side Bottom) سايد بوتوم الذي أخبرني عنه مدرس الرياضة المرحوم عبد الستار القيسي حين كنت تلميذًا في مدرسة الرصافة عام ١٩٥١ وكنت كابتن فريق كرة الطائرة وفريق الملاكمة وقد حصدنا بعض الجوائز تحت إشراف الأستاذ القيسي الذي ربطتني به صداقة رياضية حتى وفاته - رحمه الله - وكان يحدثني عن الأحداث الراضية في سني الثلاثينيات حين كان هو طالبًا يمارس المصارعة.

لا يمكن لأي مؤرخ أو كاتب أن يبحث العراق أن ينكر الدور الرئيسي الذي اضطلع به المغفور له الملك فيصل الأول وبطانته (النخبة الكلاسيكية) في بناء العراق الحديث وتطوره، ولولا حصافة ذلك الرجل وشخصيته الفذة لواجهت بلاد ما بين النهرين مصيرًا مجهولاً.

يقيّم المؤرخ العربي المعروف أمين الريحاني قيادة الملك فيصل ويقول[٩٣]:

> كان الملك فيصل يؤثر الرأي على الشجاعة ويقول: «النصر يبدأ بالإدارة والتدبير». كان يكظم الغيظ، وينكر النفس، توصلاً إلى أغراضه. السكينة من سجاياه الكبرى في كل أحواله، بل كانت الركن الأول لقواه المعنوية والسياسية كلها. السكينة وما

---

٩٣) أمين الريحاني، فيصل الأول (بيروت: ١٩٥٨) الصفحات ٢١٩ - ٢٧٨.

فيها من الغذاء للنفس ومن أسباب السيطرة عليها. هذه ناحية من نواحي العظمة في فيصل، فقلما كان يرى في حالة الغضب أو الاضطراب. كأنه الأرز من الأشجار، لا تهزه الريح العاصفة.

وأخيرًا أود أن أوكد مقولة المؤرخ الدكتور علاء نورس «إن تاريخ العراق المعاصر في حلقاته التكوينية الأساسية ودولته الحديثة، هو تاريخ الملك فيصل ذاته بكل أحداثه وتطوراته»[٩٤].

٩٤) علاء نورس، صفحة ١٥٣.

الفصل الثاني

عهد المغفور له الملك غازي الأول
(١٩٣٣ ـ ١٩٣٩)

يـا السفينة التايهة وطـرهـا الفلك

مات فيصل يا الغريب أذكـر هلك

مـات فـيصـل بـطـل الأمـة العزيز

على الشعـب واهـتـزت الدنيا هزيز

بـعـد أخـذوا حـذركـم يـا إنكليز

عالملك غـازي فلا يعبر كـلك[1]

مـات فيصل مـات عِـزّك يـا الفقير

يـا عـراقـي بعـد بـيمـن تستجير

بـالـرفـق والـرحـمة وبـيـوم العسير

كـان فيصلنـا يحـامـي موقعك

بهذا الشعر باللهجة البغدادية الدارجة عبر الشاعر الشعبي الملا عبود الكرخي عن شعور الأسى والضياع الذي شعر به الشعب إثر وفاة الملك فيصل الأول

١) كلك: حيلة أو خدعة.

وزوال قيادته الحكيمة والرصينة والخبرات الإدارية على مستوى السياستين الداخلية والخارجية التي اكتسبها على مر السنين. فقد ساهم في الثورة العربية الكبرى التي قادها والده الشريف حسين ابن علي وشارك في معارك الحرب العالمية الأولى، واعتلائه لعرش سوريا ثم فقدانه له بعد معركة ميسلون، وتجرع مرارة خداع وخيانة الدول العظمى، وأخيرًا وليس آخر حنكته وإدراكه للوهن والضعف المريع الذي يعاني منه الشعب العربي عمومًا. لقد خبر الملك فيصل السياسة عن ظهر قلب وكان في أوّج نضوجه الفكري والسياسي حين توفي وهو في سن الـ ٤٨ عامًا.

كان الملك فيصل الأول قد توجه إلى لندن لتلبية دعوة زيارة رسمية إلى بريطانيا فترك ابنه الشاب الأمير غازي الذي يبلغ الواحد والعشرين عامًا وصيًا عنه في بغداد. ووصل فيصل إلى لندن في ٢٠/٦/١٩٣٣ بصحبة ثلاثة من أقرب أتباعه وهم رستم حيدر ونوري السعيد وياسين الهاشمي[٢]. وقد حققت تلك الزيارة نجاحًا دبلوماسيًا للعراق حيث قام الملك وحاشيته بزيارة سكوتلاندا وسويسرا وعززوا علاقات العراق مع تلك الدول، إلاّ إن أخبارًا خطيرة وصلت إلى فيصل تُفيد عن تمرد قامت به الأقلية الآثورية الانفصالية، فأرسل الملك عدة برقيات أمر فيها ابنه الأمير غازي والحكومة بعدم اللجوء إلى العنف وبممارسة الأناة والتفاوض مع رؤساء الآثوريين والتفاهم معهم بالحسنى، وهرع فيصل راجعًا إلى بغداد ولعله يحل الإشكال بتعقل وهدوء، إلاّ إن السيف سبق العذل، وحين وصل فيصل إلى العراق كان الجيش العراقي بقيادة بكر صدقي قد سحق التمرد بقساوة، وأعلن الأمير غازي الانتصار على الانفصاليين.

كانت حادثة الآثوريين مؤلمة ومدعاة للأسى، ولكن بعد القضاء على ذلك

---

٢) عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث. ج٣ (صيدا: مطبعة العرفان، ١٩٧٥) صفحة ٩٨.

التمرد عاد الاستقرار تدريجيًا إلى الأجواء العراقية. ألاّ إن الكارثة حلت في يوم ٨/٩/١٩٣٣ بوفاة الملك فيصل الأول في حين كانت المملكة الحديثة بأمس الحاجة إلى حكمته وخبرته لقيادتها. فورث الأمير غازي عرش والده حسب مقتضيات الدستور فأقسم يمين الإخلاص الرسمي وتوج ملكًا، وتبادل مع ملك إنكلترا وحكام بعض الدول الأخرى برقيات التهاني والشكر وبدأت مرحلة جديدة من بتاريخ العراق بالاضطرابات وعدم الاستقرار والمطبات المتوالية استمرت لعدة سنوات[٣].

كان الملك غازي يافعًا لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره، وكان فتىً نشطًا ووطنيًا متحمسًا ومحبوبًا من قبل معظم العراقيين لإظهاره العداء السافر للاستعمار الإنكليزي، وكان يتمتع بشعبية وتأييد واسع من ضباط ومراتب الجيش. وكان فارسًا مقدامًا وطيارًا ماهرًا يقوم بألعاب جوية بهلوانية بطائرته الموسومة (النسر الذهبي) التي تعرفها الجماهير التي تشخص بأبصارها إلى السماء وتلاحق طائرة الملك الذهبية اللون بين التصفيق والإعجاب، وأضحى حُب الملك غازي عاملاً قويًا لتوحيد معظم فئات الشعب. وقد عبر الشاعر الشعبي الملاّ عبود الكرخي عن ذلك الحب كالآتي:

آنــي أتـعـجـب عـلـى نجـم الفلك

يـشـوفـك تـشـوفـه ومـا يـنـزل إلـك؟

إلاّ إن هذه الصفات لم تكن كافية لجعل الملك غازي رجل دولة. فقد كانت تنقصه الحصافة والخبرة السياسية وطول الأناة التي كان والده المرحوم يمتاز بها. لذلك فبعد تتويج غازي بفترة قصيرة انفرط عقد النخبة الحاكمة وبدأ صراعٌ على السلطة تدخلت فيه العشائر مما أدخل العراق بفترة نزاعات واهتزازات وانقلابات عسكرية، وسيطر ضباط الجيش على شؤون الدولة واستغل

٣) طه الهاشمي، مذكرات طه الهاشمي، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧) الصفحات ١٤٠ - ١٤٦.

السياسيون رؤساء العشائر لتحقيق مآربهم. وفي شهر آذار/مارت/١٩٣٥ تعيّن السيد ياسين الهاشمي لرئاسة الوزارة، وأراد أن يبسط هيمنة الدولة على العشائر التي أثارها هو ضد منافسه علي جودت الأيوبي، ولم يتمكن من ذلك. فأنيطت مهمة قمع العشائر بالفريق بكر صدقي العسكري، الضابط الذي سحق تمرد الآثوريين، وكان يشغل مركز معاون رئيس أركان الجيش. وبالفعل قام بكر بتلك المهمة خير قيام وحطم تمرد العشائر وأخضع رؤساءها لسلطة الدولة، فأصبح بعد ذلك بطلاً قوميًا قضى على تمردين وعزز سطوة الحكومة. وفي عام ١٩٣٦ تسنم الفريق بكر صدقي قيادة الفرقة الثانية في كركوك.

وفي الشهر العاشر من عام ١٩٣٦ وبينما كان رئيس أركان الجيش، العميد (الفريق الأول) طه الهاشمي خارج الوطن لمهمة عسكرية في تركيا، تعيّن بكر صدقي رئيس أركان الجيش بالوكالة، فاستغل موقعه وقام بانقلاب عسكري وسيطر على زمام الحكومة العراقية. وبعمله هذا قام الفريق بكر صدقي بسابقة تاريخية كبرى تبعتها عدة حوادث انقلابات عسكرة مشابهة ليس في العراق فحسب بل في البلاد العربية الأخرى. وقد كان الفريق بكر يخطط للانقلاب منذ فترة بالاتفاق مع حكمت سليمان، السياسي المخضرم الذي نافس رئيس الوزراء ياسين الهاشمي.

وفي يوم ٢٩/١٠/١٩٣٦ زحفت قوات الجيش من «لواء ديالى» بقيادة الفريق بكر صدقي العسكري قائد الفرقة الثانية والفريق عبد اللطيف نوري قائد الفرقة الأولى، زحفوا إلى بغداد وطلبوا من الملك غازي إقالة وزارة الهاشمي. فانبرى وزير الدفاع جعفر (باشا) العسكري وأبو الجيش العراقي ليثني بكر عن نواياه، وأخذ رسالة مستعجلة من الملك موجهة إلى بكر صدقي جاء فيها ما يلي[٤]:

---

٤) الحسني، المصدر السابق، صفحة ١٣١.

عزيزي بكر صدقي

تستلمون هذه الرسالة من يد السيد جعفر العسكري الذي سيلاقيكم بصورة خصوصية لأجل بحث الموقف. لقد بلغني الآن أن بعض الطائرات ألقت ثلاث قنابل فاستغربتُ جدًا لهذا الحادث الجديد بعد أن سبق لي أن أخبرتكم تلفونيًا بلزوم إيقاف كل حركة بينما أتدبر الوضع الحاضر. إن كل حركة أخرى سوف لا تخلو من أن تؤثر أسوأ الأثر على مستقبل البلاد وسمعة الجيش إذ ليس من حاجة إلبتة لشيء من ذلك وسوف تفهمون التفاصيل من جعفر.

٢٩ / تشرين الأول / ١٩٣٦

غازي

إلاّ أن بكر صدقي بقي مصممًا على خطته فأوعز لأعوانه وقتلوا جعفر العسكري ودخل بغداد على رأس الجيش مما حدا برئيس الوزراء ياسين (باشا) الهاشمي أن يقدم استقالته. واستجاب الملك لطلب بكر وعين السيد حكمت سليمان رئيسًا للوزراء، فاختار وزراءه من العناصر المعروفة بوطنيتها والمناوئة لنفوذ الإنجليز وهم:

١ . كامل الجادرجي - رئيس الحزب الوطني الديمقراطي - لوزارة العمل والمواصلات

٢ . جعفر أبو التمن - تاجر ووجيه شيعي معروف - لوزارة المالية

٣ . صالح جبر - سياسي معروف - لوزارة العدل

٤ . الفريق عبد اللطيف نوري - لوزارة الدفاع

٥ . السيد ناجي الأصيل - لوزارة الخارجية

٦ . يوسف إبراهيم - لوزارة التعليم

وقد استبشر العراقيون خيرًا من هذه الوزارة التي تضم عناصر تنادي بالإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ومعارضة النفوذ الإجنبي، وهم السيد الجادرجي والسيد أبو التمن، بالتعاون مع المحامي المعروف باتجاهه الوطني السيد حكمت ولو أنه ينتمي إلى الأقلية التركمانية والشقيق الأصغر للمشير محمد شوكت باشا الذي كان قائدًا للجيش العثماني الثالث، وهو الذي زحف على اسطنبول وقضى على ثورة الدراويش المؤيدة للسلطان والمعادية لحركة تركيا الفتاة، ومن ثم أجبر السلطان عبد الحميد على الاستقالة من العرش في عام ١٩٠٩ (٥).

إلاّ إن تلك التوقعات بدأت تتلاشى بمرور الأيام بعد أن لم تقم حكومة حكمت سليمان وبكر صدقي بأي إصلاحات ملموسة، فساد الإحباط بين أوساط الشعب العراقي والعربي عمومًا ممن راهنوا على حكومة الانقلاب خصوصًا بعد أن اتجه النظام نحو الدكتاتورية والعسكرتارية وأهملت الشؤون العامة. ومما زاد من خيبة الآمال خلاعة الضباط وزواج بكر صدقي من راقصة نمساوية تعمل في إحدى الملاهي الليلية.

فضلاً عن ذلك فقد ظهرت نزعات من القادة كانت مخفية عن سواد الناس. فقد بدأ بكر صدقي الذي ينتمي إلى الأقلية الكردية، يقدم الضباط الأكراد ويجاهر بتعصبه ضد الضباط العرب، ولم يذكر في أي مناسبة انتماء العراق إلى الأمة العربية. أما حكمت سليمان التركماني الأصل فقد شرع يبدي إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك ذي النزعة الطورانية. فانتابت الضباط العرب والعناصر القومية الشكوك بأن النخبة الحاكمة تخطط لانحراف العراق عن مسيرة القومية العربية(٦).

---

٥) محمد توفيق حسين «دور اليهودية والماسونية في الانقلاب العثماني ١٩٠٨»، آفاق عربية، بغداد، العدد ١٠١٧، ٣٠/١/١٩٥٢.

٦) يعرب فهمي سعيد «حقائق اغتيال الفريق بكر صدقي»، آفاق عربية، بغداد ٦ :٨٣، شباط ١٩٧٨.

فلهذه الأسباب مجتمعة وفي يوم ١٩ / ٦ / ١٩٣٧ استقال أربعة وزراء من وزارة حكمت سليمان وهم كامل الجادرجي ويوسف إبراهيم وصالح جبر وجعفر أبو التمن. وبدأت الأحداث تتسارع، ففي يوم ١٠ / ٨ / ١٩٣٧ كان بكر صدقي يتحضر للسفر على رأس وفد عسكري إلى اسطنبول لحضور مناورات عسكرية بعد أن استلم دعوة من حكومة كمال أتاتورك. وقبل سفره بيوم أخبره مدير الشرطة العام اللواء حسن فهمي المدفعي (ابن علي آغا) بأن ثمة مؤامرة يحوكها بعض ضباط الجيش لاغتياله وليتوخى الحذر. ولم يأبه بكر صدقي للتحذير بل انطلق بسفرته وتوقف في مدينة الموصل لأجل الراحة ونزل في إحدى القواعد الجوية العسكرية. وبينما كان يستجم مع قائد القوة الجوية محمد علي جواد هجم عريف على بكر وأطلق عليه الرصاص وأرداه قتيلاً وحين هم صديقه العقيد محمد علي جواد أن يسحب مسدسه عاجله العريف وأطلق عليه الرصاص وأرداه قتيلاً بجانب صديقه[٧].

حال سماع حكمت سليمان بخبر مقتل بكر صدقي الذي كان سنده الكبير، قدم استقالته من رئاسة الوزارة في يوم ٧ / ٨ / ١٩٣٧، فقبل الملك غازي الاستقالة، واختار مباشرة السيد جميل المدفعي لرئاسة الوزارة، فخف السيد المدفعي لتحقيق هدفين:

١ . انسحاب الجيش من التدخل في أمور الدولة السياسية.

٢ . إسدال الستار على ما حدث وتناسي انقلاب بكر صدقي والعفو عن المشاركين فيه وعدم ملاحقة قتلة الفريق جعفر العسكري.

وقد تمكن رئيس الوزراء من تحقيق المبدأ الثاني بعد أن أصدر قرار عفو عام شمل جميع الذين شاركوا في الانقلاب وارتكبوا الاغتيالات.

أما الهدف الأول فلم يتمكن من تحقيقه بسبب تكتل عدة ضباط تحت

---

٧) عبد الرحمن التكريتي « كيفية اغتيال بكر صدقي العسكري »، آفاق عربية، بغداد، ٢ :٨ - ٩، تشرين الأول ١٩٧٧.

قيادة العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ ومحمد فهمي سعيد وكامل شبيب ومحمد حسن سلمان وإصرارهم على توجيه سياسة الدولة.

وفي تاريخ ٣٠/١٠/١٩٣٨ قام رئيس الوزراء بتغيير وزاري فعين العقيد الركن (اللواء في سلك الشرطة) السيد صبيح نجيب وزيرًا للدفاع معتقدًا بأن صبيح - الضابط المتمرس والحازم - قادر على كبح جماح الضباط وإعادة هيمنة السلطة المدنية على سياسة الدولة كما كانت في زمن المرحوم فيصل الأول.

كان صبيح نجيب ضابطًا مقدامًا ومعروفًا، فهو يمتلك تاريخًا حافلاً، فقد تخرج من الأكاديمية العسكرية في اسطنبول وكان الأول في دفعته، وانتظم في جمعية العهد تحت قيادة عزيز علي المصري، وتعين ياورًا للملك فيصل الأول، ثم تعين مديرًا عامًا للشرطة ودبلوماسيًا كبيرًا، أي إن الرجل كانت له خبرة واسعة بالأوضاع العسكرية والدبلوماسية والإدارية العامة في العراق. وكان إيمانه بالنظام الديمقراطي عميقًا وبضرورة ابتعاد الجيش عن السياسة وإرجاعه إلى ثكناته[٨].

شعر العقداء الأربعة بالخطر من مخططات صبيح نجيب للتخلص من نفوذهم فتحركوا في يوم ٢٤/١٢/١٩٣٨ من معسكر الرشيد القريب من بغداد واحتلوا مواقع استراتيجية وهددوا بالزحف على بغداد إذا لم تستقيل الوزارة. فانبرى صبيح نجيب لمواجهة هذا التحدي ويلقن أولئك الضباط درسًا في الانضباط العسكري وطاعة النظام، واتصل برئيس الوزراء وحثه أن يصمد وأن يمنحه بعض الوقت لإحباط حركة الضباط. إلاّ إن جميل المدفعي استجاب لأوامر الجيش واستقال من منصبه حقنًا للدماء ولتلافي الصدام بين المراتب العسكرية. وباستقالة الوزارة فقد صبيح نجيب مركزه الرسمي وجُرِّدَ من سلطاته، وتغلبت إرادة العقداء الأربعة وبقيت سياسة الدولة العراقية رهن قراراتهم.

وفي اليوم الربيعي ٢٤/٤/١٩٣٩ رُوِّعَ الشعب بخبر مقتل الملك غازي

---

٨) الهاشمي، المصدر السابق، صفحة ٣٧.

محبوب الجماهير بحادث سيارة، فَزُلزِلَ العراق بجميع أركانه لهول الكارثة واجتاحت الشعب موجة عميقة من الحزن، فنُصبت السرادقات ومجالس العزاء في كل مكان، وتُبين الأهازيج التالية عمق الأسى الذي انتاب جموع الناس:

الله أكـــبـــر يـــا عـــرب

غـــازي انـفـقـد مـــن داره

واهـــتـــزت أركـــان الـسـمـا

مـــن صـــدمـــة الـــســيـــارة

والأهازيج الأخرى التي تسائل رجال الدولة باتهام عن كيفية وفاة غازي:

جينة نسأل رستم ونوري السعيد

عالمصيبة الحلّت بسيد العرب

والأخرى:

هوب.. هوب طفي كدامك الطسة

غازي وكع بالبير، محد سمع حِسّه[٩]

كان مستقبل العراق بعد مقتل غازي كئيبًا مظلمًا، فالجيش يهيمن على مقدرات البلد، والحكومة المدنية عاجزة، والقيادة مبعثرة، والوريث الوحيد للمرحوم غازي هو ابنه فيصل ذو الأربع سنوات.

إلا إن النخبة الحاكمة عالجت الوضع على عجل، فتعين خال الملك الصبي الأمير عبد الإله وصيًا على عرش الملك فيصل الثاني. واستمرت المطبات والاهتزازات العنيفة تنتاب الأوضاع السياسية في العراق لمدة سنتين، إلى أن انفجرت في ربيع عام ١٩٤١ حرب رشيد عالي الكيلاني ضد بريطانيا العظمى والتي أدت إلى سحق الجيش العراقي وإعدام العقداء الأربعة ودخول العراق تحت الاحتلال العسكري البريطاني وبداية عهد جديد.

---

٩) هوب: باللهجة العامية تعني قف، والطسة: هي المطب. وقد بُدلت كلمة (غازي) بعدئذ إلى (لوري) مخافة السلطات.

تقييم عهد المغفور له غازي الأول

حين اعتلى الملك غازي عرش العراق، كان في ميعة الشباب، وكانت خبرته السياسية والإدارية قليلة قياسًا بخبرة والده وحنكته التي اكتسبها من مشاركته عبر السنين بأحداث تاريخية كبرى سبق ذكرها. لذلك فقد انفرط عقد النخبة الكلاسيكية الحاكمة وبدأ صراع على السلطة بين أفرادها بعد أن كانوا متماسكين تحت القيادة الكارزمية لفيصل الأول. لذلك فقد اتصف عهد الملك غازي بعدم الاستقرار السياسي والإداري وارتفع صوت القيادة العسكرية على صوت القيادة المدنية الدبلوماسية، واجتاحت البلاد مطّبات واهتزازات سياسية اتسمت بالعنف. وكانت أول مشكلة ورثها غازي قبيل وفاة والده هي مشكلة الأقلية الآثورية الذين ثاروا مطالبين بالانفصال عن الدولة العراقية، والتي سحقها الجيش بقيادة الفريق بكر صدقي العسكري كما بينا سابقًا. وبالرغم من إن هذه القضية قد أُشبعت درسًا وتفنيدًا من قبل العديد من كُتّاب تاريخ العراق الحديث، فليس من بأس في شرحها هنا باختصار نظرًا للأهمية الدولية التي اكتسبتها ولتأثيرها على السياسة الداخلية في العراق أثناء عقد الثلاثينيات.

يدعي الآثوريون أنهم ينتمون إلى الحضارة الآشورية التي سكنت العراق منذ حوالي ٣٠٠٠ ق.م، وهم أقوام قطنوا الجزيرة العربية وأغاروا على الحثيين وبسطوا نفوذهم على ديارهم، ثم هجموا على بابل واستولوا عليها، وبانتصاف القرن الثامن ق.م كانت أعلامهم تخفق فوق ربوع سوريا ومعظم بلاد الفينيقيين الواقعة على ساحل البحر المتوسط، وتوسعت مملكتهم حتى صارت تنتهي ببلاد أرمينيا شمالاً والخليج العربي جنوبًا وضفاف البحر الأحمر والبحر المتوسط غربًا وبلاد ماذي شرقًا. وبلغت دولة آشور ذروة مجدها على عهد ملكها (سرجون الثاني وابنه سنحاريب).

انقرضت الإمبراطورية الآشورية عام ٦٠٦ ق.م، بعد أن دحرهم الكلدانيون،

وقد اختلط الآشوريون مع الأقوام الأخرى كالفرس والعرب والأتراك. وبعد انتشار المسيحية في منطقة فلسطين والهلال الخصيب، اعتنق الآشوريون الدين المسيحي وأصبحت اللغة الآرامية أو السريانية لغتهم. والآرامية هي لغة السيد يسوع المسيح، واللغة التي كانت دارجة قديمًا في تلك الأصقاع.

النقطة المهمة هنا هي أن أولئك القوم الذين يقطنون شمال العراق وتحت اسم الآثوريين هم في الواقع مزيج من العرب والأتراك والعجم وغيرهم من الأقوام القديمة كالفينيقيين والكلدانيين، إلاّ إنهم استطاعوا أن يحتفظوا بمعالم حضارية متميزة بهم ومعزولة عن بقية الشرائح السكانية في العراق لأنهم احتفظوا بلغتهم الآرامية التي كان يتكلمها المسيحيون من القبائل التركية والعربية والفارسية فكانت لغة ليست مقصورة على مجموعة أثنية معينة.

بعد قرار عصبة الأمم بإلحاق الموصل بالدولة العراقية إثر تتخيم الحدود بين العراق وتركيا، بقي حوالي ثلاث أرباع الآثوريين (ما يقرب من ٣٥ ألف نسمة) داخل حدود المنطقة الشمالية المتاخمة لمدينة الموصل حيث يفترض أن يعيشوا كأقلية دينية مع بقية المجاميع البشرية التي تتعايش وتكون الشعب العراقي[١٠].

وقد اتبع الملك فيصل منذ تسنمه العرش سياسة جد متسامحة وكريمة مع الأقليات الدينية والأثنية في جميع أنحاء العراق وقام بتوزيع الأراضي الزراعية عليهم، ووزعت الدولة أراضٍ زراعية على البدو الرحل مما جعلهم يتحولون إلى مواطنين مستقرين يمارسون الزراعة بدلاً من الترحال الدائم طلبًا للماء والكلأ. وبحلول عام ١٩٣٢ لم يبقَ سوى الآثوريين بدون أراضٍ لكونهم كانوا قد جندوا مع قوات الاحتلال الإنكليزي بما يدعى بجيش الليفي (Levy) وهي كلمة تعني المجندون لأجل الحرب فقط وليسوا قوات عسكرية دائمة

---

(١٠) Government of Iraq. Correspondence Relating to Assyrian Settlement (13 July 1932 to 5 August 1933) (Baghdad: Government Press, 1934) P. 3

بل مجندون بشكل مؤقت ـ مثل المرتزقة ـ وحتى انتهاء الحرب. وبعد أن بدأ تسريح الآثوريين من الجيش الإنكليزي واكتسبوا الجنسية العراقية، وقعت مسؤولية إعاشتهم على عاتق الدولة العراقية وبدأ الحوار مع شيوخهم. وقد كان الآثوريون منذ بداية الحكم الوطني منقسمين إلى مجموعتين: المجموعة الأولى، وهي الأكبر، وهم ناصبوا الدولة العداء وطمحوا بالانفصال عن العراق بدولة خاصة بهم. وكانت هذه الفئة تحت قيادة مار شمعون، وهو رجل دين يؤمن بالعنف. وكان هذا الرجل مؤيدًا من قبل مالك ياقو ومالك لوكو وصرمة خانم وبقية العناصر المتعصبة للقومية الآثورية[11].

أما الفئة الثانية فقد كانت بقيادة الأسقف سركيس ومالك خمّو، وقبلت هذه الفئة مع الامتنان باكتساب الجنسية والتعاون مع الحكومة.

وقد ردّت الحكومة على طلب الفئة الأولى بالانفصال برد حاسم قائلة «إن طلب الآثوريين لإنشاء استقلال إداري داخل العراق هو طلب مرفوض بتاتًا»[12]. ولكن في نفس الوقت أرادت الحكومة أن تجد حلولاً سلمية لمشكلة الآثوريين فخصصت أراضٍ مناسبة لهم لاستغلالها لأجل إرضائهم وإزالة أسباب عدم التفاهم.

ولإثبات نوايا الحكومة الطيبة، بادر الملك فيصل الأول لمقابلة عدد من قادة الآثوريين ومن ضمنهم المتعنت مار شمعون، لأجل التفاوض وإيجاد حلول لمشكلة الآثوريين، كما يبين البرنامج الآتي الذي طرح في يوم ٢٦ / ٢ / ١٩٣٣ وتبناه المجلس المحلي لحل قضية الآثوريين:

- رقم ٨١ موجه إلى الذوات

---

(١١) Government of Iraq. Letter from Administrative Inspector, Mosul to Advisor, Ministry of Interior, No. 15, S/16 22 February 1933

(١٢) Government of Iraq. Program of Local Board of the Assyrian Settlement, for meet in accordance with the decision of the Official Settlement Committee, 26 February 1933

١ . البطريرك مار شمعون ـ الموصل

٢ . رئيس الأساقفة ـ يوالاها ـ العمادية

٣ . رئيس الأساقفة يوسف ـ دير حرير

٤ . مالك خوشابة ـ دهوك

٥ . رئيس شيكو جيو ـ شيخان

٦ . رئيس الأساقفة سركيس ـ دهوك

٧ . مالك خمّو ـ الموصل

٨ . رئيس خيو أود يسنو ـ شيخان

٩ . مالك إسمعيل ـ ديانا (راوندوز)

١٠ . مالك النمرود ـ شيخان

١١ . مالك لوكو ـ عمادية

١٢ . مالك مروجي ـ عقرة

وقد اقترحت اللجنة أن يتقدم رئيس الطائفة بعرض يتعلق بصرف لجنة التسوية للأموال المخصصة للقضايا العاجلة والضرورية التي تحتاجها الطائفة .

وقد وافقت السلطات على المنهج التالي الذي اقترح على لجنة التوطين لأجل القيام بتنفيذه بعد تكوين المحلي .

رقم ١٩

منهج المجلس المحلي لتوطين الآثوريين الذي تأسس حسب قرار اللجنة الرسمية للتوطين الصادر في يوم ٢٦ / ٢ / ١٩٣٣ .

سمي المجلس « المجلس المحلي لتوطين الآثوريين » وسيحتوي على رئيس وستة أعضاء وسكرتير . وسيؤلف المجلس حسب قرار اللجنة الرسمية .

وتكون واجبات المجلس كالآتي :

أ . إيضاح وجهات النظر المتعلقة بتوطين الآثوريين عامة وتقديم التوصيات

للتأكد من نجاح الخطط التي اضطلعت بها اللجان الرسمية للتوطين.

ب. تحضير قوائم للعائلات والقبائل التي طلبت التوطين وجمع المعلومات المتعلقة بهذه القضية.

ج. إعلام العشائر الآثورية بما هو ضروري بخصوص تفاصيل التوطين ومقتضيات مصالحهم (أي مصالح الآثوريين).

د. تنفيذ قرارات اللجنة الرسمية بخصوص تفتيش الأراضي ومدى ملاءمتها للتوطين(١٣).

ولكن بينما كانت تلك الجهود البناءة قائمة على قدم وساق، بقي المار شمعون مصرًا على موقفه العدائي ولم يعبأ بقرارات وخطط الحكومة الهادفة لتحقيق مصالح الآثوريين، ولم ينفك يشكك بتلك ويؤكد «أن جميع العروض المقدمة له من قبل الحكومة العراقية تهدف لتهدئته وإعطائه الشعور بالأمان قبل تحطيم قواته». وقد استمر مار شمعون ومالك لوكو في عدائهم وزادوا في الدعاية والأكاذيب بين الآثوريين القرويين البسطاء وتحريضهم على الحصول والتدريب على السلاح ورفض الانصياع لطلبات الحكومة، وأطلق التهديدات لكل من يود أن يكتسب الجنسية العراقية.

ثم وردت أنباء سببت اهتزازات وقلقًا عميقًا للحكومة العراقية مفادها إن الآثوريين يبذلون المحاولات القصوى لاستحصال التأييد من الأكراد لخلق دولة تتاخم الحدود الإيرانية التركية تضم الآثوريين والأكراد، كما يبدو من الرسالة التالية:

لقد وصلنا من بعض القرى الكردية أن دعاية قوية تُنشر من قبل الآثوريين ومؤيدي الأكراد، ترد عبر الحدود لأجل تحقيق اتفاق بين الآثوريين والأكراد، من الذين يقطنون خارج العراق

---

١٣) Government of Great Britain, Letter from Sir F. Hamphry to Sir John Simon, No. 1445, Baghdad, 28 March 1934, L/P&S/12/2877 – Confidential

لأجل خلق وطن للأكراد والآثوريين. (الرسالة منقولة حرفيًا).

وقد هبطت هذه الأخبار بنفس الوقت الذي انتشرت فيه إشاعات خطيرة تفيد بأن إيران تتهيأ للهجوم على الأراضي العراقية. أي إن المملكة العراقية كانت تواجه خطرين، داخلي وخارجي. وقد سببت هذه الأخبار قلقًا عميقًا للشعب العراقي وجعلتهم يلتفون بقوة حول حكومة حزب الإخاء ذي الأيديولوجية والالتزام القومي العربي العميق، آملين أن تتمكن الحكومة من الوقوف وصد الأخطار المحيطة بالوطن. وكان هذا الشعور بالقلق الذي انتاب غالبية الشعب من الأسباب الأساسية التي جعلت الحكومة تتخذ خطوات عنيفة لأجل الحفاظ على حياض البلاد ولأجل طمأنة الشعب.

وبينما كان الأمير غازي يرأس الدولة بالنيابة عن والده الذي كان في سفرة دبلوماسية في أوروبا شن الآثوريون هجومًا مباغتًا على الجيش العراقي ووقعت إصابات بين قتلى وجرحى، ثم قام الآثوريون بالتمثيل بجثث الضباط والجنود الذين استشهدوا، كما تُبين الرسالة التالية:

> قام الآثوريون تحت قيادة ياقو ولوكو بهجوم ضد الجيش العراقي في ديربام، وقد تمكن الجيش من صد الهجوم بعد عدة ساعات من القتال الذي استمر بعد شروق الشمس في اليوم التالي، وحين انسحب الآثوريون، كان الجيش العراقي قد تكبد خسائر بلغت ثلاثة ضباط، وثلاثون من المراتب الأخرى، وأربعون جريحًا، بينما تُفيد آخر المعلومات أن خسائر الآثوريين بلغت عشرة قتلى وثلاثة عشر جريحًا. ووردت معلومات تُفيد بأن الآثوريين قد قاموا بحرق والتمثيل بجثث الضباط العراقيين وبعض الجنود الذين أسروهم في معركة ديربام مما أججت مشاعر الهياج الديني وجعلت فصيلاً من الجيش العراقي المرعوب أن

يلجأ إلى اقتراف مجزرة ضد الآثوريين[١٤].

وقد كتب المار يوسف رسالة إلى عصبة الأمم جاء فيها أن الحكومة العراقية «قد أعلنت الجهاد مما أدّى إلى اقتراف مجزرة شنيعة ضد الآثوريين».

انقسم الرأي العام العراقي بخصوص الصِّدام المسلح بين الجيش والأقلية الآثورية، فالأكثرية الساحقة اعتبرت سحق تلك الحركة الانفصالية انتصارًا باهرًا للجيش العراقي (الباسل) ضد فئة مشاغبة، بينما اعتبر بعض المثقفين إن رد فعل الجيش اتسم بقسوة غير ضرورية، ولو كان الملك فيصل الأول في العراق لتعامل مع الموقف بوسائل أكثر دبلوماسية ولتلافى سفك دماء الطرفين في حل الأزمة.

الحقيقة التاريخية التي لا غبار عليها هي أن الملك غازي حسم هذه المشكلة بعد أن قضى على حركة الآثوريين بشكل نهائي، وبذلك كفى الدولة العراقية صداع الأخذ والرد معهم، وإلاّ لبقيت قضية الآثوريين وخططهم الانفصالية تقض مضاجع قادة الدولة العراقية عبر السنين أسوة بقضية الأكراد العراقيين الذين ما انفكوا يطالبون ويخططون للابتعاد عن سلطة الحكومة العربية في بغداد.

أما المصاعب الأخرى التي جابهت الملك الشاب فهي الصراع الذي شب بين عناصر النخبة الحاكمة بعد وفاة والده، وتأجيج العشائر، وتدخل الجيش في السياسة، والانقلاب الذي قام به بكر صدقي وأعوانه، ثم مقتل بكر صدقي واستحواذ العقداء الأربعة المذكورة أسماءهم سابقًا على مقدرات الدولة، ولقلة خبرته فقد احتار الملك ولم يعرف كيف يتعامل مع أولئك الضباط المتمردين الذين خرجوا عن الطاعة وتجاوزوا واجباتهم العسكرية واتخاذهم مواقف مؤيدة لبعض السياسيين المتنافسين، وأخيرًا وليس آخر الانقلاب العسكري الذي حصل في عام ١٩٣٨ بقيادة العقداء الأربعة الذين تمردوا على قرارات وزير الدفاع صبيح نجيب الذي كان من أخلص أعوان الملك،

١٤) عبد الرزاق الحسني، مصدر سابق، صفحة ١٣٠.

كما إنه عارض تدخل الجيش بالسياسة. هذه الحوادث أصابت الملك بالإحباط وجعلته يركن إلى اللهو والشراب مع ضباط صغار يقربون من سنه، بدلاً من الاهتمام بالشؤون الخطيرة للدولة.

إلاّ إن عهد الملك غازي بالرغم من المصاعب التي تخللته، لم يخلُ من الإنجازات المهمة على صعيدي السياسة الداخلية والخارجية كما تُفيد المعلومات الآتية:

- في عام ١٩٣٥ قرر مجلس الوزراء في جلسته المنعقدة في يوم ٨/ نيسان الإفراج عن الصحف المعطلة كافة والسماح لها باستئناف الصدور بعد إتمام المعاملات القانونية.
- في عام ١٩٣٥ انتقلت ملكية السكك الحديدية من الحكومة البريطانية إلى الحكومة العراقية.
- في عام ١٩٣٦ قررت الدولة أن تأخذ البلديات، في المدن والقرى والقصبات، على عاتقها القيام بمشاريع الماء والكهرباء، دون الاستعانة بالشركات الخاصة، وقد استحصلت البلديات ٤٠٠,٠٠٠ دينار لهذا الغرض فكان عملاً جليلاً نظم شؤون التنوير والماء في البلاد.
- أسست الدولة دارًا للإذاعة اللاسلكية، باشرت البث اعتبارًا من الأول من تموز عام ١٩٣٦.
- أسس مدير الشرطة العام حسن فهمي المدفعي (ابن علي آغا) مدرسة الشرطة. وحين عُين متصرفًا (محافظًا) للواء الديوانية شرع بتبليط خط الحج بين لوائه ومكة المكرمة.
- أعطت الدولة اهتمامًا خاصًا لمكافحة الدعارة والموبقات في أنحاء البلاد.
- في يوم ١٩٣٨/٣/٢٥ افتتح الملك غازي المطار المدني في مدينة البصرة.

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد حققت الدولة ما يلي :

- وضعت معاهدة تجارية بين العراق وألمانيا في ٤ /آب / ١٩٣٥ وتم إبرامها في كانون الثاني ١٩٣٦ .

- استغل الملك غازي إذاعته الخاصة التي أقامها في قصر الزهور الملكي وأخذ يتواصل من خلالها مع الجماهير العربية في سوريا وفلسطين والعراق والكويت ذائعًا خطبه ذات الطابع القومي والحماسي، إلاّ إنه ركّز على حكام الكويت ونعتهم بالإقطاعيين عديمي الفائدة ودعا الشباب الكويتي إلى التمرد على حكامهم والمطالبة بدمج الكويت مع « الوطن الأم » العراق . وقد لقيت دعوات غازي صدىً إيجابيًا بين القوميين الكويتيين، كما تبين الرسالة التلغرافية الآتية والتي نشرتها جريدة البلاد في عددها الصادر في يوم ١٧ / ٢ / ١٩٣٩ :

شباب الكويت يؤيدون ملك العراق

وصلت البرقية الآتية من البصرة :

بعد صدور التصريح الذي نُشر في الجرائد العراقية والذي أُذيع من محطة قصر الزهور الملكي بخصوص الأوضاع الحالية في الكويت، فقد استمع شباب الكويت وهتفوا عاليًا بطول حياة ملك العراق ونعتوه ملكًا على الأمة العربية ال الموحدة(١٥) .

فلقد استجاب شعب الكويت إلى دعوات الملك وانطلقوا بتظاهرات صاخبة تطالب بالاتحاد مع العراق . وقد تقبل المجلس التشريعي الكويتي مطالب الشعب وأصدر قرار بتأييد الاتحاد مع العراق .

غير أن حاكم الكويت وقف بشدة ضد فكرة الوحدة وهرع بمساعدة السلطات الإنكليزية إلى سحق الذين طالبوا بها، وحل المجلس التشريعي وقضى قضاءً مبرمًا على العناصر المؤيدة للملك غازي .

---

(١٥) Government of Great Britain, Translation of an article published in newspaper Al-Bilad (Iraq) February 1939, L/P&S/12/2869

كانت دعوة الملك غازي لإلحاق الكويت بالعراق من ضمن مخططات العراق لتوحيد البلاد العربية كما طمح القادة العرب الأوائل قبل الحرب العالمية الأولى، وقد وُئدت فكرة اتحاد الكويت مع العراق بوفاة الملك الشاب.

ـ الإنجاز الدبلوماسي الكبير الذي تحقق في زمن الملك غازي هو توقيع ميثاق سعد آباد بين العراق وإيران وتركيا، والذي خفف من حدة النزاع الذي ترجع أصوله إلى الصراع المذهبي بين الإمبراطوريتين العثمانية السنية والفارسية الشيعية، وكانت حدود بلاد ما بين النهرين أحد الأسباب الأساسية لذلك الصراع. فلقد كانت العلاقة بين الإمبراطوريتين تتسم بالود والاتفاق، إلى أن شب الخلاف العتيق بينهما غداة تبني الشاه إسمعيل صفوي المذهب الجعفري وجعله دين الدولة الرسمي، مما أجج السلطان العثماني سليم الأول (الملقب ياووز أي القاسي أو الشرس) الذي يعتبر المذهب الشيعي مروقًا عن الإسلام، أن يجرد حملة عسكرية كبرى واصطدم مع الجيش الفارسي في وادي جالدران في عام ١٥١٤ وانتصر الجيش العثماني انتصارًا ساحقًا[١٦].

وفي عام ١٥٥٥ وقّع الطرفان معاهدة أماسية التي رسمت الحدود بين الإمبراطوريتين. إلاّ إن خلاف الحدود شب مجددًا حين انتهك الفرس بنود معاهدة أماسية وتجاوزوا حدودها فاندلعت حرب ضروس ثانية، انتصر فيها السلطان مراد الرابع على جيوش الفرس، ثم وقع الطرفان معاهدة قصر شيرين في عام ١٦٣٩ والتي قضت أن يكون شط العرب بجانبيه داخل أيالة بلاد الرافدين العثمانية.

شط العرب هو نهر عميق صالح للملاحة طوله ٢١٨ كم ومعدل عرضه ٧٠٠ متر وهو يتكون من التقاء دجلة والفرات في مدينة القرنة العراقية، ويجري بطوله داخل حدود العراق، فهو نهر عراقي وليس نهرًا دوليًا. ولكن

---

١٦) عبد الرزاق الحسني، مصدر سابق، صفحة ١٣٠.

مع ذلك كان ذلك النهر السبب في اندلاع عدة حروب مدمرة وتوقيع العديد من المعاهدات بين الإمبراطوريتين الإسلاميتين، كان آخرها بروتوكول اسطنبول الذي وقع في عام ١٩١٣ تحت رعاية لجنة رباعية دولية تكونت من روسيا وبريطانيا والدولة الفارسية والدولة العثمانية. وفي عام ١٩١٤ خططت تلك اللجنة الدولية بشكل نهائي الحدود بين الإمبراطوريتين وأصبح شط العرب بشاطئيه داخل حدود بلاد ما بين النهرين. وبتوقيع ذلك البروتوكول بقيت الحدود هادئة بين الفرس والأتراك لبضعة سنوات.

ولكن ما إن أعلن ولادة المملكة العراقية واعتلاء الملك فيصل الأول عرشها في عام ١٩٢١ حتى أعلنت حكومة فارس عدم التزامها بأي معاهدة سابقة لأنها جميعًا وقعت مع الدولة العثمانية التي زالت عن الوجود، ولم تعترف بحكومة العراق الجديدة وطالبت بإلحاق شط العرب بأرضها. إلاّ إن الملك فيصل بحصافته الدبلوماسية تمكن من تلافي الأزمة وتحسنت العلاقات تدريجيًا وتبادل البلدان المتجاوران وبقي أمر الحدود بينهما في حالة سبات.

ولكن بعد وفاة الملك فيصل بدأت إيران تحرشها بخصوص الحدود وشط العرب كما تبين الرسالة التالية:

تقول طهران:

إن الوضع الحالي يبقي العراق كل مياه شط العرب ما عدا بعض المواقع وخصوصًا في المحمرة، إن الحكومة الفارسية التي تطالب إما بالثالوج أو باقتسام النهر، ترفض حاليًا الاعتراف بالحدود التي رسمت في عام ١٩١٤. ومنذ عام ١٩١٤ بدأت لا تعترف بتلك الحدود وقامت بعدة انتهاكات لها كالآتي:

أ. بناء وتعزيز عدة مراكز بوليس داخل الحدود العراقية.

ب. عدم مراعاة الأنظمة التي تبناها وأعلنها مدير ميناء البصرة والتي تنظم الملاحة في شط العرب.

ج. قطع مصادر المياه التي يعتمد عليها قرويو العراق وخصوصًا

في منطقة خانقين[١٧].

إلاّ إن الدولة العراقية وقفت بوجه الفرس وأكدت على حقها في حدودها المرسومة استنادًا على بروتوكول اسطنبول لعام ١٩١٣ وتخطيط الحدود من قبل اللجنة الدولية الرباعية لعام ١٩١٤ . وتصاعد التوتر بين الجانبين، خصوصًا بعد أن وردت أخبار تُفيد أن إيران[١٨] تستورد سلاحًا جديدًا ومتطورًا من أوروبا، مما حدا بالحكومة العراقية أن تحسن وضعها العسكري وتعزيز ترسانة أسلحتها. وقدم العراق شكوى إلى عصبة الأمم.

في تلك الأثناء اجتاحت إيطاليا الحبشة، فانتاب البلاد العربية بأجمعها قلق عميق خشية أن تجتاح أوروبا منطقة الشرق الأوسط الغنية والمهمة استراتيجيًا. فبادر رئيس الجمهورية التركية، مصطفى كمال أتاتورك أن يبعث رسائل تحذير لفض النزاع وسحب القضية من عصبة الأمم لكي تركز جهودها لمواجهة التهديد الأوروبي. وبالفعل سحبت القضية من العصبة وبدأ الجانبان الفارسي والعراقي مفاوضات لإنهاء نزاع الحدود وكان الموفد العراقي نوري السعيد. ولما وقع انقلاب بكر صدقي في عام ١٩٣٦ حل السيد ناجي شوكت محل نوري السعيد، وتكللت الجهود الدبلوماسية بتوقيع معاهدة سلام بين الدولتين. بعد ذلك واصل السيد شوكت جهوده مع تركيا وأفغانستان، ووقعت الدول الأربعة العراق وتركيا وإيران وأفغانستان معاهدة عدم الاعتداء في ٤/٧/١٩٣٧ سميت (ميثاق سعد آباد). وكان توقيع هذا الميثاق إنجازًا دبلوماسيًا تاريخيًا تحقق في فترة حكم المغفور له الملك غازي الأول.

---

١٧) Mamoon Amin Zaki "The Iran - Iraq War" International Development and Alternative Future: The Coming Challenge, Eid. Mekki Mtewa (New Delhi: Allied publisher L+D, 1990) P. 446

قدمت هذه الدراسة من قبل الدكتور مامون أمين زكي في المؤتمر الذي عقدته جمعية الدراسات الدولية للعالم الثالث في مدينة Palm Beach، ولاية فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، ونالت الدراسة الجائزة الأولى.

١٨) في تلك الفترة بُدل اسم بلاد فارس إلى إيران.

- أتمت الوزارة التمهيدات اللازمة لعقد معاهدة أخوّة وتحالف بين العراق والمملكة العربية السعودية، ومهدت الدولة العراقية السبيل لانضمام اليمن إلى المعاهدة.
- في ١٨/آب/١٩٣٨ سافر وزير الخارجية، السيد توفيق السويدي على رأس وفد عراقي إلى أوروبا ليرفع تقريرًا إلى عصبة الأمم عن حالة النساطرة في العراق وليعالج قضيتي فلسطين والاسكندرونة (اللواء الذي سلبته تركيا من سوريا)[١٩].
- في ٢/تشرين الثاني/١٩٣٨ منحت الحكومة امتياز نفط البصرة إلى إحدى الشركات الأجنبية[٢٠].

وهكذا انتهت فترة حكم المغفور له الملك غازي الأول (١٩٣٣ - ١٩٣٩) والتي لم تدم لأكثر من ست سنوات، انتقل بعدها إلى ملكوت السماء وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين ربيعًا.

---

١٩) Ibid, P. 449

٢٠) الحسني، المصدر السابق، صفحة ١٣٠.

الفصل الثالث

نوري السعيد السياسي العراقي والعربي الأول

في يوم ٢٢ / ٥ / ١٩٤٥ اجتمعت سبعة دول عربية وهي العراق، ومصر، وسوريا، والأردن، ولبنان، والسعودية العربية واليمن ووقعوا ميثاق الجامعة العربية وقد اختير موسى العلاجي لتمثيل فلسطين في اللجنة التحضرية للجامعة[١].

تُمثل ولادة الجامعة العربية تتويجًا لجهود دبلوماسية طويلة ومضنية كانت قد بدأت قبل عقود عديدة. فشعاريّ «الوحدة والحرية» كانا متلازمين ونادى بهما القوميون العرب منذ فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى وبعد الانقلاب الذي حدث في الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ والذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني الذي نادى بتكاتف المسلمين ضد أعدائهم قائلاً «يا مسلمو العالم اتحدوا» وبعد أن وصل الثلاثي القومي الشوفيني التركي المعروف جمال باشا وطلعت باشا وأنور باشا (الثلاثي الطوراني)، الذي يؤكد الكثير من المؤرخين بكونهم من يهود الدونمة[٢]، إلى السلطة مما أدّى إلى تحول العلاقة بين الأتراك والعرب من الامتزاج الأخوي المبني على الهوية الإسلامية إلى

---

١) Majid Khadduri, Independent Iraq: A study in Iraqi Politics since 1932 (London: Oxford University Press, 1951) P. 245

٢) مأمون أمين زكي، صعود وتراجع المشروع الصهيوني (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٧) صفحة ٧٤.

التناحر الأثني، حيث بدأ الثلاثي الطوراني يضطهد العرب ويلاحق قادتهم وقد أعدم جمال باشا عدة زعماء من الذين عارضوا الاضطهاد مما أكسبه لقب جمال باشا السفاح واستمر تصاعد الظلم وسُجن العديد من الضباط القوميين المناهضين للطغيان كما يبين النشيد الحزين الآتي الذي كان العرب السجناء يعربون فيه عن تعاستهم في تلك الفترة من تاريخ الأمة العربية:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما

ليس بعد الليل إلاّ فجر مجد يتسامى

أيها الحراس رفقًا واسمعوا منا الكلاما

متعونا بهواءٍ منعه كان حراما

لست والله نسيًا ما تقاسيه بلادي

فاشهدي يا نجم إني ذو وفاء ووداد

هذا وحين بدأ الثلاثي الطوراني يفرض سياسة التتريك أي الإجبار على استعمال اللغة التركية بدل العربية تعمق شعور الاضطهاد والتمرد القومي بين العرب وأعربوا عن سخطهم ضد سياسة التتريك بمثل النشيد الآتي:

لغةُ العرب اذكرينا واندبي ما فات

كيف ننساكِ وفينا نسمة الحياة

حكم الدهر علينا بالشقا الأنكد

أفلا يبكي بنيه طالع أسود

لذا فإن سياسة الاضطهاد والتتريك أدّت إلى انفجار الثورة العربية الكبرى في عام ١٩١٦ بقيادة البيت الهاشمي الشريف ضد الحكم التركي بترغيب دول الغرب العظمى الذين غرروا بالقادة العرب ثم تنصلوا بعدئذ ذلك عن وعودهم بمساعدة العرب لتحقيق آمالهم بالاستقلال والوحدة الشاملة. ثم تمادت الدول الغربية فلجأت إلى تمزيق الجسد العربي إلى كيانات صغيرة بنظام

الانتداب الذي أجج الشعور القومي العدائي ضد دول الغرب وحث القادة العرب على بذل الجهود لأجل التخلص من القيود والحصول على الاستقلال التام وإزالة الحدود المفتعلة التي غرستها الدول الاستعمارية بهدف تفكيك البلاد العربية، وأخيرًا تحقيق الوحدة الكبرى بين العرب.

كان اللولب الذي لعب الدور الأساسي في جهود توحيد العرب هو الفريق الركن نوري باشا السعيد السياسي العراقي الذي أحرق فترتي شبابه وكهولته في سبيل خدمة العراق وتقدمه ولرفاهية مواطنيه ولإزالة الحدود المفتعلة بين البلاد العربية وجمع شمل العرب تحت راية واحدة وكان أبرز ما تمتاز به خططه هو اعتماده على خطوات براغماتية واقعية مبنية على قدرات العرب الذين كانوا بعد سقوط الدولة العثمانية في غاية التأخر الاجتماعي والتقني والعسكري وكانت الأكثرية العظمى منهم أمّيين لا يقرأون أو يكتبون، مقارنة بجبروت القابليات العسكرية والتقنية والاقتصادية والذهنية لخصوم العرب. ولم يلجأ نوري السعيد طوال حياته السياسية المديدة إلى الشعارات العاطفية البراقة والتلويح بالقبضات في الهواء والصراخ العالي بالأهازيج التي تُطلق على إيقاع دبكات مدوية تثير المشاعر البدائية وتضخ الادرينالين والدماء الحارة في أجساد المشاركين فيها وتدفعهم إلى سلوك جمعي لا عقلاني يوحي لهم بشعور مزيّف بالقوة وبأنهم سيحققون جميع أهدافهم الوطنية، بينما في الواقع إن تلك الأساليب خاوية لا تغني عن جوع ولا تؤدي إلاّ إلى الفراغ القاتل وخيبة الأمل والخذلان كما حصل للعالم العربي بعد اندحار عام ١٩٦٧ . فمن هو نوري السعيد؟

ولد نوري السعيد عام ١٨٨٨ [٣] في بغداد في زقاق ضيق يرتفع على شكل تل يدعى تبة الكرد (التبة تعني باللغة التركية التل أو المرتفع) أي إن

---

٣) عصمت السعيد نوري السعيد: رجل الدولة والإنسان (لندن: ميرة عصام السعيد، ١٩٩٢) صفحة ٣٥٨.

اسم الزقاق يعني تل الأكراد لوجود عدد من العوائل الكردية الساكنة فيه وكان الزقاق يتفرع من شارع الفضل الذي كان يعتبر من الشوارع الرئيسية في بغداد القديمة إلى أن شُق شارع خليل باشا أثناء الحرب العالمية الأولى وبُدّل اسمه لاحقًا إلى شارع الرشيد. وكان مدخل زقاق تبة الكرد بمستوى شارع الفضل إلاّ إنه يبدأ بالارتفاع مباشرة وبشكل مفاجئ وتوجد بيوت بغدادية قديمة قدم بغداد على جانبيه ويصل الزقاق إلى قمّته بارتفاع حوالي خمسة عشرة مترًا ثم يبدأ بالانحدار الشديد وينتهي بتقاطعه مع زقاق آخر يدعى محلة القسم وقد سمي بهذا الاسم لأن قسم البلدية كان واقعًا فيه أثناء العهد العثماني. وحين كنا فتيان صغار أثناء سني الأربعينيات من القرن العشرين كنا نصعد زقاق تبة الكرد بواسطة الدراجات الهوائية بجهد جهيد إلى أن نصل إلى قمته ثم تنحدر بدون جهد وبدون استعمال دواسات الدراجة وبسرعة متزايدة ونحن نطرق أجراس الدراجة منذرين الأطفال الذين يلعبون في الزقاق، والنسيم يرفرف قمصاننا إلى أن نصل إلى الجهة الثانية حيث التقاطع مع زقاق القسم متقدمين خلال أزقة غاية في الضيق تسمى محلة العيفان ثم نجتاز محلة القرغول التي تؤدي إلى شارع الفضل حيث كانت بيوت أجدادي وبيت والدي الذي ولدنا به جميعًا وقد كانت تلك البيوت العتيقة لما نزل موجودة حين تركت بغداد في عام ١٩٦٥. أما محلات تبة الكرد والقسم وما جاورها فقد زالت بعد أن شَقّت الدولة شارعًا جديدًا في عام ١٩٥٦ والذي سمي بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ بشارع الجمهورية والذي اخترق معظم أزقة بغداد القديمة ويمتد موازيًا لشارع الرشيد وشارع غازي الذي بُدل اسمه إلى شارع الكفاح.

في هذه المناطق ولد نوري السعيد وكانت خلفيته العائلية أقرب للبساطة فقد كان والده السيد سعيد أفندي موظفًا صغيرًا في بغداد وقد أدخل ابنه نوري في إحدى الكتاتيب شأنه بذلك شأن أبناء جيله ومن ثم دخل بـ

(الإعدادي عسكري) مما أهله لأن يدخل في الأكاديمية العسكرية في اسطنبول عاصمة الامبراطورية العثمانية. وقد كانت تلك الأكاديمية مقصورة على أبناء الضباط أو العوائل المتنفذة فعلى سبيل المثال قُبل جعفر (باشا) العسكري في الأكاديمية العسكرية في اسطنبول لأن والده مصطفى بك العسكري كان ضابطًا كبيرًا وصل إلى رتبة (ميرالاي، أي عميد) في الجيش العثماني، بينما لم يتسنى لياسين (باشا) الهاشمي وشقيقه طه (باشا) الدخول في السلك العسكري إلاّ بعد أن ذهب والدهم الذي كان مختار إحدى حارات بغداد، ذهب إلى الميرالاي علي صائب بك الرحال الذي كان يشغل منصب مدير الأموال السنية (أي مدير أموال السلطان) والتمسه أن يتدخل بنفوذه لإدخال ولديه في العسكرية وبالفعل تدخّل العميد علي صائب بك الرحال وأدخل الشابين اللذين ترقيا إلى أعلى الرتب العسكرية ثم تسنما أعلى المناصب السياسية في العهد الملكي العراقي. أما نوري السعيد فقد مضى قدمًا في سلك العسكرية فتخرج من مدرسة الأركان عام ١٩١١ برتبة (يوزباشي) أي نقيب ركن وبعدها وصل إلى رتبة فريق ركن ثم اختاره صهره جعفر العسكري كأول رئيس أركان الجيش للقوات العسكرية العراقية في بداية تأسيسها مع ولادة العهد الملكي في العراق تحت عرش جلالة الملك فيصل الأول. وفي نفس الوقت فتح جعفر العسكري مدرسة عسكرية دعاها مدرسة الضباط.

كانت أهم صفات نوري السعيد الشخصية هي عراقيته الأصيلة والعريقة فقد كان عراقيًا وابن عراقي، وسيم القسمات، زرقة عينيه تشابه زرقة السماء، وثمة قصة ترويها مجلة (Time) الأمريكية عن أسلاف نوري السعيد في بغداد ومن أين جاءت زرقة عينيه الصافيتين. تذهب القصة بأنه في القرن السابع عشر كان يعيش في بغداد رجل باسم الملاّ (لَولَو) فخور جدًا بوظيفته كمتولي لأحدَ جوامع بغداد الكبرى. وفي أحد الأيام اجتاحت الجيوش الفارسية مناطق العراق واحتلت بغداد ولأجل إهانة السكان من المسلمين

السنة اتخذ الجيش الفارسي الشيعي الجامع الذي تحت رعاية لَولَو اصطبلاً للخيول[٤]. فهب لَولَو لهذه الإهانة التي لحقت بجامعه وقومه وتوجه مباشرة لمقابلة السلطان العثماني في اسطنبول برحلة استغرقت ستة أشهر. فلما سمع السلطان بما حل بالمراكز المقدسة ثار واستشاط غضبًا وأرسل جيشه بصحبة المُلاّ لَولَو إلى بغداد واجتاحها بعد أن دحر جيش الفرس. إلاّ إن لَولَو وجد أن زوجته وعائلته قد قتلوا في بغداد لذلك سارع السلطان وبعث له فتاة تركية شديدة الشقرة زرقاء العينين ليعوضه عن زوجته وعائلته وأقطعه راتبًا تقاعديًا، وتنوه القصة بأن نوري السعيد ورث زرقة عينيه وبشرته البيضاء من تلك الجدة البعيدة[٥]. مغزى هذه القصة إن نوري السعيد ينتمي إلى عائلة عراقية موغلة في القدم، لذلك فإن شخصية نوري السعيد قد تشربت بالصفات التقليدية للرجل العراقي البغدادي كالكرم والشجاعة والمروءة والشهامة والوفاء وحب الخير ومساعدة الضعيف والشمم وكانت أحد الألقاب التي تُطلق في اللهجة البغدادية الدارجة لرجل تجتمع فيه هذه الصفات هو (رجل هَبْ ريح)[٦]. أما في مأكله ومشربه وتذوقه الفني فقد كانت وجبات طعامه المفضلة هي الباجة البغدادية والكباب وكان يطرب للمقامات العراقية التي تعود معظم أصولها إلى العصر العباسي ويعرف أنواعها والأغاني الخفيفة التي تتبعها والمسماة (البستات) وقد قدم رعاية خاصة لقراء المقام القدامى من أمثال رشيد القندرجي ونجم الشيخلي وصدّيقة الملاية وأبو المقام العراقي

---

٤) يبدو من هذا الوصف والتواريخ إنها تشير إلى اجتياح الشاه عباس الصفوي لمدينة بغداد عام ١٦٢٣ وقتله للألوف من أهل السنة واتخاذ جوامعهم اصطبلات لخيوله لأجل إذلالهم. والجدير بالذكر هنا إن زعماء الشيعة في بغداد جمعوا وفدًا وقابلوا الشاه عباس وطلبوا الرحمة لإخوانهم السنة فاستجاب لهم الشاه وأوقف المذابح. وقد نجت العديد من العوائل السنية التي احتمت بسراديب بيوت إخوانهم الشيعة.

٥) Time The Weekly News Magazine (The Pasha), June 17, 1957. P. 27

٦) هذه الصفات التي تميز بها نوري السعيد يتفق عليها كلّ من عرفه سواء من أصدقائه أو أعدائه.

الأستاذ محمد القبنجي وكان يطيب لنوري أن يجلس في دكان صغير يملكه رجل يدعى (ابن كنو) ويقع في سوق قديم مليء بأجود أنواع الفواكه اسمه سوق الأمانة ويقع بالقرب من محلة الحيدرخانة وبمحاذاة جسر الشهداء وكان يتبادل النكات والأحاديث والدعابات مع صاحب الدكان ويرد على تحيات المارّة ولم يحط نفسه بالحرس أو الفخفخة وهو رئيس الوزراء والوزير المزمن وكان يكتفي بالاحتفاظ بمسدس يخفيه داخل سدارته الفيصلية ويضعه على حجره. أما الصفة البارزة التي ميزته عن الكثير من الحكام فهي نزاهته وعدم اكتراثه لتكديس المال والثروات وقد ثبت ذلك بعد وفاته حيث ترك زوجته وزوجة ابنه وأحفاده بوضع مالي محدود.

أما الصفة الثانية التي عُرف بها فهي عدم تردده في اللجوء، شأنه بذلك شأن أي سياسي كبير وناجح، إلى أساليب غاية في الميكافيلية (نسبة إلى المفكر الإيطالي في عصر النهضة نيكولو ميكافيلي الذي آمن بفكرة الغاية تبرر الواسطة) فكان يوجه إلى خصومه ومناوئيه ضربات عنيفة كما حدث على سبيل المثال لا الحصر بعد مقتل رستم حيدر السياسي السوري الكبير الذي رافق الملك فيصل الأول وكان من أخلص أعوانه. فقد انتهز نوري السعيد مقتل السيد رستم فألصق تهمة مقتله بعدة ذوات من الذين لم يكن يرتاح إليهم. فألقي القبض على السيد صبيح نجيب وزير الدفاع السابق، وعلى قريبه السيد حسن فهمي المدفعي (ابن علي آغا) الذي شغل منصب مدير الشرطة العام أثناء انقلاب الفريق بكر صدقي عام ١٩٣٦ - ١٩٣٧، ولم يغفر نوري السعيد ذلك لحسن فهمي، وكذلك ألقي القبض على السيد علي كمال مدير الشرطة العام السابق وغيرهم من الشخصيات المعروفة الذين لم يجاروا نوري السعيد وسياسته.

وقد حوكم أولئك الذوات وصدرت أحكام مختلفة بحقهم، ثم أطلق سراحهم جميعًا لعدم إثبات التهم ضدهم، إلا إن نوري السعيد نجح في إذلالهم وجلبهم إلى طاعته.

هكذا كانت صفات نوري السعيد الشخصية، أما خصائصه كرجل دولة فقد كان أهمها بُعد نظره السياسي المبني على تجاربه الطويلة وواقعيته وميله إلى التخطيط وتحديد الأهداف ومن ثم تنفيذها، ولم يكن يستعمل الألفاظ الرنانة التي تدغدغ عواطف الرعاع، ولم يكن خطيبًا مفوهًا فقد كان صوته خافتًا تخالطه بحة، ولم يكن بطبعه ميالاً للمبالغة والادعاءات لذلك فقد تعرضت إنجازاته التنموية العظيمة على المستويين الداخلي والخارجي إلى التشويه من قبل أعدائه وبقيت طي الكتب والإحصائيات ولم يدرك رجل الشارع العراقي مدى فوائد تلك الإنجازات.

أما بُعد نظره السياسي فقد تحلّى به طوال حياته السياسية على المستوى العراقي والعربي العام. وقد تجلّى ذلك في سني الأربعينيات أثناء الحرب العالمية الثانية حين عارض الحركات القومية الراديكالية داخل العراق وخارجه الداعية إلى الوقوف ضد بريطانيا ودول الحلفاء وإلى جانب دول المحور بقيادة ألمانيا النازية تحت زعامة أدولف هتلر وقد كانت كل الدلائل تشير في بداية الحرب بأن هتلر سوف يكتسح دول اعدائه كالإعصار وخصوصًا بعد سقوط فرنسا عام ١٩٤٠ وهي إحدى دول الحلفاء الكبرى أمام جيش هتلر وكأنها دولة من ورق. وكانت الجهات القومية بقيادة العقداء العراقيين الأربعة وهم صلاح الدين الصباغ ومحمد فهمي سعيد وكامل شبيب ومحمد حسن سلمان والزعيم الفلسطيني سماحة السيد أمين الحسيني قد اقتنعت بشكل قاطع بأن هتلر سوف ينتصر ويحطم الامبراطورية البريطانية وسيهرع إلى نصرة العرب وينقذ فلسطين من براثن العدو الصهيوني الذي كان مدعومًا من بريطانيا ورئيس وزرائها ونستون تشرشل. بقي نوري السعيد بثاقب نظره السياسي ولخبرته التي اكتسبها من مشاركته كضابط في الحرب العالمية الأولى على اقتناع بأن النصر سيكون إلى جانب الحلفاء والعالم الحر لأن الولايات المتحدة الدولة الديمقراطية الكبرى سوف لن تسمح للدكتاتور المستبد أدولف هتلر

أن يُخضع جاراته الدول الديمقراطية، فألمانيا بكل جبروتها لا تزيد بمساحتها ومواردها عن واحدة من الولايات الخمسين لأمريكا ولا مجال للمقارنة بين القابليات العسكرية والمالية الأمريكية الهائلة مع ألمانيا الصغيرة مقارنة. لذلك فقد حاول جهد إمكانه أن يثني الضباط الأربعة عن خططهم ويقنعهم بأنه لو لم يكن واثقًا من انتصار الحلفاء لتخلى عن تأييده لبريطانيا مباشرة ولجاراهم في موقفهم الوقوف إلى جانب الألمان. إضافة إلى ذلك فقد قدر عمق الهاوية التي سيسقط بها العراق إذا ما واجه بجيشه الصغير جبروت بريطانيا العظمى وحذّر الضباط من مغبة اندفاعهم[٧].

كانت مواقف نوري السعيد مبنية على البراغماتية وتقدير الوجودات المتاحة للعراقيين في مواجهتهم للدول العظمى بينما كان العقداء الأربعة مندفعين بالعواطف الوطنية والقومية الجياشة وإثارة الشعب بالأناشيد الحماسية والأهازيج الشعبية التي تؤجج السلوك الجمعي والصراخ والدبكات التي تملأ من يشارك بها بمشاعر الحماس اللاعقلاني والقوة الجوفاء غير الواقعية. وحين اندلعت الحرب العراقية البريطانية في شهر مايس عام ١٩٤١ كان الأستاذ المحامي صدّيق شنشل مديرًا لإذاعة بغداد التي كانت تذيع الأناشيد والأهازيج التالية:

يـــا أوروبا لا تغـــالي — لا تقولي الفتح طاب
ســـوف تأتيك الليالي — نـــــورها لمع الحراب

والنشيد الآخر:

لاحـــت رؤوس الحراب — تلمـــع بين الروابي
هـــاكم وفـــود الشـباب — هـــيا فتوّة للجهاد[٨]

---

٧) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة: مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ (الرباط: تانيث للنشر، ١٩٩٤) صفحة ١٧٢.

٨) الفتوّة هو نظام التدريب العسكري الذي خضع له تلاميذ المدارس والكليات في العراق أثناء سني الأربعينيات.

هيا.. هيا.. هيا.. هي   هـــيا فتوة للجهاد

ومع مقولة هيا تقرع الطبول بأصوات كالرعد في الإذاعة وتشعل الحماس.

ومن الأهازيج الشعبية:

ـ الطوب أحسن لو مجواري؟[٩]

ـ لو جتنا الطوب وطيارة   واحدنة يصدهة بمجيارة

وكانت تلك الأناشيد والأهازيج مصحوبة بالأبواق العالية وقرع الطبول بأصوات تشابه الرعود مما يزيد من حماس الجماهير واندفاعهم العاطفي. ومن الأخبار الطريفة التي أعلنتها محطة إذاعة بغداد على الناس لتزيد حماسهم ولتقوية معنوياتهم هو أن طيارًا عراقيًا معروفًا قام بعمل بطولي فريد فقد جاء بطائرته بمحاذاة إحدى الطائرات البريطانية التي كانت تقصف بغداد وفتح الطيار العراقي باب طائرته وقفز على الطائرة المعادية وفتح بابها ودخل بعد جهد جهيد إلى داخل الطائرة وقتل الطيار البريطاني ثم قفز راجعًا إلى طائرته العراقية. وانتشرت تفاصيل ذلك (الإعجاز البطولي) بين جميع الناس من الكبير إلى الصغير فتصاعدت الزغاريد والتهليلات والتكبيرات. وكان ذلك الخبر قد أذيع كبيان رسمي عن سير المعارك، بينما يؤكد السيد علي محمود الشيخ علي، وزير الدفاع الوطني في حكومة رشيد عالي الكيلاني، بأن سلاح الجو العراقي لم يشترك في المعارك أبدًا بالرغم من إنه كان قد حصل اتفاق بين القوة الجوية والقوات البرية أن تُنسقا جهودهما لمجابهة العدو ولكن حين وصلت القوات البرية إلى ساحة المعركة لم تُنجد بالسلاح الجوي وأصبحت عرضة لهجمات السلاح الجوي البريطاني الفتاكة[١٠].

لا داعي هنا للإسهاب في الدخول بتفاصيل معارك حرب ١٩٤١ والظروف

---

٩) الطوب، كلمة تركية تعني المدفع. والمجوار أو المجيار (بالجيم المصرية) هو عصاة برأسها كرة من القار المتحجر كانت العشائر تستخدمه في حروبها مع بعضها.

١٠) علي محمود الشيخ علي، مذكرات (بغداد: الدار العربية للطباعة، ١٩٤٥) الصفحات ٨٣-٨٤.

التي أحاطت بها فقد دُرِسَت من قبل العديد من الكتّاب من أمثال عبد الرزاق الحسني ومحمود الدرة وعلي محمود الشيخ علي وغيرهم من العرب والأجانب، إلاّ أن جميع المصادر تتفق على أن العقداء الأربعة كانوا على اعتقاد جازم بأن المصلحة القومية للعراق والأمة العربية تقتضي أن يتحالفوا مع دول المحور كما يؤكد السفير البريطاني في العراق السير كنهان كورنوالس برسالته المؤرخة في ٣/إبريل/١٩٤١ المبعوثة من بغداد:

مهم: تلغراف رقم ٢٨١

يقول السيد توفيق السويدي بأن قادة الجيش مقتنعون بأن النصر سيكون حليف ألمانيا، لذا فالضرورة تقتضي أن يتجه العراق نحو التعاون مع دول المحور[١١].

وقد كان اندفاع الضباط الأربعة في تأييدهم لدول المحور مبنيًا على يقينهم بأن أدولف هتلر سوف يعترف بحق العرب في فلسطين ويقف بجانبهم في جهودهم للتخلص من نير الاستعمار البريطاني.

وبينما كانت تلك المناقشات والفعاليات السياسية تكتنف أجواء بغداد سافر السياسي العراقي المعروف توفيق السويدي إلى القاهرة أثناء شهر مارت/١٩٤١ وعقد اجتماعًا مع السير أنتوني أيدن وزير خارجية بريطانيا لبحث الأوضاع وكان اعتقاد السويدي السياسي يتفق مع اتجاه نوري السعيد حيث كان يسعى لاختيار أهون الشرّين فالبرغم من المثالب التي تتخلل الاتفاق مع بريطانيا، إلاّ إن المصلحة القومية للعراق وللعرب سوف تتعرض إلى أضرار أكثر خطورة إذا ما تحالفوا مع ألمانيا النازية، علمًا بأن هتلر يكن احتقارًا عميقًا لجميع من يسميهم بالشعوب السامية.

أثار اجتماع توفيق السويدي مع أنتوني أيدن شكوك العقداء الأربعة بأن

---

(١١) Government of Great Britain, Letter from Sir K. Cornwallis, No. 285, April 1941, L/P&S/12/2862

ثمة مؤامرة تحاك ضدهم فقرروا التحرك مباشرة فأزاحوا العميد طه الهاشمي من رئاسة الوزراء وفرضوا حليفهم رشيد عالي الكيلاني فرضًا على الأمير عبد الإله ليعينه رئيسًا للوزراء. وتسارعت الأحداث فهرب الأمير عبد الإله الوصي على العرش وولي العهد خارج العراق، وبدأ إنزال القوات البريطانية يتزايد مخافة وقوع العراق المهم بالنسبة لهم بيد الألمان. وفي يوم ١ / مايس / ١٩٤١ تقدم الجيش العراقي وحاصر القاعدة الجوية البريطانية في معسكر الحبانية استنادًا على تأكد القادة العسكريين بأن ألمانيا ستهب لمساعدتهم إذا وقعت الحرب ضد الإنكليز بالرغم من إن أولئك القادة لم ينسقوا ولم يجتمعوا ولم يعقدوا أي اتفاقية بهذا الصدد مع الألمان[١٢].

ومن هنا كانت بداية الكارثة، فقد تبين من توالي الأحداث بأن العقداء الأربعة قد اندفعوا لتحدي دولة عظمى بدون أي خطة محددة أو أي تنسيق مع قطعاتهم المختلفة أو للالتزام بتطبيق الخطوات التي يقتضيها اجتياح أو حصار معسكر الجيش البريطاني مما أدّى إلى اضطراب وتشوش في إصدار وتنفيذ الأوامر فقد كان المفروض حسب مذكرات صلاح الدين الصباغ[١٣]، بالعقيد محمد فهمي سعيد ان يحتل بقواته معسكر سن الذبان الذي لم يكن في بداية الحركات العسكرية محكم التحصين وقابل للاحتلال، إلاّ أن القائد فهمي سعيد تردد ولم يمتثل للأوامر واكتفى باحتلال التلال المحيطة بالمعسكر. بعد ذلك حصل اضطراب في إصدار وتنفيذ الأوامر نتيجة حدوث خلل في تدرج الرتب العسكرية فقد أزاح القائد صلاح الدين الصباغ العقيد فهمي سعيد من مركزه القيادي وعين محله اللواء إسمعيل حقي الآغا مما يتعارض مع أبسط القوانين العسكرية الصارمة، فكيف يتلقى ضابط برتبة

١٢) موسى الشابندر، ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣) الصفحات ٢٧٩-٢٨١.

١٣) صلاح الدين الصباغ، المصدر السابق، صفحة ٣٣.

لواء الأوامر من عقيد[١٤]؟

وبعد انسحاب العقيد فهمي سعيد من ميدان المعركة صدرت الوامر إلى العقيد زكي حنظل آمر لواء المشاة الثامن المرابط في كركوك لأن ينتقل ويحتل موضعًا دفاعيًا على جسر الفلوجة لمواجهة تقدم القوات البريطانية باتجاه بغداد، ولملأ الفراغ القيادي إلاّ إن الفرصة السانحة قد ضاعت وبدأ تدهور وضع الجيش العراقي نحو الكارثة[١٥].

وفي إحدى الجلسات التي جمعتني مع المقدم العراقي المتقاعد سليم الفخري في لندن في سني الثمانينيات من القرن الماضي، والذي كان برتبة ملازم أول عام ١٩٤١ وشارك في المعارك التي دارت في سن الذبان وأخبرني بأن قطعات الجيش العراقي صمدت وقاتلت ببسالة وكانت خسائرهم تتراوح بحدود ألفين وخمسمائة قتيل وجريح، إلاّ إن تلك المواقف البطولية ذهبت أدراج الرياح بعد أن هرب القادة الأربعة من الميدان وتركوا مواقعهم ولجأوا إلى إيران. وتحطم الجيش العراقي ودخل العراق تحت الاحتلال البريطاني تمامًا كما تنبأ نوري السعيد حين حذر صلاح الدين الصباغ من مغبة القيام بأي عمل متهور. ولمزيد من الاطلاع على شخصية وتصرفات وتهور تفكير صلاح الدين الصباغ الذي تسنم قيادة الجيش العراقي في حرب ١٩٤١ ضد الإنكليز أورد هنا ما جاء في كتاب معالي الأستاذ موسى الشابندر الذي شغل حقيبة الخارجية في وزارة رشيد عالي الكيلاني أثناء الحرب فيقول الشابندر: أتى يومًا إلى الخارجية الدكتور غروبا سفير ألمانيا في بغداد ومعه مستشاره العسكري برتبة كابتن ليدرسوا جميعًا الوضع العسكري، وبعد تمحيص الخريطة والمواقع العسكرية اقترح الإخصائي العسكري الألماني بعض الخطوات التي تؤدي

١٤) علي محمود الشيخ علي، المصدر السابق، صفحة ٩٦.

١٥) مقابلة مع الدكتور فالح زكي حنظل، مقهى فيفل (Vivel) - أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة، ٢٧ / تشرين الثاني / نوفمبر / ٢٠٠٨.

إلى تعزيز مواقع الجيش العراقي وتحسن قدراته الدفاعية والهجومية فانتفض صلاح غاضبًا وطلب الشابندر أن يترجم «إننا لا نحتاج إلى مشورة عسكرية. أعطوني عشرين طائرة وأنا أرفع العلم العراقي غدًا فوق القدس». ويقول الشابندر إنه خجل من ترجمة هذا الهراء الصبياني. بعد ذلك يصف الشابندر تخاذل وانهيار الصباغ بعد هجوم الجيش الإنكليزي على القوات العراقية في سن الذبان حيث صرح «بأننا قد دمرنا»[١٦]، ويؤيد هذه المعلومات الضابط محمود الدّرة الذي كان مساعد الصباغ بأن الأخير قد انهار وارتعدت فرائصه حين بدأ الهجوم فهرب ورفاقه إلى إيران تاركين ساحة الميدان حيث بقيت القوات العسكرية العراقية تتلقى القصف والدمار بدون أي قيادة.

بعد فترة وجيزة من انهيار حكومة رشيد عالي الكيلاني وفي خريف عام ١٩٤١ رجع الجنرال نوري السعيد لرئاسة الوزارة وشرع مباشرة لمحاولة تحسين علاقات العراق مع دول الجوار غير العربية مع تركيز جلّ جهوده لتحقيق حلمه القديم الاّ وهو توحيد الدول العربية للهلال الخصيب تحت قيادة العائلة الهاشمية التي كان إخلاصه لها مطلقًا وعميقًا، فتقدم في عام ١٩٤٢ بكتابه المعنون (الكتاب الأزرق) وهو أحد المخطوطات النادرة التي تركها نوري السعيد والذي رسم فيه الخطوط الأساسية لما دعي بمشروع الهلال الخصيب الذي كان يرمي لتوحيد العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والكويت تحت العرش الهاشمي، وقد نُشرت الخطة بشكل مرسوم حكومي في عام ١٩٤٢ كالآتي[١٧]:

١. يعاد توحيد سوريا ولبنان وفلسطين والأردن في دولة واحدة. (فقد كانت كل هذه الدول من ضمن أيالة سوريا أثناء العهد العثماني وقد

١٦) موسى الشابندر، المصدر السابق، صفحة ٢٨٠.

١٧) General Nuri Al-Sa`id, Arab Independence and Unity (Baghdad: Government Press, 1943) P. P. 11–12

قُسمت سوريا إلى تلك الدويلات بسبب نظام الانتداب الذي فُرض على العرب).

٢. يتحدد نظام الدولة سواء كانت ملكية أو جمهورية حسب إرادة الشعب أو إذا كانت وحدة فورية أم اتحادًا فيدراليًا.

٣. تؤسس جامعة عربية مبدئيًا تضم سوريا والعراق فورًا وتكون متاحة لجميع البلاد العربية للانضمام إليها.

٤. يكون للجامعة العربية مجلس دائم يُرَشَح من قبل الأعضاء ويترأسه أحد رؤساء الدول المعنية على أن يتم انتخابه من قبل تلك الدول.

٥. أن يكون مجلس الجامعة العربية مسؤولاً عن الدفاع والتعليم والسياسة الخارجية والعملة والمواصلات والرسوم الكمركية وحماية حقوق الأقليات.

٦. يُمنح اليهود في فلسطين حكمًا ذاتيًا، والحق في إدارة شؤون قراهم ومدنهم بما في ذلك المدارس والمؤسسات الصحية والشرطة ويكون ذلك بإشراف حكومة سوريا وتحت الضمانات الدولية.

٧. تُمنح الحرية لمنتسبي جميع الأديان للدخول إلى مدينة القدس (أورشاليم) لأجل القيام بالزيارات الدينية والحج والعبادة ويؤلف للمدينة مجلس خاص مكون من ممثلي الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) لأجل الحفاظ على حرية الوصول إلى المدينة.

٨. يُمنح الموارنة في لبنان - حسب طلبهم - إدارة متميزة مثلما كانوا يتمتعون به أثناء أواخر العهد العثماني (الملّة) وتحت الضمان الدولي وفقًا لأحكام الفقرتين (٦) (٧).

كان مشروع نوري السعيد والعائلة الهاشمية الرامي لوحدة العرب مبنيًا على أفكار براغماتيكية عملية. وكان المقترح أن يضم المشروع البلدان العربية الآتية: العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والذي غالبًا ما يُشار

إليها باسم سوريا الكبرى، تكون نقطة البدايةبسبب التقارب الجغرافي والديموغرافي والحضاري والتاريخي واللغوي والديني ومن ثم تكون وحدة الهلال الخصيب متاحة لانضمام بقية البلاد العربية. وقد التقى الأمير عبد الإله بن علي الهاشمي الوصي على عرش العراق مع قريبه أمير شرقي الأردن عبد الله بن الشريف الحسين الهاشمي لأجل تنفيذ المشروع الوحدوي.

وبدأت معظم وسائل الإعلام في البلاد العربية تطري هذه الجهود وأخذ القوميون العرب يتطلعون بفارغ الصبر لولادة وطن الهلال الخصيب وبدا كأن الحلم الوردي الذي راود العرب بخلق دولة عربية قوية وكبيرة وموحدة قد قارب التحقيق.

انتعشت آمال العرب وخصوصًا الطبقات المثقفة منهم إذ إن دول الهلال الخصيب سوف تضم مساحات سوريا بجميع مكوناتها التي كانت تضمها أثناء ما كانت ولاية في الدولة العثمانية إضافة إلى مساحات العراق والكويت، وستمتلك تلك الدولة الميزات الآتية:

- **اقتصاديًا**: تحتوي الدولة على نفط العراق والكويت ومياه دجلة والفرات وأهوار وبحيرات العراق إضافة إلى مياه سوريا ولبنان والأردن مما يجعل قابلياتها الزراعية لا حدود لها. هذا فضلاً عن إن حدود الدولة الغربية لاحتوت على الثغور التجارية البحرية التي تضم موانئ سوريا وفلسطين المطلة على البحر الأبيض وميناء العقبة الأردني الذي يشرف على البحر الأحمر. أما الحدود الشرقية فكانت ستحاذي الخليج العربي. ولذلك وبتلك المساحة والحدود لأصبحت دولة الهلال الخصيب أعظم مركز تجاري وسياحي ومالي في الشرق الأوسط بلا منازع.

- **عسكريًا**: تضم الدولة جيش العراق الذي أنشأه جعفر (باشا)

العسكري ونوري (باشا) السعيد وصبيح نجيب (باشا) بمساعدة الإنكليز في عقد العشرينيات ثم تطور بمرور الزمن إلى جيش لا يستهان به فقد شهد المؤرخون على بسالته وكفائته في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ حيث قاد الضابط العراقي عمر علي وحداته إلى نصر كاسح في معركة جنين ضد قوات الهاغاناه الصهيونية كما أن الضابط عبد الكريم قاسم حقق بطولات في معركة كفر قاسم لا يزال يتغنى بها المسنون ممن زامنوا تلك الحرب. هذا ولانضمت القوات العسكرية السورية والأردنية وما تيسر من قوات لبنانية وكويتية تحت قيادة عربية واحدة ولأصبحت تلك الدولة أقوى كيان عسكري في منطقة الشرق الأوسط.

• **استراتيجيًا**: وهي قد تكون النقطة الأهم فقد كان مشروع الهلال الخصيب يرمي إلى درء المشروع الصهيوني واستبداله بحكم ذاتي لليهود يديرون تحته شؤونهم الخاصة مع إبقاء فلسطين عربية وسكانها مندمجون مع إخوانهم العرب وبذلك لما خُلقت إسرائيل ولما ضاعت فلسطين ولما اجتاح البلاد العربية سخطٌ عارم على حكامهم ولما وقعت الانقلابات العسكرية التي شلّت خطوات التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي بدأت البلاد العربية تشهدها ولتغيّر تاريخ المنطقة بأجمعها. ونظرًا لسعة وإمكانات الدولة المذكورة أعلاه لأصبحت تلك الدولة واحدة من أهم المناطق الاستراتيجية في العالم تحت حكم عربي.

كان رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد اللولب الذي لا يكل ولا يمل عن الاندفاع لإنجاز اللمسات الأخيرة لخلق دولة وحدة الهلال الخصيب وكان على يقين بأنها ستلاقي الترحيب من بقية قادة وملوك البلاد العربية التواقين لتوحيد بلدانهم، وقد استطاع نوري السعيد بخبرته الدبلوماسية ولباقته من إقناع بريطانيا ـ الدولة الأعظم عهدئذٍ ـ بصحة المشروع واستحصل تأييدها،

وقد كان نوري السعيد يدرك جيدًا بأن بدون رعاية مصالح الدول العظمى وبدون موافقتها فإن المشروع بأكمله سيُحارَب وينتهي إلى الفشل.

إلاّ أن مشاريع وخطط نوري السعيد ـ المجاهد الكبير في سبيل العراق والعرب عامة ـ أخذت بالتراجع بعد أن اصطدمت ببعض القوى المعارضة في البلاد العربية وعانى المشروع من هبوط واضح في إمكانية تحقيق أهدافه الوحدوية الكبرى. فبدلاً من الترحيب الذي تأمله نوري السعيد من إخوانه بقية القادة العرب، فقد استفزت فكرة الهلال الخصيب كلاً من عاهل مصر الملك فاروق وابن سعود ملك المملكة السعودية الذي كان المناوئ التقليدي للعائلة الهاشمية، وانتابت الملكان مخاوف عميقة من تنامي سلطة الحكم الهاشمي. لذلك فقد شهدت البلاد العربية جهودًا دبلوماسية مكثفة لدراسة مشروع الوحدة، فقد أعلن دولة رئيس وزراء مصر السيد مصطفى النحاس (باشا) بأن دولته يأخذ مشروع الوحدة بجدية كبرى وأنه سوف يستطلع آراء زعماء الدول العربية الأخرى بهذا الصدد. لذلك فقد عقد مصطفى النحاس اجتماعات مع كل رئيس دولة على حدة فتكللت تلك الجهود بعقد اجتماع في ٢٢ / ١٠ / ١٩٤٤ في الاسكندرية(١٨) وحضر الاجتماع وفود من لبنان ومصر والعراق وسوريا وشرق الأردن. كذلك شاركت وفود من السعودية واليمن ومراكش وفلسطين بصفة مراقبين. وقد كانت نتيجة بروتوكول الاسكندرية بمثابة وثيقة تفاهم وبنتيجة مخيبة لآمال الذين طمحوا لتحقيق وحدة الهلال الخصيب إذ اكتفى القرار بتأسيس مجلس الجامعة العربية والذي قرر بأن جميع الدول المشاركة تكون على قدم المساواة وبأن قرارات المجلس ستكون ملزمة فقط للدول التي توافق على تلك القرارات. وبنتيجة هذا القرار بقيت البلاد العربية عبارة عن دول ضعيفة متفرقة وقد دفع العرب ثمنًا باهضًا لهذا التشرذم

(١٨ Ahmed M. Gom`a, The Foundation of the League of Arab State (London: Longman Group, 1977) P. 273

حين تأسست منظمة الأمم المتحدة إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية.

فحين عُقد مؤتمر الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو في ١٩٤٥/٥/٢٥ أرسلت الحكومة العراقية وفدًا مؤلفًا من علي جودت الأيوبي ونصرت الفارسي وفاضل الجمالي تحت رئاسة فخامة السيد أرشد العمري. وقد شعر أرشد العمري بأن ميثاق الأمم المتحدة لا يؤمّن حقوق العرب في فلسطين. لذلك فقد أرجع الوفد إلى بغداد وأعلن في البرلمان بأنه رفض أن يوقع الميثاق ومنع بقية أعضاء الوفد العراقي من توقيعه لأن الميثاق لم يتطرق إلى موضوع فلسطين[١٩]. أثار قرار أرشد العمري بعدم توقيع ميثاق منظمة الأمم المتحدة نقاشات حادة في مجلس النواب العراقي وهاجم عدة نواب سياسة الرئيس الأمريكي هاري ترومان الموالية للصهيونية والغامطة لحق العرب في فلسطين. ولكن وبعد نقاش حاد وطويل قررت الأكثرية من النواب الموافقة على التوقيع على ميثاق الأمم المتحدة لأجل تحقيق المصلحة القومية للعراق وللعرب جميعًا وكان التصويت ٥٧ مؤيدًا للدخول في الأمم المتحدة ضد صوتين فقط ضد القرار[٢٠].

هذه المواقف تلقي الضوء على شدة معارضة حكومة العهد الملكي للمشروع الصهيوني وتبين أسباب توقيع معاهدة بورتسماوث لاحقًا في عام ١٩٤٨ مع وزير خارجية إنكلترا أرنست بيفن الذي كان يعتبر عدو الصهيونية وجاهر بمعارضته لخلق إسرائيل وحاول جاهدًا أن يربط مصالح الامبراطورية البريطانية مع العرب وليس مع الصهاينة.

---

١٩) Ibid

٢٠) Government of Iraq, Proceedings of the House of Parliament: Extraordinary Session of 1944 (Baghdad: Government Press, 1944) P. 15

العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية

أفرزت الحرب العالمية الثانية سيناريوهات جديدة على مسرح العلاقات الدولية حيث تضاءل دور الدول الاستعمارية التقليدية وخصوصًا إنكلترا وفرنسا وتحطمت ألمانيا وإيطاليا وظهر نظام القطبين تحت رئاسة الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وكان لتلك التطورات انعكاسات مباشرة على العالم العربي. ويمكن إجمال أهم تلك التطورات كما يلي(٢١):

١. في عام ١٩٤٥ وقّعت إحدى وخمسون دولة مستقلة ميثاق منظمة الأمم المتحدة التي حلت محل عصبة الأمم التي تلاشت جراء الحرب العالمية الثانية. وكان أهم هدف للأمم المتحدة هو إحلال السلام بين الأمم وإنهاء الاستعمار في العالم، وكان العراق أحد الدول الموقعة عن طريق ممثله الدكتور محمد فاضل الجمالي.

٢. في عام ١٩٤٧ حققت الهند استقلالها من الامبراطورية البريطانية مما يعتبر بداية زوال الاستعمار التقليدي القديم إذ إن الهند كانت تعتبر أهم مستعمرة بريطانية وأكبرها مساحة. وقد تبعت دول القارة الإفريقية الهند بالحصول على استقلالهم من الامبراطوريات الأوروبية.

٣. في ربيع ١٩٤٨ قررت الأمم المتحدة تقسيم أراضي فلسطين العربية إلى دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية. رفض العرب ذلك القرار واندلعت حرب بين قوات الصهاينة والجيوش العربية انتصر بها الصهاينة بسبب المساعدات الكبيرة التي قدمتها الدول الكبرى لهم. وقد أدّى خلق إسرائيل في فلسطين إلى اندلاع عدة حروب وبقيت مشكلة الصراع الإسرائيلي من أصعب المشاكل التي تواجه العالم والأمم المتحدة.

٤. في عام ١٩٤٩ انتصر (ماوتسي تونغ) زعيم الحزب الشيوعي والتلميذ

---

٢١) Ibid P. 14

البارز للأهمية الثالثة على جيش ما دعي بقوات الصين القومية أثناء الحرب الأهلية الصينية. وعلى إثر انتصار الحزب الشيوعي تحولت الصين بكل ثقلها السكاني والتاريخي والاستراتيجي إلى دولة شيوعية وانضمت إلى المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفياتي والمعادي لدول العالم الرأسمالي الديمقراطي وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية وقد عزز انتصار ماوتسي تونغ مواقع الأحزاب الشيوعية في العالم وخصوصًا العالم الثالث.

٥. في عام ١٩٥١ شهدت إيران انقلابًا سياسيًا بقيادة الدكتور محمد مصدق الذي أزاح الشاه محمد رضا بهلوي وأمّم صناعة النفط الإيرانية ذات الأهمية القصوى في اقتصاد العالم. إلاّ إن القوى العالمية الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة أسقطت مصدق وأعادت الشاه إلى عرشه في عام ١٩٥٣.

٦. في عام ١٩٥٢ نجح رئيس الوزراء نوري السعيد في زيادة حصة العراق من النفط إلى الخمسين بالمائة أي نصف من أرباح شركة نفط العراق (Iraq Petroleum Co. IPC) فابتدأت مبالغ (Petrodollar) الدولار النفطي تنهال على العراق مما أدّى إلى فترة رفاه اقتصادي غير مسبوق في تاريخ العراق الحديث.

٧. في يوم ٢٣/تموز/يوليو/١٩٥٢ حدث انقلاب عسكري في مصر قامت به حركة الضباط الأحرار بقيادة اللواء محمد نجيب و (البكباشي) أي المقدم جمال عبد الناصر وأطيح بالملك فاروق ثم أعلن النظام الجمهوري وأصبح اللواء محمد نجيب أول رئيس جمهورية لمصر. وبعد فترة وجيزة استطاع جمال عبد الناصر من إزاحة محمد نجيب وتولى هو رئاسة الجمهورية المصرية. وقد لعب عبد الناصر لاحقًا أدوارًا عميقة في تاريخ البلاد العربية ومنطقة الشرق الأوسط ودول

العالم الثالث حيث أصبحت قيادته مثلاً وطنيًا يحتذى به لتحقيق التحرر من الاستعمار.

٨. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ظهر الخلاف الأيديولوجي بين الاتحاد السوفياتي الشيوعي والعالم الرأسمالي الديمقراطي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانوا حلفاء أثناء الحرب. فبعد أن هاجم أدولف هتلر الاتحاد السوفياتي بما يدعى بحملة بارباروسا في عام ١٩٤١ ارتمى جوزيف ستالين زعيم الاتحاد السوفياتي في أحضان دول الحلفاء وهي (الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا وفرنسا) ووقّع حلفًا معهم لمواجهة عدوهم المشترك دول المحور بزعامة ألمانيا النازية تحت قيادة أدولف هتلر. وبعد انتهاء الحرب وزوال العدو المشترك ظهر الخلاف العقائدي بين المعسكرين وتزايدت التوترات مما دفع الولايات المتحدة تحت رئاسة دوايد دافيد ايزنهاور إلى اللجوء إلى سياسة الأحلاف العسكرية مثل حلف شمال الأطلسي عام ١٩٤٩ (North Atlantic Treaty Organization) أو (NATO) وحلف (SEATO) أي منظمة تحالف جنوب شرق آسيا عام ١٩٥٣ والتي ضمت استراليا وبريطانيا وفرنسا ونيوزيلاندا وباكستان والفلبين وتايلاند والولايات المتحدة. وكان الهدف من هذه الأحلاف هو الحد من امتداد الحركات الشيوعية في العالم والوقوف بوجه أي اعتداء يقع على دول آسيا ومنابع النفط في الشرق الأوسط. إضافة إلى ذلك فقد توجه رئيس وزراء بريطانيا (السير أنتوني أيدن) إلى الشرق الأوسط وساعد في تأسيس حلف إقليمي ضم العراق وإيران وتركيا وباكستان في عام ١٩٥٥ وهو (حلف بغداد) وقد ارتبطت جميع هذه الأحلاف مع بعضها وأصبحت مانعًا قويًا ضد أي تهديد يصدر من الاتحاد

السوفياتي أو توسع الحركة الشيوعية في تلك المناطق[٢٢].

وكرد فعل لسياسة الأحلاف الأمريكية قرر الاتحاد السوفياتي إنشاء حلف في عام ١٩٥٥ سمي (حلف وارسو) أو (منظمة حلف وارسو) وضم بولونيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ورومانيا والاتحاد السوفياتي الذي تزعّم الحزب.

٩. في عام ١٩٥٥ عُقِدَ (مؤتمر باندونغ) التي دعت إلى مناهضة الأحلاف العسكرية ونادت بتكوين معسكر ثالث لا يميل إلى أي من القوتين الأعظم. استقطبت فكرة عدم الانحياز معظم دوال العالم الثالث التي عانت من الاستعمار الغربي، ثم تبلورت الفكرة بحركة عالمية وانطلقت من مؤتمر بلغراد في عام ١٩٦١.

١٠. بعد تأرجح دام لعدة سنين بين الانضمام إلى العراق الموالي للغرب كما خطط نوري السعيد أو التوجه نحو مصر الثورية، قررت النخبة الحاكمة في سوريا الاتحاد مع مصر تحت قيادة الرئيس جمال عبد الناصر وتأسست الجمهورية العربية المتحدة. ونتيجة لذلك انهار مشروع الهلال الخصيب وتراجعت طموحات نوري السعيد واكتفى بتوحيد العراق مع الأردن وكونوا الاتحاد الهاشمي. إلاّ إن كلا من الاتحادين تفككا بعد حين.

أدّت سلسلة الأحداث المذكورة أعلاه وغيرها والتي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية إلى حدوث تطورات ذات ابعاد ونتائج استراتيجية عميقة كانت تصب في مجرى واسع اكتنف السياسة الدولية، إلا وهو الحرب الباردة بين الدولتين الأعظم وجهودهما في التنافس على الهيمنة على أكبر عدد ممكن من بقاع العالم خصوصًا الغنية منها بمادة البترول الذي أصبح المصدر الأساسي للحياة الاقتصادية والصناعية والتقنية لكلا المعسكرين. وقد انعكس ذلك

٢٢) انظر مأمون أمين زكي، مصدر سابق، الصفحات ٢٢٥ - ٢٣٢.

الوضع على سياسة حكام دول العالم الثالث فمنهم من أيّد الغرب ومنهم من أيّد الاتحاد السوفياتي الذي أطلقوا عليه (معقل السلام وصديق الشعوب الضعيفة).

أما العالم العربي فقد كان في بداية الخمسينيات من القرن العشرين منقسمًا إلى مدرستين: الأولى هي المدرسة القومية المعتدلة أو المحافظة (الكلاسيكية) والثانية هي المدرسة القومية الثورية الراديكالية.

المدرسة القومية المحافظة (الكلاسيكية):

وهي التي أسسها الملك فيصل الأول في العراق في بداية عقد العشرينيات ومن ثم استمر اتّباعها حتى سني الخمسينيات تحت قيادة الملك فيصل الثاني وخاله الأمير وولي العهد عبد الإله ابن الملك علي. إلاّ إن المفكر والمدير لتلك المدرسة كان السياسي المحنك الفريق أول نوري السعيد الذي أيقن باعتقاد راسخ بأن المصالح القومية للعرب تقتضي أن ترتبط المصالح الاقتصادية والاستراتيجية لدول الغرب الكبرى مع البلاد العربية لأجل تحقيق عدة أهداف كالآتي:

الهدف الأول هو درء الخطر الشيوعي والوقوف أمام خطط التوسع التي ينتهجها الاتحاد السوفياتي بالتعاون مع وكلائه الأحزاب الشيوعية في العالم الثالث التي تهدف إلى قلب نظم الحكم لمصلحة موسكو. فالاتحاد السوفياتي دولة عظمى وهي في صراع مصيري مع الولايات المتحدة وبقية دول العالم الغربي الرأسمالي ولا يفصلها عن آبار النفط الغنية في إيران والعراق سوى مسافات ضيقة نسبيًا والتي يمكن اجتياحها بسهولة وبذلك يتمكن الاتحاد السوفياتي تبديل موازين القوى لصالحه ليس في الشرق الأوسط فحسب بل وفي جميع أنحاء العالم حسبما يُدعى بالمركنتالية. فالفكرة المركنتالية ما برحت تتحكم بالسياسات الخارجية للدول العظمى عبر القرون. وأساس

الفكرة المركنتالية هي أن أي دولة تحتكر القسط الأوفر من الثروة والذهب والمصادر الحيوية لهذا الكوكب يكون لها قصب السبق وتتصاعد مكانتها في لعبة الأمم[٢٣].

ترجع أصول الفكر المركنتالي إلى عهد الاستكشافات في نهاية القرون الوسطى حين بادر بعض المغامرين الأوروبيين من أمثال فاسكو ديكاما وماجلان وغيرهم إلى السفر إلى مناطق بعيدة عن أوطانهم باحثين عن مصادر جديدة للثروة مما أدّى إلى تضاؤل نظام الإقطاع الذي ساد أوروبا لعدة قرون والذي كان مبنيًا على احتكار النبلاء لمصادر الأراضي الزراعية واستغلال الأقنان، وقد بدأ هذا النظام بالانكماش بعد عهد الاكتشافات وازدياد العلاقات التجارية بين الأمم في نهاية القرون الوسطى وبداية عهد النهضة وحين بدأ الملوك يساهمون بالتجارة محققين أرباحًا لم يكونوا يحلموا بها سابقًا.

وهكذا تنامت ممارسات المركنتالية المأخوذة من كلمة (Merchant أي تاجر) فقد سعت الأمم الكبرى للحصول على مصادر المواد الخام والطاقة المتواجدة في المناطق النائية لخدمة أغراضها الاقتصادية والعسكرية وكان الخشب هو المصدر المرغوب لبناء السفن والأساطيل التجارية والحربية ولصهر المعادن وقد استطاعت بريطانيا بعد سيطرتها على العالم الجديد (القارة الأمريكية) أن تستحوذ على الغابات الشاسعة واستغلت ذلك لبناء الأساطيل البحرية مما مكنها أن تدحر أسطول منافستها أسبانيا في عام ١٥٨٨ في معركة الأرمادا[٢٤] الحاسمة حيث انهارت بعدها الامبراطورية الأسبانية ولم تقم لها قائمة بعد ذلك بينما بقيت بريطانيا هي القوة العظمى في العالم منذ ذلك التاريخ. وقد بقيت أساطيل بريطانيا الشراعية تجوب البحار وأوصلت حدود

---

٢٣) John W. Mc Connel, The Basic Teachings of the Great Economists (New York, The New Home Library 1943) P. P. 7-10

٢٤) General J. F. Fuller, The Decisive Battles of the Western World, and their influence upon history (Great Britain: Paladin, 1970) P. P. 427-428

امبراطوريتها إلى أقصى بقاع العالم إلى أن حل عصر الثورة الصناعية واحتلت الماكنة البخارية مكان الحصان والحيوانات والسفن الشراعية وأصبح الفحم المادة الأساسية في تحريك البواخر والقطارات في أنحاء العالم وحتى اكتشاف النفط كبديل أخف وأسهل استعمالاً وأقل تلويثًا للبيئة من الفحم، فبدأ تنافس الدول الكبرى على هذه المادة المتناقصة تدريجيًا. وهذه هي المركنتالية الحديثة التي أراد نوري السعيد استغلالها لصالح العراق والعرب في لعبة الأمم.

أما الهدف الثاني فقد أراد نوري السعيد تحجيم دور إسرائيل في سياسات الشرق الأوسط. فقد كان ذلك السياسي المحنك على علم بارتباط إسرائيل بالصهيونية العالمية وتأثيرها على أقوى رجال السياسة والدين وصانعي القرار في العالم الغربي، والجهود الحثيثة المبذولة لاستبعاد أي تقارب بين دول الغرب والعرب، وذلك عن طريق الدعاية المظللة والتطبيل والتزمير بكون إسرائيل هي الدولة الوحيدة الديمقراطية والحديثة في الشرق الأوسط وإنها القاعدة الاستراتيجية الوحيدة المعتمدة لدول الغرب الديمقراطية في هذه البقعة الحيوية من العالم. لهذا السبب بذل نوري السعيد جهودًا مضنية لإقناع دول الغرب بأن مصالحهم الاستراتيجية والاقتصادية تتحقق عن طريق التقارب مع العرب بسكانهم الكثيرين وأراضيهم الشاسعة الغنية بالمصادر الطبيعية وليس مع إسرائيل الدولة الصغيرة الحجم والمحدودة الإمكانيات.

لقد كانت النخبة القيادية العراقية بجميع أفرادها ضد خلق «إسرائيل» منذ البداية وضد قرارات الهدنة بإيقاف القتال بين الجيوش العربية والقوات الصهيونية التي أصدرتها الأمم المتحدة تحت ضغوط اليهودية العالمية والدول الكبرى. ولم يعترف العراق «بإسرائيل» بعد نشوئها كدولة رغم امتثال بعض الدول العربية للضغوط وتطبيع علاقاتها مع ذلك الكيان الغاصب. وقد وجدت من واجبي أن أبين للقارئ الكريم مواقف العراق الثابتة لأجل تأكيد الحقائق التاريخية ودحض الاتهامات التي وجهت للعراق بكونه تقاعس عن

التعاون مع إخوته العرب في صراعهم مع الصهاينة الذين اغتصبوا فلسطين واقتلعوها من جذورها العربية والإسلامية.

أبان الصراع العربي الإسرائيلي على الجبهتين الحربية والدبلوماسية تولى السيد مزاحم الباججي رئاسة الوزراء بتاريخ ١٦/٦/١٩٤٤. وبينما كانت جبهات القتال مستعرة أصدرت هيئة قرارًا بإيقاف القتال في أمد أقصاه مساء يوم ٨/٧/١٩٤٨، فقبلت الدول العربية جمعاء قرار إيقاف القتال ما عدا العراق وسوريا. واجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية لتقرير موقف الدول العربية من الهدنة وإيقاف القتال. وقد مثل العراق في اللجنة السيد مزاحم الباججي رئيس وزراء العراق الذي بذل جهودًا مضنية لحمل الدول العربية على اتخاذ موقف مماثل لموقف العراق، إلاّ إنه لم ينجح في مساعيه. فأرسل إلى مجلس الوزراء العراقي برقية شرح فيها واقع الحال، وأن سوريا هي الدولة الوحيدة التي وقفت مع العراق، واقترح أن ينعقد مجلس الوزراء برئاسة سمو الأمير عبد الإله ليقرر ما يراه مناسبًا. وقد أصر مجلس الوزراء العراقي على موقفه الرافض لإسرائيل أو لإيقاف القتال معها وحث السيد الباججي على إقناع البلاد العربية للالتزام بقرار العراق، إلاّ إن الجهود رئيس الوزراء العراقي ذهبت أدراج الرياح ولم ينجح في مساعيه ودخلت الهدنة حيز التنفيذ.

وبعد بضعة أشهر استقالت وزارة الباججي واختير السيد نوري السعيد ليكون خلفًا له. وقد جاء في خطاب التكليف الذي وجهه عبد الإله إلى نوري السعيد ما يلي:

> في الوقت الذي نعهد إليكم برئاسة الوزارة، فإن لنا كل الثقة بأن فخامتكم ستضعون نصب أعينكم بالدرجة الأولى قضية فلسطين، وبذل كل الجهود والإمكانات لأجل تأمين الغاية السامية التي توخيناها وهي إنقاذها من محنتها، وتنفيذ قرارات

مجلس الأمة العراقي الصادر بتاريخ ٢٨ / ١١ / ١٩٤٨.

وتنفيذًا لهذا الأمر الملكي، بدأ نوري السعيد مباشرة ببحث مشروع إرسال قوة عسكرية لمساعدة الجيوش العربية على جميع الجبهات. إلاّ أن الهدنة نُفذت، وخُلقت إسرائيل واعترف بها العالم وبقي العراق رافضًا للاعتراف[٢٥]. هكذا كانت المواقف المشرفة للعهد الملكي الذي أطلقت عليه بعض البلاد العربية وقوى المعارضة أشنع التهم بالخيانة والتعاون مع «إسرائيل».

أما الهدف الثالث فهو الاستفادة من التقدم التقني للغرب. فالماكنة المصنوعة في دول الغرب سواء كانت لأغراض عسكرية أم مدنية أو تجارية أثبتت كونها الأكفأ في العالم. كذلك فقد بلغ الغرب أعلى المستويات في العالم في الطب والبناء والتعليم والعلوم بصورة عامة وقد رغب المنتمون إلى المدرسة القومية الكلاسيكية الاستفادة من ذلك التقدم الحضاري وتطبيقه في البلاد العربية ولهذه الأسباب ارتبطوا بالغرب بمعاهدات مثل معاهدة بورتسماوث وميثاق حلف بغداد كما سيبحث لاحقًا.

أما المدرسة الثانية والتي كانت معادية لدول الغرب ومناوئة لسياسات الأحلاف ومسلمات القومية المعتدلة (أي مدرسة الملك فيصل الأول ونوري السعيد) فكانت المدرسة التي احتوت على أصحاب الفكر القومي الثوري (الراديكالي) التي تمثلت بشخص الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي التَفّتْ حوله معظم القوى الثورية في العالم العربي بدافع كراهيتهم لسياسة دول الغرب الاستعمارية. لذلك فإن جمال عبد الناصر اختلف مع نوري السعيد مبدئيًا حول مصادر التهديد للمصالح العربية. فقد كان نوري يخشى الخطر الشيوعي المتأتي من الاتحاد السوفياتي واجتهد بأن بالإمكان تهميش وتطويق الخطر الصهيوني عن طريق إقناع دول الغرب بأن مصالحهم القومية

٢٥) مقابلة مع الدكتور عدنان الباججي، وزير خارجية العراق السابق، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، الساعة ٣٠ : ٤ من يوم الأربعاء ١٦ / ٦ / ٢٠١٠.

والاستراتيجية تتحقق بتحالفهم مع العرب وليس مع إسرائيل. بينما كان عبد الناصر يخشى التهديد الإسرائيلي وخطط الصهيونية التوسعية المدعومة من دول الغرب والرامية إلى سلب المزيد من الأراضي العربية وإضافتها إلى مساحة إسرائيل.

ولم يقنط نوري السعيد وبقي يناشد رؤساء وملوك البلاد العربية لتأييد سياساته ولم يقطع أمله بإمكانية إقناع جمال عبد الناصر فسعى إلى الاجتماع به بالرغم من إن جمال كان أصغر من صباح ابن نوري السعيد بخمس سنوات إلا أن نوري (الشيخ ذي الثانية والستين) لم يألوا جهدًا في سبيل تحقيق أهدافه الكبرى فاخذ زمام المبادرة وزار عبد الناصر الشاب ذي الثامنة والثلاثين واجتمع الرجلان بالقاهرة في سبتمبر/أيلول/ ١٩٥٥ [٢٦]، وكان الاجتماع وديًا في البداية واعترف عبد الناصر بخبرة نوري السعيد ودرايته السياسية إلاّ إن الاجتماع انتهى بدون التوصل إلى اتفاق واضح بين البلدين العربيين الكبيرين.

وهنالك معلومات تشير إلى إن نوري السعيد حذر عبد الناصر من الصدام مع دول الغرب وخاصة أمريكا وذكّره بما حصل للعراق قبل أربعة عشر عامًا حين حذّرَ ضابطًا شابًا كان يخدم في الجيش العراقي هو العقيد صلاح الدين الصباغ حين أنذره قائلاً «يا صلاح إن تصرفاتك سوف تجلب الدمار للعراق» وكذلك حذّرَ نوري السعيد جمال عبد الناصر أن لا يتحدى الغرب مخافة وقوع كارثة كبرى وعامة على جميع العرب تشابه ما حصل للعراق بسبب الحرب التي قادها العقداء الأربعة ضد بريطانيا في عام ١٩٤١.

بعد عدم التوصل إلى نتيجة مع عبد الناصر مضى نوري السعيد قدمًا ووقع ميثاق حلف بغداد مع السيد عدنان مندرس رئيس وزراء تركيا. ويقول

٢٦) Robert Stephens, Nasser: A Political Biography (New York: Simon and Schuster, 1971) P. 147

الكاتب روبرت ستيفن إن عبد الناصر انتفض غضبًا لعدم استشارته عن موعد التوقيع وحين سمع نوري السعيد عن رد فعل عبد الناصر صرح «أخبروا عبد الناصر أنني لست جنديًا تحت إمرته».

وبدأت مصر بالهجوم الإعلامي على العراق وعلى حلف بغداد، واندلع الخلاف على أشدّه بين القاهرة المؤيَدة من دمشق والسعودية التي تخشى تنامي نفوذ العائلة الهاشمية، وبين بغداد وعمّان تحت الحكم الهاشمي. وقد أسس الرئيس عبد الناصر أذاعه خاصة أسماها «صوت العرب» وكان معظم برامجها مخصص للهجوم على حكام العراق، وعين رجلاً يدعى أحمد سعيد مذيعًا وقد استعمل هذا الرجل شتى أنواع الهجمات الديماغوغية والغوغائية لإثارة الشارع العراقي والأردني ضد حكامهم الذين اتهمهم بأنهم خونة وعملاء الاستعمار ولجأ إلى استعمال نعوت لا تقبلها أصول البروتوكولات الدبلوماسية وخصوصًا بين البلاد العربية المتمسكة بآداب الحضارة الإسلامية العريقة والراقية فقد طعن أحمد سعيد بإذاعاته بأصل جلالة الملك حسين ابن طلال الهاشمي وأسماه (حسين ابن زين) وزين هي جلالة الملكة الوالدة، ووصف الحسين بالملك القزم وكذلك طعن زورًا وبهتانًا بعرض الأمير عبد الإله ابن جلالة الملك علي الهاشمي، وكلا الرجلين من سبط الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) وبذلك هبط أحمد سعيد بالمستوى الحضاري للعلاقات بين الدول العربية وجعله يتدنى إلى استعمال الألفاظ النابية التي تُسمع في عراك الشوارع ولا تناسب مستوى اللغة المتبادلة بين الأمم المتحضرة. وكانت برامج صوت العرب المصحوبة بالموسيقى والأناشيد الحماسية تلهب حماسنا نحن فتيان المدارس والكليات في بغداد وتشحننا بغضاءً ضد حكامنا وتجعلنا على استعداد للفتك بتلك الطغمة الخائنة التي باعت الأوطان كما كان أحمد سعيد يوحي إلى أدمغتنا اليافعة. والجدير بالذكر أن لا عاهل الأردن الملك حسين ولا الأمير عبد الإله ولي عهد العراق ردا على تلك الهجمات وظلا

متمسكان بالمجاملة والتعابير الراقية مجسدان السلوك الرفيع القول العربية المعروف «كلام الملوك، ملك الكلام».

وقد أدّت تلك المهاترات إلى شق البلاد العربية إلى فريقين متنافسين كالآتي:

١. فريق القومية العربية الثوري الراديكالي والمتمثل بمصر وسوريا والذي أدّى إلى اتحاد البلدين بما سمي (الجمهورية العربية المتحدة) عام ١٩٥٨ بزعامة الرئيس المصري جمال عبد الناصر. وقد لاقت هذه الوحدة تأييدًا جماهيريًا كاسحًا وصفق لها ما لايقل عن الخمسة وتسعين بالمائة من جماهير البلاد العربية التي سحرها الرئيس عبد الناصر بقامته الفارعة وشخصيته الكارزمية الكاسحة وخطبه الحماسية. وكان السند القوي لهذا الاتجاه هو الاتحاد السوفياتي الذي وجد في زعامة عبد الناصر خير حليف للانتقاص من دول الغرب وحلفائهم في البلاد العربية.

٢. فريق القومية العربية المعتدلة الكلاسيكية المتمثل بالمملكة العراقية الهاشمية والمملكة الأردنية الهاشمية، وقد اتحدت المملكتان بما دعي بـ(الاتحاد الهاشمي) عام ١٩٥٨. وقد هاجم الرئيس عبد الناصر هذا الاتحاد عن طريق إذاعة صوت العرب لأنه كان مسنودًا من قبل دول الغرب، مما جعل الرأي العام العربي والأكثرية الجماهيرية الكاسحة تناصب الحلف الهاشمي العداء.

وقد كان اتحاد سوريا مع مصر بمثابة الضربة القاضية لمشاريع نوري السعيد والأمير عبد الإله والنخبة الحاكمة العراقية بتحقيق مشروع الهلال الخصيب المار ذكره وتراجعت تلك المخططات إلى الاكتفاء بتوحيد العراق والأردن فأصبح ملك العراق فيصل الثاني رئيس الاتحاد الهاشمي بينما تسنم ملك الأردن الحسين مركز نائب الرئيس. وصدرت الإدارة الملكية بتعيين الجنرال نوري السعيد رئيسًا لوزراء الاتحاد مع أربعة حقائب وزارية لعراقيين وثلاث

حقائب لأردنيين كالآتي[٢٧]:

١ . توفيق السويدي. وزير الخارجية (عراقي)

٢ . إبراهيم هاشم. وكيل رئيس الوزراء (أردني)

٣ . سليمان طوقان. وزير الدفاع (أردني)

٤ . عبد الكريم الأزربي. وزير المالية (عراقي)

٥ . خيري الخيري. وزير الدولة للشؤون الخارجية (أردني)

٦ . الجنرال سامي فتاح. وزير الدولة لشؤون الدفاع (عراقي)

٧ . نوري السعيد. رئيس الوزراء (عراقي)

بعد ذلك هب نوري السعيد مباشرة لإقناع أمراء الكويت للدخول في الاتحاد الهاشمي ووعدهم بشق نهر يتفرع من شط العرب العراقي لإحياء الزراعة في الكويت فقد طمح نوري السعيد بتحقيق بعض المنافع التي كانت مرجوة من مشروع الهلال الخصيب الذي أُجهض، وذلك عن طريق إضافة نفط الكويت إلى نفط العراق واستغلال مياه النهرين العظيمين دجلة والفرات وروافدهما والتي تكفي لإغراق الاتحاد بجميع أنواع الإنتاج الزراعي، ودمج الجيشين العراقي والأردني، وجعل حدود الدولة تشرف على الخليج العربي شرقًا وخليج العقبة والبحر الأحمر غربًا، كما كانت ثمة مخططات لتوحيد المناهج التعليمية وتبادل البعثات الدراسية للتلاميذ وتشجيع الزواج بين شباب الأقاليم لأجل تعزيز الوحدة السياسية والسكانية على المدى البعيد.

كان الاتحاد الهاشمي يتطور ويتقدم باضطراد إلى أن وقع انقلاب ١٤ / تموز/ ١٩٥٨ وأجهضت تلك الخطط وكان الاتحاد الهاشمي آخر إنجاز دبلوماسي لسياسة العراق الخارجية في العهد الملكي.

إن جهود النخبة العراقية الشاقة لتوحيد بلاد الهلال الخصيب لم تؤخر مساعيهم الحثيثة على المستوى العالمي للوقوف ضد المشروع الصهيوني.

---

(٢٧) Royal Decree No. 1, 1958, Al-Waqa'i al-Iraqiyah (Official Gazette of Iraq) No. 41 48, 19 May 1958

وتؤكد المصادر التاريخية بأن نوري السعيد اضطلع بدور فاعل في الدفاع عن عروبة فلسطين منذ عام ١٩٣٤ حينما كان وزيرًا لخارجية العراق وشارك في اللجنة السداسية التي ألفتها «عصبة الأمم» لدراسة القضية الفلسطينية. وقد شاركه في مهمته تلك جعفر العسكري الذي كان وزير العراق المفوض في بريطانيا وممثل العراق في عصبة الأمم. وقد أفاضت وسائل الإعلام العربية بمواقف الدبلوماسيين العراقيين أعلاه في التصدي لإيقاف هجرة اليهود إلى فلسطين لأجل الحفاظ على الهوية العربية لذلك البلد ولأجل خدمة قضايا العرب بصورة عامة[٢٨]. وقد أعربت «لجنة الشبيبة السورية بالقاهرة عن عميق امتنانها »لدولة الزعيم العربي الكبير نوري باشا السعيد» لدفاعه عن القضية العربية في سوريا وفلسطين»[٢٩].

وحين اندلعت الثورة الفلسطينية العنيفة ضد الهجرة اليهودية كان ياسين الهاشمي رئيس وزراء العراق ووزير خارجيته نوري السعيد. وقد تمكن العراق بحكم كونه الدولة العربية الوحيدة الممثلة في عصبة الأمم أن يلعب دورًا بارزًا في تقريب وجهات النظر للأطراف المعنية في القضية الفلسطينية وقد اضطلع نوري السعيد بأعباء هذه المهمة الشاقة مستغلاً مركزه الوزاري إضافة إلى مكانته الدولية المرموقة وعلاقته الوثيقة مع «بريطانيا العظمى». ولذلك وأثناء قيام اللجنة الملكية البريطانية الخاصة المكلفة بالتحقيق في القضية الفلسطينية اقترح نوري السعيد أن تتوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وأن يرضي اليهود أن يعيشوا كأقلية تتمتع بحكم ذاتي في بلد عربي هو فلسطين[٣٠].

هبت القوى الصهيونية ذات النفوذ العالمي الواسع وبدأت تمارس ضغوطها على الأوساط السياسية البريطانية العليا من أجل رفض مقترحات نوري السعيد وإيقاف نشاطاته بأسرع وقت ممكن خصوصًا بعد أن أشار نوري السعيد على

٢٨) سعاد رؤوف شير محمد، نوري السعيد ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٤٥ (بغداد: مطبعة دار الشؤون. الثقافة العامة)، صفحة ٢٠٤.

٢٩) جريدة الجامعة العربية: القاهرة. ١٠/١٠/١٩٣٤.

٣٠) General Nuri al-Sa`id, Arab Independence and Unity, Op. Cit

الأثر الإيجابي الذي تركته مطالعاته على المندوب السامي البريطاني في فلسطين[٣١].

وقد تكللت جهود الأمير عبد الإله ونوري السعيد وصالح جبر والدكتور فاضل الجمالي بتوقيع معاهدة (بورتسماوث) التي ربطت مصالح بريطانيا مع العراق، إلاّ إن تلك المعاهدة أُلغيت بعد الهياج العارم الذي قادته قوى المعارضة ضدها كما يبين الفصل التالي.

٣١) سعاد رؤوف شير محمد، المصدر السابق، صفحة ٢١١ .

الفصل الرابع

معاهدة بورتسماوث بين العراق وبريطانيا والمؤامرة الصهيونية التي أسقطتها

تمهيد

في صباح يوم قارس من أيام شهر كانون الثاني / يناير عام ١٩٤٨، كانت أبواب المدرسة المأمونية النموذجية للبنين مشرعة لاستقبال الأولاد بداية ليوم دراسي جديد. وهي مدرسة قديمة يعود زمن بنائها إلى العهد العثماني ولها سمعة عريقة، فقد درس فيها الأمير غازي ولي عهد العراق حين كان يافعًا في المرحلة الابتدائية، وذلك بعد أن تُوّج والده جلالة الملك فيصل الأول ملكًا على عرش العراق عام ١٩٢١. وكان موقع المدرسة في محلة الميدان بالقرب من باب المعظم.

دخلنا نحن صبيان الصف السادس إلى حصة اللغة الإنكليزية التي كان يدرّسها شاب اسمه جورج كبك، وهو معلم قدير جدًا، وكنا نحب حصته لأنه يجلب لنا جهاز حاكي (فونوغراف) ويسمعنا اسطوانات لأناشيد باللغة الإنكليزية لأجل أن يجعل حصته أكثر تشويقًا ولأجل أن يحسّن مفرداتنا الإنكليزية. وكانت تلك الحصة الأولى ثم دخلنا بعدها إلى حصة الحساب للأستاذ القدير علي الشوبكي الذي كان يمتاز بشخصية جذابة محترمة، ويخفف من جديّة درس الرياضيات ببعض النكات الخفيفة التي كانت تبعث

الابتسام على وجوه التلاميذ. وبعدها خرجنا من تلك الحصة للفرصة بانتظار حصة اللغة العربية للأستاذ عبد الجبار شوكت النجار الذي كان بدوره متمكنًا من موضوعه بشكل واضح وله مؤلفات، وتتخلل تدريسه استشهادات بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، أو أشعار لقدماء شعراء العرب مما يضفي على محاضراته جوًا من العمق الثقافي والذي كنا نستمتع به رغم حداثة أعمارنا.

دخلنا حصة اللغة العربية، وبدأ الأستاذ عبد الجبار محاضرته بصوته العميق، ولكن ما إن مضت حوالي ربع ساعة على الحصة، إلاّ وحدث ما لم يكن في الحسبان، فقد انفجرت على حين غرة أصوات إطلاق رصاص متتالية من مدفع رشاش قريب من المدرسة آتية من جهة باب المعظم، فخرج الأستاذ مسرعًا وساد الهرج والمرج وتدافع الطلاب إلى المجاز الطويل الذي يؤدي إلى الباب الخارجي الذي كان مغلقًا ثم سمعنا طرقات عالية متتالية على الباب، ففتحها الفراش واندفع داخلاً معلم شاب من مدينة الموصل يدرّس أطفال الصفين الأول والثاني وكان وجهه شاحبًا كالأموات وهو يرتجف هلعًا وقال إن مظاهرات عارمة قد اجتاحت بغداد وإن الشرطة تطلق الرصاص لتفريق المتظاهرين ولحماية الأمن، وقد وقعت بعض الإصابات والقتل. فخرج مدير المدرسة الأستاذ عبد الرحمن التتنجي وألقى فينا كلمة قصيرة حثنا فيها على الالتزام بالنظام، وألغى بقية الحصص لذلك اليوم وصرفنا ناصحًا أن نتوجه مباشرة إلى بيوتنا.

كانت دارنا واقعة في شارع الفضل القديم قِدَم بغداد، يقتضي الوصول إليها من المدرسة عبور شارع الرشيد وهناك رأيت جموع الشبان والشابات تهرول هنا وهناك وأصوات الرصاص تلعلع من ناحية باب المعظم والمرور مقطوع للسيارات والعربات التي كانت تسحبها الخيول، فدلفتُ في مدخل شارع الفضل أي من محلة (الصابونجية) ورأيت بعض شباب الثانويات والكليات

ممن هرب من المظاهرات والتجأ إلى الحارة بعيدًا عن شارع الرشيد وعن رصاص الشرطة، واقترب مني شاب أعرفه اسمه عرفان بيته لا يبعد كثيرًا عن دارنا وهو تلميذ مع شقيقي الكبير خلوق أمين زكي الذي كان يدرس في كلية الحقوق وهو بطل العراق في الملاكمة والمصارعة وأخبرني عرفان بأن شقيقي قد اشتبك بعراك بالأيدي مع بعض أفراد الشرطة وبأنه صرع ضابطًا وبعض أفراد الشرطة بلكماته، إلاّ إنه أصيبَ ومن المحتمل أنه قُتِلَ. فوقع عليّ الخبر وقوع الصاعقة وأظلمت الدنيا بعيني وأنا صبي أناهز الثالثة عشرة من عمري، فقد كنتُ متعلقًا بشقيقي بحب عميق كبير لذا وضعت حقيبتي المدرسية فوق رصيف الشارع العتيق وجلست عليها بعد أن انهارت قواي ولم تعد رجلاي تتحملاني وانهمرت دموعي بغزارة، فرّق قلب الشاب وربت على كتفي قائلاً: «إن الخبر عبارة عن إشاعة وقد لا يكون صحيحًا ومن المحتمل أن شقيقي لم يزل حيًا يرزق وإنه أُصيب بجروح فقط»، فعاد بعض الأمل إلى قلبي الكليم، وجمعت قواي وهرعت إلى دارنا الواقعة بالقرب من سوق الفضل وحين اجتزت المجاز رأيت شقيقتيَّ عادلة وأمل، اللتين كانتا تلميذتين في كلية دار المعلمين العالية تنتحبان وتحيطان بوالدتي وهي بوضع يرثى له من الألم والأسى، فقد كان شقيقي ابنها البكر وفؤادها مفعمًا بحبه وبحسب الأعراف والعادة لم يعد اسمها متداولاً وأصبحت تعرف فقط (بأم خلوق) شأنها شأن بقية الأمهات العراقيات، وكانت قد وصلتها إشاعة احتمال مقتل ولدها.

بعد دخولي بفترة وجيزة دق جرس الهاتف فوثبت من مكاني ورفعت السماعة وجاء صوت والدي الجهوري بلهجته العسكرية إلاّ أن الفرح كان باديًا عليه وأخبرني بأنه في مكتب مدير الشرطة العام ـ وكانت تربطه علاقة صداقة قديمة معه ـ وقد أخبره بأن (خلوق) بحالة جيدة وأنه مصاب بفكه فقط وهو بخير.

قفزت بأعلى ما تتحمله رجليَّ وأطلقت صرخة من أعماق صدري وأنا أهرع نحو والدتي قائلاً: «ماما.. بابا.. يقول إن (آبي خلوق) بصحة جيدة وإنه يتعالج في المستشفى من جرح بسيط في فكه». فانتاب البيت سكون مفاجئ لبضع ثوانٍ ثم انطلقت الطباخة والفتاتان الشغالتان[1] في بيتنا بزغاريد عالية وتبدلت دموع الحزن إلى دموع فرح وأخذتُ أغالب دموعي لكي لا تسيل أمام أخواتي فالولد (السَبِعْ) المفروض أن لا يبكي. وانكبت الشغالات الثلاث على يدي والدتي يقبلنها وهي تقبل رؤوسهن وتعدهن بهدايا سخية بمناسبة نجاة ابنها.

هذه المناظر ارتبطت بذاكرتي مع يوم انطلاق مظاهرات ما دعيت تاريخيًا بـ (وثبة ١٩٤٨) وانطبعت بذهني وأنا أكتب عنها حاليًا وكأنها لم تحدث قبل عقود طويلة خلت بل كأنها وقعت في الأسبوع الماضي.

تلقى أخي علاجًا طبيًا لوجهه الجريح، ثم بقي رهن التوقيف لبضع ساعات إلى أن تدخل والدي وأطلق سراحه وعاد إلى البيت تغطي فكه كمادات طبية سميكة، وأخذ يروي لنا تفاصيل اشتباكات التلاميذ الذين كانوا يرمون الشرطة بالحجارة، بينما استعملت الشرطة الرصاص والهراوات، وقد سقط بعض القتلى والجرحى من التلاميذ. وكنت جالسًا أُنصت إلى شقيقي بافتتان وأتخيله يشابه الشخصية السينمائية (طرزان) العملاق العضلي الذي يعارك الوحوش والأُسود وينتصر عليها، وقلبي مفعم بالفرح والفخر بشقيقي وتمنيت لو كنت أكبر سنًا لكي أشارك بالمظاهرات إلى جانبه.

مظاهرات عارمة تعم بغداد واشتباكات مع الشرطة

وبدأت الأخبار تترى بأن المظاهرات العارمة قد انطلقت بسبب ارتباط العراق بإنكلترا بمعاهدة جائرة هي (معاهدة بورتسماوث)، وقعها عن الجانب

---

١) لا أحبذ استعمال كلمة الخادمات.

العراقي رئيس الوزراء (عميل الاستعمار صالح جبر) مع وزير خارجية إنكلترا (صنيعة الصهيونية أرنست بيفن) . وقد كانت نتيجة الاشتباكات مع الشرطة وقوع عدة إصابات فقد قُتِل الصبي قيس الآلوسي التلميذ في ثانوية الأعظمية (١٥ عامًا) والشاب شمران علوان وقُتِل كذلك جعفر الجواهري (شقيق الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري) وجُرِحَ غانم المتولي وياسين الكبيسي وعدد آخر من القتلى والجرحى ممن لا تحضرني أسماؤهم . واستمرت المظاهرات ورافقتها مسميات مثل (معركة المستشفى) وتعني الاشتباك الذي حصل مع الشرطة في المستشفى الملكي المجاور للكلية الطبية الملكية في باب المعظم، وقد قتل فيها عاملا بناء وجرح عدة تلاميذ من ضمنهم طالب كلية الحقوق عماد أرشد العمري وهو ابن رئيس وزراء سابق وقد أُصيب برأسه جراء سقوط حجر كبير عليه، وأصيب شقيقي خلوق بجرح في فكه إضافة إلى إصابات أُصيب بها متظاهرون آخرون كانت أكثر خطورة .

وبعدها وقعت (معركة الجسر) على جسر الشهداء[٢] وكانت أعنف الاشتباكات فقد سقط من جرائها ضحايا إذ كانت قوة من الشرطة ترمي المتظاهرين برشاش ثُبت على حوض لمئذنة جامع تشرف على الجسر .

الأمير عبد الإله يعلن إلغاء المعاهدة

وفي اليوم السادس أو السابع من اندلاع المظاهرات بدأ المذيع المعروف في الإذاعة العراقية ناظم بطرس يعلن بصوته الرخيم ذي الرنة العميقة الجذابة بأن أخبارًا مهمة سوف تُذاع مساء ذلك اليوم، وأخذ يكرر ذلك الخبر بين برامج الإذاعة الاعتيادية إلى أن حل المساء وقد امتلأت المقاهي بزبائنها ممن لم يمتلكوا أجهزة المذياع (الراديو) في دورهم، أما عائلتنا فقد التفت حول والدي في غرفة مكتبته في الطابق الثاني وآذاننا وأبصارنا شاخصة نحو المذياع، وإذا

٢) كان اسم الجسر عهدئذ (جسر المامون)، أما العوام فاطلقوا عليه (جسر العتيق) .

بالمذيع ناظم بطرس يعلن بأن سمو الأمير عبد الإله الوصي[٣] على العرش وولي العهد المعظم سيلقي خطابًا. ثم انبعث صوت الأمير عبد الإله ضعيفًا مترددًا وقال مستهلاً خطابه:

شعبي العزيز من المؤلم حقًا أن تقع حوادث شغب في وطننا وأن تسقط بعض الضحايا.. الخ، واستمر الأمير بخطاب مقتضب لا أتذكر كلماته بالضبط إلاّ إنني أتذكر نهايته حين أعلن: لذا قررنا إلغاء المعاهدة وقبلنا استقالة الوزارة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عمَّ السرور عائلتنا وبدأنا بعد برهة نسمع أصوات أهازيج الفرح قادمة من الشوارع وأطلق بعض الناس إطلاقات نارية في الهواء احتفالاً، وحين نزلتُ إلى الشارع رأيتُ جموع المحتفلين قد بدأت تتكاثر بالألوف والكل في غبطة وسعادة لانتصار إرادة الشعب على الطغمة الحاكمة العميلة للاستعمار وسقوط معاهدة بورتسماوث الجائرة واستقالة الوزارة العميلة.

بعد استقالة وزارة صالح جبر اختار الأمير عبد الإله الشخصية الدينية المعروفة والعين في البرلمان سماحة السيد محمد الصدر لرئاسة الوزارة، إذ أن الوصي ارتأى بأن الصدر بمركزه المحترم ومكانته الدينية والاجتماعية العالية سيتمكن من تحقيق التهدئة وإعادة الأمور إلى نصابها. وفي عهد وزارة فخامة محمد الصدر بدأت وفود التلاميذ والمؤسسات الاجتماعية والجماهيرية تقود مسيرات الحزن ومواكب العزاء على أرواح الشهداء الذين سقطوا أثناء المظاهرات. فخرجت تلميذات المدارس والكليات وهن يحملن أكاليل الزهور ويطفن شوارع بغداد الرئيسية متوجهات للمقابر حيث دفن الشهداء وكانت الأهازيج الشعبية والأشعار تذم وتهاجم الوزارة المستقيلة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

---

٣) كان الأمير عبد الإله وصيًا على الملك فيصل الثاني الذي لم يكن قد بلغ الثالثة عشرة من العمر.

نـــــوري ســـعـــيـــد الـــقـــنـــدرة

وصـــالـــح جـــبـــر قـــيـــطـــانـــهـــا[٤]

رشـــــاش يـــرمـــي عـــلـــى الجـــســـر

والـــشـــــرطـــة خـــــانـــــت بـــيـــنـــة

بينما مجموعة شعبية أخرى تهزج أثناء تشييع الموتى:

واجـــب نـشـيـع يـا رجـال العروبة

روحـــــــــوا فـــــدى لـــلأوطـــان

يارجال العروبة

وفي إحدى التظاهرات الاحتفالية التي لم تعترضها الشرطة وصل المتظاهرون إلى ساحة باب المعظم مقابل المكتبة العامة، وصعد الأستاذ الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري المنصة التي كانت مخصصة لشرطة المرور، وسط عاصفة من الهتاف والتصفيق، وأشعل حماس الشباب بإلقاء قصيدته التالية:

يـــومُ الـشـهـيـــد تحـيـــةٌ وســـلامُ

بـــك والـنـضـال تـــؤرِّخُ الأعـــوامُ

بك والـذي ضمَّ الثرى من طيبهم

تـتـعـطَّـرُ الارَضـــــونَ والأيـــــامُ

بـــك يُـبـعَـث الجـيـــلُ المحـتَّـمُ بعثه

وبـــــك الـقـيـامـةُ لـلـطُـغـاة تُقام

وفي مساء اليوم التالي انتشر خبر وفاة شقيق الشاعر الجواهري وهو المرحوم جعفر الجواهري (٣٠ عامًا)، وكان قد أصيب أثناء إحدى التظاهرات، إلاّ إنه بقي حيًا وبقي جرحه ينزف إلى أن توفي، وقد نقل جثمانه إلى النجف الأشرف

٤) نوري السعيد كان أبرز شخصية سياسية أثناء العهد الملكي، وصالح جبر هو رئيس وزراء العراق الذي وقع معاهدة بورتسماوث. والقيطان هو رباط الحذاء (القندرة).

ليدفن هناك، فخرجت مجموعات من النسوة يندُبْنَ ويهزُجنَ واصفات نزيفَ القتيل:

مـا نِـشَـفْ... مـا نِـشَـفْ

دمّـه يـسـيـل ومـا نِـشَـفْ

لـلـنَـجَـفْ... لـلـنَـجَـف

عـجّـل يـا نـاعـي لـلـنَـجَـفْ

وتلقى نعش ابن الوطن

أما الشاعر الجواهري فقد عقد اجتماعًا لتأبين شقيقه في جامع الحيدر خانة - كما أخبرني شقيقي - أمّهُ جمع غفير يقدر بالألوف حيث ألقى معلقته الفذّة في رثاء شقيقه. لقد كنت مولعًا في صدر شبابي بشعر الجواهري وكنت قد حفظت قصيدته في رثاء شقيقه، إلاّ إن ابتعادي عن الوطن ولتوغلي في العمر لم يبقَ بذاكرتي سوى نطف من تلك القصيدة العصماء وهي:

أتـعـلـمُ أم أنـت لا تعلمُ

بـأن جـراح الـضـحـايـا فـمُ

فـمٌ لـيـس كـالـمـدعـي قـولـةً

ولـيـس كـآخـر يـسـتـرحـم

أخـي جـعـفـرًا يـا رواءَ الربيعِ

إلـى كـفـنٍ بـاردٍ يُـسْـلَـمُ

أخـي جـعـفـرًا إنَّ رَجْـعَ السنينِ

بَـعْـدَكَ عـنـدي صـدىً مُـبْـهَـمُ

وتستمر أبيات الجواهري تنهمر بغزارة قلّ نظيرها بين الشعراء المحدثين، وقد بلغت أبياتها (٩٨) بيتًا إلى أن ينهي مرثيته الخالدة بالبيت الآتي:

أسالت ثراك دموع الشباب

ونوّر منكَ الضريح الدمُ

كان الجواهري غزيرًا بأشعاره ومفرداته اللغوية، عميقًا بمعانيه، ويُقارن بفحول شعراء العرب. لذا فإن أشعاره الثورية أثناء الوثبة وبعدها جعلت منه شخصية ذائعة الصيت عربيًا ودوليًا، وقد أطلق البعض عليه لقب شاعر الجماهير. وبقي الجواهري بطلاً شعبيًا إلى أن سقط العهد الملكي عام ١٩٥٨ حيث تجاهله الزعماء الجدد فبدأ نجمه يأفل تدريجيًا.

إدعاءات سياسية وتطاولات فارغة

ثم بدأت جميع الحركات السياسية تدّعي وصلاً بليلى، وبأنهم كان لهم الباع الطويل في إسقاط (المعاهدة الاستعمارية). فيقول الضابط صبحي عبد الحميد إن شباب حزب الاستقلال في كلية الحقوق هم الذين بدأوا الإضراب والتظاهرات عام ١٩٤٨ [٥]. بينما يتفاخر معالي الأستاذ كامل (بك) الجادرجي بمشاركة حزبه (حزب الوطني الديمقراطي) بالمظاهرات[٦].

النقطة المهمة هنا والجديرة بالذكر والتمحيص هي أن لا السيد صبحي عبد الحميد ولا الأستاذ الجادرجي أو أي جهة أخرى من الجهات التي وقفت ضد المعاهدة، قامت باطلاع الرأي العام وإيضاح فحوى البنود التي ادّعوا بأنها تقوّضُ سيادة العراق وتكبله بارتباطات تتعارض مع استقلاله وطموحاته الوطنية. فالسيد صبحي عبد الحميد يكتفي بالقول إنه وبحكم منصبه في القيادة العامة للقوات المسلحة بعد انقلاب عام ١٩٥٨ فقد تمكن من الاطلاع

---

٥) صبحي عبد الحميد، أسرار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، البداية ـ التنظيم ـ التنفيذ ـ الانحراف. (بغداد: مطبعة الأديب، ١٩٨٣) صفحة ٢١.

٦) كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي: وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٠) صفحة ١٧٦.

على أضابير مديرية الأمن العامة بخصوص (الوثبة) أي أحداث كانون الثاني ١٩٤٨ وإن شباب حزب الاستقلال في كلية الحقوق هم الذين بدأوا الإضراب والتظاهرات. إذن وبحكم مركزه الحساس الذي ذكره، فمن المؤكد إنه قد تمكن من الاطلاع على نص المعاهدة وبنودها. وكان الحري به أن يفضح نقاطها السلبية وأهدافها الاستعمارية أمام الرأي العام العراقي والعربي لأجل كشف خيانة حكام العهد الملكي وعبوديتهم لبريطانيا ليجد مبررًا معقولاً للأسباب التي أدّت إلى انقلاب ١٩٥٨ الذي اضطلع السيد صبحي بدور مهم فيه كعضو في منظمة الضباط الأحرار التي قامت بالانقلاب. كما أنه نشر في عام ١٩٧٨ كتابه المعنون (أسرار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق) أي بعد عشرين عامًا من حدوث انقلاب ١٩٥٨، وكان الواجب عليه أن يحلل ويعلل استنادًا إلى الوثائق التاريخية التي يدعي أنه اطلع عليها وأسباب معارضته للمعاهدة، أو على الأقل إبراز بنودها التي اعتبرها تنتقص من سيادة العراق واستقلاله لأجل إثبات معلوماته ولتثقيف القارئ عن الجوانب السلبية للمعاهدة الجائرة بحق الوطن والتي جعلها أحد الأسباب التي حدت بالضباط الأحرار للقيام بالانقلاب العسكري. وعلى صعيد آخر فإن السيد محمد الصدر الذي اختاره الأمير عبد الإله لرئاسة الوزارة بعد سقوط وزارة السيد صالح جبر أدخل السيد محمد مهدي كبة رئيس حزب الاستقلال لإشغال إحدى الحقائب الوزارية[٧]. وبموافقة الأمير، فلو كان حزب الاستقلال هو الذي بادر بتأجيج مظاهرات الوثبة فكيف يثق الأمير باستيزار رئيسه؟

وبمناسبة الحديث عن حزب الاستقلال فإن الحزب المذكور أصدر بيانًا حول معاهدة بورتسماوث في يوم ١٨ / ١ / ١٩٤٨ مبينًا أوجه اعتراضات الحزب على المعاهدة، إلاّ أن النقاش يبدي بشكل واضح عدم إدراك الحزب لمفهوم

---

٧) الدكتور عبد الأمير العكام، تاريخ حزب الاستقلال العراقي، ١٩٤٦ - ١٩٥٨، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠) صفحة ٢٣٠.

المصالح المتبادلة ولطبيعة المعاهدات والعلاقات الدولية بين الأمم.

أما السيد كامل الجادرجي الذي كان من أشد المعارضين لسياسات العهد الملكي عمومًا ولمعاهدة بورتسماوث خصوصًا، وكانت جريدته (صوت الأهالي) من أكثر الصحف المعارضة انتشارًا في جميع أنحاء العراق فإنه لم يشر إلى الأوجه السلبية للمعاهدة ولا إلى بنودها التي تكبل سيادة العراق وإبرازها كوثيقة تاريخية دامغة لخيانة أو عدم إخلاص رجال العهد الملكي الذين نعتهم بمذكراته بعملاء الاستعمار.

وحين عقد الأمير عبد الإله اجتماعًا في يوم ٢١/كانون الثاني/يناير/١٩٤٨ مع زعماء الأحزاب السياسية المختلفة في البلاط الملكي لأجل تفهّم أسباب الشغب الذي حدث لم يفضح السيد الجادرجي رئيس حزب الوطني الديمقراطي والناطق باسم المعارضة أوجه الإجحاف بسيادة العراق الواردة في بنود معاهدة بورتسماوث، بل اكتفى بانتقاد الأوضاع العامة[٨]، ثم استمع الأمير إلى نقاشات بقية الساسة، وبعد ذلك استقبل وفدًا من النواب والأعيان الذين اطلعوه على معارضة الشعب للمعاهدة، ولكن دون تحديد الأسباب مما أدّى إلى قراره بإقالة الوزارة وإلغاء المعاهدة.

ومما يثير الدهشة والتساؤل هو أن السيد الجادرجي ما لبث أن غيّر موقفه تجاه صالح جبر مُوقّع معاهدة بورتسماوث، ففي عام ١٩٤٨ قال الجاردجي عن صالح جبر ما يلي: «وما أن نُشر منهج وزارة صالح جبر حتى تبين للرأي العام العراقي منه أن تلك الوزارة جاءت لتحقق غايتين أساسيتين: أولاً ربط العراق بقيود استعمارية جديدة أشد وطأة من السابق (يقصد معاهدة بورنسماوث)، ثانيًا القضاء على الجزء اليسير من الحريات الديمقراطية وراء ستار مكافحة المبادئ الهدامة والدعايات المضرة»[٩]، غير أن الجادرجي ما

٨) كامل الجادرجي، المصدر السابق، الصفحات ١٧٤ - ١٧٥.

٩) المصدر السابق، صفحة ٢٥٥.

لبث أن غيّر موقفه تجاه صالح جبر في عام ١٩٥٥ بسبب اعتراض الأخير على حلف بغداد ووقوفه مع الجادرجي، وبذلك أصبح أحد المقربين له سياسيًا وبقيت علاقتهما متينة إلى أن توفي صالح جبر، بالرغم من إن صالح جبر بقي مصرًا على رأيه بأن معاهدة ١٩٤٨ كانت في صالح العراق وأن الوثبة ما هي إلا حركة رعناء وإنها لم تكن منبثقة من صميم الشعب[١٠]. فهل كان الهدف الحقيقي لمواقف السيد الجادرجي المعارضة للمعاهدة أن يبدو أمام الجماهير المتحمسة كبطل يكافح الاستعمار؟

من كان وراء الاضطرابات والشغب؟

بعد استتباب الهدوء النسبي الذي تلا سقوط وزارة صالح جبر شرعت دائرة التحقيقات الجنائية تستقصي المعلومات عن المحرضين على الاضطرابات والشغب وتوصلت على إثر اعترافات بعض العناصر التي ساهمت بالشغب بأن الجهة التي اضطلعت بالمظاهرات هي الحزب الشيوعي العراقي السري وواجهته الطلابية (حزب التحرر) السري، مما حدا بالسلطات إلى إلقاء القبض ومحاكمة العديد من أعضاء ومؤيدي ذلك الحزب. وفي عام ١٩٤٩ أعدم أربعة قادة شيوعيين، هم سكرتير الحزب الشيوعي العراقي يوسف سلمان يوسف (لقبه الحزبي الفهد) وهو أحد العناصر من الذين تدربوا ودرسوا في مؤسسة الأممية الثالثة أو الكومنتيرن[١١] في موسكو عاصمة الاتحاد السوفياتي، أما الثلاثة الآخرون فكانوا زكي بسيم ويهودا صديق وحسين الشبيبي الذين كانوا أعضاء اللجنة المركزية، وقد كانت التهمة التي وُجهت لهم وأدّت إلى إعدامهم هي تلقي أوامر من المنظمات الصهيونية العالمية للقيام باضطرابات

---

١٠) المصدر السابق، صفحة ٢٣٠.

١١) الكومنتيرن أو الأممية الثالثة هي منظمة سرية مقرها موسكو عاصمة الاتحاد السوفياتي وكان الهدف منها تدريب عناصر من مختلف البلدان على العمل الحزبي الشيوعي وتثقيفهم ماركسيًا لأجل نشر الحركات الشيوعية في مختلف بقاع العالم.

تهدف إلى إجهاض معاهدة بورتسماوث التي كانت تهدف إلى دخول الجيش العراقي إلى القواعد والتأسيسات العسكرية داخل فلسطين والتي كان جيش الانتداب الإنكليزي على وشك إخلائها[١٢]وقد جاءت الاعترافات على الحزب الشيوعي من قبل العضو القيادي مالك سيف الذي ألقي القبض عليه وانهار تحت التحقيق وفضح فعاليات وأسماء كوادر وأوكار الحزب مما أدّى إلى انهيار الحزب. وقد توصلت التحقيقات الجنائية إلى معلومات موثوقة بأن عناصر صهيونية أجنبية قد تسللت إلى العراق واتصلت بقيادة الحزب الشيوعي العراقي الذي كان مخترقًا من قبل اليهود بشكل عميق - كما هو حال معظم الأحزاب الشيوعية في العالم - فقد كان يهودا صديق وساسون دلال ويوسف قوجمان أعضاء اللجنة المركزية للحزب وقد انضم العديد من اليهود إلى القاعدة الشعبية المؤيدة لذلك الحزب. كما كان التأثير اليهودي عميقًا بين كوادر ولجان حزب التحرر الذي كان الواجهة الطلابية للحزب الشيوعي العراقي ويحتضن التلاميذ الشيوعيين في الثانويات والكليات وكانت خلاياه منتشرة في بغداد والمدن الكبرى.

غير أن ما يجب ذكره أيضًا هو أنه لم يكن جميع يهود العراق يؤيدون الصهيونية، بل كان ولاء شريحة كبيرة منهم نحو العراق والعرب وأكدوا في عدة مناسبات بأنهم ينتمون إلى الدين اليهودي وإنهم انصهروا في المجتمع العراقي منذ أقدم العصور وإن انتماءهم عربي عراقي ولا علاقة لهم بالمشروع الصهيوني.

وتأكيدًا على هذا الموقف الوطني فقد تقدم عدد من مثقفي اليهود العراقيين بطلب إلى وزارة الداخلية العراقية (١٢ / سبتمبر / أيلول / ١٩٤٥) للسماح لهم بتأسيس جمعية باسم (عصبة مكافحة الصهيونية) وأوضحوا بأن هدف

١٢) مأمون أمين زكي، صعود وتراجع المشروع الصهيوني، (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٧) صفحة ١٧٠.

الجمعية الأول هو الوقوف ضد الصهيونية لكونها حركة استعمارية تشكل خطرًا على العرب واليهود سواسية ولمكافحة المشروع الصهيوني علانية لأنهم ينتمون للقومية العربية ويدينون بالدين اليهودي[١٣].

وقد تعرضت تلك المؤسسة ومؤيديها إلى هجمات من أعضاء المؤسسات الصهيونية التي تسللت إلى العراق وكانت تهدف إلى إرهاب اليهود ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين «أرض الميعاد والأمان لليهود»، وكانت أقوى تلك الحركات هي منظمة (حالوتس)[١٤] التي تأسست في بغداد بعد حرب عام ١٩٤١ التي نشبت بين العراق وإنكلترا وما أعقبها من حوادث النهب والقتل التي تعرض لها بعض اليهود بما اصطلح عليه العوام بتسمية أحداثه (الفرهود). حيث قام بعض الجنود العائدين من ميدان المعركة ومعهم بعض العوام بهجمات على البيوت والمحلات التجارية لليهود بعد أن اتهموهم بالتعاطف مع الإنكليز. فقُتل من اليهود من قُتِل واعتُدي على أعراض النساء ونُهبت ممتلكاتهم، وقد قامت الحكومات التي جاءت بعد الحرب بدفع بعض التعويضات وملاحقة بعض الفاعلين، إلاّ إن المنظمات الصهيونية السرية العالمية استغلت أحداث (الفرهود) لأجل تخويف ودفع يهود العراق للهجرة إلى فلسطين كخطوة مهمة لزيادة أعداد اليهود هناك. وقد كان من مهام حركة (حالوتس) تلقين الشباب بالأفكار الصهيونية وتدريبهم عسكريًا ليصبحوا مقاتلين في حرب العصابات وكانت تلك التدريبات تجري في بعض البساتين والمناطق النائية في بغداد وضواحيها[١٥].

وقد رافقت نشاطات (حالوتس) فعاليات عناصر إرهابية كبرى من التي كانت تمارس نشاطاتها على المستوى الدولي، فأرسلت أعدادًا من أعضائها

---

١٣) صادق حسن السوداني، النشاط الصهيوني في العراق، ١٩١٤ - ١٩٥٢، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠) صفحة ١٤٨.

١٤) حالوتس، كلمة عبرية تعني الطلائع.

١٥) المصدر السابق.

إلى العراق من أمثال منظمات (الأرغون والهاغناه والشتيرن) وقد تمكنت السلطات العراقية من إلقاء القبض عليها وإنهاء وجودها.

وهكذا بعد انتهاء نشاط حركة (حالوتس) انتظم عدد من أعضائها في صفوف الحزب الشيوعي وحزب التحرر[١٦].

اللوبي اليهودي وأرنست بيفن ومعاهدة بورتسماوث

كانت فعاليات العنف التي قادتها العناصر الصهيونية في العراق ضد معاهدة بورتسماوث على ارتباط مع فعاليات أوسع وأعمق أثرًا لجماعات الضغط اليهودية واللوبي الصهيوني الناشط في العالم الديمقراطي الغربي وبريطانيا. فقد استنفَرَ مؤيدو خَلْق إسرائيل وهبّوا مذعورين إثر إعلان المعاهدة التي تربط المصالح الاستراتيجية لبريطانيا العظمى في الشرق الأوسط مع بلد عربي هو العراق مما يتنافى مع أحد البنود الأساسية للصهيونية الذي يؤكد وجوب إحباط أي نوع من أنواع التقارب بين دول الغرب والعالم العربي.

وحين أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة في يوم ٢٩ / تشرين الثاني / نوفمبر/١٩٤٧ قرارها رقم (١٨١) القاضي بتقسيم أراضي فلسطين إلى دولتين، واحدة للمهاجرين اليهود وأخرى عربية للفلسطينيين، وقد اتخذ هذا القرار بأغلبية ٣٤ صوتًا ضد ١٤ معارضًا وامتناع ١٠، وكان القرار مجحفًا بحق العرب حيث خُصِّص للأقلية الصهيونية ٥٥٪ من أخصب أراضي فلسطين، وأُعطي السكان العرب الأصليون الذين يكوّنون الأكثرية السكانية ٤٥٪[١٧].

ومن الثابت تاريخيًا بأنه لولا أن الولايات المتحدة تحت رئاسة هاري ترومان المؤيد للصهيونية قد تدخلت واستعملت سطوتها في الأمم المتحدة حديثة

---

١٦) فاضل البراك، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق: دراسة مقارنة، (بغداد: مطبعة دار الرشيد، ١٩٨٤) انظر ملحق رقم ٢.

١٧) Jimmy Carter, Palestine: Peace not Apartheid, (New York: Simon & Schuster Paperbacks: 2006) P.4

الولادة، ولولا أنها رَشَتْ البعثات الدبلوماسية لبعض الدول الصغيرة من أمثال هايتي والفلبين وغيرهما لما مرّ قرار التقسيم ولم تُخلق إسرائيل(١٨).

وقد برر هاري ترومان في عدة مناسبات تأييده المطلق للمشروع الصهيوني وذلك حين حذره بعض الساسة المحيطين به من مغبة إصدار قرار مجحف بحق عرب فلسطين قائلاً: «أيها السادة إن يهود أمريكا يشكلون جماعات ضغط غاية في القوة وأنا أحتاج لأصواتهم الانتخابية بينما لا يوجد هنا ناخبون عرب»، لذلك فقد مَجّدَ الحاخامات الأمريكان هاري ترومان قائلين إن الرب وضعك في رحم أمك لكي تخلق إسرائيل(١٩).

وقد رفضت كافة الدول العربية قرار التقسيم المجحف بحقهم، وهبوا لتهيئة جيوشهم لإنقاذ فلسطين، واجتاحت البلدان العربية مظاهرات جماهيرية صاخبة احتجاجًا على ذلك القرار، وكان لممثل العراق في الأمم المتحدة الدكتور محمد فاضل الجمالي مواقف مشرفة في الطعن بقرار التقسيم والدفاع عن حق العرب الطبيعي في فلسطين، داعمًا حججه بوثائق تاريخية وطبيعية عن سكانها العرب الأصليين لذا أطلق عليه الصهاينة لقب عدو اليهود. إلاّ أن قرار التقسيم كان مؤيدًا من أقوى دول العالم آنذاك وهي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واللوبي الصهيوني في البرلمان البريطاني.

هبت جميع الفئات السياسية في العراق لتعارض قرار التقسيم وتشجب المشروع الصهيوني، ولتؤكد حق العرب الطبيعي بكافة أراضي فلسطين، وقد تطوع العديد من الشبان للمشاركة إلى جنب الجيوش العربية في الحرب ضد الصهاينة، ولم يشذ عن هذا الشعور القومي الجارف سوى الحزب الشيوعي

---

١٨) S. Munier, S. "Zionism and the Middle East – The Aftermath of the Jewish – Arab War (A Report from Israel)" Fourth International, Vol. 10 No, 91949, P. P. 227-283

١٩) Edward Bernard Glick, The Triangular Connection: America, Israel and American Jews (London: Geary Allen and Unwin 1982) P.96

الذي نظّم مظاهرات حاشدة أطلقوا خلالها شعارات مؤيدة لقرار التقسيم وهي تعارض حرب العرب ضد الصهاينة التي نعوتها بالحرب الاستعمارية وطالبوا بسحب الجيوش العربية من جبهة فلسطين. ثم أصدرت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي كراسًا بعنوان (ضوء على القضية الفلسطينية)[٢٠] اسهبوا فيه بالحديث عن حق اليهود التاريخي بأرض فلسطين وبالجوانب الإيجابية التي سيجنيها العرب إذا ماخُلقت دولة يهودية هناك. وقد اتخذ الحزب هذا القرار أُسوة ببقية الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية بعد أن أيّد الاتحاد السوفياتي قرار التقسيم وخلق دولة يهودية في فلسطين. وقد اتخذت السلطات العراقية من مظاهرات الحزب الشيوعي والكراس الذي أصدره مطالبين بتأييد المشروع الصهيوني كأدلة ناصعة لخيانة الحزب واستلامه أوامر من جهات أجنبية معادية. غير أنه كان هناك محاولة لإنقاذ فلسطين قامت بها الحكومة العراقية بالتعاون مع القادة السياسيين المناهضين للمشروع الصهيوني داخل الحكومة البريطانية من الذين حاولوا إيقاف خلق إسرائيل حرصًا على مصالح بريطانيا في البلاد العربية والشرق الأوسط وهذه المحاولة هي عقد (معاهدة بورتسماوث) بين العراق وبريطانيا.

ففي يوم ١١/١/١٩٤٨ أصدرت الحكومة العراقية بيانًا بإلغاء معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا، وأن رئيس الوزراء صالح جبر قد وقع معاهدة جديدة دعيت (معاهدة بورتسماوث) نسبة إلى مدينة بورتسماوث البريطانية التي وقعت فيها المعاهدة[٢١]. وقد حصلت شخصيًا على النسخة الأصلية للمعاهدة

٢٠) لقد سنحت لي الفرصة في عام ١٩٥١ أن أقرأ كراس الحزب الشيوعي المعنون (**ضوء على القضية الفلسطينية**) الصادر في عام ١٩٤٧ في موسوعة أصدرتها الدولة العراقية تحتوي على نشرات واعترافات أعضاء الحزب الشيوعي العراقي بعد أن انهاروا تحت التحقيق ويؤسفني عدم تمكني من الاحتفاظ بنسخة من الكراس نظرًا لتقادم الزمن.

٢١) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات، (صيدا، مطبعة العرفان، ١٩٥٥ - ١٩٦١) ج٧، صفحة ٢٣١.

باللغة الإنكليزية من مكتبات لندن بعد أن أطلقتها السلطات البريطانية وأتاحتها للباحثين، فاتضح بأن البندين الثالث والرابع من المعاهدة يتعلقان بتحديد أوضاع الشرق الأوسط بعد أن تنسحب بريطانيا من فلسطين وبقية قواعدها العسكرية هناك، وأن المعاهدة تقتضي دخول الجيش العراقي إلى تلك القواعد والتأسيسات العسكرية ليحل محل جيوش الانتداب للامبراطورية البريطانية المتواجدة هناك منذ الحرب العالمية الأولى والتي كانت على وشك الرحيل، وقد تضمن البندان المذكوران ما يلي[٢٢]: كما يبين النص الأصيل باللغة الإنكليزية للبندين وترجمتهما الحرفية إلى العربية أدناه:

Article 3

In Order that air forces of the High Contracting Parties should attain the necessary efficiency in co-operation with the each other-

i. His Britannic Majesty offers all appropriate facilities at Royal Force air field in the United Kingdom and in any British colony or protectorate administered by the United Kingdom as may be required by the Royal Iraqi Air Force. In Particular, His Britannic Majesty offers to make available to the personnel of the Royal Iraqi Air Force the facilities of the armament training center of the Royal Air Force in the Middle East.

ii. His Britannic Majesty will make available operational units of his forces to engage in joint training operations with the Iraqi Air Force for a sufficient period in each year.

---

٢٢) Iraq No. 1 (1948). Treaty of Alliance between His Majesty in respect of the United Kingdom of Great Britain and Northern Irland and His Majesty the King of... Portsmaouth. 15th January 1948. London: His Majesty's stationary Office

iii. His Majesty the King of Iraq will make available facilities at air bases in Iraq necessary for the purposes of this joint training.

Article 4

a. All Iraqi units at bases in Iraq or in the United Kingdom and any British colony or protectorate administered by the United Kingdom whether stationed or in transit, shall be under Iraqi command.

b. Similarly, all British united shall be under British command.

المادة الثالثة صفحة ٦

أ. يقدم صاحب الجلالة ملك بريطانيا جميع التسهيلات المتطلبة والتأسيسات والدوائر الموجودة في داخل المملكة المتحدة أو في أي مستعمرة أو محمية تحت إدارة المملكة المتحدة حسب طلب القوة الجوية الملكية العراقية.

ب. يجعل صاحب الجلالة البريطانية الوحدات الفعالة لقواته العسكرية جاهزة للاضطلاع بعمليات تدريب مشتركة مع القوات الجوية العراقية سنويًا ولفترات كافية.

ج. يوفر ملك العراق جميع التسهيلات في القواعد الجوية في العراق والمتطلبة لتحقيق هذه التدريبات المشتركة.

المادة الرابعة

أ. جميع الوحدات العراقية المتواجدة في العراق أو في المملكة المتحدة أو في أي مستعمرة أو محمية بريطانية والتي تدار حاليًا من قبل المملكة المتحدة سواء كانت ثابتة أو مؤقتة سوف تصبح تحت إمرة القيادة العراقية.

ب. كذلك فإن جميع الوحدات البريطانية سوف تبقى تحت القيادة البريطانية.

هاتان المادتان استفزتا القوى الصهيونية في إنكلترا وأمريكا والاتحاد السوفياتي والبلاد العربية وبدأت الهجمات تتكثف ضد معاهدة بورتسماوث لأنها تدعو إلى تأسيس مجلس عسكري للدفاع المشترك بين دولة عظمى وهي بريطانيا ودولة عربية وهي المملكة العراقية الهاشمية، مما يتنافى مع فكرة خلق إسرائيل كما أن المعاهدة تهدف إلى استلام الجيش العراقي بدعم من الجيش الإنكليزي لإدارة شؤون فلسطين وبقية المواقع العسكرية في الشرق الأوسط، بينما كانت قوات الهاغانا (جيش الدفاع الإسرائيلي) تتهيأ لملء الفراغ واحتلال فلسطين بعد رحيل بريطانيا من فلسطين.

وهكذا تبدو الأهمية التاريخية لهذه المعلومات والتي كانت ستبدل مصير الشرق الأوسط برمته لصالح العرب. كما يتبين أيضًا وبعد الاطلاع على الملابسات التي أحاطت بتوقيع المعاهدة بأنها قد وقّعَتْ من قبل قوى داخل الدولة البريطانية كانت تحاول الوقوف ضد المشروع الصهيوني حرصًا على مصلحة بريطانيا ولاعتقادها بأنها على المدى البعيد فإن علاقة بريطانيا يجب أن تكون مع البلاد العربية بنفوسها العديدة وأراضيها الواسعة الغنية بالمصادر الاقتصادية الحيوية ولموقعها الاستراتيجي المهم في السياسة الدولية.

كانت الأوساط السياسية في بريطانيا ـ البلد الذي أطلق وعد بلفور الكارثي والذي أصبح الأساس لخلق دولة إسرائيل ـ في تلك الفترة مقسومة إلى فريقين: الفريق الأول مناهض للمشروع الصهيوني ويعتبره مهددًا لمصالح الامبراطورية البريطانية وينادي بالاعتماد على ما كان يدعى بالأوراق البيضاء (White Papers) أو الكتاب الأبيض (White Book) الذي صدر عام ١٩٣٩ والذي قيّد هجرة اليهود إلى فلسطين، وتهدف إلى جعل فلسطين

تحت حكم العرب وأعطى اليهود حكمًا ذاتيًا وحرية التعبد[٢٣] وقد كان وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن على رأس هذه المجموعة. أما الفريق الآخر فقد كان تحت السيطرة الصهيونية بزعامة الصهيوني العتيد ونستون تشرشل الذي كان يكن عداءً عميقًا للعرب، وينعتهم بشتى النعوت ويتهمهم بالتعاون مع أدولف هتلر زعيم ألمانيا النازية وعدو الحلفاء.

كانت الجمعيات الصهيونية تعمل جاهدة على ترسيخ كيانها منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين داخل الامبراطورية البريطانية التي كانت يومذاك في أوج عظمتها الاستعمارية، فتوجه القادة الصهاينة من أمثال حاييم وايزمان وبن غوريون وغيرهما لتوطيد العلاقات مع القادة الإنكليز للحصول على قرارات تخدم المشروع الصهيوني الهادف لاحتلال فلسطين، وكان رئيس الوزراء البريطاني اليهودي بنيامين دزرايلي خير معين لهم[٢٤] وبعد دزرايلي أصبح السير ونستون تشرشل - أحد أقوى الساسة الإنكليز - على رأس المجموعة المؤيدة للصهيونية من أمثال لويد جورج والسير مارك سايكس واللورد آرثر بلفور (صاحب الوعد) والسير برسي كوكس والسير هربرت صاموئيل اليهودي الذي أصبح حاكم فلسطين وقام بدور فاعل في تسهيل هجرة اليهود وتسليحهم ضد العرب. وكان الهدف الأكبر لأولئك الساسة هو كسب التأييد المالي من اليهود والحصول على أصواتهم في انتخابات البرلمان ليتم بذلك اختيارهم إلى الحقائب الوزارية.

أما المجموعة التي عارضت المشروع الصهيوني فكان على رأسها السير رونالد ستروررس (Sir Ronald Strorrs) وهو سياسي وإداري كبير، خدم الامبراطورية كحاكم في عدة مناطق من القارة الأفريقية والشرق الأوسط،

---

٢٣) Carter, Op. Cit. P.4

٢٤) Weintrauh, Stanly, Disraeli: A Biography, (New York: Tally Books, 1993) P.12

وأصبح أثناء الحرب العالمية الثانية حاكمًا للقدس، وكان الرجل ارستقراطيًا مشبعًا بمفاهيم الفروسية ومثقفًا مطلعًا على الحضارة العربية المجيدة ومعجبًا كل الإعجاب بها لما سمعه عن شهامة وكرم وشجاعة العرب البدو، وكان يكن عميق الاحتقار لليهود[٢٥]. وقد ترأس (ستروس) مجموعة من العناصر التي وقفت ضد مطامع اليهود وتهديداتهم وهم (لويس بولز، وهاري لوك، وجون تشاسلر، وأرنست ت. رجموند، وهمفري باومان، وهاري كيث، والسير هارولد مكمايكل، واللورد موين، والسيدة المعروفة جرترود بيل) وقد تعرضت هذه الفئة لتهديدات عنيفة من قبل الصهاينة وجرت محاولة اغتيال (والسير هارولد مكمايكل)، بينما قُتِل (اللورد موين) برصاص عصابة شتيرن الصهيونية التي كان يتزعمها (إسحق شامير) الذي تسنم رئاسة وزراء إسرائيل لاحقًا، وهي نفس العصابة التي قتلت مبعوث الأمم المتحدة للشرق الأوسط الكونت برنادوت ومساعده[٢٦].

عارض أولئك الساسة هجرة اليهود إلى فلسطين وتمسكوا بتعاليم الكتاب الأبيض مخافة تكوين أكثرية يهودية هناك. ولم يكن موقفهم صادرًا من مجرد التأييد المطلق للعرب، بل إنهم كانوا جميعًا مخلصين للامبراطورية البريطانية فقد أرادوا الحفاظ على مصالحهم الوطنية في البلاد العربية. وقد بقيت تلك المجموعة فاعلة ضد المخططات الصهيونية وكثر مؤيدوها وأصبح (السير أرنست بيفن) وزير الخارجية على رأسها بعد الحرب العالمية الثانية، مؤيدًا كذلك من قبل رئيس الوزراء (كلمنت أتلي) وأكد الرجلان ضرورة التمسك بمبادئ الكتاب الأبيض حفاظًا على مصالح بلدهم.

وأكبر دليل على أن أرنست بيفن كان يخطط لربط مصالح بريطانيا مع العرب، هو الحقد العميق الذي يكنه الصهاينة له، وتهجمهم عليه في كل

---

٢٥) Pierre Van Passan, The Forgotten Ally, (New York: Dial Press, 1943) P. 127

٢٦) Ibid, P. 122

كتبهم ووثائقهم التاريخية. فيقول إسحق رابين: «إن حزب العمال كان دائمًا شديد التأييد للصهيونية إلى أن تعيّن أرنست بيفن وزيرًا للخارجية وكان معاديًا شديدًا للصهيونية»[٢٧]. ويتمادى الحاخام (ستيفن وايز) فيصف أرنست بيفن بأنه عدو لدود للصهيونية وللعدالة البشرية[٢٨].

هذا وقد ورد في مذكرات الفيلد مارشال مونتغمري رئيس أركان الجيش البريطاني كمٌّ هائل من التقارير الصحفية التي تثبت معارضة بيفن للمشروع الصهيوني كما جاء فيها وصف لمذابح العرب بيد اليهود، وقال إنه استدعى (أرنست بيفن) وإن بيفن ثار على مونتغمري قائلاً: «إن ثلاثة وعشرين ألف عربي قد ذُبحوا في فلسطين وإن الموقف يعتبر كارثة كبرى وإن الواجب كان يحتم على الجيش البريطاني أن يتدخل ويوقف هذه المذابح التي وضعته في موقف لا يطاق مع جميع البلاد العربية»[٢٩].

هذه التفاصيل الموثقة تؤكد بأن أرنست بيفن لم يكن يضمر العداء أو الاحتقار للعرب، بل كان يهتم بمشاعرهم نحو بريطانيا لأنه كان على اعتقاد جازم بأن مصلحة بلاده على المدى البعيد تتحقق بالتقارب مع العرب وليس مع الصهاينة. وقد بقيت مشاعر العداء والمقت مستشرية عند الصهاينة أجمعين وليس فقط بين زعمائهم ضد أرنست بيفن لعدة عقود بعد وفاته، وبعد خلق إسرائيل كما يتبين ذلك من الوثيقة التاريخية التالية التي كشفتها السلطات البريطانية مؤخرًا وجعلتها في متناول يد الباحثين في تاريخ علاقة بريطانيا مع دول الشرق الأوسط وفيها يصفه الإسرائيليون «بأنه رأس الشر في تاريخ الانتداب».

---

٢٧) Perez, Shimon, For the Future of Israel, (Baltimore: The John Hopkins University Press, 1998) P. 18

٢٨) Ganiu, Zvi, Truman, American Jews and Israel, 1945-1948 (New York: Holmes Pub. Co. 1955) P. 122

٢٩) صالح صائب الجبوري (الفريق): محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية (بيروت، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠) صفحة ١٥٨.

فقد جاء في الرسالة التي تحمل تاريخ ١٥ / كانون الثاني / يناير / ١٩٧٧ والتي بعث بها السفير البريطاني في تل أبيب جي . سي . أم . ماسون إلى السير روجر تومكبس رئيس إدارة الشرق الأدنى وشمال أفريقيا في وزارة الخارجية وشؤون الكومنويلث البريطاني ما يلي : « كانت إحدى الصدمات التي واجهتني منذ وصولي إسرائيل اكتشافي المقت والكراهية اللذين ما زالا يصاحبان ذكرى أرنست بيفن وإن الحكومة البريطانية تحاول أن تخفي بعض الوثائق التي تفضح مدى الشر والخبث الذي كان يتسم بهما بيفن » . بينما يؤكد ماسون في سطور أخرى ما كان يتصف به بيفن من وطنية وإنسانية وعطف واضح للعيان[٣٠] .

وفي الوثيقة نفسها يجيب المستر مارتن فابل من رئاسة الوزراء عن تساؤلات بيتر توماس عضو مجلس العموم في ٧ / كانون الثاني / يناير / ١٩٤٨ وهو يوم ولادة إسرائيل يعتذر فيها من التصرفات المخزية في فلسفة أرنست بيفن (وذلك إشارة إلى معاهدة بورتسماوث) التي كانت تهدف إلى إيقاف خلق إسرائيل وإتاحة المجال للجيش العراقي للدخول والسيطرة على القواعد التي سيخليها جيش الانتداب البريطاني . وفي الوثيقة كذلك يوجد نص يرد فيه المستر هـ . س . أن . هاركومب مسؤول قسم المكتبة والسجلات المتعلقة بالشرق الأوسط عن تساؤلات حركة حيروت الصهيونية التي تطالب بإيضاحات عن سياسة السير أرنست بيفن وخصوصًا موقفه المتشدد في الوقوف ضد هجرة اليهود غير الشرعية إلى فلسطين، بالرسالة التالية[٣١] :

أ ـ تتعلق معظم أوراق مكتب رئاسة الوزراء لعام ١٩٤٨ المتعلقة بفلسطين ـ

---

٣٠) وثائق بريطانية (١٨) جريدة الخليج : العدد ١٠٤٩٧ ، ١٤ / شباط / فبراير / ٢٠٠٨ صفحة ١٦ .

٣١) وثائق بريطانية (١٨) إعداد قسم الترجمة . « درس في الضغط الدبلوماسي (الإسرائيلي) ، الصهاينة يحقدون على أرنست بيفن ويتهمونه بموالاة العرب » جريدة الخليج : العدد ١٠٤٩٧ ، ١٤ / شباط / فبراير / ٢٠٠٨ صفحة ١٦ .

والتي تم إغلاقها ـ وبالهجرة اليهودية غير الشرعية، وقد قام مكتب رئاسة الوزراء بإغلاقها نتيجة لسوء تفسير نصيحة مراجع وزارة المستعمرات في عام ١٩٦٨ تمامًا إثر حرب الستة أيام حين جرت مراجعة أوراق مكتب رئاسة الوزراء لعام ١٩٤٨. ولم يكن المقصود أن تتوسع هذه النصيحة لتشمل السنوات التي تعاقبت بعدها. وللأسف لم تتم مشاورتنا مرة أخرى.

ب ـ لقد طرح اللورد شنويل سؤالاً في مجلس اللوردات لتقديمه الأربعاء المقبل أي يوم غدٍ وحسب فهمي للأمور فإن مسؤول المجلس الاستشاري سيقدم الإجابة في المجلس الصحافي في رئاسة مجلس الوزراء، ودعونا ننظر لما قاله اللورد شنويل:

«إذا كان السيد بيفن يميل إلى تبني موقف العرب فإن هذا لا يجعل منه بالضرورة رجلاً شريرًا، ولقد مكثتُ في فلسطين في فترة ما خلال حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ وكانت فلسطين آنذاك بلدًا عربيًا في الشطر الأعظم من طبيعتها وخصائصها. أما زعم اليهود بأنه بلدهم فهو بالتأكيد إدعاء متهافت هزيل، إن لم نقل إنه زائف وغير شرعي، وذلك استنادًا إلى ضوء تاريخ الألف سنة الماضية أو على الأقل منذ الشتات اليهودي»

١ / شباط / فبراير / ١٩٧٧

هـ. س. أن. هاركومب

هكذا كان موقف الفريق البريطاني المعادي للصهيونية والهادف لخدمة مصلحة بلدهم تحت قيادة السير أرنست بيفن، والذي خطط الأمير عبد الإله وصالح جبر ونوري السعيد والدكتور محمد فاضل الجمالي أن يوقعوا معه معاهدة بورتسماوث التي كانت تهدف إلى تحقيق مصالح العرب بصورة عامة والفلسطينيين بصورة خاصة، وتربط مصالح بريطانيا على المدى البعيد مع العرب بدل إسرائيل.

وحين بدأ بيفن ومجموعته السياسية المناهضة للصهيونية بتحقيق بعض التقدم في إقناع البرلمان بأن مصلحة الامبراطورية تكمن مع العرب وليس مع اليهود، وظهر الكتاب الأبيض الذي يؤيد تلك الآراء، ثم أعلن المستشار الأعلى في فلسطين أن الحكومة البريطانية تعلن وبشكل قطعي بأن ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية، ووافق البرلمان على مسودة معاهدة بورتسماوث، استشاط ونستون تشرشل غضبًا واستنفر النفوذ اليهودي الهائل وجماعات الضغط وصرح قائلاً: «إن العرب لم يفيدونا أثناء الحرب العالمية الثانية في حين أن ٣٣,٠٠٠ يهودي تطوعوا في الجيش البريطاني، بينما لم يشارك معنا سوى تسعة آلاف جندي عربي، فضلاً عن أن مفتي القدس (يعني الزعيم الفلسطيني أمين الحسيني) أعلن بصراحة تأييده لدول المحور»[٣٢]. وقد تناسى تشرشل بهذه التصريحات دور الضباط العرب الذين تحالفوا مع الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى وثاروا على الأتراك وكان لهم الدور الأساس في تقويض الدولة العثمانية وتثبيت النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط، ولكنه بقي متمسكًا بمعتقداته العنصرية المتعصبة. ومن الجدير بالذكر بأنه هو الذي خالف معاهدة لاهاي لعام ١٩٠٧ والتي تحظر استعمال الأسلحة الكيمياوية في الحروب فاستعمل الغازات السامة ضد العراقيين في حقبة العشرينيات من القرن العشرين حين كان وزيرًا لخارجية بريطانيا، وقد جاء في مذكرة سرية قوله: «أؤيد بشدة استخدام الغازات السامة ضد القبائل غير المتحضرة والشعوب البدائية»[٣٣]، وهذا ما يثبت بأن تشرشل كان يضمر الاحتقار للعرب ويدرجهم ضمن الشعوب البدائية التي في رأيه تستحق الإبادة، متناسيًا الحقيقة التاريخية حين كانت بغداد في القرن التاسع للميلاد عاصمة الدنيا

---

٣٢) مامون أمين زكي، مصدر سابق.

٣٣) ستيفن لندمان، برنامج بوش السري للحرب الجرثومية، ترجمة كمال حسين البيطار ومحمد إبراهيم فقير، الخليج: العدد ١٠٦٧٤، السبت ٩/آب/أغسطس/٢٠٠٨ صفحة ١٧.

في العلم والرياضيات والطب والفلسفة، في حين كانت لندن عبارة عن قرية صغيرة متأخرة، وكان الشعب الإنكليزي ذليلاً تحت رحمة قبائل الفايكنج الاسكندنافية التي كانت تعبر البحر إلى شواطئ إنكلترا وتسلب وتنهب الشعب الإنكليزي. وقد لعب السير ونستون تشرشل مستندًا إلى جماعات الضغط اليهودي دورًا أساسيًا في تحجيم القرارات المعارضة للصهيونية، وكان له تأثير مباشر في إسقاط السير أرنست بيفن وإلغاء معاهدة بورتسماوث تمهيدًا لخلق دولة إسرائيل[٣٤].

أما في الولايات المتحدة فقد استجاب الرئيس هاري ترومان لضغوط وأموال الناخبين اليهود في أمريكا واعترف بقرار التقسيم حالاً. هذا وقد تبع اعتراف ترومان مباشرة أن أعلن جوزيف ستالين رئيس الاتحاد السوفياتي بدفع من بقية القادة السوفيات تأييده لقرار التقسيم وخلق دولة يهودية في فلسطين لأن العناصر اليهودية في الحزب الشيوعي السوفياتي أقنعوا حكومتهم بأن إسرائيل دولة ستكون قائمة على مبادئ الماركسية اللينينية، وكان القادة السوفيات يخططون لجعل إسرائيل بمثابة موضع قدم لهم وللحركة الشيوعية في الشرق الأوسط، مما يمثل نجاحًا باهرًا لهم في منافستهم ضد الدول الرأسمالية الغربية التي تهيمن على الشرق الأوسط وتعتبره من ضمن مناطق سيطرتها ومجالها الحيوي الإنكلو-أمريكي. وقد ألقى المندوب السوفياتي في الأمم المتحدة آنئذ السيد أندريه غروميكو خطابًا في الأمم المتحدة مؤيدًا التقسيم وخلق دولة يهودية في فلسطين، وقد كُشف مؤخرًا عن مذكرة داخلية للحزب الشيوعي موقعة في ١٩٤٧/٧/٣٠ من قبل مسؤول الشرق الأوسط في وزارة الخارجية إيفان باكولين تؤكد بأن خطاب غروميكو يشكل موقفًا رسميًا ويدعو للسماح بهجرة مائة ألف يهودي روسي إلى فلسطين[٣٥].

---

٣٤) مأمون أمين زكي، مصدر سابق، صفحة ١٢٢.

٣٥) وديع عواودة، تقرير يتحدث عن ستالين في إنشاء «إسرائيل»، الخليج: العدد ١٠٤١٤، الجمعة ٢٣/تشرين الثاني/نوفمبر/٢٠٠٧.

وأضاف التقرير إن مولوتوف أبلغ نائبه بالتنسيق مع ستالين في ١٥/١٠/١٩٤٧ بضرورة التفاهم مع اليهود في القضايا المهمة وخاصة القدس وأضاف أن الاتحاد السوفياتي مهتم أن لا يشكل العرب أكثرية في إسرائيل والعمل على جلاء بريطانيا من فلسطين[٣٦].

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق هو أن السياسي العراقي المحنك نوري (باشا) السعيد رئيس الوزراء سابقًا والذي أدرك بتجربته الطويلة وببعد نظره السياسي الثاقب بأن ليس من مصلحة العرب أن يعادوا دول الغرب لذلك فقد خطط لمشروع يرمي إلى مساعدة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية كوسيلة لتوطيد العلاقات العربية بدول الحلفاء الذين كان السيد السعيد واثقًا من انتصارهم، لذلك فقد شرع بتجهيز فرقتين عسكريتين كاملتي العدة والعدد ومزودتين بما تحتاجانه من الآلة العسكرية الحديثة وتضمان ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل تحت قيادة العقيد الركن صلاح الدين الصباغ لإرسالهما إلى شمال أفريقيا للمشاركة بالحرب إلى جانب الحلفاء ضد جحافل الفيلد مارشال الألماني روبن روميل لأجل اكتساب خبرة في الحروب الحديثة وذلك ليتسنى له بعد انتهاء الحرب مطالبة الحلفاء باتخاذ قرارات في صالح العرب[٣٧].

كان نوري السعيد سياسيًا إداريًا محنكًا، اكتسب خبرات عملية عميقة وطويلة، فقد شارك في الحرب العالمية الأولى كضابط عثماني، وساهم في الثورة العربية الكبرى، وشهد انهيار الامبراطورية العثمانية وما تبعها من فشل الثورات العربية في مصر وسوريا والعراق ضد المستعمرين الأجانب، مما أكسب سلوكه السياسي طابع الواقعية والرزانة والاعتدال وعدم الاندفاع بتأثير العواطف والشعارات الفارغة الرنانة، وكان ينظر إلى مجرى السياسة

٣٦) المصدر السابق.

٣٧) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة، مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ (تقديم ومراجعة: سمير السعيدي، الرباط، تانيت للنشر، ١٩٩٤) صفحة ١٧٢.

بروح المرح والتخطيط المتفائل وبأن أهداف العرب تتحقق عن طريق اتباع الخطوات المدروسة والمصالح المشتركة وتحكيم العقل في واقع الحال، وكان إلى جانب ذلك كبير الثقة بنفسه وبسياسته وبإمكان التفاهم مع الإنكليز يحدوه أمل عميق بإمكانية إنجاز طموحات العراق والعرب عن طريق التدرج بالمطالب بالإقناع والمصالح المتبادلة وبسياسة ما دعاها (خذ وطالب) . لذلك فقد خطط لمشروع مساعدة الحلفاء ضد قوى المحور أثناء الحرب وعوّل عليه بحماس. إلاّ أن القوى القومية والضباط المتأثرين بالنازية، إضافة إلى قوى اليسار والوسط ثاروا جميعًا عليه ونددوا بخططه واتهموه بالعمالة للإنكليز، وبأنه يهدف إلى أن يضحي بحياة الشبان العراقيين في سبيل خدمة أسياده الإنكليز المستعمرين، مما حدا به للاستجابة مكرهًا لتلك الاحتجاجات ولتلافي الشغب والاضطرابات، وعليه فقد قرر إلغاء فكرة إرسال الفرقتين العسكريتين. وقد دفع العرب بسبب رفض ذلك القرار الصائب ثمنًا باهظًا حين خاضت جيوشهم التي كانت تفتقر إلى التدريب والسلاح الحديث في حرب ١٩٤٨ ضد جنود الهاغاناه الصهاينة الذين اكتسبوا خبرة الحرب الحديثة وهم يقاتلون إلى جانب الحلفاء وتمرسوا باستعمال أحدث أسلحة ذلك الوقت[٣٨].

هكذا سقطت معاهدة بورتسماوث وخُلقت إسرائيل وانطلق الصهاينة يحتفلون في معظم أنحاء العالم ويشيرون إلى تحقيق نبوءتهم بخلق دولة إسرائيل الحديثة في فلسطين بعد ألفي سنة من الشتات. ومن المؤلم أن احتفالات الصهاينة قد واكبت احتفالات جماهير غفيرة في العراق وبقية البلاد العربية ابتهاجًا بسقوط (معاهدة بورتسماوث الجائرة) وهم غير مدركين لمدى الحيف الذي لحق بهم جراء سقوط تلك المعاهدة بحيث يصدق عليهم ما قاله أمير شعراء العرب أحمد شوقي بك حين قال :

٣٨) مامون أمين زكي، مصدر سابق، الصفحات ١٥٩ - ١٦١ .

اســـمــع الـشـعَــب (ديـــون)
كـيــف يـــوحـــون إلـيـــه
مــــلأ الجـــــو هـتـــافًـا
بـحـيـاتَــــيْ قـاتـلــيْـه
أثَّــــر الـبـهــتـــانُ فيــه
وانـطــلــى الـــــزورُ عـلـيـه
يــالــــه مـــن بـبـغــاءٍ
عَــقــلـــهُ فـــي أذنــيـــه

المعارضة والتفكير السياسي الانفعالي

يصف السيد كامل الجارجي في مذكراته تطورات السياسة الخارجية للعراق بعد سقوط معاهدة بورتسماوث عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٥٦، وهي الفترة التي شهد العالم أثناءها تصاعد ما دُعي بالحرب الباردة بين العملاقين الاتحاد السوفياتي رئيس المعسكر الاشتراكي والولايات المتحدة زعيمة العالم الديمقراطي الرأسمالي. ولم يتسن للعراق أن يبقى خارج ذلك الصراع بحكم موقعه الاستراتيجي ووفرة نفطه، ففي ربيع عام ١٩٥٥ وقّع رئيس الوزراء نوري السعيد ميثاق حلف بغداد الذي ضم عدة دول إسلامية وكان مسنودًا من قبل بريطانيا العظمى، وكان الهدف الرئيسي للحلف هو تكوين جبهة ضد الاتحاد السوفياتي، لذا فقد تفاقم الخلاف بين الحركات السياسية التحررية والنخبة الحاكمة في العراق والموالية لبريطانيا، وبدأ بعض السياسيين بالتكتل في نوع من الهيئات المعارضة لنوري السعيد ـ العقل المدبر لحلف بغداد ـ لذلك كان هناك اتجاهان بشأن تأليف المعارضة: الأول يهدف إلى استبعاد الأحزاب التي لا تتماشى مع خط الحكم، والثاني يحبذ التعاون مع جميع الأحزاب.

وكان أبرز الساعين لهذا الاتجاه هو صالح جبر الذي أسقطه الشعب بوثبته العارمة عام ١٩٤٨ . ويقول الجارجي: «كان الاتصال بيننا وبين صالح جبر جاريًا بصورة مستمرة بواسطة سعد عمر».

وهكذا أصبح صالح جبر - عميل الاستعمار - والمسؤول عن إطلاق النار على المتظاهرين عام ١٩٤٨ والذي آمن بصلاح معاهدة بورتسماوث ووصفه الوثبة بكونها (حركة رعناء)، وأنها لم تكن منبثقة من صميم الشعب[٣٩]، أضحى فجأة من ضمن الوطنيين الذين يثق بهم كامل الجادرجي وبقية الأحزاب الوطنية التي تقارع الاستعمار الغربي. ففي الصفحة ٦٦٧ من مذكراته يعترف الجادرجي بأن صالح جبر قد أيد حلف بغداد في بادئ الأمر إلاّ أنه عارضه في مجلس الأعيان لكون الحلف سبب فرقة بين الدول العربية وأدّى إلى انعزال العراق عن الجامعة العربية. أي أن السيد صالح جبر السياسي المخضرم كان مقتنعًا بوجاهة معاهدة بورتسماوث وحلف بغداد وبمنافعهما للعراق، إلاّ أنه قرر أن يغيّر مواقفه نتيجة لاندماجه بما يُدعى في علم النفس الاجتماعي عقلية القطيع (Herd's Mentality) فقد جارى التيار الثوري الهادر الذي اجتاح البلاد العربية كالسيل الجارف بقيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذب هيمن في تلك الفترة على عقلية العناصر الثورية في معظم البلاد العربية والعراق من أمثال كامل الجادرجي وزعماء الأحزاب القومية والحركات اليسارية، واكتسح كل من عارضه واتهمهم بالعمالى للاستعمار والصهيونية، واخضع السلوك السياسي الجماهيري للشعارات الحماسية والأهازيج النابعة من العواطف الجياشة بدلاً من التخطيط البراغماتي المبني على المنطق ودراسة الظروف الداخلية والخارجية ثم تحديد الأهداف البناءة واختيار الوسائل الناجعة والعقلانية التي تحقق تلك الأهداف، ولم يراعِ ظروف العراق وحاجاته الحيوية لتعزيز علاقاته مع دول الجوار الطامعة، لذا فقد كان للرئيس جمال

٣٩) كامل الجادرجي، مصدر سابق.

عبد الناصر دور أساسي ليس في إسقاط حلف بغداد فحسب، بل وفي إسقاط النظام الملكي في العراق بأكمله وإجهاض حركة التطور والإعمار التي كانت قائمة على قدم وساق في العراق على المستويين الداخلي والخارجي.

الفصل الخامس

عهد الأمير عبد الإله (الوصي على العرش)

السياسي الآخر الذي لعب دورًا فاعلاً في توجيه سياسة العراق الداخلية والخارجية هو الأمير الشاب عبد الإله ابن الملك علي الهاشمي الذي لم يكن ينتمي إلى جيل الضباط والمدنيين من العهد العثماني وكانت ثقافته وعقليته أقرب إلى قادة الدول الديمقراطية الغربية. وقد تسنم الأمير عبد الإله الوصاية على عرش العراق بعد وفاة ابن عمه الملك غازي الأول وتتويج ابنه الطفل فيصل الثاني (٤ سنوات) ملكًا على العراق. وقد كان الأمير عبد الإله عهدئذ شابًا في مقتبل العمر (٢٦ عامًا) قليل الخبرة في إدارة شؤون الدولة، ترعرع منذ نعومة أظفاره في العراق بعد أن خسر والده الملك علي عرشه في الحجاز عام ١٩٢٥ ومجيئه إلى العراق ليعيش في كنف مملكة شقيقه الملك فيصل الأول. وفي سني الثلاثينيات تعين الأمير عبد الإله موظفًا بسيطًا في وزارة الخارجية.

منذ بداية تسلمه لوصاية العرش العراقي أحاطت بالأمير عبد الإله ظروف وإشاعات جعلته مكروهًا من قبل عامة الشعب طوال مدة خدمته في الدولة العراقية التي امتدت إلى انقلاب ١٤ / تموز / يوليو / ١٩٥٨ ومقتله ومعظم أفراد العائلة المالكة في ذلك اليوم. وقد انتشرت الإشاعات بأن مقتل غازي كان نتيجة مؤامرة كان الأمير عبد الإله ضليعًا بها، وقد كان غازي معبود الجماهير

لوطنيته وعدائه للإنكليز ولشجاعته وفروسيته. وبعد عامين من وصاية عبد الإله انفجرت حرب عام ١٩٤١ بين الجيش العراقي والامبراطورية البريطانية وهروب الأمير على متن زورق بريطاني وأخيرًا رجوعه إلى وصاية العرش تحت حماية حراب الإنكليز بعد أن انهار الجيش العراقي. كل هذه الظروف ملأت قلوب العراقيين بالشك والكراهية ضد عبد الإله وبدأت الاتهامات تنهال عليه جزافًا بأنه عميل الاستعمار والفاسد، وحُوّر لقب الوصي فصاروا يدعونه (الخصي)، وقد اتهمه البعض في عرضه كما هي عادة الرعاع حين يحدث شجار بينهم متهمين بعضهم بأشنع الاتهامات التي تمس الشرف والعرض.

ولكني وبعد كتابة أطروحتي عن العراق لنيل شهادة الدكتوراه وأثناء جمعي المعلومات لكتابي هذا عثرتُ على تفاصيل تتعلق بالأمير عبد الإله مما جعلني أفكر بتقييم هذا الرجل تقييمًا موضوعيًا علميًا بدون التأثر بما سمعه جيلنا عنه أثناء طفولتنا وباكورة شبابنا. فمن هو الأمير عبد الإله؟

ولد عبد الإله يوم الإثنين الرابع والعشرين من تشرين الثاني / نوفمبر / ١٩١٣ في مدينة الطائف في بيت جده لوالدته نفيسة، الشريف عبد الإله باشا، أمير مكة وعم الشريف حسين بن علي[١] فهو عبد الإله ابن الملك علي بن الملك حسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، فهو ينتمي إلى الأسرة الهاشمية التي يرجع نسبها إلى الإمام الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، وقد حظيتْ عائلته بلقب الأشراف الذي يطلق على أبناء الحسن السبط بينما يطلق لقب السادة على أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب.

حين أعلن الشريف حسين ثورته في الحجاز في حزيران / يونيو / ١٩١٦ المصادف ٩ / شعبان / ١٣٣٤هـ ضد العثمانيين كان الأمير عبد الإله لم يبلغ

١) عبد الهادي الخماسي، الأمير عبد الإله ١٩٣٩-١٩٥٨، دراسة تاريخية سياسية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الرئيسي، ٢٠٠١) صفحة ٣١.

الثالثة. وفي شهر تشرين الثاني/نوفمبر من نفس السنة أعلن حسين نفسه ملكًا على العرب ودام ملكه إلى عام ١٩٢٣ حين انفجرت خلافات بينه وبين آل سعود وهي قبيلة عربية حجازية عريقة وتطور الموقف إلى حرب ضروس استمرت إلى عام ١٩٢٤ كان النصر فيها لآل سعود مما اضطر الملك حسين إلى الهروب مع أهله وتنازله عن العرش لصالح ولي عهده ونجله البكر الأمير علي الذي اعتلى العرش وبذلك أصبح الأمير عبد الإله (١٢ عامًا) ولي العهد[٢]. أي إن عبد الإله هو من أرومة ملكية أبًا عن جد ومن أشرف القبائل العربية.

حرص الملك حسين على تعليم الأمير عبد الإله - كما كانت عادة كبار أشراف الحجاز - بالاستعانة بمدرسين يحفّظونهم القرآن الكريم والفقه الإسلامي واللغة العربية والتاريخ العربي والأوربي ومبادئ الثورة الفرنسية واللغة التركية، التي كانت سائدة عهدئذٍ، تكلمًا وكتابة إضافة إلى اللغة الفرنسية[٣].

وفي بداية عام ١٩٢٦ غادر الملك علي ابن الحسين مملكة الحجاز بعد أن تنازل عن العرش ليحل ضيفًا على شقيقه الملك فيصل الأول ليعيش وعائلته في بغداد[٤]، وكان الأمير عبد الإله في الثالثة عشر من عمره، فترعرع في ربوع العراق في كنف البيت المالك.

بعد وفاة المغفور له فيصل الأول في عام ١٩٣٣ تسنم الملك الشاب غازي (٢١ عامًا) العرش وأصبح يلقب جلالة الملك غازي الأول. وفي سنة ١٩٣٤ تزوج الملك غازي ابنة عمه الأميرة عالية ابنة الملك علي وشقيقة الأمير عبد الإله، وفي عام ١٩٣٥ رزق الزوجان الملكيان الشابان بصبي (أمير) أسمياه فيصل. وكانت تربط الأمير عبد الإله باخته علاقة حب واحترام عميقين، وكذلك اتسمت علاقته مع الملك غازي بالحب العميق والصداقة الوثيقة

٢) فائق الشيخ علي مذكرات وريثة العروش. (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٢) صفحة ٣٠.

٣) المصدر السابق، الصفحات ٣٤-٣٥.

٤) Sydney Nettleton Fishes. The Middle East: A History: 3ed (New york: 1990) P.548

بالرغم من اختلاف مشاربهما وشخصيتيهما فقد كان الملك غازي جسورًا مغامرًا مرحًا محبًا للنكتة و(المقالب) بينما كان الأمير يتصف بالهدوء والوقار والجديّة والتدين(٥).

وكان الأمير عبد الإله في تلك الفترة موظفًا بسيطًا في وزارة الخارجية ويصفه معارفه كالآتي: يقول السيد طالب مشتاق في مذكراته: «أما وقد انتقل الأمير إلى رحمة الله بميتة محزنة، أرى من الإنصاف وأنا أدون أوراق أيامي أن أقول أن هذا الأمير كان في المراحل المبكرة من عمره شابًا وقورًا وهادئًا، يتصف بأخلاق حميدة(٦).

إضافة إلى ذلك فقد كان الأمير حاد الذكاء ويتمتع بذاكرة قوية، شجاعًا، حازمًا وقد أقر بشجاعته وشخصيته القوية رئيس الوزراء أحمد مختار بابان وكذلك السفير البريطاني في بغداد (المستر موريس بيترسون Mr. M. Peterson) حيث يصف الأمير شجاعته الشخصية لا شك فيها قبل وأثناء أحداث عام ١٩٤١ وقد أظهر ذلك حين لم ترهبه المؤمرات العسكرية أثناء سني الثلاثينيات»(٧).

في ٣/نيسان/إبريل/١٩٣٩ لقي المغفور له الملك غازي الأول مصرعه إثر اصطدام سيارته بعمود كهرباء، وقد أحاط ذلك الحادث غموض ولغط وتكهنات التي شغلت بال المؤرخين لعقود تلت. فمنهم من اتهم الملك بأنه كان ثملاً وفي طريقه إلى موعد غرامي، ومنهم من اتهم الإنكليز، إلاّ أن الأكثرية كانوا على اقتناع بأن الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد تآمرا لقتل الملك والتخلص منه. غير إن تلك الاتهامات صدرت من عناصر

---

٥) هكذا تصف الأميرة عابدية ابن عمها الملك غازي وشقيقها عبد الإله وعلاقتهما القوية.

٦) سياسي معروف، أيّد العقداء الأربعة أثناء حرب رشيد عالي عام ١٩٤١ ثم تسنم عدة وظائف وأصبح سفيرًا في وزارة الخارجية.

٧) عبد الهادي الخماسي، صفحة ٣٩.

معادية لهما ولا يمكن الركون إليها لاحتمال تحيّزها وعدم إيجابيتها وصحتها. وبالنظر لعدم وجود دليل مادي قاطع يثبت تفاصيل الحادث فستبقى تلك القضية مثار تأملات وتساؤلات تخمينية فيما إذا كان الحادث نتيجة مؤامرة محبوكة الجوانب، أم وليد القضاء والقدر. وهنا يبرز سؤال بخصوص شخصية الأمير عبد الإله الذي يجمع كل من عرفه ـ كما أسلفنا ـ بكونه شاب قليل الخبرة مهذب دمث الخلق خجول تكونت شخصيته من تركيبة عثمانية وبدوية، كثير المجاملة ومتدين. فهل يمكن لشاب كهذا أن يقتل ابن عمه ويرّمل شقيقته طمعًا في العرش؟ وكيف يطمع بذلك والدستور العراقي يحدد تسلسل المُلك في أبناء الملك فيصل الأول بعده؟ إضافة إلى ذلك فإن الإنكليز لم يغتالوا أحد من الزعماء الذين عارضوهم، وكان الحري بهم اغتيال المهاتما غاندي الذي هدد مصالح الامبراطورية البريطانية بضياع الهند التي هي أكبر مستعمراتها وتعتبر دُرّة التاج البريطاني، وكان التخلص من غاندي أهم بكثير بالنسبة لمصالح امبراطورية بريطانيا العظمى من اغتيال الملك غازي. ثم إذا كان ثمة طموح خبيث وأمل إجرامي لعبد الإله لصعود عرش العراق عن طريق الاغتيالات فلماذا لم يدبر ـ بعدما أصبح ولي العهد ـ اغتيال الملك فيصل الثاني الذي كان يشكو من مرض عضال هو داء الربو وكان يتعرض لنوبات ربوية شديدة وكان من السهولة بمكان أن يدبر الأمير عبد الإله ـ إذا كان بتلك الأخلاق الشيطانية ـ القضاء على الملك الصغير أثناء واحدة من تلك النوبات ويتولى العرش؟ ثم ألا يجدر بنا أن نتفهم شخصية وطباع الملك غازي لنرى إمكانية وقوع حادث لحياته؟. يتفق جميع من عرف الملك بأنه شاب مغامر، لاهي، فارس مقدام، غاية في الشجاعة إلى درجة التهور وكان طيارًا ماهرًا يقوم بالعاب جوية خطرة جدًا[٨]، وتصفه ابنة عمه الأميرة بديعة

٨) كانت شقيقتاي الكبريان، الدكتورة سانحة أمين زكي والمرحومة الدكتورة لمعان أمين زكي صبيتين في مرحلة الثانوية والمتوسطة في سني الثلاثينيات وقد سمعت منهما تفاصيل

قائلة: «اعتادت عالية (أختها الملكة) وغازي على الخروج سويًا صباح أيام الجمعة إلى منطقة (عكركوف) قرب بغداد، يأخذان غدائهما معهما. وهناك يلهو الملك بسيارته على راحته، يصعد التلال بأقصى سرعة ويهبط منها بسرعة قصوى»[٩].

أما في ليلة الحادث المشؤوم، فتقول الأميرة بديعة بأنها كانت جالسة مع أختها الملكة عالية ووالدتيهما «وإذا بسيارة مسرعة جدًا تدخل اقصر». أدركت أختي عالية بأن هذا هو الملك غازي وخرجت لاستقبال زوجها. وطال وقوفها عنده فالتفتت والدتي إليّ وقالت: «بديعة قومي وانظري ماذا حصل، ولماذا تأخرت عالية عند غازي؟». وتستمر بديعة قائلة «خرجت فرأيت الملك واقفًا إلى جانب سيارته ومعه عبده «عيد» وشخصين آخرين يعملان في الإذاعة وأختي عالية. وكان الملك «شاربًا»، أي ثملاً، يصيح بأعلى صوته منفعلاً يتناهى صدى كلماته إلي، يصرخ بوجه الآخرين ويوبخهم ويشكو للملكة من جهل العاملين في الإذاعة وغبائهم لأنهم لا يستطيعون أن يضعوا حدًا للأخطاء الفنية والأعطال المتكرر، فثمة خلل فني اعترض الإذاعة تسبب في عطلها وتوقف الإرسال ولم يتمكن الفنيون من إصلاحه بشكل تام[١٠].

كان الملك غازي يهتم بإذاعة قصر الزهور اهتمامًا كبيرًا فقد كانت شغله الشاغل فكان يذيع منها شخصيًا مهاجمًا سياسة بريطانيا في العراق ومداهنًا ألمانيا النازية والشرق الأوسط ومداعيًا بحقوق الشعب الفلسطيني ومؤيدًا حركات الفلسطينين ضد الصهاينة ومداعيًا بحق العراق في الكويت. لهذه الأسباب كان الملك غازي غاضبًا لتعطل إذاعته.

الألعاب الجوية التي كان يقوم بها الملك غازي في سماء بغداد بطائراته المسماة (النسر الذهبي) بينما الناس تصفق وتهلل على سطوح المنازل وفي الشوارع إعجابًا بمليكهم البطل.

٩) فائق الشيخ علي، المصدر السابق، صفحة ٩٧.

١٠) نفس المصدر.

نعود إلى كلام الأميرة بديعة عن ليلة الحادث فتقول «بعد خمس دقائق عادت الملكة عالية إلى مقعدها، وما هي إلاّ لحظات وإذا بالملك غازي ينطلق بسيارته انطلاقة جنونية، باتجاه قصر الحارثية وإلى جانبه العبد عيد فقط سمعنا صوت السيارة ودويها ونحن جالسون في السينما. وما هي الاّ ثوان، وإذا بصوت اصطدام مروع تصطك منه الآذان، ألحقه اصطخاب مدوٍ صاحب وميضًا خاطفًا، انقطعت على إثره الكهرباء وخيّم الظلام على المكان».

فهبت الملكة عالية والأميرة بديعة وشقيقهما الأمير عبد الإله بعد أن اتصلوا به وتوجهوا نحو مكان الحادث حيث كان الملك غازي مسجى ومصاب إصابة بالغة في رأسه وقد فارق الحياة على إثرها.

فانطلقت الإشاعات بعد ذلك بأن العبد عيد هو الذي ضرب الملك بفأس على رأسه وما حادثة السيارة إلا مفبركة، وبأن عيد قد قُتل بعد ذلك لأجل إخفاء الجريمة. وهنا تقول الأميرة بديعة بأن عيد كان قد جاء مع الملك من الحجاز وتربى في البيت الملكي وتزوج وأنجب ولدًا وبنتًا وبقي مع زوجته في خدمة العائلة المالكة وظل حيًا إلى عام ١٩٥٨ [١١].

إلا إن أصابع الاتهام بقيت موجهة نحو الأمير عبد الإله باعتباره طامعًا بالعرش وعميلاً للاستعمار الإنكليزي مع شريكه «عميل الاستعمار الأكبر» نوري السعيد وبقي الكثير من الناس على اقتناع تام بأن غازي، الملك الوطني القومي وعدو الإنكليز والصهيونية ومحبوب الجماهير، قد قُتل نتيجة تآمر الرجلين المذكورين[١٢]. وقد كانت تلك الإشاعات أحد الأسباب الأساسية لكراهية الشعب العراقي والعربي العميقة للأمير عبد الإله ونوري السعيد والنظام الملكي عمومًا.

---

١١) نفس المصدر.

١٢) صلاح الدين الصباغ فرسان العروبة: مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ (الرباط: تانيت للنشر ١٩٩٤) صفحة ١١١.

بعد ما يقارب السنتين من مقتل غازي في عام ١٩٤١ شهد العراق تطورات سريعة وعنيفة فقد انسحق الجيش العراقي بعد أن حارب ببسالة ضد قوات بريطانيا إلا أن القادة الأربعة هربوا من الميدان والتجأوا إلى إيران وهرب رئيس الوزراء رشيد عالي الكيلاني إلى ألمانيا النازية، بينما رجع نوري السعيد وبقية النخبة الحاكمة، ورجع الأمير عبد الإله إلى وصاية العرش تحت حماية الحراب الإنكليزية(١٣) مما عمق كراهية الشعب للأمير واتهموا كل من له علاقة بالعهد الملكي بالعمالة للاستعمار الإنكليزي.

وبعد أن ألقي القبض على العقداء الثلاثة محمد فهمي سعيد ومحمد حسن سلمان وكامل شبيب والمحامي النائب يونس السبعاوي حَكَمتْ عليهم المحكمة العسكرية برئاسة الضابط مصطفى راغب بالإعدام شنقًا حتى الموت، وبنفس الحكم غيابيًا على العقيد صلاح الدين الصباغ(١٤)، للأسباب التالية:

١. قاموا بانقلاب عسكري وسيطروا على الحكم.
٢. قوضوا الدستور العراقي بعزلهم رئيس الدولة وتعيين غيره اعتباطيًا وبدون اتباع الطرق التي تقتضيها قوانين البلاد.
٣. حاصروا المؤسسات الحكومية وحاولوا إلقاء القبض على رئيس الدولة ورجالها.
٤. شنوا حربًا غير متكافئة ضد دولة عظمى مما أدّى إلى سحق الجيش العراقي ومقتل الألوف من مراتبه ووقوع أضرارًا جمة في النفوس والممتلكات.
٥. فروا من ميدان القتال وتركوا جنودهم يقاتلون بدون قيادة تحت وابل نيران العدو.

قد تكون أي من هذه الأسباب كافية قانونيًا لصدور حكم الإعدام بحق

---

١٣) عبد الهادي الخماسي المصدر السابق، الصفحات ١٥٤-١٥٧.

١٤) صلاح الدين الصباغ. مصدر سابق. صفحة ٣٢١.

الذين قاموا بها. إلا أن حركة العقداء الأربعة ضد بريطانيا حازت على تأييد شعبي عارم داخل العراق ومن معظم الشعوب العربية. حتى الملك فاروق ملك مصر الذي كان المفروض به أن يساند النظام الملكي العراقي لكونه يشابه نظام حكمه إلا إنه أيد حركة الجيش العراقي بسبب كراهيته للاستعمار الإنجليزي وتأييده للألمان فاتُهم بالنازية(١٥). وهنا واجه الأمير عبد الإله وضعًا غاية في الصعوبة. فقد كان على علم بكراهية الشعب له بعد وفاة الملك غازي. كذلك كان يدرك التأييد الشامل من قبل الرأي العام العراقي للضباط الأربعة الذين أصبحوا أبطالاً يجلهم الشعب لانتفاضتهم ضد الاستعمار البريطاني وأعوانه. لذلك فقد اقترح العديد من الوزراء وأعضاء النخبة الحاكمة، وحتى ابن عمه الأمير عبد الله حاكم الأردن، على الأمير عبد الإله أن يتدخل ويخفف أحكام الإعدام لكي يعزز مكانته ويحسن صورته أمام الشعب العراقي. إلا إن الأمير وقّع الأحكام ونُفِذَ الإعدام بالمتهمين الأربعة عام ١٩٤٢، فذهبوا شهداء عقيدتهم ووطنيتهم. ومما صب الزيت على نار عداء الشعب ضد الأمير المجيء بصلاح الدين الصباغ، بعد أن ألقي القبض عليه، مخفورًا وهو بحالة مزرية من الفقر والمرض وطلب مواجهة الأمير، وقد تأمل العديد من الناس أن يعفو الأمير عن صلاح نظرًا لتقادم الحرب ومرور الزمن إلاّ إن الأمير لم يتزحزح ونُفذ حكم الإعدام بالعقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ في عام ١٩٤٥ (١٦). في الواقع يعتبر الكثير من المؤرخين بأن عبد الإله قد أصدر حكم الإعدام على نفسه وعلى العهد الملكي بسبب توقيعه لإحكام الإعدام تلك.

بينما يذهب مؤرخون آخرون بأن الأمير لم يتجاوز صلاحيته الدستورية بل احترم قرار القضاء وقوانين الجيوش في العالم ووقع قرارات المحكمة استنادًا

١٥) مجيد خدوري: «عزيز علي المصري»، آفاق عربية ١١ / ٢٠، توز ١٩٧٨.

١٦) علي محمود الشيخ علي، مذكرات علي محمود الشيخ علي: وزير حكومة الدفاع الوطني في وزارة رشيد عالي الكيلاني الأخيرة سنة ١٩٤١. تحقيق وتعليق الدكتور محمد حسين الزبيدي. (بغداد - دار واسط للطباعة والنشر، ١٩٨٥) صفحة ٢٨.

على البراهين التي أثبتت بشكل قطعي ضلوع المتهمين بتمرد عسكري ضد الدولة وتسببوا بخسائر كبرى في الأرواح والأموال وإن العقوبة القانونية لمثل هذا السلوك هي الإعدام.

والجدير بالذكر هنا هو إن الأمير لم يلبث أن عفا عن بقية الضباط الذين شاركوا في الحرب وتمردوا على الدولة وأمر بإرجاعهم إلى مراكزهم برتبهم وأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر قصة ضابط عُرف ببسالته وشجاعته هو سليم الفخري الذي ولد في الموصل عام ١٩٢٠ وكان أثناء حرب ١٩٤١ ملازمًا ثانيًا وقد التقيته في عام ١٩٨٢ في لندن ـ بريطانيا وجرنا الحديث إلى تلك الأحداث فأخبرني بأنه استلم مسؤولية قيادية في معركة سن الذبان بعد أن هرب القادة الكبار وبقي يقاتل إلى أن وقع في الأسر واستلمته السلطات العراقية ثم فُصل من الجيش، إلا أنه أُرجع بعد ذلك بموافقة الأمير ونوري السعيد ودخل كلية الأركان وتخرج فيها برتبة (كابتن) نقيب ركن وبقي في الجيش إلى أن فُصل ثانية لانتسابه للحزب الشيوعي العراقي الذي كان ينادي بإسقاط الحكم الملكي[١٧].

أما الموظفين الذين فصلوا بسبب مؤازرتهم لحركة العقداء الأربعة فقد وافق الأمير عبد الإله على إرجاعهم إلى وظائفهم، وقد تسنم عدد منهم مراكز وزارية وسفارات[١٨]. ولكن هذه القرارات الرحيمة التي أراد الأمير أن يدلل بها على رحابة صدره وغفرانه لم تقلل مشاعر كراهية الشعب ضده وبقي الرأي العام العراقي بمثقفيه وعوامه ينظر نحو الأمير نظرة شك بكونه رجلاً لئيمًا وشريرًا كما يبين الحديث الآتي الذي جرى عام ١٩٥٢ في نيويورك، الولايات المتحدة مع السيد عطا عبد الوهاب الذي كان يومئذ موظفًا في مكتب العراق

١٧) هذه المعلومات مستقاة من عائلة الدملوجي التي يمت إليها المرحوم سليم الفخري بصلة قرابة إضافة إلى صداقته الوطيدة مع المرحوم الدكتور سالم فاروق الدملوجي.

١٨) موسى الشابندر: ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال (لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٣) الصفحات ٤٧٥ ـ ٤٧٦.

الدائم في الأمم المتحدة وبين الأمير عبد الإله الذي كان برفقة الملك فيصل في زيارة لأمريكا، وكان عبد الإله وعطا قد اجتمعا بطلب من الأمير لتناول العشاء في أحد المطاعم وكان الأمير يستطلع آراء الشباب العراقي نحوه: يقول السيد عطا في تلك الليلة تبسط الأمير في أحاديثه وكان يحب رواية ذكرياته عن أيام صباه في الحجاز، وعن الملكة عالية، شقيقته أم الملك فيصل، وكانت قد توفيت قبل سنتين وهو لا يذكرها إلا وتترقرق في عينيه الدموع (هذا هو الرجل الرقيق الإحساس اتهم بمقتل ابن عمه ورفيق صباه الملك غازي الأول، وبترمل شقيقته الملكة عالية التي يكن لها أعمق الحب الأخوي) ويقول السيد عطا بأن الأمير سأله فجأة: ما هو رأيكم بي أنتم الشباب ـ كان السيد عطا في حوالي السادسة والعشرين ـ فأجاب عطا فورًا وبدون تردد: نحن نعتقد إنك إنسان لئيم[19]. فاحتد الأمير قائلاً: أنا لئيم؟ لو كنت لئيمًا فكيف أوافق على تعيين موسى الشابندر سفيرًا للعراق في واشنطن؟ (كان الشابندر وزيرًا للخارجية في حكومة رشيد عالي الكيلاني أثناء حرب ١٩٤١، وبعد خروجه من السجن أعيد إلى السلك الخارجي وعين وزيرًا مفوضًا في الشام ثم نقل سفيرًا إلى أمريكا). واستمر الأمير يردد: أنا لئيم؟ كيف إذن أعيد جماعة رشيد عالي المشتركين في حوادث ١٩٤١ إلى الوزارة؟ (وكان الأمير يقصد علي محمود الشيخ ومحمد علي محمود، وموسى الشابندر ومحمد حسن سلمان وغيرهم ممن سجنوا بعد الحرب ثم عادوا إلى الخدمة وتولوا حقائب وزارية مختلفة)[20]. فأجاب السيد عطا: أنت سألتني ما هو انطباعنا نحن الشباب فأجبتك بصراحة.

وهنا أود أن أتساءل لو أن موظفًا صغيرًا اتهم مواجهة رئيس الدولة في أي

---

١٩) عطا عبد الوهاب: الأمير عبد الإله: صورة قلمية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١) صفحة ٢٨.

٢٠) عطا عبد الوهاب: سلالة الطين: سيرة مأساة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤) صفحة ٢٥٨.

عهد من العهود التي مرت على العراق سواء قبل العهد الملكي على سبيل المثال السلطان عبد الحميد الثاني أو أي رئيس دولة جاء بعد انقلاب ١٩٥٨ ابتداءً من الزعيم عبد الكريم قاسم إلى الرئيس صدام حسين، فما الذي كان حصل لذلك الموظف؟ أو هل كان ذلك الموظف حتى يتجرأ بمثل هذا الاتهام؟

ويستمر السيد عطا عبد الوهاب واصفًا ذلك اللقاء قائلاً «كنت أظن إن غضبه سيتفاقم، ولكنه طوى ذلك الحديث سريعًا وعاد إلى تبسطه وفكاهاته وذكرياته. وكانت ليلة لطيفة».

وهنا بدأ السيد عطا يسأل نفسه ويراجع الصورة النمطية السلبية التي كونها هو وجيله من الشباب وآمن بها معظم الشعب العراقي عن الأمير كونه قاتلاً، فاسدًا، شريرًا.... الخ من الصفات المنحطة، فيرجع إلى صدر شبابه ويقول إنه ينتمي إلى مجموعة من الغلاة في بغداد (يعني الحركات السياسية اليسارية) وكانت تلك المجموعة على اعتقاد جازم بأن عبد الإله تآمر لكي يعتلي العرش وأنه لا يعرف من شؤون الدنيا إلا ملذاته حلالها وحرامها، وأنه ألعوبة طيعة بيد الغير (أي نوري السعيد والاستعمار الإنجليزي). ويستفيض السيد عطا في تفاصيل ذكرياته فيقول «كنا نصب غضبنا من أوضاع الوضع العام على رأسه. لذلك حين تخرجنا من كلية الحقوق سنة ١٩٤٤ ودعينا إلى حفلة التخرج لم نحضرها نحن الغلاة لأن هذا الذي نكرهه هو الذي يسلمنا شهاداتنا العلمية»[٢١].

أما بالنسبة للملك فيصل الثاني فيصف الصورة التي حملها وجيله من الغلاة عنه فيقول أنه كان على اعتقاد بأن الملك عبار عن صبي غرّ، مغلوب على أمره وقد لا يرى اليوم الذي يتوج به. ولكن حين التقى السيد عطا الملكَ الفتي مع خاله في نيويورك عام ١٩٥٢ يقول بأنه وجد فيصلاً شابًا ذكيًا متعلمًا ذكيًا، دمثًا، بسيطًا، سريع البديهة، متفتح الذهن وممتلئًا بآمال الخدمة

---

٢١) المصدر السابق، الصفحات ٢٥٦ - ٢٥٧.

العامة، رياضيًا ويهوى المطالعة . أي فتىً كفؤًا ومحبوبًا . ويقول السيد عطا بأنه عجب من نفسه كيف كان يصدق الأراجيف وما تلوكه عنه الألسن فترميه بالغباء وانعدام الشخصية والعجز[٢٢] . في الواقع كان الملك فيصل الثاني يتهيأ لاستلام العرش ولتزعم كوادر جديدة من القيادات الشابة التي كانت ستدفع العراق نحو التقدم والرفاه والعصرنة .

الأمير عبد الإله رجل الدولة

إن أهم صفة امتاز بها حكم الأمير عبد الإله هو التزامه بأحكام الدستور والقوانين، وعدم استبداده في أي فترة من فترات حكمه الذي استمر من تسنمه الوصاية على عرش العراق بعد وفاة المغفور له الملك غازي الأول في عام ١٩٣٩ ، وحتى يوم بلوغ الملك فيصل الثاني السن القانونية وتتويجه على العرش في ربيع عام ١٩٥٣ ، وما بعد ذلك حيث بقي الأمير يلعب دورًا هامًا في سياسة العراق الداخلية والخارجية حتى يوم مقتله في انقلاب ١٤ / تموز / يوليو / ١٩٥٨ . فقد بقي يتشاور مع نواب وأعيان البرلمان ورؤساء الأحزاب المعارضة كالسيد كامل الجادرجي، رئيس الحزب الوطني الديمقراطي والسيد محمد مهدي كبّة، رئيس حزب الاستقلال ويستمع إلى آرائهم وينفذها . وبذلك فقد اتبع الأمير خط أسلافه من الهاشميين الذين حكموا العراق فلم يستبد الملك فيصل الأول ولا ابنه غازي بصناعة القرار بل بقوا على اتصال دائم بالوزراء وأعضاء البرلمان وأقطاب السياسة في تقرير السياسة الداخلية والخارجية للعراق .

وقد اتُهِم الأمير بزيادة صلاحياته الدستورية بعد حرب ١٩٤١ مما أثار تذمر نواب المعارضة والعديد من السياسيين وانتقادات وسائل الإعلام، واتهموه

٢٢) نفس المصدر السابق.

بتعريض الديمقراطية للخطر وخنق الحريات[٢٣].

إلا إنه يبدو للمتتبع لتاريخ العالم بأن الأمير عبد الإله لم يكن الحاكم الوحيد الذي اضطُر لتوسيع صلاحياته الدستورية لأجل مواجهة ظروف صعبة طارئة ولم يكن العراق الدولة الوحيدة التي شهدت مثل هذه الممارسات. إذ إن قرارات زيادة أو تقليص سلطات الهيئات التنفيذية والتشريعية قد مورست في أكثر البلدان الديمقراطية عراقة إذا اقتضت الحاجة، فعلى سبيل المثال أن الجنرال شارلس ديغول الذي لم يوافق على ترشيح نفسه لرئاسة جمهورية فرنسا في أواسط الخمسينيات من القرن العشرين إلاّ بعد موافقة البرلمان على زيادة سلطات الهيئة التنفيذية بعد أن ابتلت فرنسا بالفوضى والاضطرابات لعدة عقود. فقد سقطت الجمهورية الثالثة (١٨٧٠ - ١٩٤٠) تحت احتلال ألمانيا النازية وعميلتها حكومة فيجي برئاسة الجنرال هنري بيتان، وفقدت استقلالها، ثم حررها الحلفاء عام ١٩٤٤، وفي عام ١٩٤٦ ولدت الجمهورية الرابعة التي اتصفت بالعنف والانحلال، وبدأت فرنسا تفقد مستعمراتها وتعرضت لخسائر عسكرية في فيتنام والجزائر مما حدا بالجنرال ديغول - الضابط الذي تعامل مع الحلفاء وقاد حركات المقاومة ضد الاحتلال النازي وحكومة فيجي - بعد أن انتخب رئيسًا للجمهورية الخامسة أن يطالب بزيادة سلطات مركز الرئاسة لأجل بسط هيمنة الدولة والتخلص من عدم الاستقرار الذي زعزع البلاد لفترة طويلة بسبب الصراعات والمهاترات الحزبية داخل البرلمان والتي شلت قدرة الحكومة على إمرار القرارات. وهنا تخطرني نظرية في الفيزياء اقتبسها علماء السوسيولوجيا تدعى نظرية الإنثروبي (Enthropy) تذهب إلى القول بأن أي نظام يتكون من أعداد كبيرة من الأجزاء المتناقضة يميل إلى الفوضى ويتجه نحو الانحدار ما لم يتدخل عامل خارجي قادر على

---

٢٣) Zaki, Mamoon Amin Social Change in Iraq: Role of The Power Elite. Unpublished Ph.D. Thesesis. (Calgay, 1981) P. P175-176

إعادة توازن وتناسق أجزاء ذلك الجهاز وجعله مهيئًا لإنجاز أهدافه. وفي أثناء الجمهوريات الثالثة والرابعة كانت فرنسا نموذجًا واضحًا لنظرية الإنثروبي فقد كان البرلمان يعج بالأحزاب المتنافسة التي كانت تهدف لتحقيق أهداف حزبية ضيقة بدلاً من خدمة المصلحة العامة، فسادت الفوضى في البلاد وأصيبت الجهات الإدارية والسياسية بالإحباط وشعروا بضرورة تدخل عامل خارجي قوي لمعالجة الأوضاع فالتجأوا إلى الجنرال القوي شارلس ديغول الذي يتمتع بشخصية كارزمية وشعبية واسعة والتمسوه للتدخل وإنقاذ الموقف. وفعلاً تمكن الجنرال ديغول أن يلعب دور ذلك العامل الخارجي بقيادته وبنتيجة السلطات الإضافية التي حصل عليها حسب دستور عام ١٩٥٨ الذي حدد أُطُر الجمهورية الخامسة فتمكن من تحقيق الاستقرار والتخلص من ورطة فرنسا في حرب الجزائر، فشهدت فرنسا فترة ازدهار اقتصادي وسياسي واضح لعدة سنين[٢٤]. يستنتج من هذه المعلومات إن تعديل الدساتير على أسس منطقية وبناءة وإعادة توزيع السلطات وارد حتى في البلدان الديمقراطية العريقة حسبما تقتضيه مصلحة البلاد.

كذلك في العراق فإن الأمير عبد الإله، بالرغم من اكتسابه سلطات إضافية فإنه لم يستبد بصناعة القرار مطلقًا بل أصبح عامل موازنة بين النخبة الحاكمة وأبقى الممارسات الدستورية ثابتة. ففي خطاب العرش الذي ألقاه الأمير أمام مجلس الأمة في ٢٧/١٠/١٩٤٥ استعرض في بدايته التطورات التي مر بها العراق منذ وفاة الملك غازي، مرورًا بحرب رشيد عالي في عام ١٩٤١، والحرب العالمية الثانية، وتهديد دول المحور للعراق ومصادر نفط الشرق الأوسط مما استلزم «استعدادات خاصة لضمان سلامة القطر» وغيرها من المشاكل اقتضت المسؤولين في حينه غلى تأجيل مشاريعهم الإصلاحية، ثم لتحديد

٢٤) Charles Hauss, Comparative Politics, 4th edition (Belmont: Thomson Wadsworl, 2003) P.P 116-117

مقومات سياسة العراق بعد الحرب العالمية. فأكد «من حيث الكيان السياسي، فإن الدولة العراقية ملكية، ديمقراطية، حرة، مستقلة» وإن سياستها هي امتداد لسياسة الملك فيصل الأول، وبعدها حدد الأركان الثابتة لهذا التوجه السياسي المستقبلي للدولة بثلاث ميزات هي «الصيانة الاجتماعية والعدل الاجتماعي وإعداد جيل من الخلف الصالح يتولى أعباء الحكم والمسؤوليات. أما بخصوص الأحزاب السياسية الوطنية، التي لم يعد يصح بقاء البلاد خالية منها، ستتقدم إلى الأمة بخططها ومناهجها في معركة الانتخابات، فمن يفوز على سواه بثقة الشعب وتأييده، اضطلع بالحكم ونهض بمسؤولية تنفيذ تلك السياسة الوطنية على طريقته الخاصة الموضحة في مناهجه»[٢٥].

كان خطاب العرش للأمير عبد الإله مليئًا بالتفاؤل ويبشر بمستقبل أفضل، وبالتطور التدريجي الرصين نحو الانفتاح على الجهات الشعبية والأحزاب الوطنية. ولكن هل أرضى الخطاب الرأي العام؟ كلاّ مع الأسف فقد تعرض للكثير من الانتقادات اللامنطقية فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد غالا السيد محمد صديق شنشل، الذي كان أحد أقطاب الدعاية لحركة رشيد عالي عام ١٩٤١، وشكك بالخطاب قائلاً بأن الإنكليز هم الذين كتبوا الخطاب ثم ترجم إلى اللغة العربية[٢٦]. ولا أدري هنا كيفية تعليل هذا الرأي فهل عدم العراق كُتّابًا ولم يعد يوجد أحد من حاشية الأمير ممن تمكنوا من كتابة خطاباته باللغة العربية إذا عجز هو نفسه عن ذلك بحيث يضطر إلى اللجوء إلى الإنكليز لكتابة خطاباته؟ أم إن ذلك الانتقاد عبارة عن محض تأجيج لمشاعر غوغائية الغرض منها النيل من الأمير والحكومة بصورة عامة؟ فلو أن الأمير لم يتطرق لتلك المفاهيم الجديدة لما سلِمَ من الانتقاد ولاتُهِمَ بالجمود والرجعية وعدم تفهم لمقتضيات السياسة الحديثة للعراق. وهنا يحضرني مثل

٢٥) عبد الهادي الخماسي مصدر سابق صفحة ٢٣١.

٢٦) المصدر السابق.

قديم قائل «سأكون ملعونًا إذا فعلت، وسأكون ملعونًا إذا لم أفعل».

وفي عام ١٩٤٦ أراد الأمير تطبيق سياسته التي أشار إليها في خطابه أعلاه فاختار لرئاسة الوزارة السيد توفيق السويدي، السياسي الليبرالي وخريج جامعة السوربون في باريس والذي سمح حسب أوامر الأمير بإطلاق الحريات لإنشاء الأحزاب السياسية فتقدمت ستة فئات بالطلبات، فسمح لخمسة أحزاب بالشروع بالعمل السياسي ورُفض طلب حزب التحرر فقط بعد أن ثبت كونه واجهة طلابية للحزب الشيوعي العراقي السري وغير الشرعي. هذا وقد دخل في تلك السنة ستة نواب يهود للبرلمان[٢٧].

أما في عام ١٩٤٨ فقد ألغت الحكومة العراقية معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا ووقعت حكومة رئيس الوزراء صالح جبر معاهدة بورتسماوث التي استنفرت الشعب العراقي وانطلقت المظاهرات العارمة بما دعي (بالوثبة) في طول البلاد وعرضها احتجاجًا ضد المعاهدة مما حدا بالأمير عبد الإله لعقد عدة اجتماعات مع أعضاء مجلس النواب والأعيان وجميع رؤساء الأحزاب، وبعد أن أدرك معارضة الشعب والأحزاب للمعاهدة قرر الركون إلى إرادة الرأي العام وألغى المعاهدة[٢٨]، بالرغم من اعتقاده بصحتها وفائدتها للعراق. وقد شهد العراق بعد مظاهرات الوثبة عام ١٩٤٨ فترة استقرار نسبي ولكن في شهر

---

٢٧) جعفر عباس حميدي: التطورات السياسية في العراق (النجف: مطبعة النعمان ١٩٧٥) صفحة ٥٤١.

في مساء يوم ٢١/١/١٩٤٨ اجتمع الوصي في البلاط الملكي مع أعضاء الوزارة بما فيهم جمال بابان وكيل رئيس الوزراء وبعض رؤساء الوزراء السابقين أمثال جميل المدفعي وحكمت سليمان (رئيس وزراء انقلاب بكر صدقي العسكري، والمعارض العنيد لنوري السعيد) وحمدي الباجحي وأرشد العمري وممثلو أحزاب المعرضة ومنهم كامل الجدرجي (الوطني الديمقراطي) ومحمد مهدي كبة (الاستقلال) وعلي ممتاز الدفتري، وأعضاء من البرلمان هم نصرت الفارسي، ورضا الشبيبي وجعفر حمندي وبعض الأعيان ومنهم محمد الصدر، ومصطفى العمري، وداود الحيدري، وعبد المهدي وبعض النواب من أمثال مولود مخلص ونجيب الراوي.

٢٨) جعفر عباس حميدي. مصدر سابق. الصفحات ٧١٢-٧١٥.

تشرين الثاني/نوفمبر/١٩٥٢ حدث شغب في كلية الصيدلة وانتشر الخبر إلى الجهات الشعبية واستغلته الأحزاب المعارضة خصوصًا الحزب الشيوعي فاندلعت مظاهرات عارمة لا تقل عنفًا عن مظاهرات وثبة ١٩٤٨ (٢٩). وكنت في تلك السنة قد بلغتُ مرحلة المراهقة فشاركتُ في التظاهرات والاصطدام مع الشرطة. وكانت خلاصة القضية هو أن أحد التلاميذ في كلية الصيدلة أهان تلميذة فتدخل شقيقها لحمايتها. بعد ذلك جيء برجال شقاة واعتدوا على شقيق التلميذة مما حدا بطلبة كلية الصيدلة إلى الإضراب لتجرؤ أولئك الشقاة على تجاوز حرمة الكلية فاستغل الحزب الشيوعي الذي كان جاهزًا لتصعيد أي موقف مهما كان تافهًا فنظم اعتصامًا داخل كلية الصيدلة ثم انطلقت المظاهرات في الشوارع وانظم لها أعضاء ومؤيدوا جميع الأحزاب والحركات المناهضة للدولة والتي اكتسبت اسم (الجبهة الشعبية المتحدة) التي كانت تضم الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وجمعية أنصار السلام وغيرها، وانتشر العنف إلى بعض المدن الأخرى بهيجان شعبي لا يقل عما حصل في وثبة عام ١٩٤٨، ولم أزل أتذكر كان ثمة تساؤل (ما هي أهداف المظاهرة وما هي شعاراتها) أي أن معظم الذين شاركوا في المظاهرات لم يعرفوا الهدف من هذا الهدير العارم من السخط، وكانت قضية تلاميذ كلية الصيدلة قد طواها النسيان تحت زخم العنف الشعبي الذي قارب أن يكون ثورة جماهيرية. وبعد التداول وصَلَنا الخبر بأن الشعار الأساسي هو مطالبة الجماهير بتعيين السيد كامل الجادرجي لرئاسة الوزراء(٣٠) واستمر العنف يتزايد وسقط قتلى وجرحى من الشرطة والمتظاهرين وتعالت الهتافات بسقوط لانظام الملكي(٣١) وفلت الأمن من يد قوات الشرطة مما اضطر الحكومة أن تلجأ

---

٢٩) ذكريات المؤلف. انظر أيضًا المصدر السابق صفحة ٧٢٢.

٣٠) كامل الجادرجي، مذكرات كامل الجادرجي : وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي (بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ١٩٧٠) صفحة ٥٧١.

٣١) نفس المصدر، صفحة ٥٧١.

إلى الجيش فنزلت المدرعات إلى شوارع بغداد وأعلنت الأحكام العرفية فبدأ الهدوء يستتب وانتهت المظاهرات عام ١٩٥٢ بما دعيت بالانتفاضة(٣٢).

فما الذي فعله الأمير عبد الإله؟ الجواب: لجأ إلى الأسلوب الاستشاري فعقد عدة اجتماعات مع رؤساء الأحزاب والسياسيين القدامى والجدد ورؤساء الوزراء القدامى وتساءل عن أسباب السخط والهياج ولماذا قادوا المظاهرات وتحداهم أن يبينوا مناسبة واحدة خالف بها سلطاته الدستورية أو استعمل نفوذه خارج حدود القانون أو تَدَخّل في القضاء ولم يتمكن من ذلك وبقي زعماء الأحزاب يشكون من الأوضاع العامة والوضع الاقتصادي وما شاكل. فأجاب الأمير بأن تلك المشاكل لم تكن نتيجة سياسة الدولة، بل إنها ورثتها من الأوضاع المتأخرة التي سادت العراق لقرون عديدة سابقة وإن التغلب عليها يتطلب وقتًا، وإن الحكومة الحالية دائبة على إصلاح الأوضاع(٣٣).

بعد مظاهرات عام ١٩٥٢ تعين (العميد) الفريق الأول نور الدين محمود رئيسًا للوزراء وتمكن الجيش من بسط الأمن. إلا إن أساتذة الكليات وممثلي الأحزاب لم يكفوا عن تقديم العديد من المذكرات الاحتجاجية للأمير عبد الإله والملك فيصل مطالبين بالإصلاح وكانت تلك المذكرات موقعة بالأسماء الصريحة(٣٤) إلا إن الدولة لم تلاحق الموقعين ولم تفصلهم من وظائفهم ولكن تَركّز التنكيل والمطاردة على أعضاء الحزب الشيوعي العراقي وواجهاته كجمعية أنصار السلام وأعضاء حزب التحرر حيث صدرت بحقهم أحكام الاعتقال والسجون لكونهم نادوا علنًا بسقوط النظام القائم ولعلاقتهم بالاتحاد السوفياتي الذي كان يعتبر دولة معادية للعراق بسبب سياسته الموالية لدول الغرب.

٣٢) نفس المصدر، الصفحات ٥٥١ - ٥٥٥.
٣٣) جعفر عباس حميدي. مصدر سابق، صفحة ٧١٦.
٣٤) عبد الهادي الخماسي. مصدر سابق، صفحة ٤٠.

وهكذا يؤكد العديد ممن عرفوا الأمير عبد الإله عن كثب من أمثال رئيس الوزراء أحمد مختار بابان والسكرتير الخاص لجلالة الملك وسمو الأمير عطا عبد الوهاب وغيرهم واصفين كيفية تصريف الأمير لأمور الدولة الداخلية والسياسية والإدارية بالالتزام قدر الإمكان بالدستور وعدم لجوئه لأي أساليب استبدادية. إضافة إلى ذلك يؤكد السيد بابان بأن عبد الإله كان نزيهًا ولم يكتسب المال الحرام أو الثروات وكان يحترم السلطة القضائية وحريص على مراعاة النظام ولم يتدخل في الإجراءات القانونية لحماية الأفراد الذين كانوا يعتبرون من أنصاره إذا اقترفوا المخالفات كما تبين الحادثة التالية التي شهدها الدكتور المعروف كمال السامرائي:

«بينما كان الأمير عبد الإله يتابع لعبة شطرنج ذات يوم في مكتبه في قصر الرحاب بين الطبيب البيطري البريطاني جادوك، والدكتور دكسن فرث، جاء تحسين قدري رئيس الديوان الملكي وأخبره بأن هناك جماعة يودون مقابلته لأمر عاجل. فوافق الأمير على مجيئهم وبعد نصف ساعة حضر خمسة أشخاص، عرفت من بينهم جواد جعفر، وذيبان الغبان، فرفع الأمير رأسه عن رقعة الشطرنج قائلاً: تفضل أستاذ جواد خير إن شاء الله، ما هو الأمر العاجل لهذه الزيارة؟ فرد جواد جعفر على الأمير قائلاً: تعرفون سموكم إن للسيد عبد المهدي [المنتفكي] خدمات كثيرة لسموكم ولهذا البلد، وهو الآن موقوف في مركز شرطة الكرادة. وهنا قاطعه عبد الإله سائلاً: من هو الذي أمر بتوقيفه؟ وبعد أن أجابه جواد جعفر سأله الأمير: أستاذ جواد «إنت اشلون» تقبل أن أتدخل باختصاصات القضاء؟ ثم أردف بغضب: اتصلوا بالحاكم بالطرق الأصولية والأمر بيده، لا بيدي، ولا تجعلوني وسيطًا لكم،لا، هذا ما لا أعمله»[٣٥].

هذا هو الأمير عبد الإله الذي حكم العراق لفترة تقارب العقدين. ولأجل

---

٣٥) نفس المصدر السابق.

تأمل الجوانب الإيجابية والسلبية للرجل أورد باختصار النقاط الآتية:

أ ـ كان الأمير ذكيًا، قوي الشخصية ورجل دولة عصري من الطراز الأول. فهو لم يستبد ولم يتجاوز صلاحيته الدستورية بكل الظروف وكان يلجأ إلى التشاور مع السياسيين العراقيين بجميع مشاربهم، بما في ذلك أولئك الذين عارضوه بشدة. وقد رضخ لإرادة الشارع العراقي ولأعضاء البرلمان ورؤساء الأحزاب في عام ١٩٤٨ وألغى معاهدة بورتسماوث بالرغم من اقتناعه بصلاحها للعراق والعرب. وكذلك فقد تشاور مع جميع المعنيين السياسيين بعد انفجار انتفاضة ١٩٥٢ لأجل تدارك الأمور والاطلاع على أسباب التذمر ومحاولة معالجتها بالطرق العملية والتخطيط الدقيق دون الاعتماد على العواطف والشعارات الفارغة. إذن فالأمير لم يكن مستبدًا وفي واقع الحال إذا قارناه بأي ملك أو قائد عربي آخر دون استثناء في أثناء تلك الفترة فسيتضح بأنه أكثر الحكام تعاونًا مع الجهات الشعبية والسياسية. وعلى سبيل المقارنة إذا أخذنا أي فترة مر بها العراق قبل ولادة المملكة وبعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ ونقارن ممارسات الأمير ونتساءل هل كان ولاة وسلاطين آل عثمان يلجأون إلى استشفاف آراء المعارضة والتشاور معهم؟ أم إنهم قتلوا كل من عارضهم ورموا أجسادهم طعامًا للأسماك في البحر؟ وبنفس المنطق وبعد انقلاب ١٤ تموز فهل انفتح المرحوم الزعيم عبد الكريم قاسم للنقاش مع الجهات الشعبية والأحزاب أم أنه أُعلن الزعيم الأوحد...والأوحد وأصبحت قراراته سارية بدون نقاش، مهما كانت تلك القرارات؟

أما عن فترة حكم حزب البعث فقد أعلن المرحوم الرئيس صدام حسين بكل صراحة الشعار «إذا قال صدام، قال العراق» وردد العراقيون ذلك الشعار وكل من تجرأ على مناقشته لقي حتفه مباشرة وبأعنف الوسائل.

ب ـ كان الأمير متدين، راقي التصرفات ومتأدب في سلوكه وعفيف اللسان وقد اكتسب تلك الصفات من تربيته البيتية العريقة، فهو امير وابن ملوك

ومن سبط الرسول (عليه الصلاة والسلام). وقد أثر بشخصيته الجذابة والتي تميل إلى التواضع بكل من اتصل به عن كثب فأعجبوا به، وكذلك ساعدته شخصيته تلك وإجادته لبعض اللغات الأجنبية أن يصبح دبلوماسيًا من الوزن الثقيل وقف ندًا للند مع أكبر شخصيات ورجالات العالم.

ج ـ كان الأمير رياضيًا يلعب كرة القدم والتنس مع الضباط الكبار كما يروي العقيد الشهيد صلاح الدين الصباغ حين كان العقداء الأربعة على وفاق مع الأمير وقبل أن يدب الخلاف بينهم، وكذلك كان فارسًا يعشق الفروسية وركوب الخيل وكان يقوم بحفلات الصيد على ظهور الخيل تضم الضباط بمختلف الرتب.وبعض الأجانب وأفراد من حاشيته ويختلط معهم ببساطة.

د ـ كان الأمير مخلصًا للنظام القائم وركز على خدمة العراق والبلاد العربية أكثر من تركيزه على خدمة طموحاته الشخصية، فقد تعاون مع رؤساء وزرائه من أمثال نوري السعيد وتوفيق السويدي وعلي جودت الأيوبي لأجل تثبيت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية للعراق وتهيئته لاستلام قيادة دول الهلال الخصيب والسعي لإزالة الحدود بينها وتحقيق الوحدة العربية المبنية على خطوات منطقية مدروسة تؤدي إلى التلاحم المتين بين الشعوب العربية للمنطقة وكدولة شرق أوسطية كبرى.

أما مواقف الأمير من التضامن العربي فقد بدا ذلك بوضوح باتصالاته مع السعودية وسوريا وبقية البلاد العربية. ففي شهر شباط / فبراير من عام ١٩٥٧ وحين كان الأمير في زيارة لواشنطن عاصمة الولايات المتحدة للقاء الرئيس الأمريكي دوايد دافيد ايزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دالاس، التقى الأمير على هامش تلك الزيارة مع العاهل السعودي مرتين وجرت بينهما محادثات وصفها الأمير ودية للغاية وأدت إلى تحسين العلاقة بين المملكتين الشقيقتين بعد فترة قصيرة من عدم التفاهم. كما اقام الأمير حفلاً في واشنطن للوفود العربية حضره عبد الخالق حسونة، الأمين العام للجامعة العربية (مصري)،

ومحمود فوزي وزير خارجية مصر - بالرغم من وجود توتر بين المملكة العراقية ونظام الرئيس جمال عبد الناصر - وممثلو بقية الدول العربية في واشنطن. وفي تقييم شامل لزيارة الأمير عبد الإله لواشنطن وجهوده الدبلوماسية هناك يؤكد السياسي العراقي المعروف أحمد مختار بابان «كانت سفرة الأمير إلى الولايات المتحدة الأمريكية ناجحة ومفيدة ليس للعراق فحسب، بل لجموع البلاد العربية»[٣٦].

وبعد رجوعه إلى بغداد بعث الأمير اللواء غازي الداغستاني إلى بيروت للقاء الجنرال أديب الشبشكلي وبعض الساسة السوريين لأجل التفاوض لإنهاء مشروع الهلال الخصيب.

كانت جهود النخبة الحاكمة العراقية، ما بين عام ١٩٥٧ و١٩٥٨ منصبة داخليًا على خطط بناء جميع متطلبات البنية التحتية للعراق من شماله إلى جنوبه وبالتزامن مع التركيز على السياسة الخارجية فتألق الأمير عبد الإله ومساعده السياسي المخضرم رئيس الوزراء نوري باشا السعيد بالإنجازات الدبلوماسية على الصعيد العربي والعالمي.

عبد الإله والسياسة الخارجية للعراق

من الأمور الأساسية التي سعى إليها العرب هي الحركة الهادفة إلى توحيد البلاد العربية التي ترجع جذورها إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. وقد تبلورت الفكرة بوضوح نتيجة السياسة الشوفينية التي اتبعها الثلاثي الطوراني أنور وطلعت وجمال في أواخر الحكم العثماني وقد تبنى الضباط العرب الذين كانوا يخدمون في جيش الامبراطورية العثمانية الوحدة العربية كهدف أساسي لهم[٣٧].

٣٦) أحمد مختار بابان، مصدر سابق، الصفحات ١٥٤ - ١٥٦.

٣٧) George Antonious, The Arab Awakening (Hamish Hamilton, 1938), p. 104

إلا أن زخم الحركة الوحدوية بدأ يتزايد بجهود السياسي العراقي نوري السعيد الذي حاول أن يقنع أصدقائه من قادة بريطانيا من قادة بريطانيا العظمى، التي كانت القوة الكبرى المهيمنة على معظم البلاد العربية، بأن مصالح الامبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط ترتبط بخلق دولة عربية موحدة وقوية. لذلك فقد صرح أنتوني ايدن وزير خارجية بريطانيا إن بلاده تؤيد العرب في تحقيق مطامحهم في توحيد بلادهم، وإنه أمر طبيعي ومن حق العرب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية والسياسية بين البلاد العربية[٣٨].

انتهز نوري السعيد والأمير عبد الإله تصريح ايدن فتوجها إلى القاهرة في كانون الأول / ديسمبر / ١٩٤٢ لزيارة رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس باشا لبحث مشروع الوحدة العربية، إلا إن النحاس لم يول الموضوع اهتمامًا يذكر، مما ميع المشروع قبل ولادته. ولكن موقف مصر لم يفت في عضد نوري السعيد والأمير عبد الإله (الوصي) فواصلا جهودهما. فبعث عبد الإله رسالة إلى عمه عبد الله في ٢٣ / شباط / فبراير / ١٩٤٤ جاء فيها «إن نوري السعيد لايهدف من تأسيس الجامعة أن تكون مجرد مؤتمر لأقطار الهلال الخصيب، وترك مصر تدخل المؤتمر متى شاءت. بل أنه يود الإسراع في عملية الوحدة وعدم إضاعة الوقت قدر الإمكان، مع ترك الباب مفتوحًا أمام جميع الأقطار العربية. وبناء على ذلك فهو لا يود أن يكون تثاقل القاهرة عائقًا أمام قيام الوحدة، بل على العكس من ذلك، يجب أن نحث الخطى لبلوغ الهدف المنشود»[٣٩].

كان الأمير فتىً في الثلاثين من العمر إلاّ أنه أفصح عن نضوج سياسي وقيادي في التعامل مع رجال من جيل والده، وصرح من القاهرة موجهًا خطابه

---

٣٨) أحمد الشقيري، الجامعة العربية: كيف تكون جامعة وكيف تصبح عربية (تونس: ١٩٧٩) الصفحات ٢٩ - ٣٠.

٣٩) عبد الهادي الخماسي. مصدر سابق، صفحة ٢١١.

إلى دول الغرب بأن الدول العربية قد أدّت واجباتها تجاه الغرب الديمقراطي (ويقصد وقوف البلاد العربية أثناء الحرب العالمية الثانية بجانب الحلفاء وضد ألمانيا النازية ودول المحور) وستكون البلاد العربية الموحدة جاهزة للتعاون معهم بعد أن تضع الحرب أوزارها. وفي نفس المناسبة تداول الأمير ونوري السعيد مع رتشارد كيسي، وزير الدولة البريطاني المقيم في القاهرة، وقدم نوري السعيد له مذكرته المعنونة استقلال العرب ووحدتهم، والتي أوضح بها أطر مشروع الوحدة العربية[٤٠].

وبعد مرور شهر على تقديم تلك المذكرة، في شهر شباط / فبراير/ ١٩٤٣، صرح الأمير في اجتماع مع مندوبي الصحافة البريطانية والأمريكية مطالبًا الحلفاء بترك العرب أحرارًا في تقرير مصيرهم وعدم التدخل بشؤونهم وأكد ضرورة انسحاب الأجانب من البلاد العربية[٤١].

كان الأمير عبد الإله طموحًا ومتحمسًا لتوحيد البلاد الهلال الخصيب تحت العرش الهاشمي وقد أيده بذلك عمه أمير الأردن عبد الله، وواصل عبد الإله جهوده بمعية نوري السعيد لإقناع قادة مصر مؤكدين ضرورة تأييد مصر لمشروع الوحدة باعتبارها الدولة العربية الكبرى، إلا إن النتيجة كانت ولادة كيان كونفدرالي باسم الجامعة العربية[٤٢] بدلاً من توحيد العرب تحت راية واحدة. فرحب الأمير بولادة الجامعة العربية كخطوة إيجابية نحو الهدف الأكبر وفي خطاب العرش الذي ألقاه في الفاتح من كانون الثاني / يناير/ ١٩٤٥ تمنى «أن تكون الجامعة عنوان التآخي الذي يؤدي إلى الوحدة» وتفاءل بأن الدول الدول العربية ستصبح في أقوى وضع يؤهلها للقيام بواجباتها بما يخدم مصالحها المشتركة من جهة ولتتبوأ مركزًا مرموقًا في السياسة العالمية من جهة أخرى.

---

٤٠) الزمان: بغداد العدد ١٦٤٣ ٩٠ / ٢ / ١٩٤٣.
٤١) طه الهاشمي. مذكرات طه الهاشمي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٧) صفحة ٣٧.
٤٢) نفس المصدر السابق.

يبدو من المعلومات التي تذكر عن الأمير عبد الإله بأنه كان دبلوماسيًا من الطراز الأول، تساعده في ذلك عدة عوامل أهمها شخصيته الهادئة الرصينة ودماثة خلقه وحضور ذهنه وفكاهاته إضافة إلى إجادته للغتين الإنكليزية والتركية وبعض الفرنسية. فقد كان يتفاهم مع الأتراك بلغة تركية وبطلاقة أهل أسطنبول نظرًا لتعلمها وممارسته لها منذ نعومة أظفاره، وكذلك تفاوض مع الإنكليز والأمريكان بإنكليزية سليمة اكتسبها من دراسته في الخارج ولكثرة أسفاره. إضافة إلى ذلك فقد كان الأمير يمتلك صفات شخصية مميزة. فقد كانت قامته فوق المتوسط وأقرب إلى الطول، نحيف البنية، رشيقها، أسود الشعر، أبيض البشرة بحمرة، أحور العينين، غاية في الأناقة والذوق في اختيار ملابسه[٤٣]. وقد جعلته هذه الصفات غاية في الوسامة والجاذبية وسهلت تعامله مع دبلوماسيي وقادة العالم ونيل إعجابهم بكونه رجل دولة عصري متفهم للديمقراطية وعارف لمتطلبات السياسة الدولية الحديثة. هذه المؤهلات أهلت الأمير على تأسيس علاقات تفاهم وود مع رجال السياسة في الدول الغربية فعلى سبيل المثال إن نائب رئيس الوزراء البريطاني كليمنت أتلي أشار في كلمة خلال إحدى زيارات الأمير عبد الإله لبريطانيا قبل نهاية الحرب العالمية الثانية قائلاً «إننا تلقينا مساعدات اقتصادية من العراق ولا نزال نتلقى تعاونًا فيما نرجو واثقين أن يستمر في المرحلة التي لا بد أن تعقب هذه الحرب».

---

٤٣) هذه المعلومات وردت في كتاب الدكتورة سانحة أمين زكي الموسوم ذكريات طبيبة عراقية، (لندن: دار الحكمة) انظر ص٨٤٧. وقد تعرفَتْ الدكتورة سانحة وزوجها المرحوم المهندس النفط إحسان رفعت الذي شغل منصب مدير شؤون النفط العام أثناء العهد الملكي وتوثقت علاقتهما بالأمير زيد الذي كان قد تعرف على جيل الآباء من عائلتنا الذين خدموا في الجيش العراقي في بداية تشكيله وانضم قسم منهم إلى حاشية الملك فيصل الأول وابنه المغفور له غازي الأول. وقد توثقت علاقة المهندس إحسان رفعت وزوجته الدكتورة سانحة بالمرحوم الأمير عبد الإله عن طريق عمه الأمير زيد حيث كانوا جميعًا يتكلمون اللغة التركية ويستمعون إلى الأغاني التركية القديمة.

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد وقفت حكومة أتلي ووزير خارجيته أرنست بيغن ضد المشروع الصهيوني والتزموا بما ورد في الكتاب الأبيض التي تعترف به حكومة بريطانيا بحق العرب بفلسطين وأكد بيفن بأفضلية ربط مصالح الامبراطورية البريطانية مع العراق والعرب بدلاً من الصهاينة[٤٤].

وقد كان للأمير عبد الإله مواقف تاريخية مشرفة بخصوص وقوفه ضد المشروع الصهيوني ومحاولاته الدبلوماسية لإحقاق حق العرب في فلسطين. فحين انطلق الزعماء الصهاينة للقاء مع وإقناع قادة العالم الذين بيدهم صناعة القرار وتقرير مصير شعوب العالم، وكان أنشط مبشر صهيوني هو حاييم وايزمن اليهودي البولوني المولد وقد هاجر إلى إنكلترا عام ١٩٠٤ وكان له الباع الطولي في الضغط على وزير الخارجية جيمس بلفور الذي أعطى وعده المعروف بتأييد إعطاء فلسطين لليهود، وقد أصبح وايزمن رئيس المنظمة اليهودية في العالم واتجه إلى الولايات المتحدة واستطاع أن يلتقي مع الرئيس (فرانكلن روزفلت) طالبًا تأييده لخلق دولة يهودية في فلسطين. وهنا يبدو النقص الواضح لزعماء أمريكا في معرفة الحضارة العربية وتاريخ العرب فقد بسّط رزوفلت القضية الفلسطينية برمتها لوايزمن قائلاً « وماذا عن سكان العرب في فلسطين؟ وهل يمكن إعطاءهم بخشيش (استعمل روزفلت كلمة Bakhshish) ونقلهم إلى أماكن أخرى؟ »[٤٥]. وكان روزفلت مقتنعًا بوجاهة الفكرة الداعية إلى إمكانية نقل سكان فلسطين من أراضيهم إلى أراضي العراق، البلد العربي الإسلامي الغني بموارده الاقتصادية وبقابليته لاستيعاب الفلسطينين حضاريًا لكي يتمكن اليهود من إنشاء دولتهم في فلسطين.

إلا إن الرئيس روزفلت غير موقفه وبدا عليه التردد بعد أن علم بأن القضية

---

٤٤) عبد الهادي الخماسي. مصدر سابق. انظر الهامش في صفحة ٢١٤.

٤٥) مأمون أمين زكي، صعود وتراجع المشروع الصهيوني (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٧) الصفحات ١٤ - ١٥.

أكثر تعقيدًا مما يدرك. وذلك بتأثير الرسائل التي تلقاها من بعض القادة العرب، واخص منها رسالة الأمير عبد الإله المفصلة التي شرح بها للرئيس الأمريكي روزفلت تاريخ فلسطين وأهلها العرب منذ القرون الأولى من التاريخ المعروف. وبنفس الفترة تقريبًا التقى الملك عبد العزيز بن سعود مع الرئيس روزفلت بلقاء تاريخي وشرح القضية الفلسطينية والمجالات المتوفرة للمصالح الأمريكية في بلاد العرب والمسلمين. لذلك قرر روزفلت أن يبقى بعيدًا عن قضية فلسطين. حتى وفاته في نيسان/أبريل/ ١٩٤٥ [٤٦].

وقبيل وفاة الرئيس روزفلت كان الأمير عبد الإله يحزم حقائبه للسفر إلى أمريكا بعد أن تلقّى بسرور دعوة الرئيس روزفلت لزيارته ولتوطيد العلاقات مع العراق ولبحث شؤون منطقة الشرق الأوسط. إلا أن وفاة روزفلت ألغت ذلك اللقاء وأجّلت زيارة الأمير إلى أمريكا لعدة سنين وإلى حين مجيء إدارة الرئيس دوايد دافيد ايزنهاور الذي أيد ميثاق حلف بغداد وإن لم يدخل الولايات المتحدة به، ووقف ضد الاعتداء الثلاثي الذي شنته إسرائيل وانكلترا وفرنسا ضد مصر بعد أن أمم الرئيس جمال عبد الناصر قناة السويس، وأطلق مبدأ ايزنهاور (The Eisenhower Doctrine) في كانون الثاني/ يناير/١٩٥٧، الهادف إلى مساعدة الدول النامية اقتصاديًا والوقوف ضد تهديد التوسع الشيوعي وفعاليات الأحزاب الشيوعية في العالم وللحفاظ وصيانة الديمقراطية في العالم[٤٧].

في هذه الأثناء ظهرت قابليات الأمير عبد الإله الدبلوماسية على المستوى العالمي ووقوفه ندًا لأكبر قادة العالم. فبعد اطلاعه على أهداف مبدأ ايزنهاور قرر الأمير الموافقة عليه لأنه كان بمثابة درع ضد الشيوعية والحركات الثورية

---

٤٦) نفس المصدر السابق.

٤٧) Waldemar J. Gallman, Iraq under General Nuri (Baltimore: The John Hopkins Press, 1964) P. 80

الراديكالية التي كانت آنذاك تستعر في بعض دول الجوار وبعض البلاد العربية. فضلاً عن ذلك فقد أدرك الأمير بثاقب نظره بأن أمريكا قد أصبحت هي الدولة الديمقراطية العظمى إثر الفشل الذريع الذي لحق ببريطانيا (العظمى) بعد ان شاركت مع فرنسا وإسرائيل في العدوان على مصر، فأخذ الأمير يميل بحصافة دبلوماسية إلى مغازلة الأمريكان ومحاولة الحصول على دعمهم السياسي والعسكري والحصول على أكثر ما يمكن من المساعدات منهم لأجل المضي قدمًا بمشاريع مجلس الإعمار الذي كانت إنجازاته تحيي الأراضي البور وتبني السدود وتخلق المؤسسات الحضارية الحديثة في جميع أنحاء العراق. ولم يكن الأمير يميل إلى اتخاذ القرارات الفردية فقد توخى استشفاف آراء بعض رؤساء دول المنطقة من البلاد العربية وغيرها، بخصوص موقفهم من مشروع ايزنهاور فالتقى الرئيس اللبناني كميل شمعون في بيروت ثم انتقل إلى العاصمة التركية أنقرة وأدهش ساستها بلغته التركية الراقية والتقى الرئيس التركي جلال بايار أثناء اجتماع رؤساء الدول الإسلامية، أعضاء حلف بغداد، الذي عقد في ٢٩ / كانون الثاني / يناير / ١٩٥٧ وأصدروا بيانًا مشتركًا بالإجماع أيدوا به المشروع باعتباره يحقق الرفاه الاقتصادي ويحافظ على السلام في منطقة الشرق الأوسط[٤٨].

بعد ذلك توجه الأمير على رأس الوفد العراقي الذي ضم كبار الساسة والعسكريين إلى لندن[٤٩] ومنها إلى واشنطن حيث وصلها في بداية شهر شباط / فبراير / ١٩٥٧ وحظي باستقبال حافل شارك فيه أكبر الدبلوماسيين العرب. وفي نفس الشهر التقى الأمير في البيت الأبيض بالرئيس ايزنهاور وبحثا طرق التعاون بين الولايات المتحدة ودول الشرق الأوسط مؤكدين على

---

٤٨) عبد الهادي الخماسي. مصدر سابق، صفحة ٣٨٠.

٤٩) ضم الوفد رئيس الوزراء نوري السعيد، ورؤساء وزراء سابقون هم توفيق السويدي وصالح جبر وعلي جودت الأيوبي، ووكيل رئيس أركان الجيش الجنرال غازي الداغستاني.

اهمية دور العراق الذي يستضيف مركز حلف بغداد وتطرقوا إلى حاجته الماسة للسلاح لأجل تمكينه من القيام بدوره كقوة فاعلة ضد التغلغل الشيوعي. كذلك التقى الأمير مع وزير الخارجية الأمريكي المستر جون فوستر دالاس (Mr. John Foster Dallas) حيث استهل نقاشه ببحث القضية الفلسطينية وأكد على دور الولايات المتحدة في لجم أطماع إسرائيل في البلاد العربية، وإيجاد الحل العادل للصراع العربي الإسرائيلي ومحنة الفلسطينيين واللاجئين، وأكد على إن الإخفاق في ممارسة سياسة أمريكية عادلة مع العرب سيؤدي إلى نتائج وخيمة على مشروع ايزنهاور وعلى السياسة الأمريكية عامة في الشرق الأوسط. وقد كان الأمير عبد الإله مؤثرًا وبارعًا بشخصيته الرزينة وأناقته وسلوكه الارستقراطي الراقي في الحياز على إعجاب الساسة الأمريكان، وفي ختام الاجتماعات صرح الأمير «أن الرئيس الأمريكي أثنى على سياسة العراق المؤيدة لمبدأه»[٥٠].

بعد سفرته إلى واشنطن، لبّى الأمير دعوة ملك المغرب محمد الخامس فتوجه إلى الرباط، حيث أجرى مباحثات مع الملك أدت إلى نتائج جيدة كما يؤكد أحمد مختار بابان[٥١]. وبعدها التقى الأمير مع المسؤولين الأتراك والإيرانيين الذين باركوا جهوده في دول الغرب وأمريكا.

هذه هي الحقائق الموثقة عن الأمير عبد الإله، رجل الدولة من الطراز الأول والدبلوماسي المخضرم الذي أعطى العالم نموذجًا راقيًا وصورة متألقة للجيل الجديد من رجالات العرب في تلك الفترة، وقد دحض الأمير بقامته الفارهة الرشيقة ووسامته البادية وأناقته المتكاملة وشخصيته الأرستقراطية الرزينة، دحض الصورة النمطية الشائهة التي كان أعداء العرب والمسلمين وخصوصًا الصهاينة ومؤيديهم قد ركزوها في أذهان العالم، حيث صوروا العرب كونهم

٥٠) عبد الهادي الخماسي. مصدر سابق، صفحة ٣٨٠.

٥١) نفس المصدر السابق، صفحة ٣٨٢.

بدو رحل قذرين متخلفين، أُميين لا حضارة لهم ولا يفقهون معنى الحياة العصرية.

لهذه الأسباب كان المفروض بقيادات المعارضة الواعية أن لا يهدفوا إلى تحطيم النظام الملكي بل ممارسة الانتقاد العقلاني اللاعاطفي ومحاولة إصلاح الجوانب التي تستوجب الإصلاح أسوة بالدول الديمقراطية الحديثة. فعلى سبيل المثال حين يفوز حزب المحافظين في بريطانيا فإن حزب العمال يستلم دور المعارضة، ولكن المعارضة تكون داخل إطار النظام القائم ولا تهدف لهدمه بل العمل على إقناع الرأي العام بأن حزب العمال قادر على تحسين جوانب الوضع القائم وخدمة الشعب بشكل أفضل.

فإذا نجح حزب المحافظين الحاكم في تقديم خدمات واضحة للشعب فإن الناخبين سيعيدون انتخاب مرشحي الحزب الحاكم ثانية، أما إذا فشل حزب المحافظين في تلبية رغبات الشعب فسيتجه الناخبون لانتخاب حزب العمال لإدارة الدولة ويصبح حزب المحافظين في جهة المعارضة، وهكذا تتبادل أحزاب المعارضة والحاكمة الأدوار لأجل خدمة الشعب تحت مظلة النظام نفسه.

لذلك وبالرغم من إن النظام البرلماني والانتخابات في العراق لم تكن بنفس رقي نظام بريطانيا أو فرنسا على سبيل المثال، وكانت الدولة تتدخل في إجراءات الانتخابات، إلاّ إن النظام كان يتقبل الانتقاد البناء وقد بدا ذلك واضحًا بالاجتماعات التي عقدها الأمير مع قادة الأحزاب مرارًا وتقبله والملك فيصل للعرائض التي قدمتها الفئات المتعلمة لهما عارضين شكواهم. والنقطة المهمة هنا هي إن البرلمان العراقي في أثناء سني الخمسينيات كان مهيئًا لاستقبال عناصر جديدة شابة من المحامين وخريجين وأساتذة الجامعات وبقية أفراد الطبقة المتوسطة من الذين كانوا يطمحون بالمشاركة في الانتخابات والحلول محل شيوخ العشائر وجيل العهد العثماني الذي بقي مهيمنًا على الحكم.

إلا إن الأمير عبد الإله بالرغم من إنجازاته على المستوى الداخلي والخارجي لم يلق سوى الجحود والهجمات الرخيصة من قبل المعارضة والرأي العام والشارع الجاهل وبقيت الاتهامات تنهال عليه بدون أن تستند على أي دليل سوى الإشاعات المغرضة التي لم يكن هدفها سوى المعارضة بسبب الجهل أو تجاهل أسباب تبني النخبة الحاكمة للقرارات التي تناسب وضع العراق كبلد صغير ذي مركز اقتصادي واستراتيجي في غاية الحساسية ويستوجب عدم التهور في تأجيج القوى العظمى ضده، والتمسك بالسياسة الرصينة التي اختطها المغفور له الملك فيصل الأول واتبعتها النخبة الكلاسيكية من بعده وأفرزت أعظم النتائج العمرانية والاقتصادية والتعليمية والدبلوماسية في تاريخ العراق منذ سقوط بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ . وقد تهاوت تلك الإنجازات جميعًا بعد انقلاب ١٩٥٨ . فتدهور التعليم وتراجع الاقتصاد وارتبك جهاز الدولة بعد أن نُسِخَ نظام الاستحقاق، وتفككت عرى اندماج الشعب العراقي الذي ثبتته النخبة الكلاسيكية بكل خلفياته وبشكل تدريجي منذ عام ١٩٢١ . حاليًا بقي العراق العريق ـ بلاد ما بين النهرين ـ يواجه مستقبلاً مجهولاً وغايةً في الظلام.

ثمة ثلاثة اتهامات تطلق معظم الحيان جزافًا ضد بعض الأشخاص في العراق والعالم العربي على مختلف المستويات. فإذا كان الفرد يحتل مركزًا عاليًا في السلطة فسيتهم بأنه سارق (حرامي) يختلس أموال الدولة والشعب، أو عميل الاستعمار وإسرائيل. أما التهمة الدارجة بين أفراد الشعب والرعاع إذا ما تشاجروا فهي الطعن بالأعراض وتهمة التهتك الجنسي. وبعد أن تنتشر تلك التهم وتلوكها الألسن بدون أي دليل، تصبح تلك الإشاعات حقائق ويصدقها الجميع حتى المتعلمين. وقد أطلقت تلك الاتهامات على معظم أفراد النخبة الكلاسيكية ـ وعلى بعض أفراد حكومات ما بعد انقلاب ١٩٥٨ ـ ولكن الأمير عبد الإله نال القسط الأوفر منها وقد رددناها نحن جميعًا

كالببغاوات عن يقين. بينما يؤكد العديد من الأشخاص من الذين ارتبطوا بالأمير بروابط قريبة بأن الرجل كان على خلق عظيم ومستقيم ومتدين. يقول السيد عطا عبد الوهاب الذي شغل مركز سكرتير شخصي للأمير عبد الإله[٥٢]:

لعل الصورة التي أرسمها للأمير تبدو جديدة في أقل اعتبار لكنها الصورة التي رأيتها بنفسي، وأشهد الله أنني أكتب ما شاهدته في السنة الأخيرة من النظام الملكي في العراق، ومن زاوية عملي وصلتي الشخصية، أما ما يطلق من أراجيف على ألسنة العامّة فلا يعدو شتائم التشمت، وأما ما يقوله بعض الخاصة من آراء فلا يعدو التعميم والتبسط ومجاراة التيار دون تفنيد أو تحليل. إنيْ أشُهد أنني لم ألاحظ طيلة عملي مع الأسرة المالكة منذ ربيع ١٩٥٧، تصرفاً يشين الخلق الرفيع ولم أسمع كلمة تنبو عن الذوق السليم.

أما المؤرخ العراقي الدكتور فالح زكي حنظل فيؤكد ما جاء في كتاب عطا عبد الوهاب بخصوص السلوك الشخصي للأمير عبد الإله فيقول:

عندما أصبحت بمعية الرجل (يعني الأمير عبد الإله) كان كهلاً قارب الخمسين من عمره.... استقر وتزوج فتاة من أكرم الأسر العراقية، وقد رافقتُ الأمير شخصيًا في سفره خارج العراق، وغالبًا ما عشت قريبًا من بيته، إلا إنني، والحق يقال، لم أرَ أو أسمع أو المس ما يشينه، كما إن أقرب أصدقائه ومن زامله في أيام شبابه ولهوه وسفره... لم اسمع منهم عنه ما يزيد عما يفعله أي إنسان عادي في شبابه ومنصبه وسلطانه[٥٣].

---

٥٢) عطا عبد الوهاب، سلالة الطين، مصدر سابق، صفحة ٢٥٨.

٥٣) د. فالح حنظل أسرار مقتل العائلة المالكة في العراق: ١٤ تموز ١٩٥٨ (طبعة٢) طبعة منقحة، ١٩٩٢ صفحة ٤٥.

كان الدكتور فالح حنظل ضابطًا برتبة ملازم في الحرس الملكي عام ١٩٥٨، وقد كتب كتابه أعلاه في عام ١٩٧١، أي بعد ثلاث وعشرين عامًا من زوال النظام الملكي ولم يكن للدكتور فالح أي مطمح أو هدف سوى قول الحق.

ومهما تكن عند امرءٍ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تُعْلَم

(زهير بن أبي سلمى)

إضافة إلى اتسام تصرفاته الشخصية بالأدب الرفيع ورقي في الكلام مع الناس، فقد كان الأمير عبد الإله متدينًا يقوم بفروض الصلاة ويصوم رمضان، كما تؤكد أخته عابدية. وكما شاهده الأستاذ عطا عبد الوهاب، فيقول[٥٤]: حين حل شهر رمضان في عام ١٩٥٧ أخبره الأمير عبد الإله أنه سيصوم في تلك السنة في الحبانية، واصطحبني معه برفقة بعض مرافقيه. وكانت قاعدة الحبانية الجوية ومنشآتها، وهي مدينة صغيرة كاملة بناها الإنكليز، وقد انتقلت مَن يد البريطانيين إلى العراق عام ١٩٥٥ بعد توقيع حلف بغداد. وقد اتضح لي إن الأمير يصوم رمضان سنويًا عن إيمان بالله، فيقوم الليل ليقرأ القرآن، وحين يختم القرآن مرتين يهدي الختمة الأولى لروح والده الملك علي والثانية لروح شقيقته الملكة عالية.

ويقول السيد عطا وتذكرتُ ما كُنّا نعتقده في شبابنا عندما كنا نرميه بكل ما حرم الله من إشاعات مغرضة كانت تروج في المقاهي رواجًا عجيبًا.

٥٤) عطا عبد الوهاب، سلالة الطين. مصدر سابق، الصفحات ٢٩٦ - ٢٩٧.

الفصل السادس

ازدهار الاقتصاد العراقي أثناء عقد الخمسينيات

بعد الاستتباب النسبي للأمن الذي شهده العراق بعد حرب عام ١٩٤١ مع بريطانيا، بدأت الدولة بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها بالتخطيط لاستغلال خيرات العراق اللامحدودة لأجل الارتفاع بمستوى معيشة الفرد العراقي والشعب عامة، ولأجل التخلص من تركة المفاهيم القروسطية العتيقة التي ورثها العراق من العهود السابقة وأعاقته عن الرقي والتقدم فبدأت مشاريع البناء والتعليم والتطور تترى بعد أن تضاعفت واردات العراق بشكل درامتيكي بعد زيادة حصة العراق من أرباح النفط أثر توقيع اتفاقية نفط جديدة مع بريطانيا عام ١٩٥٢ . واستنادًا على توفر الثروات فقد استحدثت الدولة مجلس الإعمار الذي توسع ليصبح وزارة الإعمار التي تبنّت الأهداف الآتية لتحقيق الإنجازات المرجوة والتي تلائم طموحات الشعب(١):

١ . رفع مستوى الدخل الفردي، ورفع مستوى المعيشة عمومًا، وزيادة الدخل القومي، وتطوير وتوسيع الخدمات العامة، ونشر التعليم في جميع أنحاء البلاد، وبناء المدارس في أقصى القرى.

٢ . استغلال موارد البلاد الاقتصادية وتهيئة الكوادر الكفوءة من المواطنين

(١) Fahin I. Quban, The Reconstruction of Iraq 1950-1957 (New York: Praeger, 1958) P. P. 34-35

واستجلاب الخبراء الأجانب لأجل إنجاز أحسن النتائج في إعمار البلاد.

٣. مكننة الزراعة وتطويرها وتشجيعها بحيث تُستغَل كل الأراضي غير المستثمرة، إضافة إلى تطوير الصناعة وتعزيزها في جميع أنحاء العراق.

٤. توزيع خيرات مشاريع التطورات الاقتصادية على جميع العراقيين مع التركيز هلى النهوض بالمستويات المعيشية للطبقات الفقيرة والمحرومة.

٥. تحسين كفاءات الطبقة الفلاحية عن طريق التعليم والإرشاد الفني، وتسهيل توزيع الأراضي الزراعية، وملكيتها للفلاح، وتوفير وسائل الري والبزل والمكائن والجمعيات التعاونية والتسويق ومكافحة الجهل المطبق على الطبقة الفلاحية لأجل النهوض بكفاءة الفلاح على استغلال الأرض الزراعية الممنوحة له.

٦. إقامة مجتمع متقدم تسود فيه العدالة الاجتماعية والاقتصادية وتوفير الفرص المتكافئة لجميع أفراد الشعب.

كانت هذه الأهداف هي أسس هيكلية مشاريع التقدم والتطورات التي خططت لها الدولة، ومن ثم بادرت مباشرة لاتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذها، فصدر قانون مجلس الإعمار في ٢٥/نيسان/إبريل/ ١٩٥٠ [٢]، وبموجبه أُستُحدثت هيئة مستقلة خصص لها ما يلي:

١. قرض من البنك الدولي بمبلغ ٢٣ (ثلاثة وعشرون) مليون دولار لغرض بناء مشروع الثرثار - سامراء، نظرًا للضرورة الحيوية القصوى لذلك المشروع لأجل حماية العاصمة وأراضٍ زراعية شاسعة من الفيضانات

(٢) Government of Iraq, Law No. 3 of 1950: The Development Board - Baghdad: Government Press, 1950

المدمرة التي كانت تجتاح العراق سنويًا منذ القدم. إضافة إلى ذلك حصول مجلس الإعمار على أي قروض أخرى يحتاجها وبضمان من الحكومة.

٢. مجموع واردات الحكومة من النفط. وقد كانت تلك الواردات ضئيلة في البداية ولم تبدأ بالازدياد إلاّ بعد تعديل اتفاقية النفط مع شركة الـ(I. P. C) الإنكليزية في عام ١٩٥٢. وقد خُصصت تلك الواردات للمشاريع التالية التي خصصها مجلس الإعمار[٣].

جدول (١)

ميزانية مجلس الإعمار بالدينار العراقي

	١٩٥١-١٩٥٢	١٩٥٢-١٩٥٣	١٩٥٣-١٩٥٤	١٩٥٤-١٩٥٥	١٩٥٥-١٩٥٦
١ - الواردات	٧,٥٠٠	٢٤,٠٠٠	٣٥,٣٠٠	٤٠,٧٠٠	٦٠,٦٠٠
٢ - تخمين المصاريف	٩,٤٠٠	٢٠,٤٠٠	٢٨,٤٠٠	٣١,٦٠٠	٤٦,٦٠٠
٣ - المصاريف الفعلية	٣,١٠٠	١٢,٨٠٠	١٢,٣٠٠	٢٠,٩٠٠	٢٩,٥٠٠
٤ - فائض الميزانية	٤,٣٠٠	١١,٧٠٠	٢٣,٠٠٠	١٩,٩٠٠	٣١,١٠٠

المشاريع الزراعية:

نظرًا لتواجد النهرين العظيمين دجلة والفرات والروافد العديدة فالعراق ما انفك منذ أقدم العصور غني بالمياه ويمتلك قابليات زراعية لا حدود لها، وقد كانت الزراعة وشبكات الأنهار ونظم الري على أرقى ما تكون فاعلية وإتقانًا

٣) Majid Izzat, Oil Revenues of the Government of Iraq (Baghdad: Star Press, 1961) P. P. 49-58

واستثمارًا أثناء العهد العباسي وبقيت كذلك لعدة قرون إلى أن هب الإعصار المغولي بقيادة هولاكو الذي دمر معالم الحضارة والبشر والزرع والضرع وخرّبَ السدود، واندرست الأنهار وتحولت البلاد إلى خرابًا بلقعًا.

وقد بقيت أراضي ما بين النهرين مهملة وبوضع مزرٍ لعدة قرون، وكان عدد السكان ضئيلاً، يتجمع معظمهم حول الأنهار التي كانت تفيض فتقتل البشر والحيوان وتنشر الدمار والأوبئة بدون أي نوع من السيطرة، إلى أن قامت الدولة العثمانية في أواخر عهدها ببعض الإصلاحات فقد سنت قانون العشائر في عام ١٨٥٨ الذي سهل إسكانهم في أراضٍ سجلت بأسماء رؤساء العشائر مما أدّى إلى ولادة نظام شبه إقطاعي في بعض مناطق بلاد الرافدين، وتطورت حالة تلك العشائر من مرحلة البداوة والترحال طلبًا للكلأ والماء إلى مرحلة الاستقرار الدائم، والاعتماد على نظام اقتصادي زراعي ثابت، ومبني على تواجد مصادر مياه وفيرة وبشكل دائمي. وفي بداية القرن العشرين قامت الدولة ببعض الإصلاحات حيث استدعت قُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى السير ويلكوكس خبير الري البريطاني الشهير لأجل استطلاع شؤون الزراعة في العراق، فقام بدراسة عميقة وقدم عدة مقترحات لأجل السيطرة على الفيضانات ولتحسين أساليب الزراعة، وقد تكللت جهود ذلك الخبير الكبير ببناء سد الهندية الذي قسم نهر الفرات إلى شطي الحلة والهندية، وتم بناؤه في عام ١٩١٣ مما أدى إلى إحياء أراضٍ زراعية شاسعة، وقلل أخطار الفيضانات[٤].

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وسقوط الامبراطورية العثمانية، ومجيء سلطات الانتداب البريطاني إلى العراق، كان واحد من أهداف بريطانيا هو مساعدة حكومة الملك فيصل الأول أن تبسط سيطرتها على التقسيمات

---

٤) Stephen Longrigg & Frank Stoakes, Iraq (New York: Frederick A. Prager, 1958) P. P. 112-113

العثمانية الثلاث وهي منطقة الموصل الشمالية، ومنطقة بغداد الوسطى، ومنطقة البصرة الجنوبية، وأن تبقى متماسكة وتضمن ولاء المجاميع السكانية القاطنة فيها بمختلف انتماءاتها لتكون نحو الحكم العراقي الوليد والحليف للامبراطورية البريطانية. لذلك كان من الأهداف الأساسية لحكومة الدولة العراقية الحديثة هي توحيد وإدماج شرائح المجتمع المختلفة والأقليات الأثنية والدينية والمذهبية مع التركيز على إخضاع العشائر لسلطة الحكومة المركزية. فقد بقيت العشائر تتمتع باستقلال ملحوظ، وبقي ولاء أبنائها حسب العرف العشائري نحو شيوخها دون أي سلطة أخرى. لذلك فقد أبقت الدولة العراقية على نظام ملكية الأراضي بعد أن اصدرت قانون حقوق الفلاحين عام ١٩٣٣ الذي يتضمن ٥٢ مادة تؤدي إلى إبقاء الفلاحين تحت سيطرة رؤساء عشائرهم وتهدد بعقوبات شديدة ضد كل من تسول له نفسه على التمرد.

أما قانون تسوية حقوق الأراضي رقم ٢٩ لسنة ١٩٣٨ المعدل بالقانون ٤٤ لسنة ١٩٣٩ [٥] فقد منحت الدولة للشيوخ المزيد من الأراضي الزراعية، وقننت مقادير أرزاقهم من المياه لأجل ربط مصالحهم المعيشية والاقتصادية بمقدار ولائهم للدولة، وأدخلت شيوخ العشائر في البرلمان العراقي كنواب وأعيان مما أخضع السلطة التقليدية للشيوخ إلى السلطة الإدارية والسياسية للدولة. وقد تمكنت النخبة الحاكمة بقيادة العائلة الهاشمية من تحقيق ذلك عن طريق استعمال مكانة العائلة المالكة الدينية باعتبارها من سبط الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) لبسط هيمنة الدولة على العشائر السنية والشيعية مما أدّى إلى تعزيز سيطرة الدولة حتى على المناطق النائية من العراق. وقد قوبلت تلك القوانين بالاستياء من قبل الطبقة المثقفة واعتبرته إجحافًا بحقوق الفلاحين الفقراء وتعزيز امتيازات الشيوخ وأصحاب الأراضي الأغنياء.

إلا إن الدولة بررت قرارها بإمرار هذا القانون لكي لا تزيل ممارسة شيخ القبيلة

---

٥) حمود الساعدي، دراسات عن عشائر العراق (بغداد: مكتبة النهضة ١٩٨٨) ص ٨.

لسلطته لضمان إبقاء سيطرته التقليدية العشائرية على الفلاحين لأجل استمرار الضبط الإداري المتطلب لإبقاء الإنتاج الزراعي على الوجه الأحسن. وإلاّ فبدون هيمنة الشيوخ والمُلاّك فإن الفلاحين يفضلون النزوح إلى المدن الكبرى لأجل ممارسة أعمال خدمية سهلة مما يؤدي إلى إهمال وتدهور الزراعة.

هذا وقد بدأت الزراعة في العراق تشهد تطورًا تدريجيًا أثناء عقد الثلاثينيات، ويعزى ذلك إلى عاملين: العامل الأول هو اكتشاف النفط الذي ساعد - بالرغم من ضآلة موارده - على الارتفاع بمستوى التعليم الزراعي، والعامل الثاني هو تطوير التقنية الزراعية وبناء السدود. فقد افتتحت مدارس لتدريس الزراعة في الأرياف في عام ١٩٣٤ وبنيت سدة الكوت عام ١٩٣٩ إضافة إلى بعض المشاريع على نهر الزاب الصغير ونهر ديالى والفرات، وشجعت الدولة التخصص بمجال التعليم الزراعي، وأسست كلية الزراعة في عام ١٩٥٠ وزودتها بأحدث الوسائل، وفي عام ١٩٥٧ احتوت على ٤٠٠ تلميذ[٦].

كان لاكتشاف النفط أثرًا كبيرًا في تطور العراق داخليًا وخارجيًا. فقد أدركت بريطانيا أثناء النصف الأول من القرن العشرين بأن تربة العراق تحتوي على كميات هائلة من النفط الخام. وبما أن النفط حل محل الفحم في تشغيل محركات الأساطيل والمكائن الحديثة فقد أصبح النفط واحدًا من أهم العوامل الأساسية المتحكمة بسياسة بريطانيا الخارجية بمعنى يجب أن تكون لبريطانيا الكلمة العليا في صناعة القرارات المتعلقة بالمناطق الغنية بالنفط في العالم. لذلك وفي فترة تشكيل الدولة العراقية الحديثة أصبحت منطقة الموصل وحقوق نفطها من العوامل الأولية في العلاقات بين دولة بريطانيا وحكومة فيصل الأول بخصوص رسم حدود العراق الشمالية والوقوف بوجه أطماع تركيا والاتفاقيات التي وقعت بين البلدين أثناء الفترة التي تلت إنشاء المجلس التأسيسي العراقي في شهر حزيران / يونيو / ١٩٢٤.

---

٦) Longrigg, P. 116

لقد كان نفط شمال بلاد الرافدين أثناء العهد العثماني مملوكًا من قبل شركة البترول التركية، وكان للسلطان حصصًا من عوائدها. إضافة إلى ذلك كانت عائلة النفطجي التركمانية تمتلك أراضٍ شاسعة في مدينة كركوك تحتوي على النفط الخام ومن ذلك اكتسبت لقب عائلتهم (آل النفطجي)، وقد كان النفط يستخرج ويصفى بوسائل قديمة لأجل الاستعمال المحدود للاحتياجات البسيطة في ذلك الزمن الذي سبق وصول السيارات والطائرات. وقد أرسلت قوات الاحتلال الإنكليزية وفدًا لمقابلة عميد العائلة حسين بك النفطجي عارضين عليه مليون باوند استرليني مقابل أراضيه الحاوية على النفط إلاّ إنه رفضهم بإباء بجملة تركية (سكتر ناموس سز.. سزلر كاوور) وترجمتها اذهبوا يا عديمو الشرف أنتم كفّار، وذلك لأن ولاء العائلة كان للعثمانيين باعتبارهم إخوانهم بالدين الإسلامي(٧).

بعد أن رفضت عائلة النفطجي التعامل مع الإنكليز، فاتحت قوات الانتداب رجلاً أرمنيًا وجيهًا هو (كولبينكيان) الذي كان يمتلك أراضٍ أدرك الإنكليز أنها تحتوي على كميات من النفط الخام فاشترط كولبينكيان أن تكون حصته ٥٪ (خمسة بالمائة) من أرباح النفط بعد استخراجه وبيعه وقد حصل على ما أراد مما أكسبه لقب (Mr. Five Percent) السيد خمسة بالمائة، وأصبح واحدًا من أغنى أغنياء العالم.

شهدت تلك الحقبة نقاشًا حادًا بين الجمهورية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك وقوات الانتداب الإنكليزي في العراق بخصوص لواء الموصل العربي والغني بالنفط فقد طمعت به تركيا ولكن المملكة العراقية الفتية داعت به باعتبار إن معظم أهالي الموصل هم من العرب. لذلك فقد اشترطت حكومة الانتداب على الدولة العراقية حصولها على امتياز النفط في العراق مقابل ضمان إدخال لواء الموصل ضمن حدود المملكة العراقية. وقد استغلت بريطانيا

٧) من أرشيف العائلة.

مكانتها كأعظم دولة استعمارية وعسكرية في العالم والشرق الأوسط ووقفت ضد أطماع تركيا وأدخلت لواء الموصل ضمن حدود العراق بعد أن وافقت حكومة الملك فيصل الأول أن تكون لبريطانيا اليد المطلقة في استغلال نفط العراق فتأسست شركة النفط العراقية (Iraq Petroleum Co. I. P. C) التي امتلكت بريطانيا حصة الأسد فيها. ولولا هذا القرار الدبلوماسي الحصيف من قبل الملك وجعفر العسكري ونوري السعيد وبقية النخبة الحاكمة لضاع لواء الموصل من العراق مثلما ضاع لواء الاسكندرون من سوريا الشقيقة بعد أن استولت عليه تركيا بقيادة عصمت أنونو الذي خلف كمال أتاتورك لرئاسة جمهورية تركيا.

وفي عام ١٩٢٨ كانت حصص I. P. C موزعة كالآتي[٨]:

جدول (٢)

تفاصيل حصص I. P. C

النسب المئوي للأسهم	الشركاء
٢٣,٧٥	١ ـ Anglo-Persian Oil Co. (الشركة الإنكليزية الفارسية)
٢٣,٧٥	٢ ـ Royal Dutch Shell Co. (الشركة الهولندية الملكية)
٢٣,٧٥	٣ ـ French Group (المجموعة الفرنسية)
٢٣,٧٥	٤ ـ American Group (المجموعة الأمريكية)
٥,٠٠	٥ ـ C. S. Gulbenkian (كولبينكيان)

وبما إن إنكلترا تملك ٤٠٪ من الشركة الهولندية الملكية فإن حصة إنكلترا الحقيقية في شركة I. P. C كانت ٣٣,٧٥٪ (ثلاثة وثلاثون بالمائة). في الواقع كانت I. P. C شركة بريطانية حسب المادة (٣٢) من اتفاقية ١٩٢٦،

٨) Government of Great Britain, The Iraqi Petroleum Company, Letter No. 23616, 18 January 1934 to J. C. Walton, Esq. C. B., M. C., L/ P&S/ 12/2882

وهي مسجلة في بريطانيا العظـمى. وبالرغم من إن المادة السابعة من الاتفاقية تلزم I. P. C أن تدفع ٤ شلنات ذهبية لحكومة العراق للطن الواحد ولمدة (٢٠) عامًا فقد خلت المعاهدة من أي فقرة تحدد حق الغراق بالمشاركة برأس مال الشركة أو صناعة قراراتها. هذا الخلل في ترتيب العلاقات سبب استياء الطبقة المثقفة وأدّى إلى استقالة وزيرين هما محمد رضا الشبيبي وزير التعليم، ورشيد عالي الكيلاني وزير العدل اللذين استقالا احتجاجًا على الحيف الاقتصادي الذي يلحق بالعراق بسبب تلك الاتفاقية[٩]. وقد بقيت معاهدة النفط مع إنكلترا مصدر جدال وخلافات بين الدولة والجهات الوطنية إلى أن تمكنت الحكومة العراقية تحت قيادة الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد من تعديل الاتفاقية وزيادة حصة العراق من واردات النفط في بداية عقد الخمسينيات مما أدّى إلى تضاعف دخل العراق بشكل كبير وتمكنت الدولة أن تباشر بمشاريع اقتصادية وإصلاحية واسعة. إلاّ إن الإلمام بخلفية هذه التطورات يتطلب دراسة الظروف التي طرأت على الشرق الأوسط ومكنت الحكومة العراقية من استغلالها لزيادة حصتها من النفط والشروع بخطط البناء.

ففي عام ١٩٥١ ارتجت منطقة الشرق الأوسط إثر وقوع انقلاب في إيران أطاح بحكومة الشاه رضا بهلوي ومجيء حكومة راديكالية بقيادة الدكتور محمد مصدوق الذي عمد إلى تأميم صناعة النفط في بلاده مما أدّى إلى اهتزازات عنيفة في اقتصاد دول الغرب الصناعية وتبدلات جوهرية في العلاقات بين الدول المنتجة والدول المستهلكة للنفط[١٠]. فقد استطاعت المملكة العربية السعودية أن توقع معاهدة جديدة مع الشركة العربية الأمريكية (ARAMCO)

٩) محسن الموسوي، نفط العراق (بغداد: مطبعة الحرية، ١٩٧٣) الصفحات ٤١ - ٤٦ .

١٠) Sydney Nettleton Fisher, The Middle East: A History, 4th edit (New York: McGraw - Hill ,Inc. 1979) P. P. 516-517

جعلت حصة السعودية مناصفة خمسون بالمائة من أرباح النفط، مما هيأ الأجواء للقيادة العراقية لأن تطلب بإعادة اتفاقية العلاقة النفطية مع I. P. C على نفس الأساس أي المناصفة لأجل تلافي نتائج أسوأ ومشابهة لما حدث في إيران. فقد اضطر الجانب البريطاني إلى التنازل والموافقة على المشاركة المتساوية، فوُقّعت الاتفاقية الجديدة في شباط / فبراير / ١٩٥٢ وبمفعول رجعي إلى كانون الثاني / يناير عام ١٩٥١ [١١]. وقد استحصل مجلس الوزراء موافقة البرلمان وأصبحت المعاهدة فاعلة بالرغم من إن بعض النواب وبعض أحزاب المعارضة من أمثال الحزب الوطني الديمقراطي والجبهة الشعبية شجبوا المعاهدة واعتبروها مجحفة بحق العراق ومصالحه الوطنية وطالبوا برفضها غير آبهين بدراسة الظروف التي كان يمر بها العراق والمنطقة برمتها والأوضاع العالمية وإنه لم يكن بالإمكان أحسن مما كان ولو أن العراق كان قد أمم صناعة النفط بأكملها لتعرض لنتائج وخيمة من الاضطرابات وعدم الاستقرار أسوة بما حدث في إيران إثر تأميم النفط وتدخل الدول الكبرى للإطاحة بحكومة الدكتور مصدق وبقية الارتجاجات العميقة التي تعرضت لها إيران إثر ذلك والتي لا محل لذكرها هنا. إلاّ إن إرادة الدولة تغلبت ومضت القيادة العراقية قدمًا في جني مكاسب المعاهدة الجديدة وما جاءت به من دخل هائل الذي هيأ العراق أن ينطلق بمشاريع بناء عامة في جميع أنحاء البلاد.

وعلى إثر إزدياد واردات العراق من نفطه أصدرت الدولة قانون بإنشاء مجلس الإعمار ويحدد أهدافه بعد أن وافق عليه البرلمان وخططت مشاريع مالية واقتصادية تهدف لتطوير وبناء مصادر البلد والنهوض بالمستوى المعيشي للشعب العراقي. وقد تضمنت الخطط على مشاريع لضبط الفيضانات التي كانت تدمر الممتلكات والمحاصيل الزراعية وتفتك بالبشر والحيوان، ولتخزين المياه والري والبزل والصناعة والتعدين وتحسين المواصلات النهرية والبرية

---

١١) محسن الموسوي، صفحة ٧٣.

والجوية. وبعد إنجاز تلك المشاريع فإنها ستُسلَمْ إلى الوزرات المناسبة وحسب اختصاصاتها. وتشير الإحصائيات إلى الزيادة الهائلة في دخل الدولة، ففي عام ١٩٥٠ كانت جميع مصادر الحكومة تبلغ ٢٨ مليون دينار عراقي (د. ع = ٢,٨ $) منها ٧ ملايين دينار من النفط، بينما وصل دخل الدولة في بداية عام ١٩٥٨ إلى ١٣٧ (مائة وسبعة وثلاثون مليون دينار عراقي). لذلك فقد كان وارد النفط يكون (٢٥٪) خمسة وعشرون بالمائة من دخل العراق في عام ١٩٥٠ وازداد إلى (٥٨٪) ثمانية وخمسون بالمائة في عام ١٩٥٨ أي قرابة الخمسة أضعاف كما يبين الجدول الآتي[١٢]:

جدول (٣)

تصاعد دخل العراق من منتجات النفط

الدخل بالدينار العراقي	إنتاج النفط بالأطنان	السنة
٣,٣	٤	١٩٤٩
٣٢,٦	١٨,٢	١٩٥٢
٥١,٣	٢٧,٥	١٩٥٣
٧٣,٧	٣٢,١	١٩٥٥
٦٨,٩	*٢٩,٥	١٩٥٦
٤٨,٩	*٢٠,١	١٩٥٧
٧٩,٩	٣٥,٥	١٩٥٨

* هبط بسبب أزمة قناة السويس.

١٢) Majid Izzat, P. P. 49,58

إعمار العراق

بعد وفاة الملك فيصل الأول عام ١٩٣٣ بقيت أفكار مشاريع البناء والتنمية عبارة عن حبر على ورق نظرًا لعدم خبرة الملك غازي ولعدم توفر الأموال الكافية بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي حدثت بين النخبة الحاكمة بعد غياب قيادة فيصل الحكيمة وتدخل العشائر العراقية وضباط الجيش في السياسة وسلوك العقداء الأربعة المار ذكرهم سابقًا، ثم اندلاع الحرب العالمية الثانية والحرب العراقية البريطانية عام ١٩٤١، كل تلك الظروف حالت دون انطلاق مشاريع الإعمار والبناء في العراق. ولكن وبعد استتباب الأمور نسبيًا بعد الحرب العالمية الثانية ونتيجة الازدياد الكبير في دخل الدينار النفطي هرعت الدولة لتخطيط مشاريع غاية في الطموح لإعمار واستصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية العامة في العراق. لذلك فقد أسست الدولة مجلس الإعمار المذكور سابقًا وجعلته مؤسسة فنية بحتة بعيدة عن الأطماع والمناورات السياسية وخصصت له ميزانية مستقلة.

مجلس الإعمار

يبين الشرح الآتي الهيكلية الأساسية ووظائف مجلس الإعمار[١٣]:

١. يتمتع مجلس الإعمار بمكانة تشريعية (Legis Lative status).

٢. يقوم المجلس بتهيئة وتنفيذ خطة مالية واقتصادية عامة تهدف إلى تطوير مصادر وثروات العراق لأجل النهوض بالمستوى المعيشي للشعب العراقي، وتتضمن الخطط ما يلي:

أ. برامج عامة لمشاريع تُنفذ من قبل مجلس الإعمار في مجالات تخزين المياه والسيطرة على الفيضانات والري وتصريف المياه

---

١٣) الحكومة العراقية، قانون رقم ٣ لسنة ١٩٥٠: مجلس الإعمار (بغداد: مطبعة الحكومة، ١٩٥٠).

والصناعات والمكتبة والمواصلات.

ب. القيام باستطلاع وتقييم المصادر والثروات غير المكتشفة لأجل تحديدها واستغلالها.

ج. تُقدم خطط تلك المشاريع إلى الوزارات المعنية لأجل تنفيذ وإدارة وصيانة تلك المشاريع.

٣. يتكون المجلس من ثمان أعضاء برئاسة رئيس الوزراء، ومن وزير المالية وستة أعضاء يعينون بإدارة ملكية لإشغال مناصبهم لمدة خمس سنوات. ويكون لكل عضو صوتًا واحدًا في القرارات، وفي حالة تعادل الأصوات يكون لصوت الرئيس أو نائب الرئيس القرار النهائي.

٤. يكون للمجلس ميزانية خاصة وتستحصل واردات الميزانية بمقدار ٧٠٪ (سبعين بالمائة) من صافي واردات شركات النفط.

وقد عُين فخامة السيد طه الهاشمي - رئيس وزراء سابق - وأربعة وزراء تقاسموا المسؤولية مع اثنين من المهندسين الأجانب الأول أمريكي والثاني بريطاني.

كانت إحدى الصفات الأساسية الفذّة للمجلس هي إن صناعة القرار لم ينفرد بها شخص واحد بل وزعت على عدد من الخبراء الفنيين والإداريين لأجل التوصل إلى القرارات الحسن ولتلافي التلاعب بأموال الواردات.

أما قسم الري وتصريف المياه فقد كان تحت إدارة خبير هولندي وآخر أمريكي، والطرق والجسور بإشراف خبير إنكليزي، والصناعة والتعدين (المناجم) تحت إشراف خبير فرنسي.

وهكذا وضع افراد هذا الكادر الفذّ أدمغتهم وخبراتهم مع بعض تحت قيادة مجلس الإعمار لأجل تحسين البنية التحتية والنهوض بجميع نواحي المجتمع العراقي.

الخطط الاقتصادية لمجلس الإعمار

مرت خطط مجلس الإعمار (وبعدئذ وزارة الإعمار) بعدة تغييرات حسبما تقتضيه الحاجة. فمنذ بداية تأسيس المجلس قُدمت إلى البرلمان ثلاثة برامج: الأول في عام ١٩٥١، والثاني في ١٩٥٥، والثالث في ١٩٥٦ كالآتي:

١ ـ خطة الست سنوات ١٩٥١ ـ ١٩٥٦ : قدم مجلس الإعمار في شهر آيار / مايو من عام ١٩٥١ خطة وافق عليها المجلس. وقد خُصص لها مبلغ ( ) دينار عراقي موزعة على المشاريع المبينة أدناه[١٤].

جدول (٤)

خطة الست سنوات لوزارة الإعمار وتمويلها

المشاريع	دينار عراقي
١ ـ إدارة وبحوث ومصاريف تنظيمية	٣,١٨٠,٠٠٠
٢ ـ مشاريع الري	٥٣,٣٧٤,٠٠٠
٣ ـ الطُرق الرئيسية والجسور	٢٦,٧٦٦,٠٠٠
٤ ـ الأبنية	١٨,٠١٨,٠٠٠
٥ ـ استصلاح الأراضي ومشاريع أخرى	٢٢,٩٨٦,٠٠٠
٦ ـ مشاريع الصناعة والمناجم	٣١,٠٥٠,٠٠٠
مجموع المصاريف	١٥٥,٣٧٤,٠٠٠

إضافة إلى المشاريع التنموية فقد قدم مجلس الإعمار مبالغ سخية إلى العديد من دوائر البلديات والدوائر الحكومية الأخرى، وقد بلغ مجموع القروض ١٤,١٣٠,٠٠٠ (أربعة عشر مليون ومائة وثلاثون) دينار عراقي. وكانت مصادر تمويل المجلس كالآتي:

١٤) Government of Iraq, The Development Board: Compilation of Laws Concerning the Development Board (Baghdad: Government Press, 1952) P 8

١٦٤,٦٠٠,٠٠٠ (مائة وستة وأربعون مليون وستمائة ألف) دينار عراقي من واردات النفط، وأربعة ملايين قروض أجنبية. وقد بلغ مقدار القروض الأجنبية ١٢,٨٠٠,٠٠٠ (اثنا عشر مليون وثمانمائة ألف) دينار عراقي تمكنت الدولة من تسديدها في نهاية ١٩٥٥.

ونتيجة لتراكم الأموال في مجلس الإعمار ولطبيعة أهدافه ذات الأهداف طويلة الأمد بدلاً من القصيرة والآنية الفائدة فقد بدأت الانتقادات تنهال على المجلس وبأن تلك المبالغ الواردة لخزينة الدولة لم يستفد منها الشعب. غير إن الدولة أرتأت إن تخصيص تلك المبالغ الضخمة للمشاريع الكبرى كالصناعة وبناء المعامل والمشاريع الزراعية ومكافحة الفيضانات وغيرها ستنتج فوائد جمة للشعب على المدى البعيد. إلاّ إن الرأي العام وخصوصًا الطبقة المثقفة والحركات السياسية اليسارية التي يصعب إرضائها كانت تطالب بزيادة الأجور والرواتب وضخ المال في الأسواق لزيادة فرص العمل ومكافحة البطالة. لهذه الأسباب ولازدياد الانتقادات فقد ارتؤي إعادة النظر في بنية مجلس الإعمار في عام ١٩٥٣ وجعله وزارة الإعمار يرأسها وزير وتتبنى خططًا إعمارية جديدة.

٢ ـ خطة الخمس سنوات ١٩٥٥ ـ ١٩٥٩ (١٥):

بعد أربع سنوات من خطة الإعمار قدمت وزارة الإعمار خطة ثانية خمسية (لمدة خمس سنوات) أقرها البرلمان وحلت محل الخطة القديمة. وحسب تقديرات وزارة الإعمار فإن استبدال الخطة القديمة بخطة أخرى أصبح أمر ضروري لعدة أسباب: السبب الأول هو إن واردات النفط ازدادت بعدة أضعاف على ما هو متوقع، فارتأت الوزارة أن تخصص مبالغ أكبر من السابقة وتوسيع مجالات الإعمار.

---

١٥) Qubain, Op. Cit. P. 43

جدول رقم (٥) [١٦]

خطة الخمس سنوات لوزارة الإعمار وتمويلها

المشروع	التمويل بالدينار العراقي
المشاريع الرئيسية	
مصاريف إدارية	٥,٤٥٠,٠٠٠
ري، وبزل، والسيطرة على الفيضانات	١٠٧,٩٣٥,٠٠٠
الطرق والجسور	٥٣,٧٠٠,٠٠٠
المطارات	٥,٠٠٠,٠٠٠
السكك الحديدية	١٥,٥٠٠,٠٠٠
الأبنية الرئيسية	٢٨,٥٥٠,٠٠٠
الصناعة، والمناجم، والكهرباء	٤٣,٥٧١,٠٠٠
تطوير الحيوانات والنباتات، ومصادر المياه الجوفية	٦,٤٧٥,٠٠٠
دون المجموع الكلي	٢٦٦,١٨١,٠٠٠
المشاريع الثانوية	
الأبنية والمؤسسات	٣٢,٢٥٠,٠٠٠
المتفرقات	٥,٨٧٥,٠٠٠
دون المجموع	٣٨,١٢٥,٠٠٠
المجموع الكلي	٣٠٤,٣٠٦,١٠٠

الخطة الجديدة اقتضت تخصيص مبلغ ٣,٤,٣,٦٠٠ (ثلاثمائة مليون وثلاثمائة وستة آلاف) دينار عراقي أي ما يزيد على المليار دولار أمريكي لمشاريع الإعمار من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩. وقد اقتطعت الدولة الحصة الكبرى من واردات النفط حيث خصصت لها ٣٧٪ (سبعة وثلاثون بالمائة). هذا وبلغت الواردات المالية ٢١٥ (مائتان وخمسة عشرة مليون) دينار عراقي

(١٦ Government of Iraq, Law No. 43, 1955. Concerning the Board of Development

من واردات النفط والفائدة المالية المجنية من رؤوس الأموال.

في ربيع عام ١٩٥٤ ابتلي العراق بفيضان هائل صاحبه عدم استقرار سياسي استمر إلى فصل الصيف حين تسنم نوري السعيد رئاسة الوزارة. وقد كان الفيضان من أكثر الفيضانات هولاً في تاريخ العراق، حيث فاض نهر دجلة ورافده ديالى في نفس الوقت وغمرت مياه فيضانات النهرين أراضٍ شاسعة وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من إغراق بغداد العاصمة. وقد قدرت الأضرار الناتجة من ذلك الفيضان ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثون مليون) دينار عراقي، وفي نفس الوقت شهد العراق عدم استقرار بدرجة إنه بين نيسان/إبريل وآب/أغسطس شهدت البلاد تبدل ثلاث وزارات[١٧]. وقد كان واحد من أهم المشاكل التي جابهت نوري السعيد حين تسنم رئاسة الوزارة في صيف ١٩٥٤ هو كيفية إصلاح الأضرار التي وقعت في البلاد جراء فيضان الربيع الماضي ومن ثم كيفية تجنيب البلاد لكوارث مماثلة في المستقبل. لذلك فإن إصلاحات الأراضي الزراعية احتلت رأس قائمة برامج وزارة نوري السعيد وخصوصًا استصلاح وتوزيع الأراضي. منطقيًا أعطى رئيس الوزراء جل اهتمامه إلى مكافحة الفيضانات والسيطرة عليها نظرًا لكونه قد شاهد العديد منها تحدث في العراق والآثار المدمرة التي تتركها على اقتصاد البلد. إلاّ إن دعايات المعارضة تجاهلت جميع هذه النواحي الحيوية وبقيت تنتقد مشاريع الإعمار بكونها مبنية على المشاريع بعيدة المدى بدلاً من توفير الحاجات الضرورية للشعب وإن المستفيدين من تلك المشاريع هم الإقطاعيين وأصحاب الأراضي الكبار والاستعمار الذي سيستغل البحيرات وشبكات الطرق والمستشفيات والأبنية لتحقيق أهداف عسكرية وعدوانية تخدم مصالح الدول الكبرى[١٨].

---

١٧) Waldeman J. Gallman. Iraq under General Nuri - Baltimore: The Johns Hospital Press 1964

١٨) أنظر عبد الأمير هادي العكام، حزب الاستقلال العراقي: ١٩٤٦ - ١٩٥٨ (بغداد: دار الرشيد للنشر ١٩٨٠) المذكرات التي قدمتها الجبهة الوطنية للحكومة، الصفحات ٣٠٣ - ٣٠٦.

وكانت تلك الانتقادات واهية وتطلق اعتباطيًا لأهداف سياسية ولا تراعي المصلحة العامة بل المصالح الحزبية الضيقة، بينما كانت مشاريع الإعمار تهدف إلى البناء والتطور تدريجيًا واستنادًا على فكرة البدء بالأهم ثم المهم وبعد ذلك الأقل أهمية.

وفي عام ١٩٥٤ وجهت وزارة الإعمار دعوة إلى الاقتصادي البريطاني المعروف اللورد سولتر ليقوم بمسح واستطلاع مشاريع عاجلة فنهض الرجل للمهمة وأوصى بالشروع ببناء بيوت إسكان للفقراء من سكان ما يدعى بالصرائف ـ جمع صريفة وهو كوخ مبني من الطين والسعف والحصير ويفتقر إلى أقل متطلبات معيشة البشر ـ ولأجل إسكان ما لا يقل عن ٢٠٠,٠٠٠ (مائتا ألف شخص من سكان الصرائف المحيطين بالعاصمة بغداد). لذلك فقد شرعت الوزارة بتنفيذ خطة مستعجلة لبناء ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) وحدة سكنية كل منها يصلح لعائلة واحدة ومزودة بالمرافق الصحية الحديثة والمياه الصافية وجعلت أسعارها زهيدة وشروط تملكها أو إيجارها غاية في البساطة ولم يكن سعرها يزيد على ٢٨٠ دينار عراقي. وكان من ضمن خطط وزارة الإعمار تخصيص (٧٠ مليون) دينار لبناء (٢٥٠,٠٠٠) وحدة سكنية بحلول عام ١٩٦٠ [١٩].

٣ ـ خطة الست سنوات المنقحة ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠:

استنادًا على توصيات الخبير الإنكليزي اللورد سولتر قدمت وزارة الإعمار برنامجًا إضافيًا جديدًا لمدة ست سنوات إلى البرلمان لأجل الحلول محل الخطة التي تبنتها الدولة في العام السابق وقد قدر المبلغ المتطلب لإنجاز الخطة الجديدة بـ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (خمسمائة مليون) دينار عراقي موزعة لمدة ستة أعوام

١٩) Hal Lahrman, "Development in Iraq, part 1" The Middle East in Transition, ed. Walter Z. Laquer (New York: Prager, 1958) P. P.261, 262

كما تبين التفاصيل في شكل ( ) . هذا وقد كانت الواردات المتوقعة من النفط تبلغ ٣٨٥,٠٠٠,٠٠٠ (ثلاثمائة وخمسة وثمانون مليون) دينار عراقي وخمسة ملايين إضافية من الفوائد المدفوعة .

إنجازات مشاريع الإعمار[٢٠]

ـ المشاريع الزراعية والسيطرة على المياه وبناء السدود ـ إن المساحة الصالحة للزراعة في العراق تبلغ ٢٢ مليون دونم (الدونم ٢٥٠٠ م٢ ويسمى أيضًا مشارة) بينما لم تكن مساحة الأراضي المزروعة حين تأسس مجلس الإعمار تبلغ نصف ذلك العدد . لذا فقد جعل المجلس مشاريع استصلاح الأراضي من أهم أولوياته .

أ ـ مشاريع إعمار الأراضي الأميرية : وهي تشمل مشاريع تامة الاحتياجات وجاهزة للزراعة الحديثة كالمشاتل، ومرشدين زراعيين ومراقبين ودوائر لإرشاد المستثمرين عن كيفية استغلال أراضيهم، ومكائن زراعية ومدارس ومستوصفات وجمعيات تعاونية . وقد أُنجزت ستة مشاريع على هذا النمط منتشرة من الدجيلة إلى مشروع المسيب الكبير وكان عدد المالكين الجدد قد بلغ ٣٤٩٧ (ثلاثة آلاف وأربعمائة وسبع وتسعون) عائلة يملكون نصف مليون دونم .

أما المشاريع الأخرى التي تم توزيعها على المالكين ولم يتسنى تنفيذها بسبب انقلاب عام ١٩٥٨، فهي :

١ . مشروع سنجار تستثمره (٣٠٢٣) (ثلاثة آلاف وثلاثة وعشرون) عائلة .

---

٢٠) عبد الرحمن الجليلي، الإعمار في العراق : سياسة الإعمار وأهدافه ومنجزاته (بيروت : دار مكتبة الحياة، ١٩٦٨) الصفحات ٢٢٧ ـ ٢٣٥ . وانظر أيضًا :
Government of Iraq, Central Development of Statistics, Ministry of - Economic Baghdad: Ministry of Information, 1951-1956

٢ . مشروع الحلة وتستثمره (٦٠٠) (ستمائة) عائلة .

٣ . مشروع الديم وتستثمره (١٣٠) (مائة وثلاثون) عائلة .

وتبلغ مجموعة مساحة الأراضي الديمية والمروية التي كانت بورًا واستصلحت ٢,٦٧٤,٥٦٠ (مليونان وستمائة وأربعة وسبعون ألف وخمسمائة وستون) دونم استثمرتها ٢٠,١٨٧ (عشرون ألف ومائة وسبع وثمانون) عائلة .

والحري بالملاحظة هنا هو التوزيع العادل للأراضي الزراعية من الشمال حيث مزارع الأكراد والتركمان واليزيدية وغيرهم من الأقليات وإلى حدود الجنوب بدون أي تمييز بين الأقليات الأثنية والمذهبية التي يتكون منها سكان العراق .

ب ـ مشاريع السدود والسيطرة على الفيضانات :

١ ـ سد الثرثار: وهو من المشاريع الضخمة التي أتمها مجلس الإعمار وافتتح عام ١٩٥٦ . ويعود كل الفضل لهذا المشروع في الحفاظ على العاصمة بغداد والمناطق الجنوبية من خطر الغرق جرّاء فيضانين خطرين في عامي ١٩٥٦ و ١٩٥٧ وبعدها من السنين، وقد كلف السد ١٦ (ستة عشر) مليون دينار عراقي . وقد أدّى بناء السد إلى خلق بحيرة الثرثار التي تبلغ مساحتها حين امتلائها أكثر من ٢٠٠٠ (ألفان) كم٢، وتستوعب مليار متر مكعب من الماء، وعلى ارتفاع ٦٠ (ستون) مترًا عن سطح البحر. ولم تكن فوائد مشروع الثرثار محصورة في الري والزراعة فحسب بل إن البحيرة كانت توفر مجالات للسياحة والرياضة الصيفية إضافة إلى تلطيف مناخ المناطق المحيطة بها .

٢ ـ سد دوكان: أقيم هذا السد من الكونكريت المسلح ويبلغ ارتفاعه ١١٦ (مائة وستة عشر) مترًا على الزاب الصغير وبلغت كلفته ١٣ (ثلاثة عشر مليون) دينار عراقي . وهو من المشاريع متعددة الأهداف فهو يمنع خطر الفيضان ويحيي أراضٍ بوار شاسعة ويزودها بالطاقة الكهربائية ويوفر فرص

اقتصادية كبرى لجميع سكان شمال العراق. هذا ويستوعب الخزان ما يقارب ٧ (سبع) مليارات متر مكعب مما يكفي لزراعة مليون وربع مليون دونم سنويًا. وكان تراكم المياه في سد دوكان سيؤدي إلى بناء شبكة سدود مرتبطة به هما سد بطمة الذي يروي منطقة مخمور في أربيل والحويجة في كركوك، وسد نهر العظيم الذي كانت له قدرة على إحياء أراضٍ زراعية مساحتها ٨٠٠ (ثمانمائة) ألف دونم.

٣ ـ سد دربندخان: وهو أيضًا من السدود متعددة الأهداف والأغراض وقد شُيد على نهر ديالى لأجل درء فيضاناته، ويسع السد ٣٫٥ (ثلاث مليارات ونصف) المليارات متر مكعب والتي تكفي لزراعة نصف مليون دونم، ويولد السد طاقة كهربائية لمناطق شاسعة محيطة به.

أما المشاريع التي بُدء ببنائها ولم يتسنى للدولة تنفيذها بسبب وقوع الانقلاب فهي:

١. **سد أسكي موصل**: في لواء الموصل وقد تم رسم خرائطه وتصميمه وشرع بالحفريات الأولية اللازمة له وخصصت المبالغ المتطلبة له.

٢. **سد بخمة**: وهو مشروع ضخم لسدٍ يسيطر على مياه نهر الزاب الكبير وقد تم تحضير خرائطه ومواصفاته ومتطلباته المالية وهو يستوعب ٨٫٣ مليار (ثمانية مليارات وثلاثمائة مليون) متر مكعب ويولد طاقة كهربائية عظيمة.

توسيع شط الحلّة: كان المشروع قد بُدء به وهو يهدف إلى سقي أراضٍ مساحتها ١٫٨٠٠٫٠٠٠ (مليون وثمانمائة ألف) دونم زراعة من الأراضي الأميرية الصرفة التي كان المؤمل توزيعها بموجب سياسة الملكيات الصغيرة التي تزرع بالمناوبة.

مشاريع الري وإحياء الأراضي: شرعت الحكومة بمشاريع استصلاح الأراضي من أقصى الشمال كمشروعي ري أسكي كلك ويروي ١٢٠ (مائة وعشرون

ألف) دونم، ومشروع ري أسكي موصل ويروي ٣ (ثلاثة ملايين) دونم، نزولاً إلى مشروع ري أواسط دجلة وديالى حتى أقصى الجنوب في المنطقة الجنوبية لنهري دجلة والفرات.

المبازل: يعتبر تراكم الأملاح على الأرض من أكبر العوامل المعيقة للزراعة وإتلاف الأراضي الخصبة. لذلك فقد اختطت الدولة أن تشق ما لا يقل عن ١٠ (عشرة) مبازل أنجزت وبدأت تغسل الأراضي الملحية المتروكة، منها مبزل الدجيلة ومبزل الوشاش ومبازل الرميثة، وكان من ضمن المخطط بناء ٤ (أربعة) مبازل أخرى في مناطق رافد ديالى وبجانب نهري دجلة والفرات. إضافة إلى ذلك فقد خصصت وزارة الإعمار ثلاثة ملايين دينار للتحريات عن المياه الجوفية وفعلاً تم حفر ٢٥٠ (مائتان وخمسون) بئرًا إرتوازيًا موزعة على القرى البعيدة والصحارى.

هذا وقد أولت الدولة اهتمامًا خاصًا للطرق والجسور حيث بلغت مخصصات هذه المشاريع ٣٦,٦٨٦,٠٠ (ثلاثة مليون وستمائة وستة وثمانون ألف) دينار عراقي، وقد بنى مجلس الإعمار ومن بعده وزارة الإعمار ٢٠٠٠ (ألفان) كيلو متر من الطرق المبلطة بالطرق الحديثة حتى بداية عام ١٩٥٨.

وقد امتدت هذه الطرق بين المدن والقرى الرئيسية للعراق من الموصل والسليمانية وأربيل وكركوك شمالاً إلى الكوفة والبصرة جنوبًا، وكانت هذه الطرق خير عون لنقل المسافرين والبضائع والتجارة.

إضافة إلى ذلك فقد أنجزت الدولة نتائج باهرة في مجالات التصنيع حيث خصصت بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٨ ٢٤ (أربعة وعشرون) مليون باوند استرليني للمشاريع الصناعية وبناء المعامل فقد شيد ما لا يقل عن ٢٠ (عشرون) معمل موزعة في جميع أنحاء العراق لأجل سد حاجات البلاد لمختلف المواد الغذائية ومتطلبات البناء والتعليم والصحة وغيرها[٢١].

---

(٢١) Gallman, OP. Cit. P. 107

وفي نهاية عام ١٩٥٧ وأثناء احتفالات أسبوع «الإعمار» كانت وزارة الإعمار قد نوعت وأنجزت العديد من مشاريعها بنجاح باهر مما حدا بالرئيس الأمريكي دوايد دافيد إيزنهاور أن يقدم هدية ثمينة للحكومة العراقية لسياستها المعادية للتوسع الشيوعي في الشرق الأوسط وكانت تلك الهدية ستضع العراق على قمة الخطط الاستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط. ففي يوم ٢٤/٣/١٩٥٧ قدمت الولايات المتحدة بإيعاز من الرئيس إيزنهاور مكتبة كاملة عن الطاقة الذرية (النووية) وكانت تلك الهدية الرمزية بمثابة خطوة أولى لنية الولايات المتحدة لمساعدة العراق للتوصل إلى حيازته على الطاقة النووية لأغراض سلمية. وبمناسبة قبول العراق لتلك الهدية ذات الأهمية التاريخية الكبرى والتي لا تقدر بثمن، فقد ألقى وزير الإعمار الدكتور ضياء جعفر بلباقته المعهودة خطابًا ردد فيه تهنئة الرئيس إيزنهاور للعراق قائلاً «بأن هذه الهدية لأجل جعل اختراعات الإنسان الحديثة لا تهدف لموت البشرية، بل لأجل مساعدتها على العيش».

وقام رئيس الوزراء نوري السعيد بقص شريط افتتاح المكتبة النووية (الذرية) وأعلن جهوزيتها للاستعمال تحت الإدارة الكفوءة للدكتور كاشف الغطاء الذي كان قد حصل على بعثة (فول برايت) (Full Bright Scholarship) لدراسة الطاقة الذرية في (المختبر القومي للطاقة النووية) في مدينة ليمون الواقعة في ولاية اللينوي، الولايات المتحدة[٢٢].

اهتزت الأوساط السياسية في أنحاء الشرق الأوسط لهذا الخبر الذي كان سيرفع أهمية العراق السياسية والاستراتيجية، ووقع النبأ وقوع الصاعقة على قادة «إسرائيل» الذين لم يكونوا على صلة جيدة مع إدارة إيزنهاور، ولكون الحكومة العراقية لم توقع معاهدة الهدنة مع «إسرائيل»، والتي وقعتها معظم الأقطار العربية في عام ١٩٤٩ بعد انتهاء الحرب معها، ولمعارضة القوى

---

٢٢) Ibid, P. 112

الصهيونية لأي تقارب بين أي بلد عربي والدول العظمى وخصوصًا الولايات المتحدة التي كانت أقوى دولة في العالم عهدئذ[٢٣].

مشاريع الإعمار وتطور التعليم

كما شرح سابقًا كانت القيادة العراقية منذ بداية العهد الملكي تعتبر نشر التعليم من أهم أولوياتها، إلا إن المصادر كانت زهيدة والجهود عصيبة والتقدم بطيئًا. ففي عام ١٩٣٠ - ١٩٣١ كان ثمة ٢٩١ مدرسة ابتدائية (انظر صفحة ٣٩) وعدد التلاميذ يقل عن ٣١,٠٠٠ تلميذًا. وبعد عشرين عامًا أي في عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ كان تزايد عدد المدارس يبلغ ٤٠ مدرسة سنويًا. إلا إن زيادة أعداد المدارس تسارعت وتصاعدت بشكل دراماتيكي بعد عام ١٩٥٢. ويعزى ذلك التسارع إلى عاملين، هما: تأسيس مجلس الإعمار، وزيادة المبالغ التي رصدتها الدولة لشؤون التعليم، ففي الفترة ما بين ١٩٥١ إلى ١٩٥٦ - ١٩٥٧ بنت الدولة ٧٦٠ مدرسة ابتدائية، أي ما يعادل ضعفين ونصف عدد المدارس الابتدائية في عام ١٩٢١. وتُظهر جداول رقم (٦ إلى ٩) إن الزيادة كانت طردية، ففي عام ١٩٥١ - ١٩٥٢ بنيت ١٠٨ مدرسة، وفي عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ تصاعد عدد بناء المدارس إلى ١٢٨ وفي عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥، وعام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ وصلت الزيادة إلى ١٤١ مدرسة جديدة في السنة الواحدة. وكانت التوقعات أن يكون عدد المدارس التي تبنى سنويًا في عام ١٩٦٠ يبلغ ٢٥٠ مدرسة سنويًا.

وتبين التفاصيل الإحصائية الواردة في جداول ٦، ٧، ٨، ٩ والمأخوذة من المعلومات التي كانت تنشرها الدولة سنويًا[٢٤]، التطورات التصاعدية التي

---

٢٣) Qubain, OP. Cit. P. P. 208-209

٢٤) Government of Iraq, Ministry of Education: Annual Reports - Baghdad: Ministry of Education, 1950-1957

طرأت على عدد المدارس والتلاميذ والمدرسين وشؤون التعليم العامة لتلك الحقبة الزمنية .

جدول (٦)

تطور التعليم الثانوي في العراق بين ١٩٥١ - ١٩٥٦

مدارس البنين والبنات	١٩٥٠ - ١٩٥١	١٩٥١ - ١٩٥٢	١٩٥٢ - ١٩٥٣	١٩٥٣ - ١٩٥٤	١٩٥٤ - ١٩٥٥	١٩٥٥ - ١٩٥٦
مدارس البنين	٦٤	٧٣	٨٦	٩٢	١٠٩	١٠٧
مدارس البنات	٣١	٣١	٣٩	٤٢	٥٠	٤٥
المجموع	٩٥	١٠٤	١٢٥	١٣٤	١٥٩	١٥٢
عدد المدرسين						
الرجال	٦٩٨	٨١٤	١,٠٢٧	١,١٨٥	١,٣٥٠	١,٤٣٩
النساء	٣٠١	٣٥٦	٤٣٠	٥٣٥	٦٦٢	٦٩٩
المجموع	٩٩٩	١,١٧٠	١,٤٥٧	١,٧٢٠	٢,٠١٢	٢,١٣٨
عدد التلاميذ						
البنين	١٧,٥٩٤	١٨,٥٥٣	٢٣,٠١٥	٢٦,٦٦٦	٣٢,٠٣٦	٣٤,٠٤٠
البنات	٥,١١٢	٥,٥٢٥	٦,٩٢٦	٨,١٤٤	٩,٤٤٨	١٠,٥٥٨
المجموع	٢٢,٧٠٦	٢٤,٠٧٨	٢٩,٩١٤	٣٤,٨١٠	٤١,٤٨٤	٤٤,٥٩٨

جدول (٧)

تطور التعليم الابتدائي في العراق بين ١٩٥١ - ١٩٥٦

مدارس البنين والبنات والتعليم المشترك	١٩٥٠-١٩٥١	١٩٥١-١٩٥٢	١٩٥٢-١٩٥٣	١٩٥٣-١٩٥٤	١٩٥٤-١٩٥٥	١٩٥٥-١٩٥٦
مدارس البنين	٨١٩	٩٠١	٩٨٤	١,٠٩٤	١,١٥٤	١,٠٦٢
مدارس البنات	١٩٠	٢٠٤	٢٢٨	٢٥٦	٢٧٠	٢٦١
التعليم المشترك	٩٢	١٠٤	١١٧	١٠١	١٥٥	٤٢٥
المجموع	١,١٠١	١,٢٠٩	١,٣٢٩	١,٤٥١	١,٥٧٩	١,٦٤٨
عدد المدرسين						
الرجال	٤,٣٧٦	٥,٠٥١	٥,٥٤٤	٦,٠٧٠	٦,٦٧٩	٧,٢٧٤
النساء	١,٩٩١	٢,٢٣٧	٢,٤٩١	٢,٧٤٩	٢,٩٤٨	٣,١٩٦
المجموع	٦,٣٦٧	٧,٢٨٨	٨,٠٣٥	٨,٨١٩	٩,٦٢٥	١٠,٤٧٠
عدد التلاميذ						
البنين	١٣٨,٥٣٠	١٣٥,٦٥٣	١٧٣,٣٤١	١٩٥,٨٠٣	٢٢٤,٢٥٣	٢٢٥,٧٣٢
البنات	٢٤,٢٤٩	٤٥,٦٠٠	٥٢,٤٨٧	٢٦,٥٣٠	٧٠,٧٤٤	٧٩,٩٤٩
المجموع	١٨٠,٧٧٩	١٩٩,٢٥٣	٢٢٥,٨٢٨	٢٥٨,٣٣٣	٢٩٤,٩٩٧	٣٣٢,٦٨١

جدول (٨)

مجموع تطور عدد المدارس والمدرسين والتلاميذ ما بين ١٩٥١ ـ ١٩٥٦

	١٩٥٠- ١٩٥١	١٩٥١- ١٩٥٢	١٩٥٢- ١٩٥٣	١٩٥٣- ١٩٥٤	١٩٥٤- ١٩٥٥	١٩٥٥- ١٩٥٦
عدد المدارس	١,١٩٦	١,٣١٣	١,٤٥٤	١,٥٨٥	١,٧٣٨	١,٩٠٠
عدد المدرسين	٧,٣٦٦	٨,٤٥٨	٩,٤٩٢	١٠,٥٣٩	١١,٦٣٩	١٢,٦٠٨
عدد التلاميذ	٢٠٣,٤٨٥	٢٢٣,٣٣١	٢٥٥,٧٦٩	٢٩٣,١٤٣	٣٣٦,٤٨١	٣٧٧,٢٧٩

جدول (٩)

التطورات العامة التي طرأت على المجتمع العراقي بين ١٩٥١ ـ ١٩٥٦

المشاريع	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
استهلاك الكهرباء (ملايين الوحدات)	١٤٧	٢٠٧	٢٧٢	٣٩٠	٤٨٩	٥٠٥
استهلاك الماء الصافي (آلاف الأمتار المكعبة)	٤٤	٥١	٥٥	٦٤	٧٧	—
صادرات النفط (ملايين الأطنان الطويلة)	٨	١٨	٢٧	٢٨	٣٠	١٦*
الصادرات الأخرى (ملايين الدنانير العراقية)	٢٧	١٩	١٩	١٨	١٦	٧*
عدد تلاميذ المدارس الابتدائية (ألوف)	١٨١	١٩٩	٢٢٦	٢٥٨	٢٩٣	٣٣٣
عدد تلاميذ المدارس الثانوية (ألوف)	٢٣	٢٤	٣٠	٣٥	٤١	٤٥

أسرة المستشفيات (ألوف)	٥,٤	٦,١	٦,٦	٧,٢	٧,٧	-
مصاريف البلديات (ملايين الدنانير العراقية)	٥	٥,٧	٨,٤	٩,٨	١٣,٢	-

* إحصائيات لمدة ٦ أشهر نظرًا لحدوث أزمة قناة السويس.

كان لازدهار الاقتصاد وازدياد أعداد المتعلمين تأثيرًا مباشرًا على تبدل النسيج الاجتماعي والبنية الطبقية في العراق. فقد لعب التعليم المجاني في جميع مراحله والمتاح لكافة السكان، إضافة إلى الازدهار الاقتصادي الذي وفر فرص العمل في جميع مجالات الحياة، لعبا دورًا هامًا في إتاحة الفرص للأجيال الجديدة التي ولدت في محيط جاهل ومدقع الفقر أن تحقق ما يدعى في علم الاجتماع (السوسيولوجيا) بالنقلة الاجتماعية العلوية (Upper Social Mobility) والصعود بمكانتهم الاجتماعية ومستوياتهم الاقتصادية عن طبقة أسلافهم الواطئة، والدخول إلى رحاب الطبقة الوسطى المهنية المتعلمة والتي كانت تنمو باضطراد واضح وتحتضن أجيالاً ينتمون إلى كافة الفئات السكانية والطبقات الاجتماعية كما يبين الفصل الآتي.

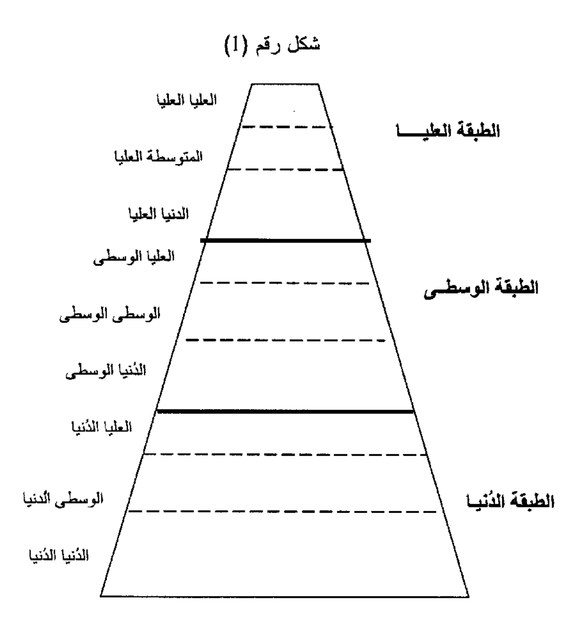
الفصل السابع

عوامل انفتاح ونمو الطبقة الوسطى في العراق

الفصل الآتي يسبر عوامل تطور العلاقات الطبقية وتغير النسيج الاجتماعي في العراق أثناء العهد الملكي ونمو الطبقة الوسطى لانتشار وازدياد فرص العمل والرفاه الاقتصادي الذي أنتجته خطط البناء والإعمار التي أنجزتها الدولة خصوصًا بعد توقيع معاهدة نفط ١٩٥٢ والتي ضاعفت ثروات العراق. إلا إنه يجدر هنا إدراك معنى الطبقة الاجتماعية كما جاء في حيثيات إنتاج أشهر المفكرين الاجتماعيين والاقتصاديين عبر القرون، ثم تطبيق المنهجية المقارنة لذلك الإنتاج لأجل استقراء معالم الفوارق الاجتماعية في العراق والظروف والعوامل التي أدت إلى تطورها.

لقد شغل مفهوم الطبقة الاجتماعية عبر القرون أذهان علماء الاقتصاد والسوسيولوجيا وخصوصًا الغربيين منهم فركزوا دراساتهم على طبيعة العلاقات الطبقية في المجتمعات المختلفة. وقد اتفق معظم المفكرين على تقسيم المجتمعات إلى ثلاث طبقات هي: الطبقة العليا (Upper Class) والطبقة الوسطى (Middle Class) والطبقة الدنيا (Lower Class). إلاّ إن علماء الاجتماع الأمريكان قسموا المجتمع إلى تسعة طبقات كالآتي، ابتغاء لزيادة مضبوطية تعريف مفهوم الطبقة:

شكل رقم (1)



فما هو مفهوم الطبقة الاجتماعية وما هي أصولها؟

تاريخيًا اعتمد تحديد الطبقة الاجتماعية على اقتناء الممتلكات والثروات والأراضي، فأصبحت الطبقة العليا هي المالكة لتلك الممتلكات وما واكبها من سلطة وجاه وترف وبهرجة، وكلما قلت أملاك وأراضي وسلطة الفرد أو العائلة قل تصنيفهم الطبقي حتى يصل إلى طبقة العبيد والأقنان والخدم المعدمين الفقراء الذين صنفوا بأوطأ درجات السُلّم الاجتماعي. وقد بقي استعمال

هذه المقاييس لتفهم ظاهرة الطبقة الاجتماعية عبر القرون مع بعض الإضافات أو الحذف، وإلى الوقت الحاضر.

وقد سبر مفكرو العلوم الاجتماعية أصول الطبقات الاجتماعية وأرجعوه إلى أقدم الحضارات واكتشاف الزراعة في بلاد الرافدين وولادة دولة سومر وأكد وبابل ووادي النيل ونشوء البنى التحتية والاجتماعية والإدارية والدينية، وقد أفرزت هذه التطورات نخبًا قيادية في مجالات السياسة أو إدارة الدولة كالملوك وعوائلهم وحاشياتهم وقادة الجيوش وكهان معابد الأديان وملاك الأراضي والثروات وعاشوا في الرفاه وبهرجة الحياة، أولئك هم الأسياد والطبقة الارستقراطية التي سميت الطبقة العليا التي احتلت أعلى مراكز السُلَّم الاجتماعي. يقابل ذلك المجاميع البشرية من الفقراء والمعدمين والعبيد والخدم والأرقاء والفلاحين والشغيلة والأقنان الذين صُنفوا بالطبقة الاجتماعية الدنيا، وكان هدف وجودهم هو طاعة وخدمة أغراض الأسياد والطبقة العليا لكي يحصلوا على لقمة العيش.

وقد بُحثت حدود ومواصفات الطبقات الاجتماعية أثناء عهود الحضارات القديمة للإغريق من قبل الفلاسفة والحكماء كما فعل أفلاطون (Plato) (٣٤١ - ٤٢٧ ق.م) في كتابه الشهير (جمهورية أفلاطون) وكان هذا الفيلسوف الذي خلده التاريخ ينتمي إلى الطبقة الارستقراطية العليا لكون والده وعائلته من أصحاب الأملاك والأطيان والثروات، بينما بحث تلميذه الذي نافسه شهرة وعظمة أرسطوطاليس (Aristotle) (٢٢٢ - ٣٨٤ ق.م) الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للطبقات مُرَكِزًا على أفضلية الطبقة الوسطى لإدارة الحكم وقد صنف أرسطو نفسه منتميًا إلى الطبقة المتوسطة المتعلمة لأن والده كان يمارس مهنة الطب.

بعد زوال دولة الإغريق، ورثتها الامبراطورية الرومانية التي أسسها الامبراطور أوكتافيان الملقب (Augustus) أغسطس أي العظيم بعد أن انتصر على

غريمه أنطونيوس في معركة (أكتيوم) (Actium) عام ٣١ ق.م، ووحّدَ قادة الجيش تحت إمرته وقد أحاط أوكتافيان نفسه وقادته بالخدم والعبيد من أسرى الحرب والأفارقة، ووصلت الامبراطورية الرومانية إلى أوج عصرها الذهبي أثناء القرن الثاني للميلاد تحت حكم الامبراطور (تراجان). إلا إن الامبراطورية بدأت تتدهور في القرن الرابع الميلادي حيث أخذت قبائل الهن البربرية بقيادة أتيلا وتبعتها قبائل القوط وقبائل الغال والفرس، ثم اجتاحها وباء هائل من الطاعون فانهارت بعد سقوط آخر حكامها الامبراطور (روماليوس أغسطس) عن عرشه في عام ٤٧٦م[١]. وقد أدّى انهيار الدولة الرومانية واجتياحها من قبل تلك القبائل غير المتحضرة إلى دخول أوروبا فترة حالكة الظلام من الحروب والأوبئة والمجاعات إلى أن ظهر في القرن الثامن (٧٠٠S) أحد عظماء التاريخ، القائد (شارلمان) وخلق كيانًا جديدًا ضم معظم أنحاء أوروبا أسماه الامبراطورية الرومانية المقدسة (The Holy Roman Empire)[٢]، واستنبط نظامًا جديدًا مكنه من السيطرة على الأوضاع تدريجيًا والشروع ببناء قواعد اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية في مناطق فرنسا وألمانيا، وبدأت القارة الأوروبية تشهد بداية ما يدعى القرون الوسطى ونظام الإقطاع[٣].

وبعد ذلك ظهر رجل فرنسي آخر من عظماء التاريخ هو (وليام، دوق نورماندي) (William, Duke Of Normandy) واجتاح أوروبا، ثم اكتسب لقب (وليام الفاتح) (William the Conqueror) بعد انتصاره على إنكلترا في معركة هاستنج[٤] (The Battle Of Hasting) عام ١٠٦٦م وأعلن نفسه ملكًا على إنكلترا.

---

١) Ferdinand Lot, The End of the Ancient World: and the Beginning of the Middle Ages) (New York: Harper and Row 1961) P. 209

٢) Ibid, P. 263

٣) J. F. C. Fuller, The Decisive Battles of the Western World 480 B. C–1757 (Granador Publishing Co., 1970) P. P. 201-211

٤) Ibid, P. 271

بعد ذلك قام الملك وليام الفاتح بتوزيع مساحات محددة من الأراضي على أتباعه وقادته وخولهم استغلالها وإدارتها بما سموا لوردات الأراضي إلا إنهم جميعًا خضعوا لسلطة الملك المطلقة مباشرة، وكل من سولت له نفسه بإظهار أي شكل من عدم الولاء للملك، جُرِّدْ من جميع امتيازاته وشُرد في البلاد. هذا وقد انتشر نظام الإقطاع في القارة الأوروبية تحت سيطرة ملوك فرنسا وألمانيا والنمسا والدول الاسكندنافية وغيرها ودام لعدة قرون.

ارتبط نظام الإقطاع بألقاب ورتب النبالة والفروسية التي كان الملك يمنحها لمن يشاء من قادته وأتباعه استنادًا على ولائهم للملك وحسب رضاه عنهم. وكان اللقب النبيل الأعلى في أوروبا تحت الملوك والأمراء هو لقب الأرشدوق (Archduke) ويليه الدوق (Duke) ويليه في فرنسا المركيز (Marquis) الذي كان أعلى من الأيرل (Earl) في إنكلترا، ويلي ذلك الكونت (Count) وبعده الفايكونت (Viscount) إلى آخره نزولاً في الرتب والألقاب الأرستقراطية.

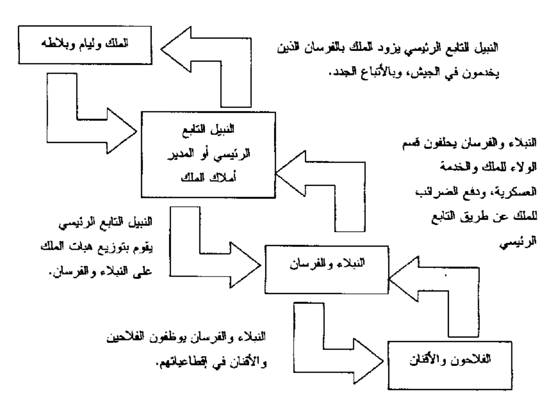
استمد ملوك أوروبا أثناء فترة القرون الوسطى سلطتهم من السلطة الكهنوتية للكنيسة الكاثوليكية حيث اقتضى المجتمع الأوروبي المسيحي أن يكون الملك مسيحيًا ورعًا ويحظى ببركات بابوات وكاردينالات الكنيسة الذين يمثلون إرادة الرب الجليل ويمارسون طقوسهم باسم السيد يسوع المسيح عليه السلام. لذلك فقد شاركت الكنيسة في اقتسام النظام الاقتصادي وحيازة الإقطاعيات وممارسة السلطة السياسية عن طريق بيروقراطية ذات سلطة دينية تكاد توازي بنفوذها بيروقراطية الملوك[٥].

وقد شيد شارلمان ذلك النظام وطَبّقهُ في الامبراطورية الرومانية المقدسة استنادًا على أيديولوجية (القديس أوغستين، ٣٥٤ - ٤٣٠م).

---

٥) Fredrich Heer, The Mideaval World (New York: A Mentor Book, 1961) P. P. 32–36

يبين الرسم البياني الآتي نظام نبالة الأرض والإقطاع الذي أسسه الملك وليام الفاتح وانتشر في أوروبا، بعد أن اقتبسه أيضاً من اراء (Saint Augustine) التي شرحها في كتابه المعنون مدينة الله (City of God) المبنية على تكامل السلطتين، الدينية للبابا والدنيوية للملوك استنادًا على قول السيد المسيح: «اعطي ما لله لله، واعطي ما لقيصر لقيصر». انظر شكل رقم (٣).



وقد بقي هذا النظام ساريًا بنفس البنية لقرون عدة إلى أن شب صراع على السلطة بين الملوك ورجال الدين أدى إلى هبوط السلطة السياسية للكنيسة وصعود سلطات الملوك إلى أعلى المستويات. وقد بدأت نقطة الانطلاق لهذا العهد الجديد أثناء القرن الرابع عشر حين شعر ملك فرنسا فيليب الرابع (Philip IV) الذي عُرِف تاريخيًا باسم فيليب الجميل (Philip the Fair) نظرًا لوسامة وجهه ورشاقة قامته الفارعة والذي حكم فرنسا من ١٢٨٦ -

١٣١٤ . وقد شعر الملك فيليب بأن سلك الفرسان المرتبط بالكنيسة والمعروف باسم (فرسان المعبد) (Knights of the Temple) كانوا يخططون لتجريده من سلطاته وجعله تحت الهيمنة المطلقة للكنيسة، فدبر لهم أمرًا بليل وهاجم بجيشه خيام معسكرات فرسان الهيكل وهم نيام وفتك بهم فتكًا ذريعًا كسر شوكتهم وأزالهم عن طريقه واستبد بسلطات مطلقة بعد أن أجبر البابا كليمينت الخامس (Pope Clement V) على إعلان خضوعه لسلطة العرش، وبذلك بدأ نفوذ الكنيسة السياسي بالهبوط، بينما أخذت سلطات الملوك بالصعود والهيمنة التامة على مقدرات دول أوروبا .

وحين حاول رجال الدين الرجوع إلى حجتهم القديمة ويطالبون الملوك بطاعتهم باعتبارهم يمثلون إرادة الرب وتعاليم السيد المسيح عليه السلام، بادر الملوك بالرد على تلك الحجج بالمثل مؤكدين بأنهم ولدوا ببيوت ملكية واعتلوا العروش وامتلكوا السلطة، وكل ذلك بإرادة الرب القدير، ولولا تلك الإرادة لما أصبحوا ملوكًا ولا أسيادًا . وبما إن البابوات والكاردينالات هم من ضمن رعايا الملك فعليهم ما على بقية الرعية بطاعة العرش وقرارات الملك وإلاّ سيواجهون نتائج وعقوبات قانونية وخيمة أسوة بأي شخص يعصي إرادة الملوك . ومن هذا النقاش اكتسب ملوك أوروبا ما دعي حق الملوك المقدس (The Divine Right of the King) وصاروا يحكمون حكمًا مستبدًا مطلقًا استنادًا على ذلك الحق[٦] .

---

٦) Christopher Knight & Robert Lomas, The Hiram Key (Gloucester: Fair Wind Press,) P. P. 277-283

الطبقة العليا

البابا و الكنيسة قبل القرن الخامس عشر

الملك والعائلة المالكة والأمراء

الطبقة العليا: ويمثل الخط المنقط نفوذ وسلطة البابا والكنيسة التي وازت نفوذ وسلطة الملك قبل القرن الخامس عشر.

البابا و الكنيسة بعد القرن الخامس عشر

النبلاء ولوردات الإقطاعيات

الفرسان وقادة الجيوش

يمثل الخط الصلب هبوط نفوذ البابا والكنيسة إلى مستوى النبلاء واللوردات والفرسان بعد القرن الخامس عشر.

الطبقة المتوسطة من الحرفيين والمتعلمين وصغار الموظفين

الطبقة الوسطى التي كانت أصغر الطبقات عدداً وكانت تحتوي على الحرفيين والتجار والمتعلمين ...الخ

" الطبقة الدنيا "

الفلاحون والأقنان الذي كونوا أكثرية الشعب

الطبقة الدنيا : وهي طبقة الفقراء التي كانت أكثرية الشعب تنتمي إليها .

في تلك الأثناء حدثت تطورات اقتصادية وثيولوجية وثقافية تمخضت عن ظروف جديدة صبت جميعها في مصلحة ملوك أوروبا وثبتت سلطانهم المطلق. التطور الأول هو بزوغ عهد الاستكشافات حين غادر المستكشفون الإيطاليون والبرتغال الأوائل بلدانهم بحثًا عن مصادر اقتصادية ونجحوا في تأسيس تجارة

عالمية مزدهرة وجلبوا ثروات كبيرة إلى أوروبا. وقد بادر الملوك للهيمنة على الفعاليات التجارية مكدسين بذلك ثروات وكنوز هائلة في خزائنهم بينما بقيت الكنيسة ونبلاء الإقطاع معتمدين على ما تغله الأرض وينتجه الأقنان. ومن هنا بدأ اقتصاد الأرض والإقطاع يتراجع في وجه اقتصاد التجارة العالمية وبذلك اكتسب ملوك أوروبا سلطات إضافية ضد الكنيسة وضد طبقة النبلاء وأقارب الملك ممن طمعوا بمنافسته باعتبارهم ينتمون إلى نفس طبقته وتجري في عروقهم الدماء الزرقاء الارستقراطية ولهم حق الطموح بالعرش.

كان من أهم نتائج الاستكشافات هو بداية تصدع نظام الإقطاع وتغير بنية الطبقات الاجتماعية في أوروبا بعد أن بدأت طبقة التجار وأصحاب البنوك ورؤوس الأموال والشركات التجارية الدولية تتنامى بشكلٍ مطرد ودخول أوروبا بمرحلة المركنتالية (Mercantilism) التي عززت سلطة الدولة تحت عروش الملوك ووضعتها تحت التنظيم الحكومي الصارم لكامل الاقتصاد الوطني وانتهاج سياسة جديدة تهدف إلى تطوير الزراعة وصناعة السفن وإنشاء الاحتكارات التجارية الخارجية[٧].

واكبت فترة المركنتالية موجة ثقافية جديدة في أوروبا هي عصر النهضة (Renaissance) وهي الفترة التي تحررت أثناءها أوروبا من الهيمنة الفكرية الثيولوجية المتحجرة للكنيسة الكاثوليكية وشهدت انبلاج فجر جديد من العلم الحديث والأدب واستعادة نوابغ الفكر الفلسفي الإغريقي وقوانين الرومان ودراسة الهندسة والمنطق ورياضيات أبو عبد الله بن موسى الخوارزمي، ودراسة السياسة ومعنى الجمهورية.. وغير ذلك من مجالات المعرفة التي وأدتها الكنيسة لعدة قرون. وانبرت نخبة من مفكري فترة عهد النهضة تساند نظام استبداد الملوك من أمثال جيوفاني بوكاشيو، ولورينزو فال، نيكولو ميكافيلي،

٧) John W. McConnel. The Basic Teachings of the Great Economists (New York: The New York Home Library, 1943) P. P. 143-147

ووليام شكسبير، وتوماس هوبز وغيرهم واجتهدوا إن هيمنة الملوك تؤدي إلى الاستقرار السياسي والاجتماعي والازدهار الاقتصادي(٨).

التطور الثاني الذي صب في مصلحة الملوك وقواهم وأضعف الكنيسة هو عصيان القس الألماني مارتن لوثر الذي فضح الفساد المستشري في كنيسة روما الكاثوليكية وممارساتها التي كانت تدعى السايمونية (Simony)، وبيع صكوك الغفران (Indulgence). والسايمونية هي شراء مناصب الكهنوت، حيث كان البابا يمنح الترفيعات في سلك الكهنوت للقساوس الذين يدفعون له مبالغ أكثر، بينما المفروض أن يكون تدرج مناصب الكنائس مبني على مقدار التزام رجال الدين بتعاليم الدين المسيحي وتقواهم إضافة إلى مدة خدمتهم. أما صكوك الغفران فقد كان بابوات روما يبيعون وثائق للناس تضمن لهم امتلاكهم لمنازل وأراضٍ في الجنة بعد مماتهم وانتقالهم إلى عالم الآخرة. وقد ثار مارتن لوثر على هذه الممارسات وعلى الضرائب الباهضة التي يجمعها بابوات روما واتهمهم بالفساد والانحراف عن تعاليم السيد المسيح واستغلال إيمان البسطاء من الناس. وتطورت حركة لوثر وأسفرت عن ولادة كنيسة جديدة دعيت بالكنيسة البروتستانتية التي أخذت تنافس الكنيسة الكاثوليكية، وقد اكتسبت الكنيسة الجديدة نفوذًا متصاعدًا بعد أن انتمى إليها عدد من ملوك أوروبا وبقي التنافس بين الكنيستين يتصاعد إلى أن انفجر بحرب الثلاثين عامًا (١٦١٨ - ١٦٤٨) والتي انتهت بتوقيع معاهدة ويستفاليا وخروج دول أوروبا من هيمنة الامبراطورية الرومانية المقدسة.

كان من أهم نتائج فترة النهضة وتناقص سلطة الكنيسة الكاثوليكية هي إتاحة التعليم لجميع طبقات المجتمع وبدأت المدارس والجامعات تدرّس العلوم الحديثة مما أدى إلى ازدياد عدد المتعلمين والمثقفين والطبقة المتوسطة من الأساتذة والقانونيين والمهندسين. وقد تزعمت الطبقة المثقفة مجموعة من

---

٨) Fredrich Her, Opcit. P. P. 34–55

الفلاسفة من أمثال سان سيمون، وجان جاك روسو، وفولتير، وجون لوك، وهيلفاثيوس، ودالمبير الذي أدخلوا أوروبا في فترة التنوير (Enlightenmen Era) وثاروا على هيمنة الكنيسة وعلى السلطات المطلقة للملوك ونادوا بالديمقرطية والمشاركة الشعبية في الحكم، وقدم جون لوك نظام السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية لأجل الحد من طغيان الملوك(٩).

وقد أدت فترة التنوير إلى انفجار ثورتين غيّرتا جميع أوجه التاريخ: الثورة الأولى هي الثورة الفرنسية ١٧٨٩، والثانية هي الثورة الصناعية. الأولى قضت على نفوذ الإقطاعيين حيث ذبح الشعب الفرنسي ملكهم لويس السادس عشر ونبلائهم وقطعوا رؤوسهم بآلة الجيوتين وأطلقوا لقبًا واحدًا على كل أفراد الشعب هو لقب (المواطن) فزالت ألقاب النبلاء وتساقطت إقطاعياتهم في فرنسا وتبعتها نتائج مماثلة في أنحاء أخرى من أوروبا.

أما الثورة الصناعية التي حدثت في نفس القرن (الثامن عشر) بعد أن انتشر علم الميكانيك الحديث وبعد أن اخترع المهندس الميكانيكي الاسكتلندي جيمس وات أول ماكنة بخارية التي أدت إلى صناعة القاطرات والبواخر والمعامل ذات الإنتاج الجملي (Mass Production) وقد اصبحت تلك الوسائل العمود الفقري للنظام الرأسمالي الذي اتسم بسيطرة أصحاب المعامل والتجار الذين فاقت ثرواتهم أموال الإقطاعيين، إلا إنهم لم يكتسبوا ألقاب النبالة بل كانوا يدعون بلقب (مستر) أي (سيد فلان) أو ما يعادله باللغات الأخرى. وقد بقي نظام الثلاث طبقات أثناء فترة الرأسمالية، فقد أصبح أصحاب الرساميل بمثابة الطبقة العليا، والحرفيون والأساتذة والمهندسون والمحامون وغيرهم ممن يتقاضون رواتب ويمتلكون تعليمًا عاليًا اعتبروا الطبقة الوسطى، وتحتها الطبقة الدنيا التي تضم العمال والفلاحين والفقراء المعدمين الذين لا يملكون شيئًا.

---

٩) Barry B. Huglis, Continuity and Change in World Politics: The Clash of

وقد كان بعض مفكري عصر التنوير من أمثال سان سيمون، وجون لوك، وآدم سميث من أكبر المؤيدين للنظام الرأسمالي ولهيمنة الطبقة المتوسطة المتعلمة وبأنها هي فكرت واستنبطت وحققت الاختراعات وطورت الصناعة والزراعة والمواصلات وجميع أوجه الاقتصاد، لذلك فهي الأكثر كفاءة للقيادة. وقد استنبط آدم سميث النظام الاقتصادي المعروف بالاقتصاد الحر المبني على حرية السوق وعدم تدخل الحكومة والذي دعاه (Laissez Faire) وأكد على ضرورة ترك الإجراءات التجارية حرة وتجري بشكل ذاتي حسب معملات العرض والطلب[10].

إلا إن النظام الرأسمالي أفرز أوضاعًا مزرية حيث عمّق الفوارق الطبقية وجعل أصحاب الأموال يرفلون بأعلى مظاهر الرفاه واحتكروا الامتيازات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بينما تدهورت أوضاع طبقة العمال إلى أوطأ درجات شظف العيش والفقر والجهل والأمراض الفتاكة الجسدية والاجتماعية مما حدا بعدد من الكتّاب والمفكرين من أمثال تشارلس دكنز وبرناردشو وغيرهم أن يهاجموا النظام الرأسمالي ويعتبروه سبب الأزمات الاقتصادية والآفات الاجتماعية في العالم[11].

إلا إن المفكر الذي هز النظام الرأسمالي وحاول القضاء عليه هو العالم الألماني كارل ماركس الذي يعدّ واحدًا من أكبر مفكري أوروبا الذين ركّزوا على دراسة الطبقات الاجتماعية وتحديد معالمها وهو الذي هاجم النظام الرأسمالي والملكية الفردية الخاصة والطبقة الرأسمالية وكان أكبر نصير للطبقة العاملة واعتقد بوجوب تسلمها مقاليد الحكم لأجل إزالة الفوارق الاجتماعية والاقتصادية وما رافقها من ظلم وإجحاف بحقوق الفقراء ولتحقيق المجتمع

(10) Robert L. Heilbroner, The Wordly Philosophers (New York: Clarion Book, Simon & Schusten 1967) P.62

(11) Ibid, P.39

الخالي من الطبقات الذي يوفر المساواة للجميع.

ويعرف كارل ماركس الطبقة الاجتماعية بأنها مجموعة من البشر تجمعهم علاقات اقتصادية معينة معتمدة على ملكية واستغلال وسائل الإنتاج الاقتصادية. لذلك تعتمد نظريات ماركس على الحتمية الاقتصادية (Economic Predetermination). وقد قسم ماركس المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين هما الطبقة الوسطى التي أطلق عليها اسم الطبقة البرجوازية (Bourgeoisie) والأخرى هي الطبقة العاملة أو البروليتارية (Proletariate). الطبقة الأولى هي طبقة الأقلية التي تحتكر القطاع الاقتصادي عن طريق احتكار وسائل الإنتاج من معامل وشركات تجارية وأراضٍ ومناجم مما يمكنها من الهيمنة على جميع أوجه المجتمع كالدولة والقوانين والتعليم... الخ مما يمكنها من السيطرة على مصائر البشر، بينما الطبقة الثانية التي تكوّن الغالبية العظمى من الشعب وتضم الفقراء والعمال المعدمين الذين يشتغلون في المعامل والمؤسسات الاقتصادية التي تمتلكها الطبقة البرجوازية ويكدحون بفقر مدقع. ويؤكد ماركس على إن المجتمع الرأسمالي بطبيعته مبني على الظلم والإجحاف حسب فكرة فائض القيمة[١٢] (Surplus Value) التي يشرحها ماركس كالآتي:

لنفرض إن السيد (س) يملك معملاً لإنتاج الملابس ويستخدم ٥٠ عاملاً وموظفًا لتشغيل معمله. وعلى سبيل المثال، إن الكفاءة الإنتاجية لذلك المعمل هي مائة بدلة أسبوعيًا، وتباع كل بدلة بربح قدره مائة دينار بعد استقطاع جميع المصاريف الجانبية. واستنادًا على معادلة حسابية بسيطة يحقق المعمل ربحًا صافيًا قدره عشرة آلاف دينار أسبوعيًا: ١٠٠X١٠٠= ١٠,٠٠٠ دينار الربح الصافي الأسبوعي للمعمل.

---

١٢) Karl Marx, Das Kapitai A Critique of Political Economy, edited by Friedrich Angels and Condensed for Modren Reader by Serge L. Levitsky, (Chicago: Henry Regnery Co. 1965) P. P. 293-294

- يدفع السيد (س) معدل ٢٠ دينارًا أسبوعيًا للعامل أو الموظف الواحد ٢٠X٥٠= ١٠٠٠ دينار مجموع أجور الشغيلة أسبوعيًا.
- إذا طرحنا أجور الشغيلة من حاصل ربح المعمل الذي يستلمه السيد (س) بالمعادلة الحسابية التالية: ١٠,٠٠٠-١٠٠٠= ٩٠٠٠ دينار صافي الربح الذي يجنيه السيد (س) أسبوعيًا، بينما الفرد العامل في المعمل ٢٠ دينارًا أسبوعيًا. وتتكرر هذه المفارقات في الدخول أسبوعيًا وشهريًا وسنويًا مما يجعل السيد (س) وعائلته تكدس الأموال الطائلة والعيش في أعلى مستويات الرفاه لا لسبب إلا لكونه يمتلك المعمل، ولم يقم بأي دور في صناعة السلعة ما عدا جلوسه في مكتبه الفاخر ليعطي الأوامر، بينما لا يكفي دخل الشغيلة الذين قاموا بإنتاج سلع ذلك المعمل لسد الحاجات الأساسية لهم ولعوائلهم. وبذلك يزداد الأغنياء غنىً بينما يزداد الفقراء فقرًا بمرور الزمن وتتضاعف مآسيهم ومشاكلهم الاجتماعية. وهنا يكمن الظلم والإجحاف في صلب النظام الرأسمالي. إذ إن مبلغ التسعة آلاف دينار الذي ربحه السيد السيد (س) هو فائض قيمة جهود العمال والمفروض أن يوزع عليهم بالتساوي ليعيشوا برفاه لأنهم المنتجون. إلا إن النظام الرأسمالي المبني على الملكية الخاصة يخول الطبقة البرجوازية أن تحصد الأرباح الهائلة عن طريق استغلال وحرمان العمال[١٣].

هذه الأوضاع المجحفة تؤدي إلى إدراك الطبقة العاملة إن سبب أوضاعهم المزرية هو النظام الرأسمالي المبني على الظلم، ووجود تلك الطبقة الطفيلية المستغلة (الطبقة البرجوازية) مما يؤدي إلى ولادة شعور طبقي يجمع العمال ويوحدهم ويدفع الطبقة العاملة إلى الثورة والإطاحة بالطبقة البرجوازية ومصادرة المعامل والشركات وجميع وسائل الإنتاج وتوزيعها على العمال

---

١٣) Ibid

وإلغاء النظام الرأسمالي وإقامة النظام الاشتراكي الذي يتطور ويؤدي إلى تحقيق النظام الشيوعي حيث تتحقق المساواة والعدل للجميع وتزول الطبقات. لذلك أطلق كارل ماركس شعاره المعروف (يا عمال العالم اتحدوا، فلن تخسروا سوى أغلالكم).

وقد انتشرت أفكار ماركس في معظم أنحاء العالم وتبنّى الاتحاد السوفياتي النظام الاشتراكي ما بين عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٩١ وكذلك بَنَتْ الصين الشعبية نظامها الاقتصادي الاشتراكي على نظريات كارل ماركس.

ولكن ببزوغ القرن العشرين بدأت حدود الطبقات الاجتماعية تتداخل بواسطة اتحادات العمال التي بدأت تتكاثر أثناء القرن التاسع عشر وخصوصًا بعد أن وحدها الفيلسوف والمصلح الاجتماعي المعروف روبرت أوين في عام ١٨٣٤ بمؤسسة واحدة دعاها (الاتحاد القومي الأعلى الموحد لنقابات العمال) (The Grand National Consolidated Trade Union).

ثم انتشرت نقابات العمال في بقية انحاء أوروبا ووصلت أمريكا فقلصت سطوة أصحاب المعامل والأموال وطالبت بحقوق العمال وحسنت أوضاعهم. أما العامل الثاني الذي حسن أوضاع العمال فهو توفر التعليم المجاني الذي أعطى الفرص لصعود الأجيال الجديدة من الطبقات العاملة والفقيرة إلى مستويات معيشية أعلى بما دعي بالصعود الطبقي (Upper Mobility).

وبسبب تداخل حدود الطبقات قدم عالم الاقتصاد والاجتماع الأمريكي (من أصل نرويجي) (ثورستاين فبلن) (Thorstein Veblin) مفاهيم جديدة للطبقة الاجتماعية تختلف عن بقية النظريات التي بنت حدود الطبقات على مقدار امتلاك أو عدم امتلاك الأموال والأملاك. فقد ركز فبلن على أسلوب العيش وطريقة استهلاك السلع والأدوات، وأكد أن الانتماء الطبقي للأفراد والعوائل يعتمد على قيمة أو غلاء أو رخص السلع والأدوات المستعملة لمقتضيات الحياة. فعلى سبيل المثال الشخص الذي يقتني ملابس

فاخرة ويسكن قصرًا واسعًا أنيقًا ويقتني السيارات الفارهة والأثاث الغالي يعتبر من الطبقة العليا، بينما الشخص ـ حتى إذا كان وافر الغنى ـ إلاّ إن السلع ووسائل العيش التي يستخدمها رخيصة يعتبر من طبقة أوطأ[١٤].

ويقسم فبلن وظائف السلع إلى نوعين: الوظيفة الظاهرة الأصلية (Manifest Function) والوظيفة الثانوية أو الكامنة (Laten Function). فعلى سبيل المثال لماذا يشتري شخص بدلة بألفي دولار بينما توجد بدلات جيدة بمبلغ مائة وخمسين دولار، وكلا البدلتين تقومان بنفس الوظيفة الأصلية وهي الكسوة المتطلبة أمام المجتمع والوقاية من الطقس؟

يجيب فبلن إن الوظيفة الظاهرة الأساسية هي الكسوة، ولكن غلاء سعر البدلة وعلامتها التجارية المعروفة تقوم بالوظيفة الثانوية الكامنة وهي إن صاحب البدلة يود أن يثبت ويتباهى كونه ثريًا وقادرًا على دفع ألفين دولار لملبسه مما يرفع مكانته الاجتماعية وإعجاب الناس به. ويسمي فبلن هذا السلوك بـ(الاستهلاك المظهري) (Conspicuous Consumption) أي استهلاك السلع الغالية لأجل البهرجة وإثبات القدرة المالية والثراء للشخص أو العائلة مما يرفع مكانتهم الاجتماعية بين الناس. بينما الشخص أو العائلة التي لا تستهلك سلعًا غالية وتسكن دارًا صغيرة وتمتلك سيارة بسيطة، وملابسهم وأثاثهم من المنتجات الرخيصة، أي إنها لا تمارس البهرجة أو الاستهلاك المظهري، فإنها تعطي انطباع انتمائها إلى طبقة اجتماعية أوطأ من العائلة الأولى حتى لو كانت ثرواتها أوفر[١٥].

\- - - - - - -

---

١٤) Thorstein Veblin "Conspicuous Consumption" Theories of Society By Talcott Parsons (New York: The Free Press, 1965) P. 560

١٥) Ibid

احتوت هذه المقدمة المختصرة على شرح معنى الطبقة الاجتماعية واستطلاع نظريات علماء السوسيولوجيا والاقتصاد والسياسة الذين عالجوا ظاهرة الطبقة الاجتماعية ومواصفاتها وعوامل تطورها عبر القرون ابتداءً من العصور القديمة، ومرورًا بعصر طبقات نبلاء الإقطاع في القرون الوسطى، ثم النظام الرأسمالي وحتى الوقت الحاضر، وعسى أن تساعد هذه التفاصيل على تفهم طبيعة الطبقات الاجتماعية مقارنة بتطور بنية المجتمع العراقي أثناء الفترة المحصورة بين ولادة النظام الملكي والنخبة الكلاسيكية في عام ١٩٢١ وحتى سقوطه إثر الانقلاب العسكري الذي وقع في ١٤ /٨/١٩٥٨.

كانت أهم صفة لمجتمع المملكة العراقية هي عدم وجود طبقة أرستقراطية بالمعنى الذي كان سائدًا في أوروبا. فحين توج الملك فيصل على عرش العراق لم يكن يمتلك سوى راتبه ومخصصاته التي كان يستلمها من الدولة ولم يكن إقطاعيًا ولم يملك أراضٍ زراعية واسعة، ولم يكن أعضاء حاشيته الذين ساعدوه على الحكم من الإقطاعيين أصحاب الأراضي الواسعة والأقنان، بل كان معظمهم من الضباط الذين خدموا في الجيش العثماني ثم نزعوا بزاتهم العسكرية وانخرطوا في خدمة الدولة حيث عينهم الملك في شتى المناصب وبرواتب مناسبة لأجل إدارة شؤون الدولة الحديثة. بينما كان ملوك أوروبا على رأس الإقطاعيين وكانت إقطاعيات الملوك أوسع الإقطاعيات قاطبة ويخضع لهم حاشيتهم من نبلاء الإقطاع كما يبين جدول رقم (٢) الذي يبين النظام الإقطاعي الذي أسسه الملك وليام الفاتح في إنكلترا وانتشر في أنحاء أوروبا.

ولكن كان المجتمع العراقي منقسمًا إلى الطبقات الاجتماعية التقليدية الثلاث: الطبقة الغنية التي اعتبرت العليا، والطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة أو الدنيا. ضمت الطبقة العليا رؤساء العشائر الذين امتلكوا أراضٍ وأطيان زراعية واسعة واستخدموا أبناء عشائرهم كفلاحين لاستغلال أراضيهم معتمدين على نظام القرابة العشائري لربط اولئك الفلاحين برؤساء عشائرهم

بعلاقة تكاد تشابه علاقة الأقنان بسادتهم الإقطاعيين في أوروبا مما جعل عدد من الكُتّاب أن يطلق عليه اسم (نظام الإقطاع في العراق) . وقد انضم إلى هذه الطبقة أصحاب الأراضي الشاسعة (الملاّكين) من سكنة المدن الذين استأجروا فلاحين لزراعة أراضيهم، ولم يكن ثمة نظام لألقاب النبالة الذي ساد أوروبا لعدة قرون ما عدا لقب الشيخ لرؤساء العشائر، ولقب (الباشا) الذي كان لقبًا محترمًا يكتسبه ضباط الجيش الكبار بعد بلوغهم لرتبة أمير اللواء فما فوق، ولقب (البيك) أو الأفندي لبقية الناس، أما سيدات الطبقة الراقية فكن يلقبن بـ(الخانم أو الخاتون) وقد أُخِذتْ هذه الألقاب من العهد العثماني . إلا إنه كانت ثمة فوارق معينة جعلت نظام امتلاك الأراضي في العراق يختلف بشكل جوهري عن نظام الإقطاع في أوروبا . أول تلك الفروق إن أصحاب الأراضي لم يكونوا مرتبطين ارتباطًا عضويًا مع الملك كما كان الحال في نظام الإقطاع في أوروبا (انظر الشكل ٢) بل كان شيوخ العشائر يديرون أملاكهم حسب قانون العشائر الذي منحهم سلطات واسعة للسيطرة على أملاكهم وإدارة شؤون أراضيهم وعشائرهم . ولما كانت العشائر تتمتع بشبه استقلال وأبناؤها يدينون بالولاء التام لشيوخهم، فقد أرادت الدولة كسبهم فادخلت الشيوخ في البرلمان كنواب وأعيان وأخضعتهم للسلطة المركزية في العاصمة بغداد، فشاركوا في قرارات البرلمان .

أما مُلاّك الأراضي من سكان المدن، فقد كانوا رجال أعمال يمارسون أعمالهم حسب النظام الرأسمالي الحر الذي وصفه فيلسوف الاقتصاد الإنكليزي آدم سميث بـ (Laissez Faire) الذي دعا به إلى الحرية التامة للسوق وعدم تدخل الدولة به .

هذا فضلاً عن إن نظام ملكية الأراضي في العراق لم يكن مرتبطًا برجال الدين أبدًا، فلا يوجد في الدين الإسلامي سلطات ثيوقراطية تخول رجال الدين بالتدخل في النظام الاقتصادي والسياسي لدولة كما كان يفعل بابوات

وكاردينالات ونبلاء الإقطاع (انظر شكل ٣).

أما الجيش العراقي فقد كان مؤسسة حديثة تحت قيادة الملك، الإ إن المؤسسة العسكرية لم تكن تستلم رواتبها من الملك، بل كانت مراتب الجيش تستلم رواتبها من وزارة الدفاع حسب نظام الخدمة العسكرية في الدولة وكانت شؤونهم العامة مرتبطة بتلك الوزارة.

بينما في المجتمع الأرستقراطي الإقطاعي الأوروبي كان سلك الفرسان ومؤسستا العسكر والكنيسة وبارونات الإقطاع ملتحمة عضويًا تحت سلطة الملوك، كما يوضح (شكل ٢) نظام الطبقات الاجتماعية في أوروبا.

استنادًا على هذه التفاصيل التاريخية، فمن الممكن وصف النظام في العراق (بالأوليغاركي) (Oligarchy)[١٦] الذي تديره طبقة رجال الأعمال البرجوازيين الذين هيمنوا على جانب واسع من النظام الاقتصادي والسلطة السياسية بالرغم من وجود بعض العناصر السياسية من الذين لم يمتلكوا أراضٍ أو ثروات من أمثال نوري (باشا) السعيد والدكتور محمد فاضل الجمالي وأحمد مختار بابان وسعيد قزاز وخليل كنّة وجميعهم تسنموا حقائب وزارية أو رئاسة الوزارات لكنهم لم يمارسوا الأعمال الحرة بل اعتاشوا طيلة حياتهم على الرواتب التي خصصتها لهم الدولة، إلاّ إنهم تعاونوا مع شيوخ العشائر لكونهم كانوا يملئون أسواق العراق من شماله إلى جنوبه بأجود أنواع السلع الزراعية المختلفة وبأسعار مناسبة، ويصدّرون الفائض إلى الخارج. وكذلك شجعت الطبقة البرجوازية لتحقيق طموحاتها للإثراء ولدور رجال الأعمال في تعزيز الاقتصاد وتنمية القطاع الخاص مع إبقاء الخدمات الأساسية كالكهرباء وإسالة الماء والمواصلات كالسكك والنقل الجوي، وصناعة النفط، والتعليم وغيرها من متطلبات الحياة الأساسية، بقيت من ضمن القطاع العام

١٦) الأوليغاركي: هو نظام الدولة الذي يكون تحت سلطة القيادة الجماعية المؤلفة من النخبة الحاكمة.

وتدار من قبل دوائر الدولة.

كان نظام العراق شبه الديمقراطي والمبني على الاقتصاد الحر (كما اصطلح آدم سميث) أثناء عقوده الأولى يعكس صورة أقرب إلى النظام الرأسمالي الذي وصفه كارل ماركس، منه إلى النظام الإقطاعي المبني على أرستقراطية الأرض واستبداد الملوك الذي أيده نيكولو ميكافيلي وتوماس هوبز. أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد كان اقتصاد العراق يتطور ويقترب من نظام (جون م. كينز) (John M. Keynes)[١٧] الذي يرتكز على تعاون القطاعين العام والخاص بشكل متكامل لتلبية احتياجات الشعب العراقي.

كانت السمة الواضحة في العراق أثناء الحكم الملكي هي التطور السريع والعميق في البنية الاجتماعية، وخصوصًا نمو الطبقة المتوسطة واتساعها لتشمل الأجيال الجديدة من الطبقة العليا الغنية والطبقات الدنيا الفقيرة. وكان ثمة عاملان أساسيان لهذا التطور هما انتشار التعليم والانفتاح الاقتصادي. إذ إن النظام الدراسي الحديث الإقبال على المدارس ومن ثم النتائج الطيبة التي حصدها خريجو المعاهد العالية جعلت شيوخ العشائر ومُلاّك الأراضي يدركون أهمية التعليم والمكانة المرموقة التي يتبوأها الأشخاص الذين يحصلون على شهادات عالية واكتسابهم للألقاب المهنية المحترمة كالطبيب والمهندس والمحامي والأستاذ وضابط الجيش والشرطة وغيرها من الألقاب الحرفية للطبقة الوسطى والذين أصبحوا مصدر فخر لآبائهم الجهلاء الذين لم يحصلوا على أي مستوى من التعليم وبقوا أميّون لا يقرأون ولا يكتبون أو تمكنوا من الحصول على بعض التعليم الابتدائي.

النقطة المهمة هنا هي إن الأجيال الجديدة من أبناء الطبقة العراقية العليا كشيوخ العشائر وأصحاب الأراضي والأملاك أدركوا أهمية التعليم واكتسبوا عقلية الطبقة المتوسطة المتعلمة والتي تأخذ بزمام الأمور والمبادرة في إدارة

---

١٧) Robert Heilbrone, Opcite. P. P. 246-247

شؤونها والدخول في معترك الحياة العملية بجميع متطلباتها بدلاً من الاعتماد على ثروات وخدم آبائهم وأجدادهم. وبذلك فقد تخلى أبناء الشيوخ وملاك الأراضي عن المواقف المتعالية لأسلافهم الذين اعتمدوا في معيشتهم على جهود الفلاحين والعبيد بشكل يكاد يكون طفيلي كما يصف (سان سيمون) بارونات الأرض الأرستقراطيين الذين استغلوا كَدْح وجهود الطبقات الفقيرة العاجزة والقانعة بمصيرها.

فقد أضحى أبناء الشيوخ وملاك الأراضي محامون وأطباء ومهندسون يعتمدون على العلوم التي اكتسبوها والخبرة المهنية المتطلبة لقيادة المجتمع وبدأوا يتغلغلون في مختلف نواحي الحياة مع عناصر الطبقة المتوسطة الأخرى والتي بدأت تحل تدريجيًا محل العناصر القديمة الحاكمة أو المسيطرة على الاقتصاد والتي ترجع جذورها إلى العهد العثماني.

ولأجل تثبيت هذه التحليلات التي تتناول تطور البنية الاجتماعية في العراق فقد اختار المؤلف عائلتين، الأولى هي عائلة الأستاذ المحامي ثامر الجريان والتي تنتمي إلى آل بو سلطان الذين ينتمون إلى عشائر الزبيدية والتي هي من أكبر وأعرق العشائر العراقية التي استقرت في أواسط العراق وامتلكت الأطيان الزراعية الشاسعة والعديد من الفلاحين والخدم والعبيد، والعائلة الثانية هي آل النفطجي التي سكنت مدينة كركوك منذ قرون وامتلكت أراضٍ زراعية شاسعة، أي إنها عائلة زراعية من سكنة المدن.

مقابلة مع الأستاذ المحامي ثامر عبد المحسن نايف الجريان[18].

- والده عبد المحسن نايف الجريان شيخ آل بو سلطان ونائب في البرلمان العراقي، وعين في برلمان الاتحاد الهاشمي.

---

١٨) مقابلة في دار المحامي ثامر الجريان، الخالدية ـ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، في ٥/٥/٢٠٠٩، (مساءً).

- آل بو سلطان ينتمون إلى عشائر الزبيدية الكبرى.
- مضاربهم، أواسط العراق في الحلة على نهر الفرات.

أولاد الشيخ عبد المحسن نايف الجريان هم كما يلي:

- **حاتم الجريان**: الابن الأكبر، حصل على بعض الدراسة ثم تفرغ للزراعة في أملاك والده.
- **عادل الجريان**: تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت.
- **عامر الجريان**: درس في كلية فكتوريا في مصر وبعد تخرجه أصبح موظفًا في الدولة العراقية.
- **ثامر الجريان**: مواليد ١٩٤٢ حاصل على شهادتين جامعيتين، الأولى من كلية اللغات والثانية من كلية الحقوق. تخصص في الشؤون المالية وإدارة البنوك.

كان بإمكان أولاد الشيخ عبد المحسن الجريان أن يترعرعوا في أكناف ثروة والدهم ويستمرون على نهج أجدادهم بالاعتماد في العيش من واردات أملاكهم التي يديرها العديد من الفلاحين والخدم والسراكيل. إلا إن هذا الجيل الجديد من أبناء الشيخ الجريان آثروا جميعًا أن يدخلوا المدارس والجامعات والاعتماد على تعليمهم في شق طرقهم في حياة العمل مع أبناء الطبقة الوسطى.

أما الأستاذ ثامر الجريان فلم تكفه طموحاته بالحصول على شهادة في اللغات والتي أهلته للتدريس في المدارس الإعدادية، بل ثابر وأضاف إلى إنجازه حصوله على شهادة الحقوق التي أهلته أن يتسنم وظائف لها علاقة بالأمور المالية والسوق، فضرب ثامر بذلك مثلاً واضحًا لتحقيق الطموحات التي كانت متوفرة للشباب من جميع شرائح المجتمع في تلك الحقبة من تاريخ العراق.

مقابلة مع الأستاذة المحامية خالدة عبود الهيمص، زوجة الأستاذ ثامر الجريان[١٩] وهي ابنة خالته.

والدها الشيخ عبود الهيمص، أحد شيوخ آل بو سلطان. دخل نائبًا في البرلمان العراقي في عقد الأربعينيات من القرن العشرين. تخرجت خالدة الهيمص من كلية الحقوق ومارست المحاماة لمدة أربع سنوات، ثم حصلت على وظيفة في أحد البنوك.

تتميز تفاصيل حياة الأستاذة خالدة بحالة خاصة تختلف جوهريًا عن أوضاع فتيات طبقتها وجيلها، فهي ابنة أحد الشيوخ الكبار والنائب في البرلمان العراقي، وهي محاطة بتقاليد عشائرية محافظة جدًا وكان من المتوقع من والدها ان لا يدعها تتجاوز سن السادسة عشر بدون أن تتزوج خصوصًا أنها تتمتع بقدر واضح من الجمال والجاذبية، وكان المؤمل أن تتوقع أن يتقدم أبناء أكبر الشخصيات العراقية عراقة ومحتدًا وغنىً لخطبة يدها وبذلك تكتفي بالعيش بكنف زوجها الثري ورعاية أطفالها.

إلاّ إن والديها شجعاها على متابعة دراستها إلى أن تخرجت بشهادة القانون من كلية الحقوق ومارست مهنة المحاماة التي كانت في ذلك الزمن تكاد تكون حكرًا على الذكور. بعد ذلك توظفت الأستاذة خالدة في أحد البنوك، وتخصصت في المعاملات المالية، وتزوجت ابن خالتها الأستاذ ثامر الجريان.

وبدخولهم عالم السوق، خرج الشابان ثامر وخالدة من مستوى الطبقة العليا وامتلاك الأراضي والاتكال على جهود فلاحيهم، ودخلوا سوق العمل المنتج والمبني على جهود وكفاءات الطبقة المتوسطة (كما يوضح سان سيمون حدود الطبقات الاجتماعية).

---

١٩) مقابلة مع الأستاذة المحامية خالدة عبود الهيمص، في دار زوجها الأستاذ المحامي ثامر الجريان، الخالدية - أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، في ٥/٥/٢٠٠٩، (مساءً).

المثال الثاني هو آل النفطجي[٢٠]، وهي عائلة تركمانية من ملاك الأراضي سكنت مدينة كركوك منذ قرون. وكانت تمتلك أراضٍ زراعية شاسعة تعتمد على الديم، وكانت أثناء عقد الخمسينيات من القرن الماضي تتوقع أن تصلها مشاريع مجلس الإعمار لتسقي أراضيها سيحًا. وأتذكر أسماء ثلاث قرى من أملاكهم بكاملها مع الفلاحين التركمان والأكراد والعرب، وأسماء القرى هي (طوبزاوة) وهي الأكبر، و(جذيدة)، و(تركلان)، وجميع الأراضي التي تربط بينهم. إضافة إلى ذلك كانت العائلة تمارس منذ زمن بعيد استغلال آبار النفط المتواجدة في أراضيها بأساليب بدائية ومنه اكتسبوا لقب (النفطجي) وأصبحوا من أغنى أغنياء العهد العثماني وبعده العهد الملكي في العراق. هذا وقد امتلكت العائلة دكاكين وأملاك داخل مدينة كركوك ودخل بعض أفرادها أعضاءً في مجلس الأمة، وبذلك عاش آل النفطجي عيشة الأرستقراطية والطبقة العليا بكل مظاهرها ومعانيها كما يصف تلك الطبقة (سان سيمون). ولا زلت أتذكر وكنت صبيًا صغيرًا في عقد الأربعينيات كان ملحقًا في قصرهم أصطبل يضم العديد من الخيول المطهمة وعدة عربات تجرها الخيول، إضافة إلى سيارة رولز رويس (Rolse Roice) فارهة، حيث كان رب الدار (حسين بك النفطجي) يفضل التنقل بواسطة عربة الخيول التي يقودها حوذي على الطريقة القديمة بينما كان أولاده وبناته يستعملون السيارة التي يقودها سائق.

وهكذا عاشت العائلة عيشة بذخ معتمدين على عشرات الفلاحين والخدم الذين كانوا يخدموهم بكل إخلاص وولاء، وكان بإمكان الأجيال الجديدة من آل النفطجي الاحتفاظ بذلك النمط الاتكالي لعيش الطبقة العليا وملاك الأراضي (سان سيمون)، ولا يرفعوا إصبعًا للحصول على العيش الرغيد. إلاّ إن أبناء العائلة لم يكتفوا بتلك الأوضاع فحاول الابن الأكبر (إبراهيم

٢٠) عائلة النفطجي هم أبناء خالة المؤلف، وخوال والدته. وعميد عائلة النفطجي المرحوم صالح (باشا) النفطجي هو جد والدة المؤلف من ناحية والدتها.

النفطجي) الحصول على شهادة القانون، وأصبح الابن الثاني (بكر) طبيبًا، والابن الثالث (غازي) تخرج من الكلية العسكرية وبلغ رتبة عميد (زعيم)، بينما الابن الأصغر (عبد الله) حصل على شهادة الدكتوراه في الزراعة وشرع يحسن إنتاج أراضي والده مستغلاً تعليمه الفني في الزراعة.

هكذا كان نظام الأراضي العتيق يتطور والطبقة الوسطى تتوسع وتمتص الأجيال الجديدة من ملاك الأراضي والعشائر، بينما استمر الآباء والأعمام من الملاكين يزودون العراق بكل أنواع المنتجات الزراعية وكان الفائض يكفي للتصدير وإغراق أسواق معظم البلاد العربية بأجود أنواع التمور والحبوب والحمضيات وغيرها.

والجدير بالذكر هنا إن الطبقة المتوسطة لم تكن تمتص الأجيال الجديدة من الطبقات العليا من المجتمع العراقي فحسب، بل إنها كانت تستقبل بشكل أسرع الشبان والشابات من الذين ولدوا في أدنى طبقات المجتمع. فما هي الطبقة الوسطى؟

إن تعريف الطبقة الوسطى في العراق، وخصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية وانتشار التعليم وحسب هذه الدراسة يقرب إلى أفكار (سان سيمون) منه إلى أفكار (كارل ماركس). فقد هاجم (ماركس) الطبقة المتوسطة (Bourgeoisie) وأعتبرها طبقة الأقلية التي تستغل جهود طبقة الأكثرية الكادحة (Proletariat)، بينما وصفها (سان سيمون) بأنها الطبقة المتعلمة المتنورة والكفوءة للقيادة. وقد كانت الطبقة المتوسطة في العراق تضم المهنيين (Technocrats) من المهندسين والأطباء وأساتذة الجامعة الحائزين على الشهادات الجامعية والحكام والموظفين الكبار الذين تزيد رواتبهم على السبعين دينارًا وما شاكلهم. أما الأطباء الكبار الذين كانت رواتبهم عالية إضافة إلى اقتنائهم لعيادات خاصة فقد استطاعوا الصعود في سلم الطبقات فأصبحو أقرب إلى الطبقة الدنيا ـ العليا (أنظر شكل رقم ١) حسب التعريف

المبني على دراسات تالكوت بارسونز (Talcott Parsons)[٢١]. فعلى سبيل المثال إذا تزوج طبيبان وامتلكا عيادتين إضافة إلى رواتبهم الشهرية العالية، وقسم منهم امتلك مستشفيات بكاملها فازدادت قابلياتهم المالية واخذوا يمارسون سلوك الطبقة العليا حسب مفهوم ثورستان فبلن، فسكنوا القصور المنيفة واقتنوا السيارات الفارهة والأثاث الغالي أي إنهم مارسوا (الاستهلاك المظهري) (Conspicuous Consumption) للإفصاح عن نجاحهم المهني ورفاههم الاقتصادي. إلا إن معظم المنتمين إلى تلك المهن من الأطباء والمحامين والمهندسين بقوا داخل حدود الطبقة الوسطى ـ الوسطى.

النقطة الأهم بخصوص تطور البنية الاجتماعية في العراق هي إن الطبقة المتوسطة لم تكن تمتص الأجيال الجديدة من الطبقات العليا فحسب، بل إن الطبقة الدنيا التي كانت تكوّن بحدود ٧٥٪ من الشعب العراقي والتي ورثها النظام الملكي من العهود السابقة، أخذت أوضاعها تتحسن بسرعة واضحة، وبدأ أبناءها من الذكور والإناث يصعدون إلى الطبقة المتوسطة بما يدعى النقلة الاجتماعية العليا (Upper Social Mobility) نتيجة انتشار التعليم بعد الحرب العالمية الثانية. وتضم الطبقة الاجتماعية الدنيا الشرائح الآتية بشكل تقريبي:

الطبقة الاجتماعية الدنيا في المدن: وتشمل صغار الموظفين من المدنيين والعسكريين (الأفراد والعرفاء) وأفراد الشرطة وأصحاب المقاهي والدكاكين والذين يتراوح تصنيفهم ما بين الطبقة الدنيا ـ العليا، والدنيا ـ الوسطى.

تليها طبقة المدن الدنيا ـ الدنيا: وهم خدم البيوت وخدم الدوائر (الفراشين) ونوادل المطاعم وأمثالهم من الذين يتمرغون بفقر مدقع ويعمهون بدياجير الجهل والأمية وآمالهم في الحياة محدودة ويؤمنون بقضاء الله وقدره وبأن هذه

---

٢١) See Talcott Persons, Theories of Society (New York: The Free Press, 1965) P. 407

هي قسمتهم الربانية التي لا سبيل إلى تغييرها.

أما الطبقة الاجتماعية الدنيا الريفية والتي كانت تكوّن نسبة كبيرة من سكان العراق، فقد كانت تحتوي على الفلاحين الذين يعيشون تحت سلطة شيوخ العشائر ويكدحون في أراضيهم بأوضاع مزرية من الجهل والفقر والأمراض المزمنة كالبلهارزيا والملاريا وفقر الدم وسوء التغذية وغيرها ولم يكن الفلاحين يعرفون من هم حكام بغداد أو في ألويتهم بل كانوا تحت السيطرة المباشرة لشيوخهم وبقوا يتمرغون بهذه الأوضاع المزرية جيلاً بعد جيل. إلا إن الدولة بادرت إلى اتخاذ خطوات لتحسين أوضاع الطبقة الفلاحية والعاملة على المدى القصير والبعيد من ضمن مشاريع مجلس الإعمار الذي بدأ فعالياته البناءة في منتصف عقد الخمسينيات من القرن العشرين.

كان العامل الأساس الذي لعب دورًا جوهريًا في تحسين أحوال الطبقة الدنيا الفقيرة في العراق هو افتتاح الدولة للعديد من المدارس في معظم أنحاء الوطن وجعل التعليم مجانيًا. فقد لمس الآباء والأمهات الفقراء الساكنين في المدن والأقضية والنواحي منافع التعليم في فتح أبواب فرص عيش أفضل أمام الأجيال الجديدة وإمكانية حصولهم على مهن ووظائف ورواتب جيدة، عن طريق حصولهم على الشهادات الدراسية فبادروا إلى إدخال أبناءهم للمدارس، وبعد تخرجهم من الكليات وتسنمهم لمهن ووظائف تناسب شهاداتهم، ارتفع أولئك الأبناء عن طبقة آبائهم ودخلوا في الطبقة الوسطى. فعلى سبيل المثال أدخل الجندي الفقير، أو خادم الدائرة أو المدرسة (الفراش)، أو سائق الحافلة المدقع الفقر الذي لم يكن دخله يزيد عن الثمانية دنانير شهريًا، أدخل ابنه إلى المدرسة الابتدائية حسب نظام التعليم الإجباري المجاني الذي تبنته الدولة في عقد الثلاثينيات. وكانت المدارس مفتوحة للجميع فجلس التلميذ الفقير المهترئ الملابس والأحذية في نفس الصف مع ابن الأغنياء الذي يرتدي ملابس وأحذية غالية على طاولتين متجاورتين، حيث تبدو بوضوح الفوارق

الاجتماعية بواسطة نوعية السلع المستهلكة.

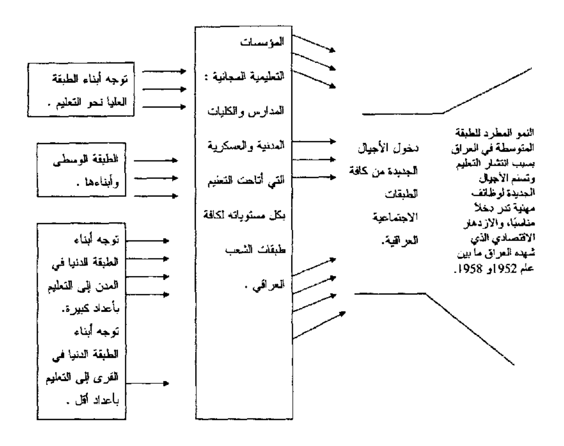
تخرّج ابن الفقير من الثانوية ودخل الكلية العسكرية. ويؤكد أحد الضباط العراقيين الكبار العميد الركن إسماعيل العارف في كتابه الموسوم (Iraq Reborn) صفحة ٣٨٧ بأن معظم ضباط الجيش العراقي جاءوا من عوائل مدقعة في الفقر. وبمجرد دخول ذلك الشاب في الكلية العسكرية فقد تبدلت قيافته رأسًا على عقب بارتدائه البدلة الرسمية الأنيقة لتلك الكلية، وعصا التبختر (Swagger Stick) التي كان كل تلاميذ الكلية العسكرية ملزمين أن يهزوها بأيديهم ويتبخترون بها لأجل اكتساب الهيبة والاحترام. وبذلك المظهر الجديد فقد حقق ذلك الشاب ما أسماه (فبلن See Veblin) بالاستهلاك المظهري ودخل الطبقة المتوسطة مرتفعًا بمراحل عن طبقة والديه ذوي الملابس المهترئة والزريي المظهر.

بعد تخرج التلميذ من الكلية العسكرية برتبة ملازم ثانٍ يبدأ مباشرة باستلام راتب عالٍ نسبيًا، ٤٠ دينار شهريًا أي ما يقارب خمسة أضعاف دخل والده (الفراش) أو الشرطي. وبعد ثلاث سنوات يترفع إلى رتبة الملازم الأول وقد قارب سن الخامسة والعشرين المناسبة للزواج فيتقدم برتبته العسكرية التي تخوله للاقتران بمدرّسة ثانوية من نفس خلفيته العائلية وبراتب يكاد يعادل راتبه. وبإضافة الراتبين تمكنت تلك العائلة الشابة من شراء دارًا صغيرة بأربعة غرف في حي الضباط، وسيارة متوسطة الحجم وأثاث البيت بعد ان وفرت الدولة في سني الخمسينيات تسهيلات عظيمة للعاملين في الدولة لشراء متطلبات الحياة الضرورية عن طريق المؤسسات التعاونية. وقد كان راتب أحد الزوجين لتلك العائلة كافيًا لدفع أقساط الدار والسيارة والثلاجة والأثاث، بينما استعمل الراتب الآخر لمتطلبات الحياة اليومية وبعض التوفير، إضافة إلى انتشال والديهما من حالة الفقر المدقع.

هكذا كانت أبواب الفرص مفتوحة أثناء العهد الملكي أمام جميع الأجيال

الجديدة من الشعب العراقي في جميع المجالات حسب نظام الاستحقاق المبني على الكفاءات الفردية دون النظر إلى الخلفية العائلية أو الاعتبارات الأخرى، وأذكر هنا قصة حدثت مع أحد أصدقائي المقربين ولنطلق عليه اسم سليمان.

شكل رقم (٤)
نمو الطبقة المتوسطة في العراق



كان والد سليمان (أبو سليمان) في عقد الأربعينيات حوذيًا (باللهجة العراقية الدارجة عربنجي) يقود عربة تسحبها الخيول يمتلكها رجل على قدر من المال ويقتني عدة عربات وخيول ويوظف عددًا من الحوذيين. وكان دخل أبو سليمان لا يزيد على بضعة دنانير شهريًا وله عائلة مكونة من صبيين وفتاتين وتسكن العائلة في غرفة (بما يدعى بالعامية نِزل) في بيت كبير واقع

في إحدى أزقة بغداد القريبة من باب المعظم. وكان أبو سليمان رجلاً وقورًا، شريفًا، صادقًا، ورعًا لا تفوته صلاة أو صوم شهر رمضان الكريم مما أكسبه احترام الجميع وأُطلق عليه لقب الحاج أبو سليمان بالرغم من أنه لم يحج بيت الله الحرام.

وحين تخرجت من المدرسة المأمونية الابتدائية ودخلت الغربية المتوسطة. كان سليمان قد تخرج منها ودخل الإعدادية المركزية ولكن جمعتنا ساحات الرياضة، فقد كان سليمان رياضيًا ممتازًا إضافة إلى أنه يتمتع بقابلية طبيعية في تعلم اللغات، وكنت أيضًا أمارس بعض أنواع الرياضة ومن المتقدمين في الصف الأول المتوسط باللغة الإنكليزية، وكان مُدرِّس تلك المادة الأستاذ يوسف هيلانتو يشجعني ويوعدني بمستقبل جيد.

تعززت صداقتي مع سليمان لتشابه مشاربنا وكنا نتدرب في ملعب ساحة الكشافة في أيام الجمع، وفي العطل الصيفية كنا نذهب يوميًا إلى منطقة (الدكرمان) من محلة العيواضية حيث كنا نمارس السباحة والغطس في نهر دجلة، وكنا نتبارى بما تعلمناه من مفردات اللغة الإنكليزية.

أراد والد سليمان أن يدخل ابنه إلى مدرسة دار المعلمين الابتدائية ليتخرج ويصبح معلم ابتدائية بعد سنتين فقط لكي يساعد العائلة إلا أن طموح سليمان الشديد أبى عليه ذلك، فقد كان قد قرر الدخول في الكلية العسكرية والاعتماد على قابلياته الرياضية واللغوية للتقدم في الجيش والنهوض بوضعه ووضع عائلته الاقتصادي والاجتماعي. وفعلاً تخرج سليمان من الإعدادية المركزية ودخل الكلية العسكرية وانتظم في فرقها الرياضية. وبعد أن بدأ يستلم الراتب البسيط الذي تمنحه الدولة لتلاميذ الكلية العسكرية، استطاع سليمان أن يشتري من شارع المتنبي بدرهمين نسختين قديمتين من كتابين أحدهما معنون «كيف تتعلم اللغة الفرنسية» والآخر قاموس فرنسي عربي وانكب عليهما لأجل تعلم مبادئ اللغة الفرنسية بالإضافة إلى اللغتين

الإنكليزية والعربية اللتين يجيدهما. وتخرج سليمان برتبة ملازم ثانٍ وبدأت جميع أوضاع عائلته تتحسن.

وبعد فترة من الزمن كان سليمان قد ترفع إلى رتبة ملازم أول، وفي يوم مشمس جميل من ربيع بغداد كنا نتمشى أنا وهو بجانب حديقة المعرض الغنّاء التي كانت مليئة بالأشجار وأنواع الورود التي تفوح منها عطور فردوسية، كانت واقعة بظهر مدرسة الغربية المتوسطة وقريبة من باب المعظم، لاحظنا العديد من الشبان جالسين على المصطبات ومنكبين على كتبهم، وكان بعضهم بالملابس الشعبية (الدشداشة) فالتفت إلي سليمان فجأة وسألني: هل تذكر يا مأمون حين كنتُ أجلس هناك على إحدى مصاطب حديقة المعرض لكي أذاكر دروسي للتهيؤ لامتحان البكلوريا للتخرج من الثانوية في موسم الامتحانات الحار وأنا اتصبب عرقًا وكنت في معظم الأحيان أبقى لأدرس تحت أضواء الحديقة لعدم توفر الجو الملائم للمذاكرة في الغرفة التي كانت تقطنها عائلتي؟ فأجبته: نعم يا سليمان.. أذكر ذلك وأذكر كفاحك في سبيل النجاح ونِعمَ ما حققته بهذا الشأن. ثم سألني ثانية: وهل تذكر فاضل، الشاب النحيل الطويل القامة الذي كان يجلس بجانبي في الحديقة ليدرس، وكان بفقر مدقع حيث والده مُلّة يقرأ القرآن الكريم في أحد الجوامع؟ وكنت أنت تفاجأنا أحيانًا برغيفي خبز وأسياخ الكباب وزجاجة ماء بارد من ثلاجتكم؟

تجاهلت السؤال الأخير وأجبتُ: أجل يا سليمان أذكر فاضل جيدًا، وكان قد ورِثَ عن والده صوتًا رخيمًا وكان أحيانًا يطربنا ببعض مقامات الأستاذ محمد القبنجي التي يجيدها، بالمناسبة ما الذي حل بفاضل؟

فأجاب سليمان: لقد تخرج في كلية الحقوق وتعين مدير ناحية وهو مرشح ليترفع إلى منصب قائمقام، وقد تزوج من فتاة موظفة كانت زميلته في الكلية

ورزقا بطفلين، وقد رأيته قبل بضعة أسابيع وهو يسوق سيارته (التاونس)[٢٢] الجديدة. هؤلاء الشبان الذين نراهم منكبين على كتبهم يذكروني بتلك الأيام العصيبة، وأتمنى لهم التوفيق كما حصل معي ومع فاضل.

فأجبته: عال.. عال.. ما شاء الله.. وبالمناسبة وماذا عنك يا سليمان ألا تفكر بالزواج والاستقرار؟

فابتسم ابتسامة غامضة واجاب باقتضاب: الله كريم.

بعد أيام دعاني سليمان لتناول وجبة عشاء في النادي العسكري الذي كان يشرف على نهر دجلة في محلة البقجة بالقرب من مدرسة الإعدادية المركزية، ووصلت متأخرًا، وحين دلفت إلى غرفة (البار) رأيته منكبًا على جريدة فرنسية أسبوعية عنوانها (إماج) وكان يبيعها رجل يملك مكتبة صغيرة في باب المعظم يدعى (أبو صلاح). وكنت اشتريها لوالدي بشكل منتظم، فنهض سليمان حين شعر بوجودي قربه وحياني وهو يطوي الجريدة، وبعد أن جلست سألته بفضول: ما الذي ستفعله بلغاتك يا سليمان؟ فأجاب بحماس ووجهه يشع أملاً: هل تذكر حين سألتني عن مشاريع زواجي؟ هذه القضية ليست موضع اهتمامي الآن لأنني وبعد تخرجي من كلية الأركان سأدخل كلية الحقوق المسائية وبعد تخرجي منها سأكون قد بلغت الثلاثين من العمر، عندئذ سأتزوج. وبعد أن أصل إلى رتب عالية في الجيش أود أن انتقل إلى السلك الدبلوماسي معتمدًا على لغاتي، وطموحي الأعلى أن أصبح سفيرًا.

ولم يكن سليمان يحلم أحلام اليقظة بل كان يدرك الفرص اللامحدودة التي يتيحها النظام لأمثاله، فكان معتمدًا على قابلياته بخطوات واضحة وثابتة

---

٢٢) في أواسط عقد الخمسينيات استوردت عائلة (عريم) المعروفة سيارات ألمانية متوسطة الحجم ماركة (تاونس) وباعتها بأسعار مناسبة جدًا، فأخذت دوائر الدولة تسهل شراء تلك السيارات من قبل الموظفين والضباط من ذوي الدخول المتوسطة عن طريق المؤسسات التعاونية للدولة فاقتنى العديد من أولئك العاملين في الحكومة لتلك السيارة.

تؤدي إلى تحقيق جميع أهدافه في الحياة.

كان والد سليمان قد توقف عن قيادة العربات بعد أن ناهز الستين من العمر وبعد أن بدأت حافلات النقل والسيارات تحل محل عربات الخيول في شوارع بغداد وانتقلت العائلة إلى بيت متوسط الحجم في الأعظمية اشتراه سليمان بعد أن حصل على قرض من المصرف العقاري، ونظرًا للتدين الواضح الذي يكتنف جو العائلة والتزامها بالتقاليد والشرف، فقد أخذ بعض الضباط والموظفين يتقدمون خاطبين أيدي شقيقتيّ سليمان، أما شقيقه الأصغر الذي كان طالبًا مجتهدًا في ثانوية الأعظمية فكان يطمح أن يصبح طبيبًا.

بعد إحدى مباريات الكرة التي أبدع بها سليمان، انتبه الأمير (الوصي) عبد الإله إلى هذا الشاب الرياضي واستجلبه ليصبح أحد ضباط الحرس الملكي، وكان سليمان قد تخرج بتفوق من كلية الأركان برتبة رئيس (نقيب) ركن فأخذ يبدو ببزته العسكرية الأنيقة والنجوم الذهبية الثلاث وشارة الركن الحمراء على كتفه، وبقامته المتوسطة وصدره العريض ووجهه الحنطي، كان يبدو مثالاً للشاب الوسيم الأنيق. وكان الأمير عبد الإله ينتقي الضباط من ذوي القامات الرياضية الرشيقة والوجوه الوسيمة للحرس الملكي كنماذج للشباب العراقي الذي يفتخر بهم أمام الأجانب.

بدا مستقبل سليمان مشرقًا وواعدًا وبأن الشاب كان في سبيله لتحقيق أهدافه وطموحاته استنادًا على جهوده وخبراته الشخصية وعلى شهاداته الدراسية وعلى المناخ العام لنظام الاستحقاق الذي كان مطبقًا بحدود معقولة أثناء العهد الملكي، والذي هيأه لأن يرتفع بمستواه ومستوى عائلته من الطبقة الدنيا ـ الدنيا التي ولد فيها إلى الطبقة الوسطى ـ الوسطى التي حققها استنادًا على كفاءاته. ولكن جميع تلك التوقعات والإنجازات انهارت فجأة.

ففي صباح ١٤ تموز ١٩٥٨ أذاع راديو بغداد وقوع انقلاب قام به الجيش بقيادة الزعيم (العميد) الركن عبد الكريم قاسم وكان العقيد الركن عبد

السلام عارف، القائد الثاني للانقلاب، يذيع البيان الأول معلنًا سقوط النظام الملكي وولادة الجمهورية العراقية، ويحث الناس على النزول إلى الشوارع، وكانت الأناشيد الحماسية والموسيقى العسكرية تملأ شوارع بغداد من المقاهي والبيوت فنزلنا مع الحشود الجماهيرية الهائلة إلى الشوارع نحتفل بسقوط (نظام العار) ومقتل الملك فيصل الثاني والأمير عبد الإله والعديد من رجال العهد الملكي واختفاء رئيس الوزراء نوري السعيد. وقد شاهدت بأُم عيني جثة الأمير عبد الإله تسحل في مجرى المياه القذرة بجانب الشارع وكانت إحدى عينيه متدلية خارج رأسه وجسده العاري ممزق وأعضائه التناسلية مقطوعة وساقيه مقطوعين من تحت ركبتيه وبعض الرجال يسحلوه بحبال شُدت تحت إبطيه، ثم علقت الجثة المشوهة من سياج مقهى مقابل المدخل الرئيسي لوزارة الدفاع في شارع الرشيد. ثم رأيت جثة رجل شديد الشقرة يبدو أنه أجنبي وهو يسحل بحبال مشدودة خلف سيارة جيب والدماء تسيل منه وكان بعض الرجال يهجمون على الجثة ويوسعونها ضربًا بالعصي أو طعنًا بالمدي. ثم بدأت الإشاعات تنتشر بأن صباح ابن نوري السعيد قد قتل وسحل. ثم تبين إن الشخص المقتول لم يكن صباح بل رجلاً مسيحيًا شبهوه بصباح لأنه بدين وأصلع وأحمر الوجه فلقي الرجل حتفه خطأً.

ثم وصلتُ محلة الميدان ورأيتُ شابًا أعرفه فتبادلنا القبل والتهاني (بالثورة المجيدة) ثم أشار إلى أحشاء كأنها أحشاء الغنم معفرة ومرمية في إحدى مجاري المياه بجانب الشارع وقال إن هذا (ثرب) أي أحشاء فاضل الجمالي. بعد ذلك اتضح بأن رئيس الوزراء السابق محمد فاضل الجمالي كان مختفيًا ولم يلقَ القبض عليه إلا بعد حين. ثم حوكم أمام محكمة العقيد فاضل عباس المهداوي، وحكم عليه بالإعدام، إلا إنه أُطلق سراحه وهاجر إلى تونس وبقي يعتاش على مهنته الأصلية أي التدريس في إحدى الجامعات إلى أن توفاه الله بعد أن جاوز سن الخامسة والتسعين. ولم أعرف لحد الآن لمن كانت

تلك الأحشاء المرمية في مجرى المياه في محلة الميدان والتي أشار إليها صديقي بكونها أحشاء الدكتور الجمالي.

ومنذ اليوم الأول للانقلاب ابتدأت قوائم فصل وتقاعد الموظفين والضباط والمهنيين من الذين اتهموا بانتمائهم إلى العهد الملكي (العهد البائد) تترى، وكان العديد من الذين فصلوا ومنهم صديقي النقيب (الرئيس) الركن سليمان ممن لم يكملوا مدة الخدمة الكافية لاستحقاق التقاعد فوجدوا أنفسهم عاطلين وهم في أوج شبابهم ومستقبلهم حالك الظلام وانتهى مستقبل سليمان البراق لا لسبب سوى إنه بقي مطيعًا لمهنته العسكرية ولم يكن سياسيًا.

وانتهى نظام الاستحقاق وظهرت مقاييس جديدة أدت إلى تقدم وترفيع العديد من العناصر غير الكفوءة لكونهم صنفوا تقدميين أو ثوريين، بينما تراجع الكثير من العناصر الكفوءة وأصحاب الخبرات الفنية لأنهم صنفوا رجعيين أو من المنتمين إلى العهد البائد. فالثوريون هم المؤيدون للحزب الشيوعي الذي سيطر على معظم نواحي الحياة في العراق في عام ١٩٥٩، وكل من لم يكن شيوعيًا فهو رجعي أو عميل الاستعمار وتعرض للحيف.

وبعد ذلك ساد في العراق مقياس معين لتحديد صلاحية الأفراد لأعمالهم من الضباط والجنود والموظفين والأساتذة والشرطة وحتى الأطباء والمهندسين، والمقياس هو إذا كان الفرد مخلصًا للجمهورية وللزعيم عبد الكريم قاسم. وإذا اتهم شخص ما بعدم الإخلاص للجمهورية أو الزعيم، ولو بشكل اعتباطي، فإن ذلك الاتهام كافٍ لفصله من عمله وحتى في بعض الأحيان الاعتداء عليه جسديًا إذا اتهم أنه (شتم الزعيم).

الجدير بالذكر هنا إن تفاصيل حياة النقيب الركن سليمان تنطبق على قائديّ انقلاب ١٤ /٨/ ١٩٥٨ الزعيم (العميد) الركن عبد الكريم قاسم والعقيد الركن عبد السلام عارف اللذين كانا نموذجين للشباب الذين

استفادوا من النظام الدراسي ونظام الاستحقاق الذي اتبعه العهد الملكي. فقد ولد عبد الكريم قاسم في فقر مدقع حيث كان والده نجارًا فقيرًا اضطر إلى الهجرة إلى إحدى أقضية العراق[٢٣]، وتمكن الشاب عبد الكريم من الحصول على شهادة تخوله التدريس في المدارس الابتدائية. إلا إن طموح عبد الكريم دفعه للدخول في الكلية العسكرية أثناء عقد الثلاثينيات وتخرج برتبة ملازم ثانٍ، ثم استطاع بكفاءته وشجاعته أن يترفع ويحصل على شهادة الأركان. وفي عام ١٩٥٨ كان يحمل رتبة زعيم ركن (عميد) وبذلك فقد تمكن عبد الكريم من تحقيق نقلة اجتماعية عليا (Upper Mobility) من طبقة والديه الدنيا إلى الطبقة المتوسطة. وقد بقي عبد الكريم شريفًا ومتواضعًا واعترف بعدة مناسبات بأنه ينتمي إلى عائلة فقيرة، لذلك فقد كان يتعاطف مع الفقراء ويساعدهم بكرم وشهامة.

أما عبد السلام عارف فقد كان والده يملك دكانًا لبيع القماش (بزاز)، وكان شقيقه يمارس مهنة المكوي. إلاّ إن عبد السلام أنجز تعليمه الثانوي مجانًا ودخل الكلية العسكرية وتخرج فيها ثم تخرج من كلية الأركان ووصل إلى رتبة عقيد ركن[٢٤].

هذه الحقائق تثبت أن الكلية العسكرية كانت مفتوحة أمام الجميع حسب نظام الاستحقاق وإن العديد من الفتيان الذين ولدوا في عوائل مدقعة الفقر استطاعوا أن يصبحوا ضباطًا وحققوا الارتقاء الاجتماعي بدون مساعدة أحد ما عدا اعتمادهم على قابلياتهم حسب الفرص التي وفرها لهم النظام الملكي.

---

٢٣) خليل إبراهيم حسين، عبد الكريم قاسم: بداية الصعود. موسوعة ١٤ تموز. ج٦ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٩٠) صفحة ٨.

٢٤) أحمد فوزي، عبد السلام محمد عارف: سيرته.. محاكمته.. مصرعه (بغداد: مطابع الدار العربية، ١٩٨٩) الصفحات ٥ ـ ٦.

الفصل الثامن

عبد الإله ونوري السعيد
وميثاق حلف بغداد

تمهيد

في يوم مشمسٍ جميلٍ من أيام شتاء مدينة بغداد عام ١٩٥٦، خرجنا نحن التلاميذ الفتيان بتظاهرة صاخبة إثر الاعتداء الثلاثي على مصر الذي شنته إسرائيل وإنكلترا وفرنسا بعد أن أمَّم الرئيس المصري جمال عبد الناصر قناة السويس.

خرجنا والغضب يملأ صدورنا ونُلوحُ بقبضاتنا، نشجب الهجوم على الشقيقة مصر ونهتف بملء حناجرنا بسقوط حلف بغداد الامبريالي والحكام الخونة عملاء الاستعمار والرجعية الذين وقّعوا الحلف عام ١٩٥٥ مع أعداء العرب ضد الحركة التحررية التي يقودها الرئيس جمال عبد الناصر وضد الاتحاد السوفياتي (حصن السلام وصديق الشعوب الضعيفة). وكانت الشعارات تحفل بتمجيد الرئيس جمال عبد الناصر قائد العرب وعدو الاستعمار والصهيونية وبطل حركة عدم الانحياز التي انطلقت من باندونغ في اندونيسيا في نوفمبر عام ١٩٥٥م، واستقطبت معظم دول العالم الثالث. وقد برز الرئيس جمال عبد الناصر بشخصيته الكارزميّة وشبابه (٣٧ عامًا) وقامته الفارعة كأحسن من يمثل العرب في ذلك الحدث التاريخي المهم.

هاجم الرئيس عبد الناصر سياسة الأحلاف العسكرية وصب جام غضبه على حلف بغداد بالذات، مما دفعنا جميعًا أن نناصب ذلك الحلف العداء، وأن نكون على استعداد لنضحي بكل غالٍ لأجل إسقاط من وقّعه، أي نوري السعيد رئيس وزراء العراق والعائلة المالكة الهاشمية. بالرغم من أننا لم نطّلع على ماهيّة الحلف ولم نقرأ أي بند من بنوده، إذ كان يكفي أن (الخائن) نوري السعيد قد وقّعه، وأن القوى التقدمية والرئيس عبد الناصر هاجموه، لذا خرجنا بجموعنا نهاجمه. وكان أكثر ما أثّر على عقلية الشارع العربي العراقي هو الاتهام بأن حلف بغداد يخدم مصالح إسرائيل ويُثَبّتُ سيطرة الاستعمار البريطاني على العراق لأجل غير مسمى.

العالم بين نظام القطبين

كان النظام الدولي يومذاك يتسم بنظام القطبين (Bi-Polar International System) المحكوم من القوتين الأعظم وهما الولايات المتحدة زعيمة المعسكر الرأسمالي الديمقراطي يقابلها الاتحاد السوفياتي زعيم المعسكر الماركسي - الشيوعي، وهما نفس الكتلتين اللتين كانتا متحالفتين أثناء الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا النازية، ولكن الخلاف شبَّ بينهما بعد انتهاء الحرب في عام ١٩٤٥.

وكان الخلاف بينهما لأسباب عقائدية بحتة، أي بين النظام الرأسمالي المبني على الفكر الليبرالي الديمقراطي والاقتصاد الحر وعكسه النظام الاشتراكي المبني على الفكر الماركسي الشيوعي والاقتصاد المبرمج. وقد سبّب ذلك الخلاف تشنجًا دوليًا جعل شعوب العالم أجمع تحبس أنفاسها خوفًا من نشوب حرب كونية طاحنة يُستعمل فيها السلاح النووي الذي سينهي الوجود البشري بشكل مطلق ويحيل هذا الكوكب إلى جحيم هائل لا يصلح لعيش أي كائن حي. لذلك ظهرت كتلة ثالثة على المسرح العالمي مكونة من الدول الصغرى

تزعمها قادة كبار أمثال الزعيم الهندي جواهر لال نهرو والزعيم اليوغسلافي جوزيف تيتو وبعض القادة الأفارقة أمثال كوامي نكروما وأحمد سيكتوري والرئيس المصري جمال عبد الناصر.

ولدت هذه الكتلة في مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ ودُعيت بحركة عدم الانحياز واتخذت مبدأ الحياد الإيجابي شعارًا لها، وكان هدفها الأول تكتيل أكبر عدد ممكن من الدول الصغرى للوقوف بين القوتين الأعظم، في محاولة لتجنب نشوب الحرب العالمية الثالثة، ولإنهاء الاستعمار في العالم. ثم انطلقت فعلاً كحركة منظمة تحت قيادة الزعماء المذكورين أعلاه من مؤتمر بلغراد في أيلول/سبتمبر عام ١٩٦١.

كان ممثل العراق في مؤتمر باندونغ الدكتور محمد فاضل الجمالي رئيس وزراء العراق سابقًا. وقد ردّ الجمالي على تهم عبد الناصر ضد حلف بغداد، بهجوم مقابل فنّد فيه سياسة عدم الانحياز بكونها غير واقعية ومبنية على أسس وشعارات عاطفية بحتة. وطرح الجمالي فكرة مجموعة الأصفار المستمدة من الاعتقاد بأن العالم محكوم بين القوتين الأعظم وأن جميع دول العالم الباقية لا تزيد كونها أصفارًا إذا جُمعت فسيكون الناتج صفرًا لا قيمة له. لذا يقتضي أن تتحالف الدول الصغرى مع أحد المعسكرين العملاقين لطلب الحماية والمساعدات العسكرية والتقنية والسياسة أسوة بإسرائيل التي كانت تبذل قصارى جهدها لتحقيق التحام المصلحة الاستراتيجية لأمريكا في الشرق الأوسط مع الدولة الصهيونية فقط. وكان من رأي الجمالي ونوري السعيد هو أن مصلحة العرب تتحقق عن طريق التحالف مع دول الغرب وأمريكا بالذات ضد الاتحاد السوفياتي الملحد والطامع بالسيطرة على مصادر النفط الواقعة في العالم الإسلامي المتاخم له وللوصول إلى شواطئ البحار الدافئة والسهلة الملاحة، وأن على العرب أن يقنعوا دول الغرب بأن مصلحتهم ترتبط مع البلاد العربية برقعتها الواسعة والغنية بالموارد وليس مع أعداء العرب. وقد ناشد

نوري السعيد زعماء البلاد العربية للانضمام لحلف بغداد لتلك الأسباب ولكن دون جدوى.

انفجرت الجماهير العراقية والعربية جمعاء باحتجاجات ومظاهرات ضد الدكتور الجمالي ونوري السعيد، واعتبرت تلك الآراء أسطع دليل وبرهان على خيانتهما وعمالة النظام الملكي العراقي وخنوعه لقوى الاستعمار الغربي، وقد خطّط العديد من الشبان لاغتيال الجمالي والسعيد لأجل إنقاذ العراق والأمة العربية من هذين (الخائنين)، وانعزل العراق عن أشقائه العرب، وانهالت عليه التهجمات الإعلامية من قبل الجميع خصوصًا في إذاعة صوت العرب من القاهرة.

لذا كان حلف بغداد واحدًا من أهم العوامل التي أدت إلى انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ الذي أسقط النظام الملكي العراقي وألغى حلف بغداد وأدّى إلى حدوث أكبر تغيير في تاريخ العراق منذ خروجه من ركام السلطنة العثمانية عام ١٩٢١م، ولم يزل بعض الضباط الذين ساهموا بانقلاب ١٩٥٨ يتبجحون بإسقاط حلف بغداد كإنجاز وطني عظيم خدم العراق والأمة العربية جمعاء[١].

وبعد ثلاث سنوات، وفي يوم قائظ من أيام ١٩٥٩ خرجنا نحن الشباب ضمن جماهير غفيرة بتظاهرة كبيرة والبهجة تملأ صدورنا والفخر يعلو رؤوسنا وهتافاتنا تهدر ملء حناجرنا احتفالاً بالذكرى الأولى لسقوط حلف بغداد ودك (أكبر صرح استعماري في الشرق الأوسط) وكان الشعار السائد هو (حرية عرب وأكراد حطمنا حلف بغداد). إلاّ أن من الواضح هو أن شعارات تلك التظاهرة قد اعتراها تبدّل أساسي عن شعارات تظاهرات عام ١٩٥٦، فالمتظاهرون بعد ثلاث سنوات أخذوا يهتفون عاليًا بسقوط الرئيس المصري

١) صبحي عبد الحميد، أسرار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق: البداية، التنظيم، التنفيذ، الانحراف. (بغداد: مطبعة الأديب ١٩٨٣) صفحة ٤٢.

جمال عبد الناصر الذي كان إلى فترة قصيرة مضت يُدعى بأنه أعظم قائد عربي، وانهال عليه السباب حيث نعتوه بالخائن عميل أمريكا وأطلق عليه العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس محكمة الشعب (عميل راونتري)، وراونتري كان المبعوث الأمريكي للمفاوضات مع مصر بخصوص الصراع مع إسرائيل، وتلقفت الجماهير العراقية ذلك اللقب. وهكذا انهالت نفس النعوت التي كانت تطلق على نوري السعيد والدكتور الجمالي سابقًا، انهالت يومذاك على جمال عبد الناصر مما خلق بلبلة وشكوكًا عند الناس نحو القيادات العربية ومدى إخلاصها. فإذا كان كل من نوري السعيد وعبد الناصر عميلين للاستعمار فمن هو الخائن ومن هو المخلص للأوطان؟

وإذا كان الموقف من حلف بغداد هو أحد المعايير الأساسية للوطنية في سياسة الشرق الأوسط فلم إذن الهجوم على عبد الناصر الذي لم يتخل عن عدائه لسياسة الأحلاف وبارك انسحاب العراق من حلف بغداد؟

وهل كان العداء أو التأييد لحلف بغداد مقياسًا دقيقًا لوطنية العرب، ولماذا؟ وما هو حلف بغداد، وما هي بنوده؟ وما هي الدوافع التي حدت بالسياسي المحنّك نوري السعيد للدخول فيه؟ وما هي الحوافز التي دفعت بأحسن الضباط تدريبًا وشعورًا بالمسؤولية أن يضطلعوا بفكرة الانقلاب العسكري والإطاحة بالعهد الملكي والانسحاب من حلف بغداد؟

لماذا حلف بغداد (ميثاق بغداد)؟

أراني مُلزمًا أن أجيب على هذه الأسئلة وأن أقدم هذه الدراسة الموضوعية متوخيًا اطلاع الأجيال الجديدة من العراقيين على ذلك الحلف الذي كان بالإمكان أن يغيّر مجرى التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعراق العريق المجيد لكي يستفيد الجميع من دروس الماضي، ولأجل التكيّف مع مقتضيات القرن الواحد والعشرين ونظام العولمة الذي ساد العالم بعد

سقوط الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٩١ وحين سقوط جدار برلين معه أيضًا.

كان حلف بغداد حلفًا عسكريًا دفاعيًا يهدف إلى تحسين العلاقات مع دول الجوار، إيران وتركيا، وبناء جبهة قوية ضد تغلغل الشيوعية في الشرق الأوسط والمدعومة من الاتحاد السوفياتي. وقد سُمّي مبدئيًا (الحلف التركي الباكستاني) وكانت تركيا طامحة لجعل مقره في عاصمتها أنقرة، إلاّ إن رئيس الوزراء نوري السعيد استطاع بواسطة علاقاته بدول الغرب ولرغبته بإعلاء شأن العراق دوليًا أن يجعل مقر الحلف في العاصمة بغداد، وبدّل الاسم إلى (حلف بغداد) واختير الأستاذ عوني الخالدي العراقي الجنسية لمنصب السكرتير الدائم للحلف[٢]، وفي يوم ١٩٥٥/٢/٢٤ أصبح الحلف فاعلاً بعد أن وقّعه كل من عدنان مندرس رئيس وزراء تركيا ونوري السعيد رئيس وزراء العراق.

ارتفع اسم العراق عاليًا على المستوى العالمي بسبب ذلك الإنجاز الدبلوماسي العظيم، وأصبح مركزًا لثقل السياسة الاستراتيجية لدول الغرب في الشرق الأوسط، وفي نهاية عام ١٩٥٧ أطلقت مجلة (Time) الأمريكية ذات المكانة الإعلامية العالمية على نوري السعيد لقب رجل الشرق الأوسط وأظهرت المجلة صورته على غلافها[٣]. فصار العراق يخطو خطوات واسعة وسريعة نحو مكانة دولية عالية ومرموقة تحت قيادة البيت الهاشمي ورئيس الوزراء نوري السعيد. وقد تزامنت أهداف حلف بغداد مع خطط وزارة الإعمار وبدأت الشركات العالمية الكبرى تتولى بناء المشاريع الزراعية والتنموية في جميع أنحاء القطر مما جعل العراق وحسب إحصائيات الأمم المتحدة أقوى دولة عربية

---

٢) Gallman, Iraq Under General Nuri, (Baltimore: The John Hopkins Press, 1963) P. 71

٣) Dee Time, June 17, 1957

اقتصاديًا وعسكريًا[٤]. ولم تكتف الدولة بتسديد جميع التكاليف المستحقة لمشاريع الإعمار، بل إن تراكم فائض الأموال لديها فاق أي بلد عربي آخر بدون استثناء[٥].

الأهداف الأساسية لحلف بغداد

١ ـ الهدف الأول: درء الخطر الشيوعي:

كان نوري السعيد يخشى سياسة الاتحاد السوفياتي التوسعية لكونه يحاذي إيران الغنية بالنفط، كما لا تفصله عن آبار النفط في شمالي العراق سوى رقعة تركيا الصغيرة نسبيًا بالمقارنة بإمكانات دولة عظمى كالاتحاد السوفياتي، وأن الخطط التوسعية الروسية القديمة ما فتأت تداعب أفكار الروس منذ عهد القياصرة، وذلك لأجل التخلص من طوق المناطق الشمالية المتجمدة والعسيرة الملاحة والوصول جنوبًا عبر الشرق الأوسط إلى سواحل البحار الدافئة لأجل تحقيق أهداف اقتصادية واستراتيجية. هذا فضلاً عن المكاسب الكبرى التي يجنيها السوفييت إذا ما سيطروا على حقول النفط الغنية في إيران والبلاد العربية والتي تشكل شرايين اقتصادية بالغة الأهمية لجميع دول العالم الرأسمالي الغربي المخاصم للاتحاد السوفياتي الشيوعي. فإذا ما سيطر الاتحاد السوفياتي على نفط الشرق الأوسط فسيكون مصير الغرب الرأسمالي تحت رحمته، فالاتحاد السوفياتي يومذاك كان دولة عظمى تخطط لتوسّع نفوذها في العالم ولزيادة مواردها من المواد الخام بهدف استغلالها للحفاظ على وضعها الاقتصادي ومكانتها العسكرية أسوة بكل القوى العظمى. وخير مثال على ذلك هو ما حصل أثناء الحرب العالمية الثانية حين توجهت ألمانيا

---

٤) Hal Leherman "Development in Iraq, Part 1" The Middle East in Transition, ed. Walter Z. Laquer (New York: Prager, 1958) P. 257

٥) نفس المصدر السابق.

النازية بجحافلها الجرارة عبر شمالي القارة الأفريقية تحت قيادة الفيلد مارشال (ايروين روميل) نحو قناة السويس لأجل الوصول والسيطرة على آبار نفط العراق والجزيرة العربية بأكملها[٦]. ولو تمكن روميل من تحقيق ذلك الهدف فمن المرجح أن نتيجة الحرب كانت ستتغير لصالح ألمانيا ولجعلتها سيدة العالم بلا منازع، إلاّ أن الجيش الألماني اندحر أمام جيوش الحلفاء في معركة العلمين داخل أراضي مصر مما مكن الحلفاء من بسط سيطرتهم على كافة مصادر النفط الخام في الشرق الأوسط، وكان ذلك من أهم العوامل التي أدّت إلى انتصار الحلفاء في الحرب.

وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وإندلاع الحرب الباردة بين العملاقين الشيوعي والرأسمالي، نشطت الأحزاب الشيوعية المنتشرة في إيران والعراق وتركيا ومصر وسوريا وغيرها من البلدان، وكان معظم تلك الأحزاب من العناصر الشيوعية التي تتلمذت داخل مؤسسة الأممية الثالثة (Comintern)[٧] التي كان مركزها موسكو والتي أسسها عام ١٩١٩ فلاديمير لينين أول رئيس دولة الاتحاد السوفياتي. وكان هدف تلك المؤسسة تدريس وتلقين العناصر الشيوعية من جميع أنحاء العالم الفكر الماركسي اللينيني، ومن ثم إعادتهم إلى أوطانهم لأجل تأسيس أحزاب شيوعية تستلم أوامر من موسكو، ويكون هدفها الأساسي الإطاحة بالنظم السياسية غير الشيوعية القائمة واستبدالها بنظم تسيطر عليها الأحزاب الشيوعية لكي يكتنف النظام الماركسي اللينيني أي الشيوعي معظم الأرجاء المتحضرة من هذا العالم. السبب في تسميتها الأممية الثالثة، لكون إن هناك مؤسستين عالميتين بأسم الأممية، وهما الأممية الأولى والأممية الثانية، وكانتا قد سبقتا

٦) William L. Shirer, The Rise and Fall of the Third Reich (Green Wich, Fawcet Publications Inc, 1960) P. 1191

٧) See Helmot Gruger, Soviet Russia Masters the Comintern, - New York: Anchor Books 1974

الأممية الثالثة إذ تأسست الأممية الأولى في لندن عام ١٨٦٤ باسم (مؤسسة العمال العالمية) بقيادة كارل ماركس، الذي أرادها أن تكون أداة لنشر الثورة العمالية في جميع أرجاء العالم وخلق حكومة عالمية شيوعية. إلاّ إن خلافًا أيديولوجيًا نشب بين أعضائها الماركسيين ضد أعضائها من العناصر المنتمية للحركة الفوضوية (Anarchism) والتي كان يتزعمها ثلاثة سياسيين هم: الأمير والفيلسوف الفوضوي الثائر بيتر الكسندر، وفيج كربتكين، وميكايل باكونين، مما أدّى إلى زوال (الأممية) الأولى في عام ١٨٧٦ وبحلول عام ١٨٨٩ كانت الأحزاب اليسارية قد انتشرت في العديد من دول أوروبا وقد قرر زعماؤها الحاجة لتأسيس مؤسسة عمالية عالمية جديدة لتحل محل الأممية الأولى. وفي نفس السنة تم تأسيس الأممية الاشتراكية الثانية، وذلك بعد اجتماع للقادة الاشتراكيين عقدوه في باريس. وصار مركزها الدائم في بلجيكا وانتخب (إميل فاندرفيلد) رئيسًا لها. ثم تناوب على رئاستها عدد من أثقف العناصر القيادية في الفكر الماركسي الشيوعي، مثل فردريك انجلز وكارل كاوتسكي وجيورجي بليخانوف وهو أستاذ لينين، وقد انتهت الأممية الثانية إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بسبب ولاء أعضائها إلى أوطانهم بدلاً من التزامهم الأممي. أما الأممية الثالثة المار ذكرها فقد أسسها فلاديمير لينين عام ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ثم حلّها ستالين عام ١٩٤١ بعد أن دخل الاتحاد السوفياتي بحلف عسكري مع معسكر الحلفاء الرأسمالي ضد ألمانيا إثر اجتياح جيوش هتلر لأراضي الاتحاد السوفياتي. وبعد الحرب العالمية الثانية أسس الاتحاد السوفياتي دائرة الإعلام الشيوعية أي الأممية الرابعة (الكومنفورم) وكان أكبر إنجاز لها هو تمكين الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي من الوصول إلى السلطة، إلاّ إن التطورات جعلت دور الأممية الرابعة ينكمش كمجرد مؤسسة دعاية للشيوعية فانحلت في عام ١٩٥٦.

كانت الأحزاب الشيوعية في إيران والعراق وسوريا من أكثر الأحزاب انتظامًا وانضباطًا وشعبية تحت قيادة الأممية الثالثة والرابعة مما أثار قلق دول الغرب. وقد استغل نوري السعيد تلك المخاوف فألغى معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا ولعب دورًا أساسيًا في التخطيط لحلف بغداد وتمكن أيضًا من زيادة حصة العراق من النفط إلى النصف من الإيرادات مع شركة IPC-Iraq Petroleum Co. البريطانية وأقنع بريطانيا بالدخول كعضو في الحلف وشرع باستلام المساعدات الإمريكية التي بدأت تنصب على العراق صبًا مما مكّن العهد الملكي من تحديث النظام التعليمي وبناء المدارس والمستشفيات ودعم البنية الاقتصادية والتحتية وإلى حد ما الجهاز العسكري[٨].

٢ ـ الهدف الثاني لحلف بغداد هو تحسين علاقة العراق مع دول الجوار (تركيا وإيران):

ذلك أن كلتا الدولتين أكبر وأقوى من العراق، وكان نوري السعيد سياسيًا محنكًا عاصر التطورات الدولية قبل وبعد الحرب العالمية الأولى وشهد الجهود الجبارة التي بذلتها تركيا للاستيلاء على منطقة الموصل وإلحاقها مع كل مواردها الطبيعية برقعة الجمهورية التركية التي ولدت من حطام الدولة العثمانية. ولم يتمكن العراق من الاحتفاظ بالموصل إلا بعد أن دفع ثمنًا لذلك هو منح امتياز نفط العراق إلى الشركة البريطانية المسماة شركة نفط العراق IPC-Iraq Petroleum Co. التي جعلت بريطانيا تسيطر على مصادر نفط العراق، وقد وقّع العراق على تلك الاتفاقية كإجراء ضروري تتطلبه المرحلة يومذاك، لأن العراق الوليد ضعيفًا وغير قادر على الدفاع عن حياضه، وقد كان الملك فيصل الأول ونوري السعيد وجعفر العسكري وعبد المحسن السعدون وبقية النخبة الحاكمة يراقبون التطورات الدولية لأجل إسترجاع حق العراق في نفطه كاملاً

(٨ Lehrman, P 257

مع الاحتفاظ بالموصل كأحد الألوية الأربع عشرة التي تكوّن منطقة العراق عهدئذ، هذا فضلاً عن إن إيران بدأت تفصح عن أطماعها في المناطق الجنوبية من العراق.

كانت إيران قد دخلت مع الدولة العثمانية بعدة حروب طاحنة انتهت بمعاهدة دعيت (بروتوكول اسطنبول عام ١٩١٣م) حددت حدود الامبراطوريتين وجعلت شط العرب بشاطئيه من ضمن أيالة العراق. إلاّ أن شاه إيران رضا بهلوي الذي كان يطمح بإعادة أمجاد دولة فارس التاريخية، تنصّل من تلك المعاهدة بمجرد ما اعتلى الملك فيصل الأول على عرش العراق عام ١٩٢١، مدعيًا أن إيران وقعت معاهدة بروتوكول اسطنبول مع السلطان العثماني، كما ادعى بأن الملك الجديد والبلد الجديد الذي يُدعى المملكة العراقية لا علاقة له بتلك المعاهدة. وبدأت تحرشات إيران تزداد عبر شط العرب وتهدد الحكومة العراقية الفتية والتي لم يكن جيشها قادرًا على الصمود أمام جحافل الجيش الإيراني، فحين سُئِلَ الفريق طه الهاشمي رئيس أركان الجيش العراقي في أوائل سني الثلاثينيات عن إمكانات العراق الدخول في حرب مع إيران للحفاظ على حياض الوطن أجاب قائلاً: «إذا بدأت الحرب في الصباح فسيكون أحد الضباط الإيرانيين جالسًا في مكاني هنا بوزارة الدفاع في وقت الظهر من اليوم نفسه». لذلك فقد لجأ الملك فيصل الأول ونوري السعيد إلى صديقتهما بريطانيا العظمى طالبين العون، وتوصلا مع إيران إلى اتفاق مبدئي مبني على اتباع خط الثالوج الذي يعني حق استعمال المناطق العميقة من شط العرب من قبل إيران والعراق سوية. أي إن العراق تنازل عن سيادته على شط العرب لأجل تفادي الحرب مع إيران. وقد أعقب ذلك أن العلاقات بين البلدين أخذت تتحسن بشكل مطرد وتكللت بتوقيع معاهدة سعد آباد عام ١٩٣٧ التي ربطت تركيا وإيران والعراق وأفغانستان سوية لأجل الوقوف ضد

أطماع الدول الأوروبية العظمى[٩].

وفي بداية الخمسينيات من القرن الماضي نجح نوري السعيد في إقناع لندن بزيادة حصة العراق من أرباح شركة IPC إلى النصف، وفي عام ١٩٥٢ ابتدأت خطة بناء العراق الجديد على الصعيدين الداخلي والخارجي، وبدأت الدولة تركز على تحسين الأوضاع الاقتصادية والتنموية بواسطة مجلس الإعمار من شماله إلى جنوبه.

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد ركز النظام الملكي على تحقيق مشروع الهلال الخصيب الذي كان يهدف إلى توحيد العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والكويت والأردن بدولة عربية كبرى. إلاّ إن ذلك المشروع اصطدم بمعارضة على جبهتين، داخلية وخصوصًا من أحزاب اليسار وعناصر الأممية الثالثة التي اعتبرت المشروع ضد مصالح الاتحاد السوفياتي، وخارجية من حكام مصر والسعودية الذين كانوا يخشون توسع نفوذ العراق تحت الحكم الهاشمي، هذا فضلاً عن معارضة زعماء وأنصار الحركة الصهيونية التي كان لها أطماع في فلسطين وما جاورها من أراضٍ عربية.

كان مشروع الهلال الخصيب يهدف إلى خلق دولة عربية شرق أوسطية كبرى مترامية الأطراف تشرف حدودها الشرقية على الخليج العربي شرقًا وتمتد إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر غربًا، وتضم سكانها وجيوشها جميع دول الهلال الخصيب وهي مسنودة باقتصاد يعتمد على النهرين العظيمين دجلة والفرات وعلى نفط العراق والكويت وكذلك على المصادر الأخرى، لتكون نواة لانضمام بقية البلاد العربية. وكان القادة العراقيون يسعون من وراء ذلك إلى إنقاذ فلسطين من براثن الصهيونية المسنودة من قبل الدول العظمى وإبقائها كجزء لا يتجزأ من الوطن العربي الموحد. إلاّ إن تلك

---

٩) Sunday N. Fisher, The Middle East: A History (New York: Mc Graw-Hill Inc. 1990) P. 269

الجهود الجهود والأهداف تراجعت ولم تكلل إلا بخلق كيان لا مركزي سُمي بالجامعة العربية. وأقتنع العرب بتلك النتيجة وبأنه ليس بالإمكان أحسن مما كان. (انظر خريطة الهلال الخصيب).

ولهذه الأسباب اتجه قادة العراق نحو التركيز على تحسين العلاقات مع الدول الإسلامية المجاورة خصوصًا إيران وتركيا، وقد كانت الدولتان أكبر مساحة وأكثر سكانًا وأقوى عسكريًا من العراق. ولقد أدرك رئيس الوزراء نوري السعيد أهمية تلك الظروف المحيطة وصرّحَ في عدة مناسبات بأن دجلة والفرات ينبعان من أراضي تركيا والروافد العديدة التي تصب في دجلة معظمها ينبع من أراضي إيران، لذلك ففي حالة حدوث خلافات جدية مع الدولتين الجارتين فسيكون باستطاعتهما بواسطة التكنولوجيا الحديثة تحويل مجاري جميع تلك الأنهار عن أراضي العراق وستحل حينذاك الطامة الكبرى[١٠]. فالعراق منذ أقدم الأزمان وحتى يومنا هذا هو بلد زراعي يعتمد على وفرة مياهه، وبإمكانه أن يكفي البلاد المجاورة له بمعظم حاجاتها الزراعية بعد اكتفائه ذاتيًا.

هذا وقد عزز نوري السعيد العلاقة التركية العراقية بمباركة عقد قران ملك العراق الشاب فيصل الثاني (٢٠) عامًا على أميرة تركية تنحدر من صلب آل عثمان والاستقراطية المصرية، كما وطّدَ علاقات الصداقة بين العائلة المالكة العراقية وعائلة شاه إيران، وبذلك أزيلت معظم نقاط عدم التفاهم وتبادلت العوائل المالكة للبلدان الثلاث الزيارات. وبذلك عزز حلف بغداد علاقة العراق مع الجارتين وامتدادًا إلى دول إسلامية أخرى مثل باكستان وأفغانستان.

---

١٠) خطاب أُذيع لرئيس الوزراء نوري السعيد عام ١٩٥٦.

٣ ـ الهدف الثالث لحلف بغداد هو تحجيم دور إسرائيل:

كان الهدف الثالث لحلف بغداد هو كبح جماح الحركة الصهيونية وتحجيم دور إسرائيل في سياسات الشرق الأوسط واعتماد دول الغرب عليها استراتيجيًا وعسكريًا، فقد كان نوري السعيد مدركًا لعظم وعمق الاستياء الذي أفرزه خلق إسرائيل بين جماهير العرب والمسلمين وقد حذّرَ - رحمه الله - الإنجليز والأمريكان في عدة مناسبات من إنهم سيخسرون جميع أصدقائهم في العالم العربي والإسلامي جراء تأييدهم الأعمى لإسرائيل وغمطهم لحقوق عرب فلسطين في استلاب أراضيهم. أما الدبلوماسي المحنك الآخر وهو الدكتور محمد فاضل الجمالي فإنه لم يألُ جهدًا في كل مناسبات واجتماعات الأمم المتحدة إلاّ وأكّد على حق الفلسطينيين بالعودة لديارهم وتفنيد مزاعم الصهيونية في تبرير استلابهم لأراضي فلسطين وبذلك اعتبرته إسرائيل أعدى أعدائها.

هذا وقد اضطلعت النخبة الحاكمة العراقية تحت قيادة البيت الهاشمي ونوري السعيد بمهمة إقناع دول الغرب بتأسيس علاقة مصلحة متبادلة لأجل كسب تأييد ملايين العرب والمسلمين والاستفادة من أراضيهم الشاسعة الغنية بالمصادر الحيوية وبأنهم يكونون جبهة دعم للعالم الديمقراطي في صراعه ضد التغلغل الشيوعي في الشرق الأوسط. وكان من أهم نتائج هذه المباحثات هو جلاء القوات البريطانية من قاعدتي الشعيبة والحبانية في ربيع ١٩٥٥ ورجوعهما تحت سيطرة الدولة العراقية.

وهنا شعر قادة إسرائيل بالخطر إثر توقيع حلف بغداد لأنه يهدد واحدًا من أهم أهداف المشروع الصهيوني، وهو عدم السماح بالتقارب بين دول الغرب مع أيه دولة عربية، فطلبت إسرائيل من الولايات المتحدة تعهدًا بضمان أمنها ضد أي تهديد عربي، وذلك في حال عقدها أي حلف عسكري مع بعض الدول العربية. ولم تكتف إسرائيل بذلك فقد هدد رئيس وزرائها بن غوريون

بأن إسرائيل لن تسمح بأن تذبح على أيدي الدول العربية. وبعد يومين من توقيع الحلف قامت إسرائيل بهجوم واسع على قطاع غزة في ٢٨ / شباط / فبراير / ١٩٥٥ وقتلت ٤٢ جنديًا مصريًا لأجل إحباط حلف بغداد[١١].

بنود حلف بغداد: معاهدة التعاون المتبادل بين العراق وتركيا

١ . استنادًا إلى المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة يتعاون الطرفان لتحقيق الأمن والدفاع، ويعتبر هذا الإجراء بمثابة اتفاق خاص بين الطرفين.

٢ . لأجل التوصل إلى تحقيق التعاون المذكور في البند الأول تحدد الجهات العليا للطرفين الموقعين اتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتحقيق ذلك وتصبح هذه الإجراءات نافذة المفعول حالما يتم توقيع الجهات العليا للطرفين المتعاقدين.

٣ . يلتزم الطرفان المتعاقدان وبشكل كلي بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدين المتعاقدين وتُحلُّ الخلافات بشكل سلمي وحسب دستور الأمم المتحدة.

٤ . تعلن الجهات العليا للبلدين المتعاقدين بأن بنود الحلف لا تتعارض مع أي من الالتزامات الدولية المعقودة بينهما وبين دولة ثالثة أو دول أخرى، كما إن هذا الحلف لا يتناقض مع أي حلف يعقده الطرفان مع الدول الأخرى، وتتعهد الجهات العليا للطرفين بعدم الدخول في التزامات دولية تتعارض مع الحلف الحالي.

٥ . هذا الحلف سيكون مفتوحًا لدخول أي دولة عضو في الجامعة العربية، أو أي دولة أخرى تحرص على الأمان والسلام في الشرق الأوسط حسب اعتراف الطرفين الأساسيين للحدود، وتصبح العضوية معترفًا بها من

(١١) Janathan Dimbleby, The Palestinians (New York: Quntet Book, Inc, 1980) P. 50

تاريخ تقديم الاعتماد للدولة إلى وزارة الخارجية العراقية.

كما إن أي دولة تنضم للحلف لها الحق أن توقع معاهدات خاصة مع أي بلد آخر من البلدان الأعضاء في الحلف حسب البند رقم (١)، وعلى السلطة القائمة لأي دولة تنضم للحلف أن تحدد الإجراءات التي تتناسب مع بند رقم (٢) وتصبح هذه الإجراءات مقبولة حال الموافقة عليها من قبل الدولة المعنية.

٦. ينشأ مجلس دائم على المستوى الوزاري لأجل العمل حسب إطار مبادئ وأهداف هذا الحلف بعدما تنضم أربع دول لهذا الحلف، وسيقوم المجلس بإصدار القوانين والإجراءات المتعلقة بمهامه.

٧. يبقى هذا الحلف فاعلاً لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد بخمس سنوات أخرى، ولأي دولة عضو الحق في الانسحاب من الحلف بعد أن تقوم بإعلام بقية الدول الأعضاء كتابة ولمدة ستة أشهر قبل قرار الانسحاب وسيبقى الحلف ساري المفعول بالنسبة لبقية الدول.

٨. تصادق الأطراف المتعاقدة على هذا الحلف ويكون التصديق بالتبادل ويجري بأقصر وقت ممكن. لذلك فإن الحلف يصبح نافذ المفعول بنفس تاريخ إنهاء تبادل التصديق.

وهكذا وبعد أن انتهت الدولتان من التوقيع على بنود الحلف، فإنه وفي نفس السنة انضمت كل من باكستان وإيران بما سُمّي بالحزام الشمالي، وبعد أشهر بدأ الحلف أعماله رسميًا.

سُمّي هذ الحلف مبدئيًا (الحلف التركي الباكستاني) وكانت تركيا طامحة بجعل مقره في أنقرة، إلاّ إن رئيس الوزراء نوري السعيد استطاع بواسطة علاقاته المتينة بدول الغرب ولرغبته في إعلاء شأن العراق دوليًا أن يجعل مقر الحلف في بغداد، واستُبدل الاسم ليكون (ميثاق بغداد) وعيّن الدبلوماسي العراقي القدير الأستاذ عوني الخالدي بمنصب السكرتير الدائم للحلف.

هذا هو حلف بغداد بقضّه وقضيضه، والذي كان أحد الأسباب الأساسية لسقوط النظام الملكي في العراق.

أما الأسباب التي حدت بالعراقيين لأن يقفوا بعنف ضد الحلف فسببها حملات الهجوم التي قامت بها مختلف الاتجاهات السياسية المعارضة على المستويين العربي والدولي، فقد كان الحلف ضد الاتحاد السوفياتي والحركة الشيوعية مما أثار الحزب الشيوعي العراقي والضباط اليساريين لاتخاذ موقف معادٍ للحلف، ونعتوه بكونه يخدم الاستعمار الأنكلو ـ أمريكي على حساب مصلحة العراق والأمة العربية، أما الجهات القومية فقد تبنّت موقف الرئيس جمال عبد الناصر الذي شجب الحلف وجميع الأحلاف العسكرية لأنها لا تلائم سياسته، ولم يأخذ الرئيس عبد الناصر بنظر الاعتبار الوضع الجغرافي والإقليمي للعراق، فمصر ليست كالعراق لأن مصر محاطة بحدود آمنة ما عدا جبهة إسرائيل، فمن الشمال يحدها البحر المتوسط ومن الشرق البحر الأحمر ومن الجنوب السودان الذي يعتبر تاريخيًا وديموغرافيًا من ضمن مصر ومن الغرب ليبيا وهي بلد صحراوي نفوسه قليلة. أما العراق فهو بلد محاط من الشمال والشرق بتركيا وإيران، وكلاهما أكبر وأقوى من العراق، ولهما مطامع تاريخية في أراضي العراق ومصادره الطبيعية، فصار من أهم واجبات الدولة في العراق هو تأمين حدودها مع الدولتين وتحسين علاقة الجوار معهما.

هاجم عبد الناصر حلف بغداد ونعته بنفس النعوت التي أطلقها الشيوعيون على الحلف وإنه ضد مصلحة القومية العربية والعراق وادعى بأن الأحرى بالعرب جميعًا أن ينضموا إلى حركة عدم الانحياز.

وقد تلقّفت الجهات والأحزاب القومية تلك الأفكار فأيدوا جمال عبد الناصر وهاجموا الحلف بكل عنف. أما الجهات والأحزاب السياسية الأخرى المنتمية للشيوعية أو للناصرية، فقد تأثرت بذلك التيار الجارف المعادي للحلف، فوقفت ضدّه مخافة أن تتهم بالعمالة وموالاة الاستعمار. أما بالنسبة

للجيش العراقي فإن الضباط بمختلف آرائهم السياسية قرروا إن السبيل الوحيد للإطاحة بذلك الحلف (الاستعماري) هو عن طريق القيام بانقلاب عسكري وإسقاط النظام الملكي وسياسة نوري السعيد .

ومن الجدير بالذكر هو إنه بعد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ دخلت مجموعة من الضباط إلى مقر الحلف للحصول على المخططات الرهيبة التي كان الحلف يحوكها ضد الجمهورية العربية المتحدة وقائدها جمال عبد الناصر وغير ذلك من الادعاءات الفارغة، فلم يجدوا أيًا من المخططات أو المؤامرات، بل وجدوا أنفسهم داخل دائرة رسمية اعتيادية يشغلها بضعة موظفين يقومون بواجباتهم اليومية، كما لم يجدوا أي فضيحة تمس كرامة العرب أو استقلال العراق أو تكبيله بأغلال ينوء تحتها ويرزح تحت ظلم وسيطرة الأجنبي، لذلك فإن تصريحات رجال الانقلاب بقيت تتغنى بالهجوم على الحلف بدون ذكر أية تفاصيل أو معلومات عنه، بل استمرت تردد قائلة إن الانسحاب من حلف بغداد واحد من أكبر منجزات (الثورة المجيدة) .

وبناءً على ما سُبق فإنه يمكننا أن نؤكد قائلين إنه لم يتمكن رجال الانقلاب ولا ساسة العراق الذين مزقوا الحلف أن يظهروا إلى يومنا هذه الأوجه السلبية لحلف بغداد أو مساسه بمصلحة العراق أو أي بلد عربي آخر لأنها غير موجودة أصلاً[١٢] .

كانت الأهداف والمشاريع التي تبناها النظام الملكي في العراق مبنية على خطط مدروسة ناضجة وعميقة ومستمدة من أرقى الخبرات والاستشارات العالمية، وقد أخذ القادة بنظر الاعتبار مصلحة العراق السياسية والعسكرية والعلاقة بدول الجوار والدول الكبرى. إلاّ أن انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ الذي أطاح بالعهد الملكي أجهض تلك التطلعات والخطط استنادًا إلى شعارات

١٢) انظر مأمون أمين زكي (العراق بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم : دراسة تحليلية) الملف الوافي، عدد ٨٣ تشرين الثاني / نوفمبر / ١٩٩٨، الصفحات ٣٨ ـ ٤٠ .

عاطفية ثورية غير مدروسة معظمها مستمد من التجربة الثورية لمصر بقيادة جمال عبد الناصر دون الأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والأثنية والمذهبية والجغرافية بين مصر والعراق. لذا فقد شهد العراق بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ تدهورًا عامًا وشاملاً في أنظمته الإدارية والتعليمية والقانونية والعسكرية إلى أن اندلعت الحروب مع دول الجوار ونشبت نزاعات بين الأقليات الأثنية والمذهبية، فتحطم آخر ما تبقى من البنى التحتية والحضارية في العراق.

لذا يجدر بالمثقفين العرب عامة والعراقيين خاصة مراجعة سياسات تلك السنوات من تاريخ العراق ومقارنتها بالأوضاع السائدة في المنطقة العربية حاليًا لعلنا نتعظ، فقد أثبتت التطورات السياسية في الشرق الأوسط وفي العالم أجمع بأن نوري السعيد بثاقب فكره وخبرته السياسية قد راهن على الحصان الرابح بينما راهن معارضوه على الحصان الخاسر، فالاتحاد السوفياتي الذي راهن عليه الشيوعيون ومعهم الرئيس جمال عبد الناصر قد انهار وكأنه لم يكن وكذلك انهارت حركة عدم الانحياز وأصبحت اسمًا بلا معنى، بينما الولايات المتحدة أصبحت سيدة العالم بلا منازع، وقد افلح كل من حالفها وخسر كل من عاداها، وكان أول من أدرك ذلك هو الرئيس جمال عبد الناصر نفسه وذلك بعد أن انهارت جيوشه أمام إسرائيل في عام ١٩٦٧ واقتنع بعد فوات الوقت بأن صناعة القرار العالمي تملكها أمريكا وليس الاتحاد السوفياتي، مما حدا به أن يبدأ بمغازلة الولايات المتحدة لبحث ما سُمي (بمشروع روجرز) لحل مشاكل الشرق الأوسط.

والجدير بالذكر هنا ولأجل الإحاطة بطبيعة التطورات التاريخية التي طرأت على العراق خصوصًا والعالم العربي عمومًا هو إنه بعد مرور خمسين عامًا على سقوط حلف بغداد انتهى الكُتّاب والأساتذة والمفكرون العرب إلى التوصل إلى القناعات التي أدركها حكام العهد الملكي في العراق. فيقول الكاتب المعروف

فهمي هويدي: «لا مفر من الاعتراف بأن مثلث القوة في الشرق الأوسط سيظل فكرة مجهضة طالما بقي العرب خارجه محتفظين بمسافات متباعدة إزاء الأتراك والعجم وإن العرب لم يبذلوا جهدًا كافيًا لكسب تركيا وإيران إلى منظومة الأمن العربي رغم إلحاح المتطلبات الاستراتيجية ورغم الأيادي الممدودة من أنقرة وطهران نحو العواصم العربية» (الخليج العدد ١٠٦٩٨ - الثلاثاء ٢/٩/٢٠٠٨ صفحة ١٠). لكن الأستاذ هويدي لم يتطرق إلى الحقيقة التاريخية بأن هذا الفراغ العربي لم يكن موجودًا أثناء الفترة القصيرة للتاريخ العربي الممتدة من عام ١٩٥٥ وهو عام توقيع ميثاق حلف بغداد إلى عام سقوطه في ١٩٥٨، فضلاً عن أن رئيس وزراء العراق نوري السعيد لم يكتف بالانضمام إلى حلف يضم تركيا وإيران وباكستان فحسب، بل جعل العراق البلد العربي الأصيل مركز ثِقَل نشاطات ذلك الحلف وأسس مركز قيادته في بغداد العاصمة، وكان مثلث القوة الذي تحدث عنه السيد هويدي، يتطور نحو التماسك المكين خصوصًا إن نوري السعيد ناشد بإلحاح سوريا والأردن أي دول الهلال الخصيب وحتى مصر للدخول في حلف بغداد لأجل بناء وتعزيز تعاون عربي إسلامي وربط مصالح دول الغرب العظمى مع دول الحلف ولعزل إسرائيل وتهميش دورها الاستراتيجي والعسكري في الشرق الأوسط.

وفي نفس العدد من جريدة الخليج صفحة ٢٩ غطّى الكاتب غريب الدماطي ندوة عربية عُقدت في القاهرة في بداية شهر أيلول/سبتمبر/٢٠٠٨ شارك فيها نخبة من أكبر الأساتذة والمثقفين من مختلف البلاد العربية وبحثوا الدور الإيراني بين المصالح والهيمنة. وانتهوا إلى القول: «إن إيران وبغياب الدول العربية قد تسنمت دور القيادة وملأت الفراغ الذي تركته دول محورية عربية ما عدا سوريا التي التصقت بإيران كحليف قوي لمواجهة خطط إسرائيل التوسعية والمسنودة من قبل الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم».

وبلا شك فإن وصف الدولة المحورية هنا ينطبق على العراق بثقله التاريخي والاقتصادي وبإمكاناته العسكرية التي استُغلت وبحكم موقعه الاستراتيجي والمجاور لإيران لأدت دورها الاستراتيجي بشكل كامل.

وفي الندوة نفسها وصف نائب رئيس مركز الأهرام للدراسات السياسية الاستراتيجية الدكتور وحيد عبد المجيد إن إيران أخذت دور قيادة الشرق الأوسط في ظل تجمد المشروع العربي الذي أصبح من الصعب استمراره، ويرى الدكتور عبد المجيد ضرورة تفاهم العرب مع إيران التي أصبحت من القوة بحيث يجب على كل من يرغب بإصدار قرار يتعلق بالشرق الأوسط أن يأخذ بالحسبان موقف إيران منه. ويؤكد السفير المصري الأسبق في سوريا الدكتور محمود شكري على إن إيران أصبحت دولة لها إمكانات استراتيجية وقدرات هائلة تؤهلها لأن تلعب دورًا كبيرًا يصل إلى حد اعتبارها دولة مركزية في منطقة المشرق العربي والشرق الأوسط ونظرًا لاتجاهها الإسلامي فإن من مصلحة العرب التخطيط لإقامة علاقات استراتيجية مع طهران تؤدي إلى التعاون بدل الاختلاف معها.

أما الدكتور سعود المولى فيبحث دور إيران وبأنها قد أصبحت دولة إقليمية عظمى ذات نفوذ واضح في الشرق الأوسط ووسط آسيا ولكن يؤكد الدكتور المولى بأن تحالف إيران وسوريا هو تحالف مصالح غير ثابت نظرًا لاحتمال وقوع خلافات في المصالح القومية للبلدين.

النقطة الأساسية التي أريد التوصل إليها هنا هي أن جميع أفكار هؤلاء المثقفين العرب التي أطلقوها في عام ٢٠٠٨ تصب في نفس إطار الخطط التي اختطتها النخبة الحاكمة في عام ١٩٥٥، والمكونة من نوري السعيد والأمير عبد الإله والدكتور محمد فاضل الجمالي وعلي جودت الأيوبي وبقية العناصر التي أدركت طبيعة مصالح العراق والأمة العربية، وسعوا قُدُمًا نحو تحقيقها. ولو أن نوري السعيد نجح في إنجاز مشروع الهلال الخصيب وكان مسنودًا من

حلف بغداد لكان العرب هم الذين يبسطون هيمنتهم على منطقة الشرق الأوسط بدلاً من أي قوة أخرى سواء أكانت صديقة أو عدوة للعرب.

ويبدو هذا الأمر واضحًا أنه بعد انتهاء فترة زعامة جمال عبد الناصر جاء إلى حكم مصر المرحوم أنور السادات الذي سار بشكل مباشر على نهج نوري السعيد بل ذهب أبعد من ذلك حيث ارتمى بأحضان أمريكا وأصبح واحدًا من أقرب حلفائها، وقد صرّح عن اقتناع بأن ٩٩٪ من شؤون العالم تقع في أيدي الولايات المتحدة. وبعد اغتياله وصل إلى سدة الحكم الرئيس حسني مبارك الذي استمر في محالفة أمريكا مما جعل مصر أحد اللاعبين الأساسيين في سياسة الشرق الأوسط، بينما كان العراق البلد الذي يقوم بهذا الدور أثناء العهد الملكي في عقد الخمسينيات من القرن العشرين. حتى ياسر عرفات الزعيم الفلسطيني ومن بعده من القادة الفلسطينيين بكل مشاربهم السياسية من اليمين واليسار أدركوا أن مصلحتهم القومية لن تتحقق إلا بالتعامل مع أمريكا، وهي نفس القناعة التي توصل لها نوري السعيد في عقد الخمسينيات من القرن العشرين.

ماذا كان سيحدث لولا انقلاب عام ١٩٥٨؟

السؤال الحيوي الآن هو ماذا كان سيحدث لو أن العهد الملكي استمر ولم يقع انقلاب عام ١٩٥٨؟

لأجل الجواب على هذا السؤال بالإمكان الاستناد إلى طبيعة التطورات التي طرأت على العراق أثناء العهد الملكي ما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٥٨، وباستعمال منهجية الاستنتاج المنطقي الذي استعمله علماء السياسة والمنطق وأخص منهم المفكر الكبير أرسطو طاليس[١٣]، (Politique & Logic) ومن ثم الحكماء

١٣) See George S. Sabine, A History of Political Theory - New York: Holt, Rien Hart & Winston 1961

والفلاسفة العرب والمسلمين أمثال الفارابي وابن رشد وابن خلدون(١٤).

واستنادًا إلى تلك المنهجية التي استعملها أولئك المفكرون وأتباعهم من المعاصرين، فبالإمكان وحين دراسة إمكانيات العراق الاقتصادية والسياسية، أن نستنتج ما كانت ستؤول إليه أوضاع العراق في بداية القرن الواحد والعشرين لو لم ينهار النظام السياسي هناك. قبل كل شيء كان السياسي المحنك نوري السعيد ورفاقه الذين قادوا العراق منذ نشوئه قد طعنوا في السن، وكان نوري السعيد في عام ١٩٥٨ قد بدأ يعاني من أمراض الشيخوخة كبوادر الفالج في إحدى يديه والتهاب البروستات والضعف العام، أي إن الرجل كان في نهاية رحلة حياته المهنية، ولو إنه استطاع أن يبقى لبضع سنوات أخرى لاستطاع أن ينجز معظم الأهداف الاقتصادية التي بدأها بمشاريع الإعمار، ولارتبط العراق من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه وأصبح كوحدة اقتصادية متكاملة، وذلك بعد الانتهاء من بناء السدود على نهري دجلة والفرات والروافد العديدة وحينذاك سيصبح العراق قادرًا على الاكتفاء الذاتي من إنتاج الحبوب كالحنطة والشعير والأرز ومعظم أنواع الفواكه، ولفاض الإنتاج ليكفي حاجات جميع دول الجزيرة العربية.

أما على مستوى الدبلوماسية العربية والعالمية فقد كان العهد الملكي على وشك أن يضم الكويت إلى الاتحاد العربي، ولو حدث ذلك لأصبح الاتحاد يحتوي على سكان العراق والأردن والكويت، وبذلك يطل على الخليج العربي من الشرق وعلى خليج العقبة والبحر الأحمر من الغرب، واقتصاده مبني على الثروة اللامحدودة لمياه العراق التي تكفي لإنعاش الزراعة في الأقطار الثلاثة، وهو مسنود بحقول نفط الكويت والعراق التي لا حدود لغناها. أما عسكريًا فإن جيشي العراق والأردن وما يتيسر من إمكانيات الكويت كان سيمكّن

(١٤ See Mamoon Amin Zaki, Al-Farabi and Ibn Khaldun Master's Thesis: Howard University, Dept. O Soiology Washington D. C., 1975

من بناء قوة عسكرية مهيبة تضاهي أو تفوق قوة تركيا وإيران اللتين كانت مرتبطتين مع العراق بحلف بغداد الذي ربط مصالح الغرب الاستراتيجية بالحلف.

أما على الصعيد السياسي فإن نوري السعيد وكذلك رؤساء الوزراء السابقين من السياسيين الذين كانوا ينتمون إلى العهد العثماني قد طعنوا في السن وهم في طريقهم إلى الزوال وهؤلاء استطاعوا أن يدربوا وأن يهيئوا كوادر شابة جديدة من ذوي الكفاءات العالية مستعدة لاستلام الحكم تحت راية قائدين من العائلة المالكة الهاشمية، وهما الأمير عبد الإله (٤٥ عامًا) والملك فيصل الثاني (٢٣ عامًا)، هذا القائدان كانا يهيئان العراق ليحكم من قبل جيل من العناصر الشابة ممن حصلوا على الشهادات العليا واطّلعوا على النظم الديمقراطية الغربية ليحلوا محل الرعيل الأول من جيل مدرسة العثمانيين، وكان أبرز المرشحين لإشغال الحقائب الوزارية السيدان طارق العسكري وزياد العسكري وكلاهما خريج جامعة كمبردج، وكذلك النائب فيصل فاروق الدملوجي وهو خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، وإحسان رفعت وهو مهندس خريج جامعة كاليفورنيا، وكان يشغل منصب مدير شؤون النفط العام، والدبلوماسي الدكتور عدنان الباججي خريج الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهم ممن كانت أعمارهم تقل عن الخامسة والأربعين، أما المرشحون الجدد لرئاسة الوزراء والذين كانت أعمارهم تقل عن الخمسين عامًا فهم الوزير الدكتور نديم الباججي وهو يحمل شهادة دكتوراه في علم الجيولوجيا من جامعة لندن، والوزير الدكتور ضياء جعفر وهو يحمل شهادة دكتوراه في الهندسة من جامعة إنكلترا، والمحامي الوزير خليل كنة، والمحامي الوزير سعيد قزاز وغيرهم من الوجوه اللامعة في السياسة والاقتصاد والعلوم، إضافة إلى وجود بعض العناصر الأكبر سنًا مثل الدكتور محمد فاضل الجمالي وهو يحمل شهادة دكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية وكان قد بلغ الثامنة

والخمسين، علاوة على العشرات من الذين كانوا يدرسون في المعاهد العراقية والذين يدرسون في الجامعات العالمية وينتظرون العودة إلى الوطن.

أما البرلمان بمجلسيه النواب والأعيان فقد بدأت العناصر المثقفة من أساتذة وخريجي الجامعات تحل محل العناصر والأفراد من الجيل القديم وشيوخ العشائر وغيرهم، وأصبح نظام الانتخاب أكثر شرعية من الماضي نظرًا لتطور آليات الانتخابات ووصول العناصر الجديدة إلى مقاعد تلك المؤسسة الديمقراطية التي بدأت تتطور نحو العصرنة بعد أكثر من ثلاثين سنة من تأسيسها من قبل الملك فيصل الأول.

وعليه أقول إن هذه التحاليل ليست تكهنات أو أحلام يقظة، بل إنها استدلالية ومنطقية مبنية كما أسلفنا على دراسة وتقييم قابليات العراق الاقتصادية والسياسية ودرجة تقدم التعليم فيه. وبناء على ذلك كان من الممكن إنجاز تلك التطورات لو استمر العهد الملكي قائمًا معتمدًا على القيادات الشابة المتعلمة والكفوءة والقادرة على اتباع طرق الإدارة العصرية.

لكن تلك التطورات والإمكانيات أُجهضت يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ حين سقط العهد الملكي نتيجة انقلاب عسكري جاء بضباط مخلصين للوطن بدون شك، إلاّ إنهم كانوا يفتقرون إلى الخبرة المدنية لإدارة السياسة الداخلية والعلاقات الخارجية مما أدى إلى ظهور صراعات داخلية بينهم وكذلك بين التكتلات السياسية كالشيوعيين والقوميين ومن ثم اندلاع القتال ضد الأكراد في الشمال، أما بعد ذلك فقد دخل العراق تحت حكم حزب البعث العربي الاشتراكي الذي لم يكن سوى أداة بيد قادته لحكم العراق حكمًا استبداديًا قلما شهد التاريخ مثل قساوته وشراسته. ولم يكن لتلك القيادات أهداف سوى نهب واردات وثروات العراق. ففي عام ١٩٨٠ دخل العراق في حرب طاحنة مع جارته إيران استمرت لأكثر من ثمانية أعوام أحرقت الأخضر واليابس، وأفرغت خزينة العراق التي كانت أغنى خزينة في البلاد العربية

عام ١٩٥٧ وبعد سنتين من انتهاء حرب إيران اجتاح العراق جارته العربية الصغيرة دولة الكويت التي حاول نوري السعيد قبل سقوط النظام الملكي إقناع حكامها بالانضمام إلى الوطن الأم العراق كجزء من الاتحاد العربي، وقد لجأ رئيس الوزراء العراقي إلى ذلك عن طريق الدبلوماسية والنقاش السلمي، بينما كان اجتياح الكويت بقيادة حاكم العراق صدام حسين رئيس حزب البعث عنيفًا مدمرًا أدى إلى قتل العديد من الكويتين وإلى استلاب ثرواتهم وممتلكاتهم، وقد أدت تلك الحرب إلى تدخل الولايات المتحدة الأمريكية لإغاثة الكويت، وفي عام ١٩٩١ استعان الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب بالأمم المتحدة مستندًا إلى بنود ميثاقها والقاضي بما يدعى بالأمن الجماعي (Collective Security) فتألفت قوة دولية من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة كما تضمنت قوات عسكرية لعدة دول عربية وقامت تلك القوات المشتركة باجتياح الكويت وطردت الجيش العراقي وحطمته تحطيمًا، فانقسم العراق بعدئذ إلى ثلاثة أقسام وفُرض الحصار الاقتصادي عليه مما أدى إلى فقدانه لسيادته فانهارت الطبقة المتوسطة وانتشر الفقر والعوز بين معظم العراقيين. وبعد ذلك استشرى الخلاف بين العراق وواشنطن وتدهور إلى أن انفجر بحرب عاتية أخرى حين اجتاح الجيش الأمريكي العراق ووضعه تحت الاحتلال العسكري المباشر بشكل أكثر وأشد مما حصل عام ١٩٤١ بعد حرب رشيد عالي الكيلاني ضد بريطانيا.

وعلى إثر انهيار دولة البعث ورئيسها صدام حسين ثارت النعرات الدينية والأثنية والمذهبية، فانفصل الشمال بشبه استقلال دُعي بإقليم كردستان حيث رفع علمًا خاصًا به، وتأسست هناك سلطة سياسية وعسكرية ومدنية مستقلة عن بغداد عاصمة العراق، أعقب ذلك أن التحمت الفئات المذهبية بتصادمات شعواء قَتَلَ فيها العراقي شقيقه العراقي، وتدهورت الأوضاع الاقتصادية، وانتهى الأمن وتلاشت كل المعالم الحضارية للمجتمع، فلم تعد

هناك سلطة ولا دولة ولا قانون ولا عرف ولا شرف بل مجموعات بشرية يفتك بعضها بالآخر بدون معرفة أهداف وأسباب هذا العنف.

كان العراق عام ١٩٥٧ في أوج استقراره وازدهاره الاقتصادي، وكان مستقبله يَعِدُ بالمزيد من التقدم والرفاه، إلاّ إنه غدا اليوم على الوضع المأساوي الذي ذكرناه، وذلك بعد خمسين عامًا من الانقلابات العسكرية التي توالت عليه منذ عام ١٩٥٨ حين تهاوى ذلك الصرح العظيم الذي بناه العهد الملكي.

أثناء الفترة الأخيرة من العهد الملكي حصلت تطورات جوهرية داخلية وخارجية كما بُحث سابقًا. ففي عام ١٩٥٣ انتهت فترة وصاية الأمير عبد الإله وتوج ابن اخته الملك فيصل الثاني على عرش العراق غداة بلوغه سن الثامنة عشر القانونية، واستبشر الكثير من الناس بانتهاء حكم عبد الإله الذي كان مكروهًا من قبل معظم الشعب بسبب الظروف التي صاحبت عهد وصايته ولم أزل أتذكر أهزوجة رددها بعض العوام قائلين في ذلك اليوم: شيل بابا شيل... شيل بابا شيل، وكلمة شيل باللهجة العامية تعني ارحل، أي إن أولئك العوام كانوا يهزجون قائلين لعبد الإله ارحل... ارحل. وبعكس ذلك فقد رحبت الأكثرية بتتويج الملك الفتي لما كان يتمتع به من عطف بسبب تيتمه بطفولته ولكونه نجل المغفور له الملك المحبوب غازي. فأقيمت الحفلات وكان أحدها في قاعة الملك فيصل (بهو أمانة العاصمة لاحقًا) والتي أنشد فيها الأستاذ محمد القبنجي شعرًا بمقام عراقي قائلاً:

واليوم أنشد للمليك مدائحي

في فيصل الملك العظيم الثاني

يوم أغرّ فيه توج فيصل

تاجًا سما فخرًا على التيجان

فنهض الملك من جانب خاله الذي أصبح وليًا للعهد، وتقدم نحو الأستاذ القبنجي وقلده وسام الرافدين في عنقه فتعالت الهتافات والتصفيق، مما حدا بالقبنجي أن يرتجل مباشرة بيتين من الشعر غناها بمقام آخر مناسب قائلاً:

لئن حليت صدري بوسام

كأن سناءه بدرًا تمامُ

فلي يا سيدي شرف عظيم

يحليه رضاؤك والوسام

وقد نال الأستاذ القبنجي إعجاب الجميع لصوته الرائع وقابليته في ارتجال الشعر، وكان جو الاحتفال مفعمًا بالأنس والأمل بالعهد الجديد، وكانت أفراح الاحتفالات ممزوجة بروائح زهور الربيع العطرة التي ملأت أجواء بغداد. ولم ينسحب الأمير عبد الإله من الحكم كليًا بل بقي له تأثير واضح في سياسة العراق بجانب الملك والنخبة الحاكمة.

أما الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري فقد ألقى واحدة من أجمل وأروع قصائده في احتفال أقيم بمناسبة التتويج في قصر الرحاب - قصر الأمير عبد الإله - قال فيها:

تِه يا ربيع بزهرك العطر الندي

وبصنوك الزاهي ربيع المولد

باه السما ونجومها بمشعشع

عريان من نجم الرّبى المتوقد

وأثب بما غمر البطاح من الشذى

بيض الأيادي للغمام الأسود

أرها جمال الأرض في هذا الندى

ألق السنا وجلال هذا المنتدى

والبس بورقتها البهية خضرة

هي من شعار عهد ولاة محمد

وإذا زهت بمجرها فانهد لها

بمجر سؤدد هاشم والمحتد

وإذا رمتك بفرقد فتحدها

من طلعة الملك الأغر بفرقد

. . . .

عبد الإله وفي المكارم شركه

شاركت في خصل المليك الأوحد

يا ابن الهواشم حرة من حرةٍ

وابن الخلائق أصيدًا عن أصيد

يا ابن الأباطح من قريش فجوة

هي بالمكارم ذروة للمصعد

. . . .

يا أيها الملك الأغر تحية

من شاعر باللطف منك مؤيد

أنا غرسكم أعلى أبوك محلّتي

نبلاً وشرّف فضل جدّك مقصدي

أهال الأستاذ الجواهري على الملك فيصل والأمير عبد الإله هذا المديح الذي يضاهي قصائد المديح التي جاد بها فحول شعراء العرب. إلاّ إنه شعر بعظم هفوته بعد أن انهالت عليه الهجمات والإهانات من قبل المعارضة والجهات الوطنية بسبب تلك القصيدة التي نشرت في جريدته (الرأي العام) فسقط

من المركز الرفيع الذي تبوأه باعتباره شاعر الشعب وشاعر الثوار والوطنيين وعدو الاستعمار وعملاء الاستعمار، وأخذ يجر أذيال المهانة لما اقترفه من ذنب لمدحه للعائلة المالكة وانبرى (شويعر) من الشعراء المغمورين وهجا الجواهري قائلاً:

صه يا رقيع فمن شفيعك في غدِ

فلقد صدأت وبان معدنك الردي

لو مت قبل اليوم كنت مخلدًا

فانفق فبعد اليوم لست مخلد

أما على سياق السياسة الخارجية فقد دخل العراق في حلف بغداد في عام ١٩٥٥ فهبت القوى الوطنية والمعارضة داخل وخارج العراق تهاجم الحلف «الاستعماري» وموقعيه، فانتهز الجواهري هذه الفرصة لاستعادة موقعه كبطل جماهيري فانهال بالهجاء والتقريع ضد العائلة الهاشمية المالكة وحكام العراق وألقى إحدى قصائده العصماء يمجد المرحوم السيد عدنان المالكي وهو سياسي سوري معروف قُتِلَ وانتشرت إشاعات بأنه اغتيل لوقوفه ضد حلف بغداد، فأبّنه الجواهري وهجا الحكومة العراقية قائلاً:

خلفتُ خاشية الخنوع ورائي

وأتيت أقبس جمرة الشهداء

أضحيْة الحلف الهجين بشارةً

لك في تكشف سوءة الهجناء

أسطورة الأحلاف سوف يمجها

التاريخ مثل خرافة الحلفاء

قالوا تعاهدنا فقلت هنتم

بقران فرط خنا بفرط غباء

ولقد حاول الأستاذ الجواهري أن يسترجع بعض مكانته كشاعر ثوري تقدمي وبطل جماهيري بهذه القصيدة وغيرها حيث نعت الحكام العراقيين بالهجناء والخنع، ولكن هل عوقب الجواهري على هجائه؟ الجواب: كلا بل اقتطعت له الدولة أرضًا بالقرب من حدود بغداد العاصمة وأدخل البرلمان نائبًا. ليت شعري ما الذي كان يحدث للجواهري، رغم مكانته كأحد عظام شعراء العرب، لو أنه انتقد حروب الرئيس صدام حسين التي خسر فيها العراق زهرة شبابه وأموال لا تحصى؟ ولا يسعني هنا سوى أن أستشهد بالآيات الكريمة: « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (صدق الله العظيم. سورة الشعراء، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦).

وقد عكس الأستاذ الجواهري بقصائده شعور العداء الشديد لقوى المعارضة ضد الحكومة وحلف بغداد.

الفصل التاسع

ضعف النظام الديمقراطي في العراق وأسبابه

يُعرف المفكر السياسي الإنكليزي الكبير (هارولد لاسكي) مفهوم الشرعية فيقول: الشرعية هي مقدار الاحترام المتبادل بين الدولة والشعب. فكلما ازداد احترام الدولة لرغبات الشعب ازداد احترام الشعب للدولة وتعززت شرعيتها.

وعلى ضوء هذا التعريف كان النظام البرلماني والهيئة التشريعية في العراق تفتقر إلى حد ما للشرعية، وقد بقي النظام الملكي يعاني من انفصام مع أكثرية الشعب، والبرلمان يعاني من عدم مصداقية وثقة الجماهير والطبقة المثقفة طوال الفترة التي تلت وفاة الملك فيصل الأول في عام ١٩٣٣ وحتى يوم سقوط النظام الملكي في ١٤/٧/١٩٥٨، بالرغم من وجود أسس وممارسات تشير إلى إمكانية التطور وزيادة التفاعل بين الشعب وكلا السلطتين التنفيذية والتشريعية قبيل سقوط النظام. فقد كانت انتخابات مجلس النواب مزوّرة وغير نزيهة وتدخلت الدولة بها ومُنع مرشحو الأحزاب المعارضة من ممارسة حقوقهم الدستورية بينما فاز منتخبو الحكومة بالتزكية، وقد صرح بذلك رئيس الوزراء نوري السعيد قائلاً: لا يمكن لأي نائب مهما كانت مكانته الاجتماعية واحترامه عاليًا بين الناس أن يفوز بالانتخابات بدون مساندة

الدولة، ولا يمكن أن يُنتخب أي نائب ما لم ترضَ عنه الدولة[1].

فالنظام البرلماني هو نظام سياسي غاية في التعقيد نظرًا للخطوات العديدة المستلزمة لإمرار القرار، وهو نظام يُطَبَّقْ من قبل شعوب بلغت شأوًا عاليًا في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، لذلك فقد مَرّت النظم الديمقراطية في البلدان المتطورة بمراحل زمنية طويلة لتصل إلى ما وصلت عليه من الشرعية والتفاعل بين شعوبها ودولها. فعلى سبيل المثال تبنّى البرلمان الاستقراطي البريطاني وثيقة الماجنا كارتا (Magna Carta) في عام ١٢١٥ ولكن الشعب الإنكليزي لم ينل حقوقه السياسية كاملة إلاّ بعد الحرب العالمية الأولى أي بعد ثمانية قرون تخللتها الاضطرابات والصراعات والحروب الأهلية.

أما في الولايات المتحدة فقد تبنّى الكونغرس الأمريكي دستور الديمقراطية في عام ١٧٨٧، إلا إن الشعب الأمريكي بجميع أقلياته العرقية والأثنية لم ينل حقوقه إلاّ قبيل نهاية القرن العشرين وبعد صراعات واضطرابات عنيفة.

أما في العراق فبعد سقوط النظام الأوتوقراطي الاستبدادي للدولة العثمانية، تطلعت النخبة الكلاسيكية الحاكمة إلى عصرنة البلد عن طريق إنشاء المؤسسات الأولية للديمقراطية كتبني دستور عصري وبرلمان، والسماح للأحزاب بالعمل السياسي... الخ. إلاّ إن وضع العراق لم يكن مؤهلاً لممارسة الديمقراطية الصحيحة لعدة أسباب منها الآتي:

١ ـ الخلاف الجوهري بين المعتقدات السياسية للسلطة الحاكمة وجماهير الشعب. ففي بداية العهد الملكي بقي سواد الناس يدينون بالولاء للسلطان العثماني المسلم وجاهروا بكراهيتهم نحو الانتداب والإنكليز واعتبروا الحكام الجدد مارقين عن الدين. بعد ذلك اتخذت الطبقة المثقفة مواقف شديدة العداء ضد المعاهدات التي وقعت بين المملكة العراقية وبريطانيا واعتبروها

١) كرر السياسي المخضرم نوري السعيد هذه العبارة في عدة مناسبات.

معاهدات جائرة بحق العراق فطالبوا بالاستقلال التام من الهيمنة البريطانية واعتبروا كل من يتعاون مع الإنكليز عميل وخائن.

بينما ارتأى أعضاء النخبة الكلاسيكية جميعًا وطوال العهد الملكي بأن مصلحة العراق مرتبطة مع بريطانيا حتى وإن اقتضت إعطاء بعض التضحيات بمصالح العراق لأجل الاستفادة من نظم بريطانيا الإدارية والعسكرية العصرية وتقنياتها الراقية، إضافة إلى دعمها السياسي وبسط حمايتها على العراق ضد أطماع الجيران المتربصين للانقضاض على مياهه وخيراته. وقد اعتبرت النخبة الحاكمة المعتقدات السياسية للمعارضة عبارة عن شعارات مبنية على عواطف جياشة تفتقر إلى الواقعية العملية والتخطيط السليم، والدليل على ذلك إن التمردات القومية ضد الإنكليز فشلت فشلاً ذريعًا في عامي ١٩٢٠ و١٩٤١. لذلك استمرت النخبة الكلاسيكية باتباع أساليب التخطيط على المدى القريب والبعيد وانتهاج سياسة خذ وطالب التي ستؤدي ـ حسب آراء النخبة ـ بالنتيجة إلى تحقيق جميع الأهداف المتوخاة.

وقد أدى هذا الاختلاف في وجهات النظر إلى تعميق الفجوة بين النخبة الحاكمة والجماهير وقلّلَ من الممارسة الديمقراطية وتمثيل الدولة لرغبات الشعب.

٢ ـ عدم إمكانية التخلص السريع من النظام العشائري المرتبط بالملكيات الكبيرة للأرض، مما قلّلَ من سمات النظام الديمقراطي الذي يعتمد على تأييد أكثرية الشعب. بينما كانت الطبقة الفلاحية الواسعة جاهلة ولا تعرف معنى الانتخاب الحر، وليس لها وعي بحقوقها السياسية، وتدين بالولاء لشيخ العشيرة ومالك الأرض بدلاً من انتخاب ممثلين يرعون مصالحها في البرلمان ودوائر الدولة المركزية.

٣ـ المعارضة لم تكن تشابه المعارضة في الدول الديمقراطية المتقدمة كبريطانيا وأمريكا. فالحزب الذي يربح الانتخابات في تلك الدول يخدم البلد حسب

قناعاته الحزبية، وداخل إطار النظام والدستور والقوانين السائدة. أما الحزب المعارض فهو لا يهدف إلى قلب وتحطيم النظام السائد والدستور والقوانين الحاكمة، بل يحاول الاستفادة من أخطاء الحزب الحاكم لأجل أن يؤثر على الرأي العام والحصول على أصوات الناخبين وبالتالي الفوز بالانتخابات لأجل استلام السلطة سلميًا وخدمة الوطن في نفس إطار النظام ولكن حسب برنامج وإيديلوجية الحزب وحسب ما تطالب به جماعات الضغط والرأي العام.

بينما لم يكن وضع المعارضة في العراق على نفس هذا النمط، فقد هاجمت الأحزاب المعارضة وخصوصًا اليسارية منها سياسة ومشاريع الحكومة بقضها وقضيضها وناصبت الدولة العداء ولم تستمع إلى تبريرات الحكام فمهما حاول الأمير عبد الإله الوصي على العرش ورؤساء الوزراء، نوري السعيد وعلي جودت الأيوبي وفاضل الجمالي وغيرهم للتفاهم مع السيد كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي والذي مثّل قوى المعارضة، ولشرح أوضاع العراق الجغرافية والاقتصادية الخاصة والعلاقة مع دول الجوار وصعوبة مجابهة الإنكليز وحاجة البلاد إلى دعمهم، فلم تفلح تلك الجهود واستمرت الهجمات العنيفة والتحريض على المظاهرات وهاجموا مشاريع الإعمار والبناء، وحين تألفت الجبهة الوطنية في أواسط عقد الخمسينيات والتي ضمت الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب البعث والحزب الشيوعي السري وتبنت الجبهة سياسة عدم الانحياز للرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان يحرض يوميًا بإذاعة صوت العرب من القاهرة ضد حلف بغداد ويدعو إلى إسقاط النظام الملكي في العراق، وتمادى السيد كامل الجادرجي واتهم رئيس الوزراء نوري السعيد زورًا وبهتانًا بعقد صلح مع إسرائيل، وازدادت الهجمات عنفًا والتحريض على المظاهرات والاضطرابات والثورة بشكل عدائي غير مسموح به حتى في أكثر الدول الديمقراطية عراقة بما يدعى (Sedition) أي التحريض على التمرد والثورة، وتعتبر هذه

الممارسات بمثابة خيانة للنظام القائم ويعاقب عليها القانون. وقد تبنى جميع قادة المعارضة من أمثال محمد مهدي كبة وحسين جميل ومحمد حديد وقادة حزب البعث والحزب الشيوعي وغيرهم تبنوا جميعًا هذا النهج الهجومي ضد السلطة الحاكمة وناصبوها العداء وأغلقوا جميع سبل التفاهم معها.

هذه الفعاليات العنيفة دقت ناقوس الخطر ودفعت بالدولة العراقية لاتخاذ خطوات متشددة ضد المعارضة والأحزاب والجرائد والحركات الوطنية مما زاد في سخط الرأي العام وانعزال الفئة الحاكمة عن الشعب.

وهنا يجدر تحليل وتأكيد الفرق بين التفكير العملي والواقعي العميق للفئة الحاكمة مقارنة بالإيديولوجيات الطوبائية والشعارات العشوائية الرنانة الفارغة التي تبنتها الأحزاب وقادتها سواء عن قناعة حقيقية أم للظهور بمظهر الأبطال أمام الغوغاء والرأي العام. فقد كان يكفي لأي زعيم سياسي ينادي بسقوط الاستعمار الإنكلو ـ أمريكي وبسقوط نوري السعيد والعهد الملكي لكي يصبح وطنيًا مخلصًا وبطلاً جماهيريًا. والويل لكل الويل لمن يتجرأ ويذكر إنجازات الدولة أو لمدح العائلة المالكة، كما فعل الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، أو يتعاون مع النظام الملكي ليصبحوا خونة ويُنعتوا بعملاء الاستعمار.

لذلك تركز التحليلات التالية على خصائص الأحزاب والحركات السياسية التي نشطت طوال العهد الملكي وناصبته العداء على أسس واهية، ثم انتهت بنهايات مأساوية بعد سقوط ذلك النظام الأوليغاركي في يوم ١٤/٧/١٩٥٨ ودخول العراق تحت حكم دكتاتوريات استبدادية بحتة أنهت الوعي الجماهيري وقمعت الطبقة المتوسطة المثقفة وقتلت براعم الممارسات الديمقراطية حديثة الولادة والتي كانت في طريقها للنمو والتي شهدها العراقيون خصوصًا في أواخر العهد الملكي.

الحياة الحزبية وتأثيرها على سياسة العراق

كانت نخبة الشباب العراقيين ممن حصلوا على التعليم في بداية القرن العشرين من اسطنبول، سواء في المجال العسكري أو المدني، وتأثروا بعزيز علي المصري زعيم حركة العهد وبقية الحركات القومية التي نادت بالعروبة والوحدة العربية والاستقلال من حكم الأتراك وخلق دولة عربية كبرى موحدة، وكانت تلك العناصر الفتية في العراق، كما في بعض البلاد العربية الأخرى، تتطلع للانخراط في أحزاب سياسية وتأسيس نظام برلماني حديث مبني على التعددية. وقد كان ثمة حزبان عربيان فاعلان أثناء العهد العثماني وهما حزب العهد وحزب حرس الاستقلال، وكان لكليهما نفس الهدف وهو الاستقلال من حكم الأتراك.

أما بعد ولادة المملكة العراقية، فقد تأسست ثلاثة أحزاب وهي كما يلي:

١ . حزب التقدم. تحت زعامة عبد المحسن السعدون.

٢ . حزب الشعب. تحت زعامة ياسين الهاشمي.

٣ . الحزب الوطني. تحت قيادة جعفر أبو التمن.

هذه الأحزاب الثلاث في الواقع كان لها نفس الأهداف ونادت بإنهاء الانتداب الإنكليزي والحصول على استقلال العراق. ولم يكن بينها أي خلاف فكري أو إيديولوجي إلا إنها تبعت زعماءها الطامحين بالمناصب النيابية والوزارية.

وبعد أن انتحر عبد المحسن السعدون عام ١٩٢٩، انحل حزب التقدم وتلاشى. أما الحزبان الآخران فقد بقيا فاعلان أثناء عقد الثلاثينيات وأثناء تعثر الحياة السياسية بعد وفاة الملك فيصل الأول ونشوب الخلاف بين النخبة الحاكمة وتدخل الجيش في السياسة الذي أدى إلى اندلاع الحرب مع بريطانيا في عام ١٩٤١.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، أراد الأمير عبد الإله (الوصي على العرش) أن يبدأ بداية جديدة بإزالة جميع القيود المفروضة على الحريات السياسية التي اقتضتها فترة الحرب. لذلك فقد اختار لرئاسة الوزارة السيد توفيق السويدي خريج السوربون في باريس والمطّلع على النظم السياسية الغربية والمؤمن بالديمقراطية، فبادر السيد السويدي بإنهاء المراقبة على الصحف وإعطاء الإجازات لعدة أحزاب سياسية ما عدا الحزب الشيوعي الذي بقي يمارس فعالياته المناوئة للحكومة بصورة سرية.

وفي عام ١٩٤٦ تقدمت ست مجموعات بطلبات لإنشاء أحزاب سياسية كما يلي[٢]:

١. حزب الاستقلال. زعيمه محمد مهدي كبة، وجريدته (لواء الاستقلال).

٢. الحزب الوطني الديمقراطي. زعيمه كامل الجادرجي، وجريدته (صوت الأهالي).

٣. حزب الأحرار. زعيمه سعد صالح، وجريدته (صوت الأحرار).

٤. حزب الشعب. زعيمه عزيز شريف، وجريدته (الوطن).

٥. حزب الاتحاد الوطني. زعيمه عبد الفتاح إبراهيم، وجريدته (السياسة).

٦. حزب التحرر.

وقد أجيزت الأحزاب الخمسة الأولى، ولكن رُفض طلب حزب التحرر لأن الحكومة أدركت أن أعضاؤه من الشيوعيين المتطرفين.

وقد مَثْلتْ تلك الأحزاب الخمسة جميع الاتجاهات، من اليمين إلى اليسار المعتدل وكانت جرائدهم أو كما تدعى لسان حالهم تنشر وجهات نظر الأحزاب ومتاحة لنشر آراء العناصر المثقفة بشتى مبادئها. النقطة المهمة هنا

٢) توفيق السويدي، مذكراتي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥) صفحة ١١٢.

إن تلك الجرائد في سني الأربعينيات كانت غير حكومية وأتاحت المجال للإفصاح لمختلف الآراء والانتقادات، وقد تعرضت الجرائد والأحزاب للتقييد والإغلاق حسب الوزارات التي كانت تأتي للحكم فعلى سبيل المثال كان رئيس الوزراء توفيق السويدي وشقيقه ناجي أكثر تسامحًا مع المعارضة من نوري السعيد الذي كانت وزاراته أقل تحملاً للانتقادات وخصوصًا بصدد سياسة الدولة الممالئة للإنكليز والغرب.

وتبين التفاصيل التالية سياسات الأحزاب ومواقفها تجاه النظام الملكي:

١ ـ حزب الاستقلال:

وهو حزب يميني ويعتبر بمثابة استمرار لحزب الشعب القومي النزعة الذي ترأسه ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني. وقد اجتذب حزب الاستقلال العديد من تلاميذ الثانويات والكليات، والكثير من العناصر القومية المتذمرة من الأوضاع العامة ونفوذ الإنكليز على سياسة العراق. وقد كان زعيم الحزب محمد مهدي كبة مؤازرًا من قبل عناصر معروفة بتشددها القومي من أمثال فائق السامرائي وصديق شنشل، وهما قطبان قوميان بارزان ويعاديان أي نفوذ أجنبي في البلاد. وقد اتهمت الدولة هذا الحزب بالميل إلى العقيدة النازية لأن بعض أعضائه كانوا منتمين إلى نادي المثنى، وهو نادٍ يضم العناصر القومية المثقفة والتي اندفعت لتأييد ألمانيا النازية لأنها كانت تحارب الإنكليز. وكان تأييد بعض العراقيين لألمانيا النازية نابعًا من كراهيتهم للإنكليز وهيمنتهم على العراق، أكثر من اقتناعهم بالأيديولوجية الفاشية والنازية العنصرية، وكان تأييدهم لهتلر مبنيًا على أنه سيتمكن من تخليص العالم العربي من الاستعمار الإنكليزي وفلسطين من الخطر الصهيوني. وقد أغلق نادي المثنى أبوابه بعد أن شارك العديد من أعضائه في حرب رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١ ضد بريطانيا فتشتتوا أيدي سبأ.

وحين أُنشئ حزب الاستقلال في عام ١٩٤٦ أعاد مبادئ نادي المثنى وتبناها كأهداف للحزب والتي هي[٣]:

أ. العداء للشيوعية.

ب. العداء للاستعمار والصهيونية وسقوط عملاء الاستعمار.

ج. النداء لإعادة الأمجاد السابقة للعرب.

كان المفروض بحزب الاستقلال تفهم ظروف الدولة العراقية الحديثة العهد، والتخفيف من غلواء عدائه للإنكليز لعدم قدرة العراق الصغير الضعيف على مواجهة بريطانيا التي كانت أعظم دولة استعمارية في العالم، وهي في الواقع خلقت الكيان الذي سمي المملكة العراقية. ولو كان قادة الحزب وخصوصًا الشيخ محمد مهدي كبة وفائق السامرائي قد قرأوا بتمعن تاريخ نوري السعيد وياسين الهاشمي وعلي جودت الأيوبي وبقية رفاقهم، لأدركوا بأن أولئك العناصر التي كانت تتوالى على الوزارات لم تكن تقل عن حزب الاستقلال قوميةً ووطنيةً والرغبة بالاستقلال التام. وكان اتهامهم بالعمالة خطأً كبيرًا لأنهم أُجبروا كما أُجبر الملك فيصل الأول على موالاة الهيمنة البريطانية لأجل تحقيق أهداف وطنية وقومية حيوية للعراق. فلو انصاع الملك فيصل ووزرائه للتهريج الشعبي ضد المعاهدات التي عُقدت في عقد العشرينيات والتي تنازل العراق عن حقه في نفطه، لضاعت منطقة الموصل والتهمتها تركيا، ولاستولت إيران على المناطق الشرقية ولانتهى كيان العراق. ولو لم يصادق رئيس الوزراء نوري السعيد على معاهدة ١٩٣٠ والتي قامت قيامة المعارضة ضدها لأنها منحت بريطانيا حق بناء قواعد عسكرية، لما دخل العراق عصبة الأمم ولبقي تحت حكم الانتداب الإنكليزي. فالعلاقات بين الأمم تبنى على المصالح المتبادلة. لذلك فقد ركن قادة العراق إلى سياسة خذ وطالب على أمل إبقاء العراق موحدًا وتحقيق جميع الأهداف القومية على المدى البعيد،

٣) محمد مهدي كبة، مذكراتي في صميم الأحداث: ١٩١٨-١٩٥٨ (بيروت: ١٩٦٥).

إضافة إلى الاستفادة من دعم بريطانيا وخبرتها الإدارية والعسكرية والتقنية والارتباط معها بالمصالح المشتركة لأجل اللجوء إلى حمايتها وجبروتها إذا ما تعرض العراق للاعتداء وخصوصًا من دول الجوار، تركيا وإيران القويتين واللتين كانتا وما انفكتا طامعتين بنفط ومياه العراق وخيراته الأخرى. وقد جلب الغلواء القومي والوطني من قبل بعض أعضاء الحزب الويلات على العراق حين أيدوا بكل قواهم الضباط الأربعة وحربهم غير المدروسة ضد الإنكليز والتي أدت إلى تمزيق الجيش العراقي ودخول البلاد تحت الاحتلال العسكري المباشر لبريطانيا[٤].

وبالرغم من كل هذه المواقف العدائية، فقد كان مؤيدو وأعضاء حزب الاستقلال من أمثال يونس السبعاوي وصديق شنشل وفائق السامرائي وغيرهم نوابًا منتخبين في البرلمان، وقد استوزر الشيخ محمد مهدي كبة عام ١٩٤٨.

وفي أواسط عقد الخمسينيات بدأ حزب الاستقلال يضعف ويفقد بعض أعضائه نظرًا لافتقاره إلى أيديولوجية ثابتة توحدهم وتبرمج جهودهم فانتظموا في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان يمتاز بتنظيم راسخ وأيديولوجية أكثر وضوحًا.

٢ ـ الحزب الوطني الديمقراطي:

أجازت وزارة الداخلية بتاريخ ٢ / ٤ / ١٩٤٦ تأسيس حزب باسم (الحزب الوطني الديمقراطي) بقيادة السياسي المثقف اليساري كامل (بيك) الجادرجي وكانت اللجنة المؤسسة للحزب تتألف من الذوات: محمد حديد، وحسين جميل، وعبد الوهاب مرجان، وعبد الكريم الأرزي، ويوسف الحاج ياس، وصادق كمونة.

---

٤) صلاح الدين الصباغ، فرسان العروبة: مذكرات الشهيد صلاح الدين الصباغ، تقديم ومراجعة سمير السعيدي (الرباط: تانيت للنشر، ١٩٩٤) الصفحات ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

وترجع جذور هذا الحزب إلى جماعة الأهالي (١٩٣٠) والتي تألفت من شباب ينتمون إلى الطبقة المتوسطة المتعلمة وبعضهم كان ينتمي إلى الطبقة الميسرة العليا، وكانت أهداف تلك الحركة هي مكافحة الأمية والإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والنضال ضد النخبة الحاكمة للعراق لأنها تتكون من عناصر هدفها خدمة الأهداف الامبريالية لدول الغرب[٥].

مؤسس جماعة الأهالي كان الأستاذ حسين جميل، وهو قاض سابق ومثقف ينتمي إلى العائلة الموسرة (آل الجميل)، وفي ٢ / ٧ / ١٩٣٢ استحصل الأستاذ حسين جميل إجازة لإصدار جريدة الأهالي. بعدئذ انضم إلى جماعة الأهالي بعض العناصر من الشباب المثقف من ذوي الأفكار اليسارية من أمثال عبد الفتاح إبراهيم، ودرويش الحيدري، وجميل توما، ونوري روفائيل، ومحمد حديد، وعلي حيدر سليمان، وعزيز شريف، وعبد القادر إسماعيل وغيرهم. وقد ازدادت قوة جماعة الأهالي ومكانتها الاجتماعية في عام ١٩٣٣ بعد أن انضم لها عنصران يتمتعان بوزن سياسي وشعبي مهم هما الأستاذ كامل الجادرجي، والوجه الاجتماعي المعروف السيد جعفر أبو التمن. وقد حققت جماعة الأهالي أعلى إنجازاتها حين اشترك ثلاثة من أعضائها وهم حكمت سليمان وكامل الجادرجي وجعفر أبو التمن في الوزارة التي تألفت بعد انقلاب بكر صدقي في عام ١٩٣٦ على أمل الأخذ بزمام الأمور وقيادة البلاد نحو الإصلاح والديمقراطية، إلا إن الجماعة أصابها الإحباط بسبب تسلط عسكرتارية بكر صدقي وزمرته وتدهور الأحوال العامة في البلاد مما حمل كامل الجادرجي وجعفر أبو التمن على الاستقالة من الوزارة.

وفي ٢٣ / ٩ / ١٩٤٢ صدرت جريدة (صوت الأهالي) لصاحبها ومديرها كامل الجادرجي كامتداد لجريدة الأهالي، وبدأت الجريدة الجديدة بمعالجة

---

٥) Iraq: 1900–1950, A political Social and Economic History (London: Oxford University Press, 1953) P. 336

القضايا العامة وفقًا لاعتقادات وآراء أعضاء جمعية الأهالي وكانت خطة الجريدة واهدافها تتلخص بالمبادئ الآتية[٦]:

أ. حرية الانتخابات

ب. ضمان الحق في التنظيم الحزبي النقابي

ج. حرية النشر والاجتماع

د. تطبيق القوانين الأساسية لتلافي الاضطرابات السياسية

ه. معالجة أوضاع التعليم والصحة العامة

و. رفع مستوى السكان وخصوصًا المناطق الفقيرة

ز. حل مشكلة الأراضي

ح. مكافحة الفاشية (كانت الأفكار الفاشية والنازية متفشية بين بعض الشباب نظرًا لعداء النازية للإنكليز واليهود)

ط. العمل من أجل القضايا العربية وخصوصًا القضية الفلسطينية

وقد بقيت هذه المبادئ بمثابة العمود الفقري لحركة الأهالي ومن ثم الحزب الوطني الديمقراطي بالرغم من إنها تعرضت لنقاشات واعتراضات من قبل أعضاء الحزب.

وبعد عام ١٩٤٧ تبنّى السيد كامل الجادرجي نظام الاشتراكية الديمقراطية كمبدأ أساسي لحزبه متأثرًا بفلسفة حزب العمال البريطاني المبنية على الاشتراكية الديمقراطية الفابية[٧]، وكانت أفكار السيد الجادرجي واضحة

---

٦) محمد حديد، مذكراتي: الصراع من أجل الديمقراطية في العراق. (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦) صفحة ١٩١.

٧) الاشتراكية الديمقراطية الفابية تأسست في لندن - إنكلترا في العقد الثامن من القرن التاسع عشر من قبل مجموعة من الشعراء والكتّاب والمثقفين من أمثال أدوارد كاربنتر، وجون دافيز، وجورج برناردشو، وبيرتراند رسل، وآني بيسنت، ورامسي مكدونالد، وسدني ويب وزوجته بياتريس. وتهدف الجمعية إلى التوصل إلى تطبيق النظام الاشتراكي بالطرق السلمية وعلى مراحل تدريجية بدلاً من الثورة وإراقة الدماء. واستمدت اسمها من القائد الروماني فابيوس ماكسيموس (٢٧٥-٢٠٤ ق.م) الذي كان يؤمن بإنهاك

وكتاباته التي اتخذ منها موقع الوسط بين أفكار أكثر يمينية مما كان يؤمن به وأخرى أقرب للشيوعية وأكثر يسارية من قناعاته فكان أقرب إلى أفكار محمد حديد وحسين جميل من أفكار زكي عبد الوهاب وطلعت الشيباني.

لذلك فإن العناصر اليمينية المتطرفة تجابهها العناصر اليسارية المتطرفة، إضافة إلى عناصر الوسط جعلت من الصعوبة بمكان تحديد أيديولوجية ثابتة تكتنف الحزب بأجمعه تحت مظلتها.

إلا إن شيئًا واحدًا كان في غاية الوضوح هو إن السيد كامل الجادرجي أعلن عدائه السافر ضد العهد الملكي طوال حياته السياسية، ورفع شعارات ضد النخبة الحاكمة والإنكليز مما جعله يتبوأ موقع البطل الجماهيري والمناضل الذي يقارع الاستعمار وأذناب الاستعمار والرجعية بلا هوادة ولذلك فقد تغاضى السيد الجادرجي عن ذكر أي جانب إيجابي للنظام الملكي. فكلما تمادى بالتهجم على الحكومة، كلما ازدادت مكانته أمام الرأي العام المدفوع بالعواطف الجياشة والمهووس بكراهية الإنكليز والجاهل بظروف العراق الخاصة وموقعه الجغرافي الحساس وطبيعة علاقاته مع دول الجوار والدول الكبرى ونوعية التضحيات التي تقوم بها الدولة لأجل إبقاء العراق على الصراط الذي يؤدي إلى التقدم والازدهار.

فقد نادى السيد الجادرجي بالاشتراكية الفابية، وصفق له الشارع إعجابًا، بالرغم من إنه سيد العارفين باستحالة تطبيق ذلك النظام في العراق لكونه مجتمعًا عشائريًا ومعظم سكانه أميين لا يعرفون أي شيء عن حقوقهم السياسية والقانونية. كان الأحرى بالسيد الجادرجي أن يؤكد على المطالبة بنشر التعليم كتوطئة لزيادة عدد السكان المتعلمين وتوسيع الطبقة الوسطى

خصومه تدريجيًا عن طريق المناوشات والمعارك المحدودة لأجل تجنب الخسائر الجسيمة التي تقع نتيجة المعارك الكبرى. وقد استعمل فابيوس هذا التكتيك في حرب البيونك الثالثة (١٤٦ ق.م) ضد هانيبال ملك قرطاجة وأنهك قواه تدريجيًا ودمره وقضى على مملكة قرطاجة.

التي هي دعامة الوعي الديمقراطي الاشتراكي. وقد اتخذ السيد الجادرجي حزب العمال (ص ٢٠٩) البريطاني كنموذج لأيديولوجيته متناسيًا إن حزب العمال المؤمن بالاشتراكية الفابية يضم قاعدة واسعة من الأعضاء المنتمين إلى الطبقة الوسطى المتعلمة.

أما الشعار الثاني الذي رفعه السيد الجادرجي وهتف له الشارع وعزز مكانته كبطل شعبي هو مطالبته بتأميم نفط العراق الغزير، رغم إدراكه التام بالمخاطر المميتة التي يؤدي إليها مثل هذا القرار وباحتمال التصادم مع شركات النفط الكبرى المدعومة من قبل أقوى دول العالم. وحين نجح العهد الملكي في عام ١٩٥٢ بعقد اتفاق المناصفة مع الشركة الإنكليزية (I. P. C) كان ذلك الإنجاز تاريخيًا كبيرًا، وقد استغل رئيس الوزراء نوري السعيد التطورات السياسية في الشرق الأوسط والاضطرابات التي حدثت في سوق النفط نتيجة تأميم صناعة نفط إيران بعد الانقلاب الذي تزعمه الدكتور محمد مصدق وهروب الشاه، استغل هذه الظروف المواتية لكي يتوصل إلى تلك النتيجة الباهرة. ولم يكن بإمكان الدولة العراقية تحقيق أي نتيجة أكثر من ذلك لاستحالتها في تلك الحقبة لأن صناعة النفط في جميع أنحاء العالم - ما عدا الاتحاد السوفياتي - كان مسيطرًا عليها بشكل مطلق ولعدة عقود من قبل ما دعي بالأخوات السبعة، وهي أكبر وأغنى وأقوى الشركات في العالم ومدعومة من أقوى دول الغرب. تلك الشركات كانت[٨]:

1. Standard of Oil New Jersey (ESSO).
2. Royal Dutch Shell (Dutch 60% British 40%).
3. Anglo – Persian Oil Co. (APCO). British known by the initial (B. P).
4. Standard Oil Co. of New York (merged with EXXON Mobile).

---

٨) See Sampson, Anthony, The Seven Sisters. (New York: Viking, 1975

5. Standard Oil of California.

6. Gulf Oil.

7. Texaco.

كانت تجارة النفط تجري داخل شبكة تلك الشركات ولم تكن (Organization of Oil Exporting Countrie: OPEC) قد تأسست بعد لأجل الحماية والحفاظ على مصالح الدول المصدرة للنفط. وكانت تلك الشركات السبع مدعومة من الدول العظمى وهي أمريكا وإنكلترا وفرنسا وهولاندا وغيرها، وكان التفكير بتأميم النفط بمثابة الانتحار لأي دولة صغيرة مصدرة للنفط مثلما حدث لإيران تحت زعامة الدكتور مصدق الذي أمم النفط فقررت الشركات الكبرى ومن خلفها الدول العظمى مقاطعة النفط الإيراني وتجميد صناعته والتعويض عنه من بلدان مصدرة صغيرة أخرى كالكويت والسعودية، ما أدى إلى انهيار الاقتصاد الإيراني، وتصاعد التذمر الشعبي بسبب الغلاء والقحط الذي نتج وأدى إلى ضعضعة وضع حكومة مصدق وبالتالي سقوطها ببساطة على أيدي الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) ورجوع الشاه محمد رضا بهلوي إلى عرشه.

أراد كامل (بيك) الجادرجي أن يظهر بمظهر البطل فطالب بتأميم النفط وهو على تمام الإدراك بأن مثل هذه الخطوة ستؤدي إلى انهيار الاقتصاد العراقي لأن معظمه يعتمد على تصدير النفط. ولكن بوقوفه أمام قرار المناصفة مع (.I P. C) وأمام الأمير عبد الإله ونوري السعيد والنظام الملكي، فقد أثبت وطنيته وثوريته وبطولته، وقد انجرف الرأي العام الساذج وخرجت المظاهرات تطالب بإلغاء معاهدة المناصفة والتأميم الكامل للنفط بدون أي دراسة لعواقب التأميم فيما إذا حدث. لذلك حين انطلقت المظاهرات في عام ١٩٥٢ بعد حدوث شغب في كلية الصيدلة بما دعي بالانتفاضة وما بعدها كان الشعار الرئيسي

الذي ردده الشارع العراقي هو (نريد كامل الجادرجي لرئاسة الوزارة)[٩].

وفي عام ١٩٥٥ وقّعت وزارة نوري السعيد (ميثاق حلف بغداد) مع إيران وتركيا وبعض الدول الإسلامية، فوقفت المعارضة والجبهة الوطنية للأحزاب ضد الحلف بعنف وأخذت جانب الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي تزعم مبدأ عدم الانحياز وركز هجومه على النظام الملكي العراقي، وكان السيد الجادرجي من أقوى مؤيدي عبد الناصر. ولأجل زيادة أوار الهيجان الشعبي ضد حكومة العراق، تمادى الجادرجي في هجماته وأرسل أثناء هجوم بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر بعد أن أمم عبد الناصر قنال السويس عام ١٩٥٦، برقية جاء فيها:

نص البرقية التي بعثها كامل الجادرجي إلى مجلس الأعيان والنواب العراقي.

البرقية اللاسلكية المؤرخة ١٤ / ١١ / ١٩٥٦

إن لجنة الاتصال للمؤتمر الشعبي العربي تستنهض ضمائركم لتبادروا بإنزال العقوبة في حق المتآمرين الذين ارتكبوا الخيانة العظمى بالسماح للبترول العراقي أن يتدفق إلى حيفا لتستخدمه إسرائيل والإنكليز والفرنسيون للقضاء على الأمة العربية. إن التاريخ يسجل موقفكم وإن الأمة العربية بأجمعها تنتظر ما سوف تتخذونه على هذه المؤامرة الاستعمارية المنكرة وعلى المتآمرين أعوان الاستعمار. وفقكم الله سبحانه وتعالى إلى ما فيه رضا ومصلحة الأمة العربية.

وفي غمرة الحرب نشرت الصحف المصرية إن العراق يسمح بتصدير النفط عن طريق أنبوب حيفا في إسرائيل، فاجتاحت العراق والعالم العربي تظاهرات

---

٩) شارك المؤلف شخصيًا في تلك المظاهرة واطلع على شعاراتها.

تهتف بسقوط الحكومة العراقية ونُسف خط النفط العراقي الذي يمر في سوريا ولم يخرج منه قطرة نفط مما يؤكد كذب وبهتان تلك الاتهامات، مما حدا بنائب رئيس مجلس الأعيان العراقي أن يجيب على تلك الهجمات بما يأتي[١٠]:

> إن العراق الذي دومًا وما زال في طليعة الدول العربية نصيرًا لقضايا العرب وكان أول من بادر إلى إيقاف ضخ النفط إلى حيفا وتحمل بسبب ذلك أضرارًا مادية عظيمة، يستهجن هذه الاتجاهات الضالة التي يروجها المغرضون والدساسون من أعداء العرب ووحدتهم ونستغرب أن تقوم هيئة محترمة كلجنة الاتصال للمؤتمر الشعبي العربي على الاندفاع وراء هذه الدعايات المضللة قبل أن تتحقق من صحة هذا الأمر الذي أثبت التحقيق الرسمي في العراق وفي الأردن كذبه وبطلانه.

وبالرغم من بيانات التكذيب وبراهين بهتان تلك الاتهامات حيث أثبتت الحكومة العراقية أنها قطعت ضخ النفط إلى حيفا منذ اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٤٨ وحولت صادرات النفط إلى البحر المتوسط عن طريق بانياس في سوريا، فقد بقيت الاتهامات تترى على الحكومة العراقية.

هذه التهمة الكاذبة التي وجهها الجادرجي ضد الحكومة في برقيته أعلاه تدرج تحت باب القذف وتأجيج المشاعر ضد الدولة أي ما يدعى في العالم الديمقراطي الغربي (Sedition) وهي تهمة يعاقب عليها قانون العقوبات العراقي حسب المادة السادسة من الباب الثاني عشر بالسجن لمدة لا تتجاوز الثلاث سنوات «على كل من أذاع أخبار قصد بها التضليل أو إضعاف الحكومة». وقد حكم على الجادرجي بموجب هذه المادة بالحبس لمدة ثلاث سنوات.

---

١٠) مذكرات كامل الجادرجي: وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٠) صفحة ٦٥٥.

كانت برقية كامل (بيك) الجادرجي افتراء محض لأن العراق لم يوقع أبدًا معاهدة هدنة مع «إسرائيل» أسوة ببعض البلاد العربية، إلا إن البرقية أثارت فضيحة إعلامية كبرى وعلى الأخص إذاعة صوت العرب حيث استغلها الرئيس المصري جمال عبد الناصر وأخذ المذيع أحمد سعيد يهاجم بشكل مثير من إذاعة صوت العرب مما زاد من غضب الشباب وكانت المظاهرات مستعرة في معظم أنحاء العراق والتحمنا مع قوات الشرطة نرميهم بوابل من الحجارة، وأتذكر جيدًا في إحدى المظاهرات بجانب كلية الآداب التي كانت بقرب باب المعظم، كان شاب بجانبي مباشرة يخفي مسدسًا تحت غطاء الرأس (يشمغ) وضعه على ذراعه ويرمي من تحته الرصاص على الشرطة.

ألقت الشرطة القبض على العديد من المتظاهرين وأودعهم المعتقلات والسجون. فبادر عدد من الساسة العراقيين والشخصيات المعروفة المستقلة بتقديم مذكرة إلى الملك فيصل الثاني يستنكرون إجراءات الحكومة وطالبوا بفسح المجال للشعب العراقي ليعبر عن استنكاره للعدوان على الشقيقة مصر. كذلك طالبت المذكرة تنحي وزارة نوري السعيد عن الحكم وانسحاب العراق من حلف بغداد والتضامن مع الدول العربية. وقد قدمت مذكرة مشابهة موقّعة من قبل أساتذة الجامعة والمعاهد الأخرى، كما قدم نقيب المحامين مذكرة باسم المحامين العراقيين بنفس المطالب[11].

وفي إحدى الأمسيات وبينما كانت الاضطرابات تجتاح مدن العراق، ألقى رئيس الوزراء نوري السعيد خطابًا من محطة إذاعة بغداد علل فيه سياسته وأكد الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية المرتبطة مع تعزيز العلاقات بدول الجوار وبيّنَ أن النهرين العظيمين دجلة والفرات ينبعان من تركيا وروافد دجلة تنبع من إيران، فإذا تدهورت علاقة العراق مع تلكما الدولتين الجارتين فسيتمكنون وبواسطة التكنلوجيا الحديثة من تحويل مجاري تلك الأنهار

---

١١) محمد حديد، المصدر السابق، صفحة ٢٩٢.

وستقع الطامة الكبرى على العراق[١٢].

وفي تصريح أدلى به رئيس الوزراء نوري السعيد نشرته جريدة البلاد رد فيه على الاتهام الموجه لحكومته باعتقال الألوف بأن المعتقلين أقل من ذلك بكثير وأكد بأنهم ليسوا في معسكر اعتقال النازيين، بل إنهم يعاملون معاملة مغايرة ويشك بأنهم شيوعيون.

ثم نوه بحكم سجن كامل الجادرجي قائلاً: «لدينا شخص حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات ليس بالحبس الشديد، بل الحبس الكريم، فهو يرتدي الملابس المدنية ويتلقى الطعام من الخارج ويستقبل الضيوف، ويستطيع أن يقيم حفلة عشاء».

وقد رد السيد الجادرجي على تصريح رئيس الوزراء برسالة بعثها بواسطة مدير سجن الموقف في بغداد قائلاً: «إن صح اعتبار حياتي في السجن والتي وصفتموها بالحياة الكريمة فهي على أي حال ليست منحة من قبل أحد وإنما هي في الواقع نتيجة طبيعية لبعض ما منحه قانون السجن ونظامه من حقوق للسجين السياسي»[١٣].

وهنا أود أن أعلق قائلاً: لله درّكَ يا أستاذ كامل بيك الجادرجي فقد اعترفت بتصريح قرأه الجميع بأنك كنت تعامل معاملة متميزة وتليق بمكانتك كسياسي كبير حسب القانون. فلنرى ما الذي كان يحدث لك لو كنت وجهت تلك التهمة في أي عهد آخر مر على العراق؟

- لو كنت في سن تؤهلك لممارسة السياسة والصحافة في العهد العثماني وتطاولت على السلطان أو أحد الولاة أو الصدر الأعظم لأمسك بك جهاز الشرطة السرّية ولقتلوك ورموا جثتك في اليم.

---

١٢) مأمون أمين زكي «العراق بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم» الملف العراقي، عدد ٨٣، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٨، صفحة ٣٩.

١٣) كامل الجادرجي، المصدر السابق، صفحة ٦٨٧.

- حين أخذت تنتقد الأوضاع بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨، هددك المرحوم الزعيم عبد الكريم قاسم قائلاً بأنك سوف تعاقب بالسجن الشديد ولن تلقَ المعاملة الكريمة التي عاملك بها العهد الملكي. لذلك فقد ركنتَ إلى السكوت وعدم الانتقاد خشية العواقب الوخيمة.
- أما أثناء حزب البعث فلو تطاولتَ على رئيس الدولة، لأمسك بك السيد عدي صدام حسين ولاقتطع لسانك بآلة خاصة كان يستعملها لقطع لسان كل من يتجرأ ويتطاول على الحكومة أو على والده.

لقد بدأ الأستاذ كامل الجادرجي حياته السياسية والصحافية في عقد العشرينيات من القرن العشرين وشغل حقيبة وزارية وانتخب نائبًا في المجلس وأصبح شخصية سياسية يُشار لها بالبنان على المستوى الوطني والعربي، وعُرف في بريطانيا وأوروبا كسياسي ليبرالي يؤمن بالاشتراكية والديمقراطية، وقد تمكن الأستاذ الجادرجي أن يرتقي إلى هذه المكانة المرموقة لسبب واحد فقط، وهو توفر المناخ السياسي المتسامح أثناء الحكم الملكي والذي مكنه من تحقيق تلك الإنجازات. وينطبق هذا الحال على العديد من قادة الحزب الوطني الديمقراطي الذين تبوؤا حقائب وزارية وشغلوا كراسٍ نيابية أثناء العهد الملكي بالرغم من معارضتهم لسياسة الدولة وانتقاداتهم العنيفة لها. ولو كانوا قد عاشوا في أي فترة أخرى من تاريخ العراق فلم يكن يتسنى لهم إنجاز عُشر معشار ما أنجزوه من مكانة سياسية واجتماعية. والدليل على ذلك إنهم اختفوا في طيات النسيان بعد انقلاب ١٤ / تموز.

٣ ـ حزب البعث العربي الاشتراكي:

بعد ضياع فلسطين من أيدي العرب أثناء خسارتهم لحرب عام ١٩٤٨ أمام الصهاينة، شهد الفكر القومي في البلاد العربية تطورًا نحو الاتجاه الثوري، وبدأ الفكر القومي الكلاسيكي المعتدل الذي جاء به ملك العراق فيصل الأول

وحاشيته، وحتى حزب الاستقلال وقادته المعادين للغرب من أمثال مهدي كبة وفائق السامرائي، بدأت تلك الأفكار تتراجع. فقد أحدثت خسارة فلسطين فراغًا أيديولوجيًا قوميًا فانبرى حزب البعث لملء ذلك الفراغ، فانتشرت فعالياته في بعض البلاد العربية، وتسنم الحكم في العراق وسوريا.

ولد حزب البعث في سوريا بعد أن اندمج حزبان هما حزب البعث الذي أنشأه ثلاثة شبان من خريجي السوربون وهم زكي الأرسوزي (علوي) وميشيل عفلق (مسيحي سوري) وصلاح البيطار (مسلم سني). وقد كان الاتجاه العقادي لأولئك الشبان مبني على توحيد الأمة العربية ومحاربة الاستعمار بجميع أنواعه. وقد كان العقل الفلسفي للحزب هو ميشيل عفلق، الرجل المثقف والمطّلع على الفكر الاشتراكي الماركسي وهو الذي أطلق شعار (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) الذي تبناه حزب البعث العربي الاشتراكي وفروعه في جميع البلاد العربية[١٤].

المصدر الآخر الذي رفد الحزب الموحد هو الحزب العربي الاشتراكي بقيادة المحامي أكرم الحوراني ذو الشعبية الواسعة في المناطق الانتخابية وخصوصًا في مدينة حما وقد أطلق على الحزب المتحد (حزب البعث العربي الاشتراكي).

وقد قام الحوراني بإمداد الحزب بمعظم أعضائه ومؤيديه من أفراد الجيش الذين يرتبط معهم برباط وثيق. وفي الفترة الأولى بعد نشوئه، ركز الحزب على القومية العربية وعلاقتها الروحانية بالأديان لكي يؤيد اختلافها عن الفكرة الشيوعية المادية البحتة، فيقول أحد الشعراء البعثيين:

من قال كفرًا وإلحادًا بمبدأنا فمبدأ البعث بعث الروح والقيم

وقد أراد زعماء الحزب أن يجتذبوا مؤيدين من بين الأكثرية المسلمة. أما المبادئ الأساسية للحزب فهي كالآتي:

---

١٤) Al. Aysami, Shibli, The Ba`th Party: The Period of Foundation, 1940-1949 (Madrid: FARESO, 1977) P.P. 110-111

١ . إن الأراضي العربية تشكل وحدة سياسية واقتصادية واحدة، ولا يوجد أي قطر عربي قادر على تحقيق أهدافه بدون البلاد العربية الأخرى.

٢ . إن الأمة العربية تكوّن كيان حضاري وروحاني واحد وكل الخلافات بين أبنائها عرضية وزائفة وستنتهي جميع تلك الخلافات بعد استيقاظ الضمير العربي.

٣ . إن أرض العرب هي ملك للعرب، وهم وحدهم يملكون الحق لاستغلالها واستغلال ثرواتها وتحديد مصيرها.

وفي عام ١٩٥٢ أكد الحزب على إدراج مبدأ الاشتراكية كأحد الأركان الأساسية لأيديولوجيته كما ورد في البند ٢ من النظام الأساسي شارحًا إن توزيع الثروات في البلاد العربية (في الوقت الحاضر) يتسم بعدم المساواة، ولذلك يجب إعادة النظر في هذا الموضوع وتقسيم الثروات بين المواطنين، لذلك فإن تلك المادة أكدت بأن حزب البعث هو حزب اشتراكي[١٥].

وقد انبرى الفيلسوف والمفكر البعثي ميشيل عفلق للتمييز بين الاشتراكية العربية والماركسية ـ اللينينية مستندًا على عدة بنود، منها ما يلي:

إن القومية هي حقيقة ثابتة وليست فترة مرحلية، كما يدعي ماركس بتحليله لظاهرة القومية.

إن الماركسية فلسفة استبدادية ومادية بحتة، بينما حزب البعث يؤكد على القيم الروحانية والحرية الفردية.

تعتقد الماركسية بالأممية[١٦] كهدف أسمى لها، وهذا المبدأ يتناقض مع

---

١٥) Ibid

١٦) الأممية (Universalism) هي الهدف الأخير الذي تهدف إليه الماركسية – اللينينية استنادًا إلى الاعتقاد بان البشر يحقق المرحلة الاشتراكية وينتهي الصراع الطبقي الذي هو سبب الحروب التي تشعلها البرجوازية وستتوفر الثروات في جميع أنحاء العالم وتكون مشاعة للجميع مما يؤدي إلى توحيد البشر بنظام عالمي موحد يتمكن الأفراد من تطمين جميع حاجاتهم (لكلٍ حسب حاجته) ويعيش البشر في عالم يسوده السلام والتعاون على البقاء نظرًا لانتهاء الأسباب الأساسية للحروب والتصادم وفكرة البقاء للأقوى.

جوهر الرسالة الخالدة للبعث كما هي مشروحة من قبل عفلق الذي أكد أن القومية هي العامل الديناميكي الذي يكوّن الدافع إلى تطور العالم العربي وهي القيم والأخلاق ووسيلة قولبة أقصى الطاقات والقابليات العزبية نحو تحقيق طموحاتهم القومية.

وقد جُلِب حزب البعث إلى العراق في عام ١٩٤٩ عن طريق بعض التلاميذ الذين كانوا يتلقون تعليمهم في سوريا ولبنان. وفي بادئ الأمر ركز أولئك القادة الأوائل على العمل السري ومحاولة كسب وزيادة عدد الأعضاء والمؤيدين.

وفي عام ١٩٥٢ انطلقت فعاليات الحزب فشارك بما دعيت (الانتفاضة) أي التظاهرات الشعبية التي اندلعت ضد سياسة الدولة. وقد أبقى حزب البعث في العراق علاقات وثيقة مع المركز الرئيسي للحزب في سوريا (القيادة القومية)، وفي عام ١٩٥٤ اعتُرف به كحزب قومي كامل البناء[١٧].

وقد ضمت الخلية الأولى لحزب البعث العراقي الأسماء التالية:

- فخري قدوري
- طه الرشيد
- شمس الدين كاظم
- جعفر قاسم حمودي
- فؤاد الركابي

وبعد فترة انضم إليهم السيد أياد سعيد ثابت والسيد علي صالح السعدي وكلاهما خريج كلية التجارة. وقد لعب السيد السعدي دورًا بارزًا في السياسية العراقية بعد اقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ وتبوأ مراكز عالية في الدولة.

وفي عام ١٩٥٥ ركز الحزب نشاطه ضد نظام الحكم في العراق واتجاهه

---

١٧) ميشيل عفلق، في سبيل البعث (بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٦) الصفحات ٢٩٩ - ٣١٢.

الموالي للغرب وهاجموا عضوية العراق في حلف بغداد. وقد أسس الحزب علاقة تعاون سرية مع نظام الرئيس المصري جمال عبد الناصر وأيد سياسة عدم الانحياز والعداء للأحلاف العسكرية، وتبنى شعاره الثلاثي: وحدة وحرية واشتراكية.

وفي عام ١٩٥٧ انتظم الحزب مع بقية أحزاب المعارضة بما سمي الجبهة الشعبية التي ركزت هجماتها ضد رئيس الوزراء نوري السعيد ووزير خارجيته الدكتور محمد فاضل الجمالي والأمير عبد الإله واتهموهم بالخيانة والعمالة لدول الغرب لعدم انضمام العراق لحركة عدم الانحياز تضامنًا مع الرئيس جمال عبد الناصر (قائد التحرر القومي).

وبعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ تصاعدت سمعة الحزب بعد أن قام بعض أعضائه وهم أياد سعيد ثابت وعبد الوهاب الغريري وغيرهم، وكانوا جميعًا شبابًا في مقتبل العمر، قاموا في عام ١٩٥٩ بمحاولة اغتيال رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم الذي نجا من الموت. وبعد أن شارك في تمرد العقيد عبد الوهاب الشواف الفاشل في مدينة الموصل، دخل الحزب في حالة جزر شديدة لفترة وجيزة بعد أن اعتُقل أو سُجن معظم أعضائه. ثم ما لبث الحزب أن استعاد قوته بعد أن انقلب اللواء عبد الكريم قاسم على الحزب الشيوعي ومؤيديه وهاجمهم بخطبه، وبعد أن بدأ الضباط الشيوعيون يفقدون مراكزهم في الجيش بينما رجع معظم الضباط القوميين إلى مراكزهم العسكرية.

وقد حقق الحزب أعلى إنجازاته حين تمكن أعضاؤه بقيادة العقيد أحمد حسن البكر والنقيب الطيار منذر الونداوي وعلى صالح السعدي وغيرهم من القيام بانقلاب عسكري أسقط عبد الكريم قاسم وأصبح حزب البعث حاكم العراق. ولكن بعد بضعة أشهر زحف العقيد الركن عبد السلام عارف على بغداد على رأس الجيش وطرد حزب البعث من السلطة وهيمنت العناصر المنتمية للقوميين العرب لفترة قصيرة.

بعد فترة قامت بعض العناصر العسكرية بانقلاب أطاح برئيس الجمهورية عبد الرحمن عارف الذي انتخبه الضباط لرئاسة الجهمورية بعد مقتل شقيقه عبد السلام عارف، وبذلك تمكن حزب البعث من العودة إلى حكم العراق وأصبح أحمد حسن البكر رئيسًا للجمهورية.

ثم تمكن نائب رئيس الجمهورية وقريبه المحامي صدام حسين من إزاحة الرئيس البكر وأصبح هو رئيسًا للجمهورية العراقية ومنح نفسه رتبة (المهيب) ومركز القائد العام للقوات المسلحة بالرغم من إنه لم يدخل أي أكاديمية عسكرية وليست له أي علاقة بالجيش.

وقد شن الرئيس صدام حسين عدة حروب داخلية ضد بعض الأقليات الأثنية والجهات السياسية، ثم تورط بحرب ضروس مع الجارة إيران دامت لثماني سنوات استنفذت خزينة البلاد، ثم لم يلبث بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب الإيرانية أن اجتاح الكويت، البلد العربي الصغير المجاور للعراق، ولم يحقق العراق من كل هذه الحروب سوى الكوارث وضياع عشرات الألوف من الشباب وإهدار أموال لا تقدر ولا تحصى. وأخيرًا انتهى حزب البعث بعد أن اجتاحت جحافل الجيوش الأمريكية بغداد عام ٢٠٠٣ وأعدم صدام حسين بعدئذٍ.

انضم حزب البعث مع الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال إلى الجبهة الشعبية في عام ١٩٥٧ [١٨] وكان أول أهدافه إسقاط العهد الملكي لأجل تنفيذ مبادئه الثلاث: وحدة، حرية، اشتراكية.

إلاّ إن حزب البعث الذي حكم العراق وسوريا لم يحقق الوحدة بين أي بلدين عربيين، بل كان أحد العوامل الأساسية في انفصال سوريا عن مصر وهدم الجمهورية العربية المتحدة. فبعد أن هللت الأكثرية العظمى للشعب السوري للوحدة بين البلدين العربيين عام ١٩٥٨ وصفقت لها جماهير الشعب

---

١٨) محمد حديد، المصدر السابق، صفحة ٢٩٦.

العربي من مراكش إلى بغداد، شب الخلاف بين قادة حزب البعث السوري ورئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر بعد أن انفرد بالحكم ولم يسمح لأي جهة أن تشاركه سلطاته الرئاسية وألغى جميع الأحزاب في قطري الجمهورية، وهاجم بخطبه قادة حزب البعث وسخر من المفكر ميشيل عفلق، مما حدا بحزب البعث في سوريا أن يكون من أول الداعين والعاملين على انفصال سوريا عن مصر الذي وقع عام ١٩٦١. وقد كان سقوط الجمهورية العربية المتحدة من أكبر الكوارث التي وقعت على الجماهير العربية نظرًا لتطلعهم إلى توحيد سوريا ومصر كنواة لانضمام بقية البلاد العربية الأخرى إليها وتحقيق الحلم العربي القديم في الوحدة الكبرى.

أما حزب البعث في العراق فقد شارك مع الجبهة الشعبية في محاربة الاتحاد الهاشمي الذي وحد المملكتين العراقية والأردنية تحت حكم العائلة الهاشمية في عام ١٩٥٨، ومن ثم بسقوط ذلك الاتحاد وانفصال البلدين بعد انقلاب ١٤/٧.

بعد ذلك ولمدة تجاوزت العدة عقود كان حزب البعث العربي الاشتراكي يحكم سوريا والعراق ولكن لم يتخذ خطوة واحدة نحو توحيد البلدين الشقيقين اللذين كان العهد الملكي يركز أقصى الجهود لتوحيدهما تحت خطة الهلال الخصيب، وبقي شعار (الوحدة) عبارة عن حبر على أوراق شعارات حزب البعث.

أما شعار الحرية، فإن حزب البعث كان ولم يزل أبعد ما يكون عن إعطاء الحرية الفردية أو لأي مؤسسة. ففي عهد حكم صدام حسين أصبحت وسائل الإعلام بأجمعها عبارة عن أبواق تعظم «القائد المناضل حفظه الله» الذي أطلق تصريحه المعروف «إذا قال صدام، قال العراق».

واجتاح العراق رعب هائل وصمت رهيب مخافة أن تصدر كلمة تساؤل من أي أحد نحو سياسة الدولة فيلقى القبض على ذلك الشخص ويفتك به

داخل سراديب التعذيب المروعة ثم يُسَلمْ جسده الممزق إربًا إربًا إلى أهله وتُمنع عائلته المفجوعة حتى من إقامة التعزية أو الفاتحة عليه حسب شعائر الدين الإسلامي، أو أي شعائر أخرى. هذا وقد قام الرئيس صدام حسين بإسقاط الجنسية العراقية ونفي عدد لا يحصى من العوائل العراقية التي تنتمي إلى المذهب الجعفري والتي قطنت العراق عبر الأجيال ومنذ قرون، نفاهم بتهمة التبعية إلى إيران وصودرت أموالهم ولم يُسمع أي صوت اعتراض أو تساؤل من قبل الصحافة أو الأفراد مخافة التعرض للموت الزؤام.

هكذا كان تطبيق شعار الحرية من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي.

أما شعار الاشتراكية فقد اتخذت بعض خطوات التأميم أثناء حكم المرحوم الرئيس عبد السلام عارف أسوة بنظام الرئيس جمال عبد الناصر، فكانت وبالاً على الاقتصاد العراقي. فقد توقفت فعاليات السوق واختفت معظم السلع الاستهلاكية الأساسية من الأسواق وخلت مخازن الأدوية والصيدليات من الأدوية الحيوية التي تتحكم بحياة أو موت البشر. وأتذكر حين كنت في الولايات المتحدة إن أخي الأكبر غير الشقيق المرحوم أحمد كان يعاني من داء السكر وكان يحتاج إلى حقنة دواء الأنسولين يوميًا، وقد اختفى ذلك العقار الحيوي فغاب أخي عن الوعي فهرع أهلي للحصول على الدواء ولم يتمكنوا من ذلك رغم وجود ثلاثة أطباء من العائلة وبعد عدة ساعات قضى أخي إلى رحمة الله بسبب عدم وجود عقار واحد في بغداد، عاصمة واحد من أغنى بلدان العالم. وقد وقعت مآسي مشابهة عديدة في معظم أنحاء العراق.

أما أثناء حكم حزب البعث فقد مورست بعض الخطوات الاشتراكية وأدت إلى شحة المواد والغلاء الفاحش، إلا إن سقوط النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي أقنع قيادة الحزب بالعدول عن الاشتراكية فانفتح بما يدعى اقتصاد السوق الحر. إلا إن دخل الدولة أصبح واردًا شخصيًا للرئيس صدام حسين فبنى لنفسه ولعائلته ولأتباعه عشرات القصور الشامخة وتكدست في

حساباتهم مليارات الدولارات، بحيث في إحدى المناسبات التي انزعج فيها صدام حسين من ابنه عدي فنزل إلى مرآب قصر عدي وأحرق ٦٦ سيارة من أفخر وأغلى الماركات.

هكذا طبق حزب البعث الاشتراكية بينما كان الشعب العراقي يتراكض للحصول على دوزينة بيض أو أوقية بطاطا أو دواء حيوي.

ولو وقعت عُشر معشار الممارسات التي ذكرتها أعلاه في العهد الملكي لانطلقنا بمظاهرات صاخبة ولاشتبكنا مع الشرطة ولتقدمت وفود من قادة الأحزاب والطبقة المثقفة بتقديم العرائض للملك ولطالبنا باستقالة الوزراء والتحقيق في أسباب وقوع تلك الحوادث.

وأتذكر في هذا السياق في عام ١٩٥٤ حين ازداد سعر كيلو اللحم ٢٥ فلسًا، وانتشرت الإشاعات بأن سبب ذلك إن صباح ابن نوري السعيد يُهَرب اللحوم ويبيعها لإسرائيل مما سبب اختفاء اللحوم من الأسواق وازدياد أسعارها. فانطلقت المظاهرات واشتبكنا مع قوات الشرطة قرب ساحة حافظ القاضي وفي الشارع المؤدي إلى شارع غازي، اشتبكنا بعنف ورشقناهم بالأحجار والطابوق فوقعت إصابات واعتقل البعض. وبعد أن هدأت الأمور تبين بأن سبب شحة اللحوم هو جفاف أصاب شمال العراق ما أدى إلى نفوق أعداد كبيرة من الأغنام فزاد السعر قليلاً، ولا علاقة لصباح السعيد بذلك فقد كان الرجل مديرًا للسكك الحديدية ويسكن دارًا حكومية ولا يملك دارًا خاصة به ويعتاش على راتب وظيفته.

٥ ـ الحزب الشيوعي العراقي:

ترجع أصول الأفكار الثورية اليسارية في البلاد العربية إلى بداية القرن العشرين وإلى المفكرين العرب الرواد الأوائل الذين درسوا في أوروبا أو تأثروا بالإنتاج الفلسفي والسياسي والاجتماعي الثوري لمثقفي وأدباء القرن التاسع

عشر فقام أولئك الرواد بترجمة تلك الأفكار إلى اللغة العربية ونشرها في أوطانهم. ففي بداية القرن العشرين بدأت آراء جديدة تنفذ إلى أذهان النخب المتعلمة في البلاد العربية فبدأوا يقرأون مبادئ الاشتراكية والماركسية والفابية، وكان المفكرون العرب الأوائل الذين درسوا وبشروا بتلك الأفكار هم شبلي شميل، ونيكولا حداد، وسلامة موسى، وطه حسين وغيرهم ممن استقوا الأفكار (التقدمية الثورية) الواردة من أوروبا، وأخذوا على عاتقهم نشرها بين الأجيال الجديدة من مواطنيهم.

وبالرغم من اعتراض المفكرين المحافظين ورجال الدين فقد ظهرت عدة مجلات من أمثال المقتطف والهلال والرسالة والسياسة، وأخص هنا المقتطف التي كانت أكثر المجلات جرأة في نشر أفكار أولئك المثقفون الكبار الذين تجرأوا على تحدي التقاليد التي كانت متحكمة بأفكار وسلوك شعوب الشرق الأوسط.

وفي عام ١٩١٧ نجح الحزب الشيوعي الروسي (فرع البولشفيك) في إسقاط الملكية وتحولت روسيا إلى النظام الاشتراكي. وفي عام ١٩١٩ بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها أسس رئيس الوزراء فلاديمير لينين منظمة الأممية الثالثة (الكومنتيرن) التي أخذت على عاتقها إرسال عناصرها المشبعة بالأفكار الماركسية - اللينينية إلى أنحاء العالم الرأسمالي لتأسيس أحزاب شيوعية تهدف إلى تأجيج ثورات وإسقاط النظم الرأسمالية واستبدالها بالنظام الشيوعي. وقد دخلت عناصر الكومنتيرن سرًا إلى البلاد العربية لتنشر الأفكار الشيوعية بين الشباب العرب، خصوصًا في سوريا وفلسطين ولبنان.

أما في العراق فإن الحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي إن الذي زرع بذرة الحركة الشيوعية الأولى في العراق هو تلميذ الحقوق السيد حسين

الرحال عام ١٩٢٤ (١٩). إلا إنه لم يؤسس حزبًا بل كان محاطًا بمجموعة من أصدقائه الشباب الذين كان يجتمع بهم وأطلق عليهم اسم (جماعتي) وكان يلقنهم مبادئ الماركسية الشيوعية. بعد ذلك تطورت تلك الحركة إلى واحد من أكثر الأحزاب العراقية شعبية وتنظيمًا وبقي حزبًا سريًا غير مجاز، وأعلن تحديه للدولة العراقية طوال عهدها، وهو الحزب الشيوعي.

ينحدر السيد حسين الرحال من أب عربي هو الميرلاي (العميد) الركن صائب بيك الرحال، وأم من عائلة تركمانية، شفيقة الهرمزي. وتنتمي عائلة الرحال إلى منطقة الرحالية وهي من أقضية لواء الدليم (محافظة الرمادي حاليًا) والعائلة هي من طبقة (الجلبية) التجار. وقد كان والد السيد حسين على صلة قريبة من السلطان العثماني وتسنم مركز (مدير الأموال السنية) للسلطان عبد الحميد الثاني. أما والدته شفيقة فهي البنت الكبرى للحاج محمد صالح بيك الهرمزي، المدعي العام للدولة العثمانية في ولاية الموصل، ثم انتقل إلى العاصمة بغداد في بداية القرن العشرين.

بعثت عائلة الرحال بابنها البكر الصبي حسين إلى العاصمة الألمانية برلين للدراسة هناك فشهد تمرد القوات البحرية الألمانية التي أدت إلى سقوط الملكية وإعلان جمهورية وايمر وشاهد فعاليات جمعية سبارتاكوس الشيوعية في عام ١٩١٩، وبقي حسين في ألمانيا مدة كافية ليتقن اللغة الألمانية جيدًا إضافة إلى إجادته لعدة لغات أخرى وحين رجع إلى بغداد في عام ١٩٢٤ قام بترجمة الفكر الماركسي مباشرة إلى اللغة العربية وبدأ يدّرس جماعته تلك المبادئ.

وكانت مجموعة حسين الرحال تضم الشبان المتنورين الآتية أسماءهم:

- محمد سالم فتاح - تلميذ كلية الحقوق
- عوني بكر صدقي - مدرّس وصحفي

---

١٩) Batatu, Hanna, The Old Soual Class The Revolutionary Movements in Iraq (Princeton: Princeton University Press, 1978) P.390

ـ مصطفى علي ـ مدرّس

ـ محمد أحمد السيد ـ كاتب

وغيرهم، وأصدرت الجماعة جريدة باسم (الصحيفة) التي ظهرت في الفترة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ثم أُغلقت وأُعيد فتحها في عام ١٩٢٧ [٢٠].

وقد ركز الكتّاب الذين نشروا آراءهم في (الصحيفة) هجماتهم على التقاليد القديمة وتبنوا فكرة تحرير المرأة من قيود التقاليد، وتمادى أولئك الشباب فهاجموا أصول الدين الإسلامي وجميع الأديان وفندوها على أسس مادية واجتماعية مستندين على نظريات كارل ماركس، مما أجج رجال الدين وأصحاب العقول التقليدية المحافظة في العراق. وتوالت الانتقادات اللاذعة على جماعة حسين الرحال وصحيفتهم وبدأت خطب الجمعة في الجوامع تنعتهم بالكفر والإلحاد وحث النساء على التفسخ الخلقي. وقد أدّت تلك التهجمات إلى إغلاق جريدة (الصحيفة) وتبعثر الجماعة، إلا إن أفكارها انتشرت بين العديد من الشباب المتعلم.

وفي شهر آذار/مارس/١٩٣٤ اجتمعت عناصر من الشيوعيين من مختلف أرجاء العراق وقررت تشكيل ما أسموه (لجنة مكافحة الاستعمار)، وقد انتخب السيد عاصم فليح الذي يحترف الخياطة سكرتيرًا لها. وفي شهر حزيران/يونيو من عام ١٩٣٥ قررت اللجنة المركزية تبديل اسم اللجنة إلى (الحزب الشيوعي العراقي) وأصدروا جريدتهم الأولى بعنوان (كفاح الشعب). وبدأ الحزب فعالياته السرية. وحين قام بكر صدقي بانقلابه في عام ١٩٣٦ آزر الحزب الشيوعي الانقلاب ونظم مظاهرات جماهيرية تأييدًا لبكر صدقي.

ولكن بعد مقتل بكر وفشل الانقلاب ورجوع نوري السعيد للحكم، وجهت الحكومة ضربات موجعة للحزب الشيوعي وسحقته، وصدر قانون رقم

---

٢٠) Ibid

٥١ لعام ١٩٣٨ الذي منع الشيوعية والاشتراكية في العراق[٢١]. وبموجب هذا القانون أُسقطت الجنسية العراقية عن كل من عبد القادر اسماعيل البستاني وشقيقه يوسف وعن مهدي هاشم.

إلا إن الحزب الشيوعي استعاد عافيته وأعاد تنظيمه عن طريق قيادة السيد يوسف سلمان يوسف (اسمه الحزبي فهد) الذي رجع إلى العراق من موسكو بعد أن تلقى دروسًا مكثفة في الماركسية اللينينية في أروقة الأممية الثالثة، وبين عامي ١٩٣٨ إلى ١٩٣٩ استطاع أن يعيد تكوين الحزب الشيوعي العراقي بمساعدة السادة التالية أسماءهم:

- عبد الله القريني
- ذو النون أيوب
- نعيم بدوي
- داود الصائغ
- زكي بسيم
- محمد الشبيبي

وأصدر الحزب جريدته المعنونة (الشرارة) وقد دعيت بهذا الاسم تيمنًا بجريدة فلاديمير لينين (Iskara) التي تعني باللغة الروسية الشرارة. وما بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٧ استطاع فهد بقيادته أن يجعل الحزب الشيوعي وحدة متماسكة بالرغم من وجود بعض الخلافات الداخلية لبعض الأعضاء. وقد استفاد فهد من التدريب والدروس التي تلقاها في معاهد الكومنتيرن القيادية وتمكن من نشر الأفكار الماركسية بين الشباب، خصوصًا تلاميذ الثانويات والكليات الذين ينتمون إلى العوائل المعدمة والفقيرة. وقد اجتذبت المبادئ الشيوعية الداعية إلى المساواة الاجتماعية، ومحاربة الظلم والتفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء ومعاداة الاستعمار الغربي، اجتذبت العديد من الشباب

٢١) الوقائع العراقية. عدد ١٦٣٣، ٩ / مايس (مايو) / ١٩٣٨.

الذين ينتمون إلى الأقليات الدينية والأثنية، وتغلغلت بين شباب الطبقات المتوسطة العليا وحتى العليا.

ولد يوسف سلمان يوسف (فهد) في عام ١٩٠٧ في مدينة بغداد من أبوين مسيحيين وكانت عائلته قد هاجرت من قرية واقعة في لواء الموصل معظم سكانها من المسيحيين الكلدان، ولم يكمل دراسته الابتدائية، إلاّ إنه كان شديد الاعتقاد بالمبادئ الشيوعية. وفي عام ١٩٣٥ حضر المؤتمر العالمي السابع للكومنتيرن وبقي يتدرب ويتلقى الدروس هناك حتى عام ١٩٣٧[٢٢].

وقد تمكن فهد بخبراته القيادية من جعل الحزب قوة سياسية ذات شأن في العراق، وكان الحزب يراقب قرارات الحكومة ويصدر بيانات ذات طابع انتقادي شديد ضدها، وفي عدة مناسبات نظم مظاهرات جماهيرية صاخبة تحتج على سياسة الحكومة الموالية للغرب والإنكليز.

وفي عام ١٩٤٧ ألقي القبض على أحد قادة الحزب (مالك سيف) الذي اعترف على أسماء الأعضاء وأوكار وخلايا الحزب فوقع فهد وأعضاء اللجنة المركزية في قبضة الدولة وأحيلوا للمحاكم وتلقوا أحكامًا مختلفة بالسجن حسب قانون العقوبات[٢٣].

إلاّ إن الضربة القاضية للحزب الشيوعي وقعت في نفس تلك السنة بعد أن اعترف الاتحاد السوفياتي تحت قيادة جوزف ستالين بقرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وخلق دولة إسرائيل هناك، فأصدر الحزب الشيوعي العراقي كراسًا يؤيد ويبين الحق التاريخي لليهود في فلسطين ويؤيد قرار الأمم المتحدة للتقسيم، وقد اتخذ الحزب هذا القرار خضوعًا لأوامر الاتحاد السوفياتي.

كان تأييد قرار التقسيم كارثيًا على الحركات الشيوعية في جميع البلاد

---

٢٢) Batatu, op. cit.

٢٣) القاعدة (لسان حال الحزب الشيوعي العراقي) ج٥ حزيران (يونيو) / ١٩٤٧.

العربية، وقد استغلت الحكومة العراقية هذا الموقف من الاتحاد السوفياتي للتمادي في محاربة الشيوعية.

وفي عام ١٩٤٩ وقّعت الحكومة العراقية معاهدة بورتسماوث مع حكومة بريطانيا والتي عدلت معاهدة عام ١٩٣٠ فاندلعت التظاهرات والاحتجاجات العنيفة في بغداد والمدن العراقية الكبرى فاضطر الأمير عبد الإله الوصي على العرش أن يلغي المعاهدة ويقبل الوزارة. واتهمت الحكومة قادة الحزب الشيوعي بإثارة الشعب من داخل السجن وأعادت محاكمتهم وحكم على فهد وجماعته بالإعدام ونفذ الحكم في ١٤/٢/١٩٤٩.

بعد ذلك التاريخ فقد الحزب قيادته الكفوءة وأصيب بانقسامات داخلية وتعرض لضربات الحكومة ودخل معظم أعضائه في السجون. واستمر الحزب بتلك الحالة من الجزر إلى أن أعاد السيد حسين الرضي وتنظيمه في عام ١٩٥٦.

اجتذب الحزب الشيوعي السري بشعاره العتيد (وطن حر وشعب سعيد) الذي كان يتصدر جريدته (القاعدة) وبهجماتها النارية ضد الدولة والاستعمار الغربي، اجتذب قاعدة جماهيرية واسعة وحاز على عطف معظم فئات الشعب العراقي بسبب تعرض أعضائه إلى الاضطهاد والاعتقال والسجون وتصاعدت سمعة الحزب كأقوى داعية للتحرر.

بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ أطلق رئيس الوزراء الزعيم الركن عبد الكريم قاسم سراح المسجونين الشيوعيين من ذوي المحكوميات المختلفة. وبعد فترة وجيزة دبّ الخلاف بين قائديّ الانقلاب اللواء عبد الكريم قاسم (استحق الترفيع) والعقيد الركن عبد السلام عارف فالتفت الجهات اليسارية بقيادة الحزب الشيوعي حول عبد الكريم قاسم بينما التف القوميون بقيادة حزب البعث حول عبد السلام عارف. وبعد فشل التمرد الذي قاده العقيد عبد الوهاب الشواف في الشمال تهاوت القوى القومية واتُهِمَتْ بالعمالة والتآمر

ضد الثورة والزعيم عبد الكريم بالاتفاق مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، قائد الاتجاه القومي في البلاد العربية. فاندفع عبد الكريم قاسم بالاعتماد على الحزب الشيوعي لمواجهة التيار القومي المعادي له، فشهد الحزب الشيوعي أعلى مستوى لنفوذه حين سيطرت المؤسسات التي تحت قيادته من أمثال لجان صيانة الجمهورية التي أُنشِئتْ «للحفاظ على الثورة» ومراقبة موظفي الدولة وتشخيص أعداءها، والمقاومة الشعبية التي كانت منظمة مسلحة شبه عسكرية انضم إليها الشبان والشابات وارتدوا الملابس والقبعات الخاكية واستلموا المسدسات والبنادق والرشاشات وقاموا بالحراسة أثناء الليل، ومنظمة الشبيبة الديمقراطية التي اضطلعت بتنظيم فعاليات اجتماعية كالتمثيليات والمحاضرات والمباريات الرياضية. وبذلك وقعت معظم أوجه الحياة في العراق تحت سيطرة الحزب الشيوعي العراقي الذي ترأسه المحامي عامر عبد الله والمحامي عبد القادر إسماعيل البستاني، وصدرت جريدة الحزب اليومية بعنوان جديد هو (اتحاد الشعب) وبنفس الشعار (وطن حر وشعب سعيد)، وكانت بمستوى صحافي جيد نظرًا لمساهمة العناصر الشيوعية المثقفة من ذوي الأقلام السيالة ومقالاتهم مبنية على الفكر الاشتراكي والماركسي - اللينيني العميق.

إلاّ إن الحزب الشيوعي كشف عن حقيقته اللا إنسانية فقد فرض بواسطة منظماته نظامًا استبداديًا رهيبًا واجتاح العراق من شماله إلى جنوبه رعب عميق مخافة الاتهام بالتآمر ضد الثورة أو قائدها عبد الكريم قاسم، وقد كان هذا الاتهام كافٍ لحرمان الأشخاص من وظائفهم ومصادر أرزاقهم وتعرضهم للاعتقال بدون أي تحقيق أو إجراءات قانونية[٢٤].

ولكن نقطة التحول الكبرى جاءت بعد فشل تمرد العقيد عبد الوهاب في

---

٢٤) خليل إبراهيم حسين، الصراعات بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين ورفعت الحاج سري والقوميين. موسوعة ١٤ تموز عدد ٢. (ثورة الشواف) (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٨) صفحة ١٩١

عام ١٩٥٩ وهيمنة الشيوعيين على مدينة الموصل ذات الطابع القومي والتقاليد العميقة، وبدأت الأخبار تترى عن فضائح الحزب الشيوعي في الدملماجة، والمحاكم التي عقدت في الشوارع من قبل أعضاء الحزب من أمثال السيد عدنان جالميران والسيد عبد الرحمن القصاب المحاطين بفرق (السحّالة) وكيفية جلب الأشخاص ومحاكمتهم لعدة دقائق وقتلهم بالرصاص ثم استلامهم من قبل فرق السحل التي شدت الجثث بالحبال وسحبتها في شوارع الموصل. وبعدها اقترف الحزب الشيوعي مجزرة كركوك بمساعدة الأكراد حيث قتلوا أشراف المدينة من الرجال والنساء ومثلوا بجثثهم. والأنكى من ذلك هو إن جريدة (اتحاد الشعب) هللت لمجازر الموصل وكركوك ووصفتها بالأعمال البطولية قامت بها فئات الشعب للحفاظ على الثورة والجمهورية[٢٥]. وقد عُرضت على عبد الكريم قاسم صور مروعة للجثث المشوهة والمحروقة وتفاصيل التفضيع الوحشي بالأناس المسالمين، فألقى خطابًا في كنيسة (مار يوسف) هاجم ما أسماهم بالفوضويين وشجب جرائم الشيوعيين وشبهها بالمجازر التي ارتكبها هولاكو المغولي حين اجتاح بغداد في عام ١٢٥٨.

بعد خطاب رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم في كنيسة (مار يوسف) مباشرة ازورت الحركة الشيوعية، وبدأ العديد ممن تعاطفوا معها بالانفضاض عنها وأخذت المنظمات القومية تستعيد قوتها واندلعت اشتباكات ومشاجرات بين الشيوعيين ومؤيدي الحركات القومية في الكليات والثانويات ومعظم حارات بغداد وتفاقم الخلاف والعنف بين الفئات السياسية في العراق.

إلاّ إن الضربة القاضية التي حلّت بالشيوعيين جاءت في يوم ٨/٣/١٩٦٣ حين استطاع حزب البعث العربي الاشتراكي أن يطيح برئيس الوزراء عبد الكريم قاسم واستولى على الحكم وقد حاولت بعض العناصر الشيوعية أن تقاوم بالسلاح إلاّ إن كوادر حزب البعث سيطرت على الجيش والإذاعة وبقية

---

٢٥) اتحاد الشعب، ١٢/٣/١٩٥٩.

أركان الدولة وتعرض الحزب الشيوعي لضربات قاصمة وقُتِلَ العديد من كوادره وانتهت الحركة الشيوعية في العراق بالرغم من بقاء بعض التنظيمات التي تعاونت لفترة قليلة وبعلاقة ذليلة مع حزب البعث بعد رجوعه إلى الحكم في عقد السبعينيات.

وبعد سقوط صدام حسين وإنهاء حكم حزب البعث إثر اجتياح الجيش الأمريكي لبغداد في عام ٢٠٠٣، بقي الحزب الشيوعي يمارس دوره في النظام السياسي الجديد ويحاول المشاركة في الانتخابات النيابية والرئاسية ولكن بحضور واضح الضعف.

بقيت الأحزاب الأربعة المذكورة أعلاه فاعلة حتى نهاية العهد الملكي وبعده، بينما ظهرت أحزاب أخرى ثم زالت وهي كالآتي:

● **حزب الأحرار**: كان هذا الحزب بحالة سبات منذ عام ١٩٣٩، ولكن وبنتيجة صدور قانون الأحزاب لعام ١٩٤٦ عاد وانتعش معتمدًا على برنامج جذاب مبني على معاداة الاستعمار الغربي والصهيونية وكانت لجنة المؤسسة تتألف من السادة التالية أسماؤهم[٢٦]:

- داخل الشعلان
- عبد العزيز السنجري
- نوري الأورفلي
- عبد القادر باش أعيان
- محمد فخري الجميل
- حسين النقيب
- كامل الخضري
- عباس سعيد سلمان

---

٢٦) عبد الجبار حسن الجبوري، الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨ - ١٩٥٨ (بغداد: دار الحرية، ١٩٧٧) صفحة ١٧٥.

وقد تسنم قيادة الحزب في البداية فخامة السيد توفيق السويدي الذي استقال بعد فترة، فاستلم القيادة السيد سعد صالح، وهو شخصية سياسية مرموقة ومحترمة وينتمي إلى المذهب الجعفري. وبعد وفاة السيد سعد صالح شب الخلاف بين العناصر القيادية، وفي عام ١٩٤٨ انحل الحزب وزال عن الوجود[٢٧].

حزب الشعب: حصل هذا الحزب على إجازته عام ١٩٤٦ تحت قيادة السيد عزيز شريف وهو محام مرموق ومعروف بميوله الماركسية وكانت اللجنة القيادية من الأسماء التالية:

- توفيق منير
- عبد الأمير أبو تراب
- عبد الرحيم شريف
- إبراهيم الدركزلي
- رحيم شهربنلي
- جرجيس فتح الله

كانت مبادئ هذا الحزب أقرب إلى الأفكار الشيوعية، وكانت أهم أهدافه العداء لكل نفوذ أجنبي في العراق والمطالبة بالاستقلال التام. وعلى صعيد السياسة الداخلية نادى الحزب بالإصلاح الاجتماعي وزيادة التسهيلات للتعليم ولتطور الصناعة وغيرها من الأهداف الوطنية العامة[٢٨].

وبعد أن شعرت الحكومة بأن حزب الشعب لم يكن سوى واجهة للحزب الشيوعي السري قررت إغلاقه في عام ١٩٤٦.

حزب الاتحاد الوطني: ألّفَ هذا الحزب مجموعة من الماركسيين تحت قيادة السيد عبد الفتاح إبراهيم. وقد امتص هذا الحزب أعضاء وقيادات حزب

٢٧) Khadduri, Independent Iraq, P. 217

٢٨) الجبوري، المصدر السابق، صفحة ١٧٩.

الشعب المنحل والذي يشابهه في الأفكار الشيوعية. وبعد أن سُمِحَ له بالعمل لفترة قصيرة صدر أمر بإغلاقه لنفس الأسباب التي أدّت إلى إغلاق حزب الشعب.

جبهة الاتحاد الوطني: ظهرت أحزاب واختفت أخرى في العراق عبر السنين، إلاّ إنه في أواخر العهد الملكي بقيت أربعة أحزاب ناشطة وهي الحزب الوطني الديمقراطي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، وحزب الاستقلال، والحزب الشيوعي السري الذي كان يمارس فعالياته بدون إجازة وبلا شرعية. وفي عام ١٩٥٧ تحالفت تلك الأحزاب وكونت جبهة الاتحاد الوطني وكان ممثليها في الجبهة هم السادة: محمد حديد عن الحزب الوطني الديمقراطي، وفؤاد الركابي عن حزب البعث، ومحمد مهدي كبة عن حزب الاستقلال، وعزيز الشيخ عن الحزب الشيوعي[٢٩]. وتبنت الجبهة الميثاق المفنّد الآتي الذي احتوى على البنود الآتية وكان هدفها مقارعة السياسات الداخلية والخارجية للحكومة العراقية:

١ ـ تنحية وزارة نوري السعيد وحل المجلس النيابي. ويتضمن هذا البند تعيين الأستاذ كامل بيك الجادرجي لرئاسة الوزارة، وقد كان هذا أحد المطالب الأساسية التي نادى بها الشعب منذ انتفاضة عام ١٩٥٢. وبمقارنة هذا المطلب مع سياسة الدولة فإنه بمثابة انقلاب على العهد الملكي. ذلك لأن السيد الجادرجي وبقية أعضاء الجبهة والمرشحين منهم لعضوية البرلمان، رفعوا شعار إسقاط النظام الملكي واستبداله بالنظام الجمهوري، فكيف يتوقع من رئيس الوزراء نوري السعيد والأمير عبد الإله وبقية أعضاء النخبة الحاكمة أن يستسلموا ويتخلوا طواعية عن دولتهم ليأخذها أعدائهم؟ أي نظام دولة يمتثل لمثل هذا المطلب؟

٢ ـ الخروج من حلف بغداد وتوحيد سياسة العراق مع سياسة البلاد العربية

---

٢٩) محمد حديد، مصدر سابق، صفحة ٢٩٧.

المتحررة. وتعني البلاد العربية المتحررة هنا النظام المصري برئاسة المغفور له السيد جمال عبد الناصر.

المطلب الأول الخروج من حلف بغداد، كيف يتسنى للحكومة العراقية أن تنسحب من حلف بغداد بعد أن بذل رئيس الوزراء نوري السعيد والأمير عبد الإله قصارى جهودهم الدبلوماسية لإنجاز ذلك الحلف لأجل تأمين العلاقة مع دول الجوار تركيا وإيران؟ وكيف يكون الانسحاب من حلف بغداد بمصلحة العراق ودجلة والفرات ـ وهما مصدرا الحياة للعراق ـ ينبعان من تركيا ومعظم روافد دجلة تنبع من إيران؟ كيف يتسنى للعراق أن ينسحب من ذلك الحلف بعد أن أمنت حكومة نوري السعيد شر تركيا وإيران وهما ما انفكتا طامعتان بموارد وخيرات العراق؟ أو ليس ذلك يعتبر تضحية بمصالح العراق؟ هذا فضلاً عن إن الحلف ربط العراق بجارتيه ودول أخرى بروابط اقتصادية واستراتيجية عميقة، وكانت إنكلترا وأمريكا تساندان الحلف ضد الخطر الشيوعي وأي خطر آخر. فضلاً عن ذلك إن العراق وبنتيجة الحلف بدأ يستلم أحدث الأسلحة المتطورة وتعهد الرئيس الأمريكي آيزنهاور ببناء مفاعل ذري لأغراض سلمية في العراق مما استنفر (إسرائيل) والقوى الصهيونية العالمية لأن حكومة العراق بقيت مصرة على عدم توقيع هدنة مع إسرائيل أسوة ببعض الدول العربية الأخرى، وبقي نوري السعيد وعبد الإله يقاومان الضغوط الثقيلة التي مارسها وزير خارجية أمريكا، جون فوستر دالاس عليها بهذا الصدد. وثمة معلومات موثقة تثبت بأن الجيش العراقي وصل أعلى درجات الكفاءة العسكرية وتزود بأحسن السلاح والعتاد في بداية عام ١٩٥٨.

أما الشطر الثاني من البند وهو، (توحيد سياسة العراق مع سياسة البلاد العربية المتحررة) هذا يعني أن تتخلى القيادة العراقية عن حلفائها وترتبط مع الجمهورية العربية المتحدة تحت قيادة المرحوم جمال عبد الناصر. وكيف يتسنى للحكومة العراقية توحيد سياستها مع الرئيس جمال عبد الناصر الذي

ناصبها العداء الشديد وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة تؤجج جماهير العراق والعرب للقيام بمظاهرات وإضرابات، وقد نادى الرئيس عبد الناصر صراحة بإسقاط النظام الملكي العراقي أسوة بما فعله هو حين أسقط نظام الملك فاروق في عام ١٩٥٢؟ لذا فإن الرأي العام العراقي كان يضغط على الحكومة للتعاون مع ألد أعدائها.

فضلاً عن ذلك فإن الرئيس عبد الناصر كان قد تسنم موضع قيادي في حركة عدم الانحياز بينما كانت الحكومة العراقية بقيادة وزير الخارجية الدكتور محمد فاضل الجمالي ورئيس الوزراء نوري السعيد والأمير عبد الإله على اعتقاد جازم بخطل تلك الحركة وضحالتها وبكونها مبنية على شعارات لا منطقية، إذ إن العالم في تلك الحقبة كان تحت هيمنة معسكرين عظيمين متنافسين هما المعسكر الديمقراطي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الاشتراكي (الشيوعي) برئاسة الاتحاد السوفياتي. وقد اختار الرئيس عبد الناصر لبلده النظام الاقتصادي الاشتراكي وربط سياسته الخارجية مع الاتحاد السوفياتي. بينما كان النظام العراقي يؤمن بالملكية الخاصة ويتقدم لتحقيق توازن بين القطاعين العام والخاص لتأمين الرفاه لجميع طبقات الشعب. وقد ارتبطت سياسة العراق الخارجية مع إنكلترا وأمريكا ضد المعسكر الاشتراكي والاتحاد السوفياتي، وكانت مشاريع الإعمار التي اضطلعت بها الشركات من العالم الرأسمالي قائمة على قدم وساق لبناء العراق من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه وكان اقتناع القادة العراقيين بأن التقنية الغربية تفوق بكفاءتها التقنية السوفياتية بمراحل. وقد أثبت بمرور الزمن إن خيار الرئيس المصري كان خاطئًا وخيار القادة العراقيين كان الأصح، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي.

٣ ـ البند الثالث: مقاومة التدخل الاستعماري بشتى أشكاله ومصادره وانتهاج سياسة عربية مستقلة أساسها الحياد الإيجابي.

هذا البند لم يعترف بما قامت به الحكومة العراقية حين استرجعت

القاعدتين العسكريتين، الشعيبة والحبانية من السلطات البريطانية وانتهى الوجود العسكري الإنكليزي في العراق. وقد كانت تلك خطوة واسعة نحو تحقيق الاستقلال الفعلي وتأكيد السيادة العراقية. فهل نالت تلك الخطوة الإيجابية رضا المعارضة؟ طبعًا لا! فقد هاجم الرئيس عبد الناصر، وأيدته جميع القوى المعارضة في العراق، وهاجموا قرار العراق بالانضمام في حلف بغداد الذي بواسطته استرجعت الحكومة العراقية قاعدتي الحبانية والشعيبة، بالرغم من إن ذلك الحلف لم يكن معاهدة جائرة بين العراق وبريطانيا كما كانت المعاهدات السابقة، بل كان حلفًا إقليميًا ضم دول شرق أوسطية عديدة هي تركيا وإيران وامتد إلى باكستان، وأصبح العراق مركز ذلك الحلف مما رفع مكانته الدولية والعالمية. وقد كانت النخبة العراقية الحاكمة جادة لربط مصالح إنكلترا وأمريكا مع الدول العربية بدلاً من تركيز تلك الدول على (إسرائيل) كحليفتهم الوحيدة في منطقة الشرق الأوسط الحيوية. وقد كانت هذه النقطة أحد الأهداف الأساسية لدخول العراق في حلف بغداد. أما موقف القيادة العراقية من الحياد الإيجابي فقد سبق وبُحث في الفقرة السابقة وأسباب عدم اقتناعهم به.

٤ ـ **البند الرابع**: إطلاق الحريات الديمقراطية الدستورية: كان هذا مطلبًا عادلاً وحيويًا وكان على السلطات العراقية الاستجابة له بشكل أكثر عقلانية ومرونة. إلاّ إن إطلاق الحريات كان يؤدي إلى دائرة مفرغة من الفعل ورد الفعل. فكلما أرخت الحكومة المجال وسمحت بإطلاق بعض الحريات للجرائد ووسائل الإعلام، بادرت الأحزاب تحت تأثير الحزب الشيوعي القوي إلى إطلاق حملات شديدة العدوانية ضد السلطات الحاكمة. وقد كانت المظاهرات والعنف والاضطرابات تندلع لأتفه الأسباب، وحين تتخذ الدولة بعض الإجراءات لضبط الأمن واستتباب الاستقرار وملاحقة المسببين لتلك الاضطرابات تنطلق ألسن الشكوى بأن الدولة تقمع الحريات وتلاحق الأحرار

ودعاة الديمقراطية والحرية.

٥ ـ **البند الخامس**: إلغاء الإدارة العرفية وإطلاق سراح السجناء وإعادة المدرسين والموظفين والمستخدمين والطلاب والأساتذة المفصولين لأسباب سياسية.

كانت الأحكام العرفية لا تعلن جزافًا بل بعد أن يتفاقم أمر المظاهرات والاضطرابات والعنف بما يؤثر على الأحوال الاقتصادية ويعرقل مسيرة الحياة الاجتماعية العامة. فتلجأ الحكومة إلى إعلان الأحكام العرفية وملاحقة واعتقال المشاركين بتلك الأفعال لتتمكن من السيطرة على الأوضاع وإنهاء الشغب ولتعزيز الاستقرار وسيطرة القانون. ولكن ما إن تطلق الدولة سراح الموقوفين والسجناء، حتى يعاودوا نشاطاتهم مباشرة وتبدأ فعالياتهم المعادية للدولة بتأجيج الغوغاء ضد قرارات الحكومة مهما كانت طبيعتها، فتبدأ المطاردة من جديد وهكذا تستمر الدائرة المفرغة من العنف والعنف المقابل كما بحث في الفقرة السابقة.

بقيت جبهة الاتحاد الوطني متماسكة واحتوت على معظم الاتجاهات السياسية في العراق، وكذلك وحّدت معظم الأقليات الأثنية والمذهبية فانظم الأكراد والشيعة والسنة والتركمان وغيرهم إلى الأحزاب المختلفة وداخل إطار الجبهة الشعبية، فلم تشهد مكونات سكان العراق تماسكًا مماثلاً منذ زمن الملك غازي الذي التفت حوله معظم فئات الشعب وأحبوه حبًا عميقًا لوطنيته ومعاداته للإنكليز. على عكس ذلك تماسك الشعب في سني ١٩٥٧ و ١٩٥٨ يجمعهم الكره والعداء للسلطة الحاكمة وتعاونوا لهدف واحد هو اسقاط وإنهاء العهد الملكي[٣٠].

وفي يوم ١٩٥٨/٧/١٤ حققت الجبهة الوطنية هدفها الأكبر بوقوع الانقلاب العسكري بقيادة العميد (الزعيم) الركن عبد الكريم قاسم والعقيد

٣٠) كامل الجادرجي، مصدر سابق، صفحة ٥١٧.

الركن عبد السلام عارف وسقوط العهد الملكي وإعلان الجمهورية العراقية، فنزلنا جميعًا شيبًا وشبابًا، نساءً ورجالاً وأطفالاً، من أقصى شمال العراق إلى أقصى جنوبه وشرقه وغربه، نزلنا جميعًا إلى الشوارع نرقص ونهتف بفرح هستيري لزوال (الخونة، طغمة الاستعمار) وحملنا الصور المكبرة لقادة الانقلاب، وكانت أكثر صورة انتشارًا هي صورة (بطل العروبة) الرئيس المصري جمال عبد الناصر بابتسامه الجذابة. وبدأنا ننتظر التطورات الكبرى المتسمة بالوحدة العربية الشاملة، وإطلاق الحريات الديمقراطية، والانتخابات الحرة، والقضاء على عدوة العرب الكبرى (إسرائيل)، والرفاه الاقتصادي الذي سيعم جميع البلاد العربية. وهيمن على سواد الشعب العراقي شعور بالأخوة والود والمساعدة والتفاهم إلى أبعد حدود.

إلاّ إن تلك الفورة من السعادة والتعاون والآمال الفردوسية بدأت تتلاشى تدريجيًا بعد أن بدأت تتجلى للطبقة المثقفة ضعف قيادة العهد الجمهوري الجديد. فقد أصيب الشعب بخيبة أمل من ضحالة وفجاجة خطابات عبد السلام عارف وجهله الواضح، وكذلك من عدم تمكن الزعيم عبد الكريم من إدارة العجلة المدنية للبلاد وهو العسكري المحترف المخضرم. فاندلعت الخلافات في البداية بين قوتين: الأولى هي الأحزاب القومية التي طالبت بالوحدة الفورية مع مصر، والثانية هي الجهات اليسارية بقيادة الحزب الشيوعي التي دعت إلى التريث في البداية، ومن ثم جاهرت بعدائها لمشاريع الوحدة العربية. وقد أدت تلك الخلافات إلى الصدام والمشاكسات والعنف، ولم أزل أتذكر مناسبات الاحتفالات بـ(الثورة المباركة) التي كانت تُنظم من قبل الجهتين الشيوعية والقومية واللكمات والاتهامات التي تبادلناها بالعمالة للاستعمار والرجعية.

كذلك اندلعت الخلافات بين الشيوعيين والحزب الوطني الديمقراطي بعد أن قرر الأخير تجميد نشاطاته وتوقف العمل وتفاقمت الصدامات العنيفة بين الفئتين اللتين كانتا تُدعَيان بالجهات التقدمية وانتهى التفاهم بينهما إلى الأخير.

أما بعد فشل المحاولة الانقلابية التي قادها العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل في عام ١٩٥٩، فقد انتهز الحزب الشيوعي ذلك الفشل فهيمن على معظم مؤسسات الدولة بما سمي (بالمد الشيوعي) فاطلق حملات عنيفة ضد حزب البعث والجهات القومية، وفقد العديد من الضباط والموظفين والعمال والأساتذة القوميين وظائفهم ومصادر أرزاقهم. ثم شبت الحرب ضد الأكراد في الشمال بعد أن دبّ الخلاف بين القيادة العسكرية الجديدة وقادة الأكراد، فانتهى بذلك شعار (العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن) الذي أطلق في بداية العهد الجمهوري.

وفي عام ١٩٦٣ قام حزب البعث العربي الاشتراكي بانقلاب أطاح بنظام عبد الكريم قاسم وأصبح العراق تحت حكم حزب البعث، فانطلقت حملة هائلة من الإرهاب ضد كل من اتهم بممالأة الشيوعيين أو عبد الكريم قاسم. وكان الحزب الشيوعي قد كشف كوادره وأوكاره وقوائم أسماء أعضائه أثناء حكم عبد الكريم قاسم اعتقادًا منهم بدوام سيطرتهم. لذلك كان تعقب وإلقاء القبض على قادتهم وكوادرهم من قبل سلطات حزب البعث أمرًا سهلاً. وبالفعل انهار الحزب الشيوعي وظهر قادته وكوادره الثانوية كاتحاد الطلبة واتحادات العمال وقادة المقاومة الشعبية والشبيبة الديمقراطية وغيرها، ظهر معظمهم في التلفاز وهم يهاجمون الشيوعية ويعترفون على رفاقهم وزملائهم، فانتهى بذلك الحزب الشيوعي بنهاية مفجعة.

هكذا كان مصير الجبهة الشعبية الوطنية بعد انتهاء العهد الملكي ومجيء العهد الجمهوري. ثم انهالت المصائب على العراق عبر العقود فتعرضت بعض قرى الأكراد للإبادة واندلعت الحروب مع إيران والكويت، وأخيرًا وفي بداية القرن الواحد والعشرين دخل العراق تحت الاحتلال الأمريكي بعد حرب ضروس حطمت البنية التحتية للبلد، وكذلك اندلعت المعارك بين مكوناته السكانية من العرب والأكراد، والشيعة والسنة وغيرهم فأصبح مستقبل العراق

مجهولاً بعد تسعين سنة من ولادته على يد المغفور له فيصل الأول والنخبة الكلاسيكية وبمساعدة الإنكليز.

أخيرًا ليس من نافلة القول إنه كان من الممكن للديمقراطية أن تتحسن لو إن المعارضة لم تحكم بالإعدام على النظام الملكي بدون محاكمة وبدون تفهم للظروف المحلية والدولية التي كانت تواجه العراق. فقد هاجمت الأحزاب المعارضة ما اعتبرته أوجه سلبية لسياسة العراق كتدخل الإنكليز ونظام الملكية الزراعية وغيرها، ولكن بنفس الوقت هاجمت الإنجازات الباهرة في مجالات الإعمار والازدهار الاقتصادي والتقدم التقني وارتفاع مستوى معيشة الشعب وغيرها والتي حققتها السلطة أثناء السنوات الخمس الأخيرة من عهدها، وتمادت المقاومة ونعتت تلك الإنجازات كونها تخدم الاستعمار الإنكلو – أمريكي. وقد كان من المستحسن أن تخفف الأحزاب من غلوائها وتبدي بعض التقدير لتلك الإنجازات لأجل تسهيل التفاهم مع الدولة. هذا فضلاً عن إن الأمير عبد الإله والملك فيصل الثاني ورؤساء الوزارات قاموا بعدة مبادرات لإنشاء أواصر تفاهم مع الأحزاب، إلاّ إن تلك المبادرات قوبلت بالعداء السافر والاتهامات العشوائية بالخيانة للإجانب، وبرفع شعارات عاطفية فارغة والتأجيج على المظاهرات والعنف. وتجرأ بعض القادة على الأمير عبد الإله وطالبوه بمغادرة العراق، وعلى السياسي المخضرم الذي ساهم ببناء العراق الحديث منذ بدايته السيد نوري السعيد وضغطوا عليه للانسحاب من المسرح السياسي مما أغلق جميع طرق التفاهم بين السلطة والجماهير. لذا فقد عمدت الحكومة إلى ردود فعل عنيفة اعتُبرت مبالغ في قسوتها. إلاّ إنه بالمقارنة فإن أي بلد عربي أو مجاور لم يسمح للمعارضة بالقيام بفعاليات مماثلة دون قمعها بعنف يزيد كثيرًا على ما قامت به السلطات العراقية عهدئذٍ.

إضافة إلى ذلك فإن البرلمان العراقي كان مهيئًا لاستقبال جيل جديد من السياسيين الشباب ممن نالوا الشهادات العليا واطّلعوا على النظم الديمقراطية

وهضموا أساليبها، وكان هذا الجيل قمينًا لأن يعزز ويطور الممارسة الديمقراطية في العراق .

هذه التفاصيل تثبت بأن العراق كان يملأه الأمل بمستقبل زاهر. إلاّ إن ذلك الأمل قُتِلَ بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ وبعد أن بدأت جميع أوجه الحياة تتدهور حتى وصل العراق بعد تسعين سنة من خلقه إلى حالة مريعة من تدهور الأمن وانعدام الاستقرار ومستقبله دامس الظلام .

الفصل العاشر

المؤسسات التي تهاوت بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨

التحليلات الآتية مبنية على تجربتي الذاتية التي عشتها ومشاهدتي للتغييرات التي طرأت بعد توقيع معاهدة مناصفة واردات النفط مع شركة (I. P. C) البريطانية والتي أدت إلى تضاعف دخل العراق، وتسارع تطوره وإنجازه لنهضة اقتصادية، وعسكرية، وحضارية كبرى استمرت متصاعدة حتى عام ١٩٥٨، مصحوبة بتعزيز مقومات الدولة الحديثة التي أسسها المغفور له الملك فيصل الأول بمساعدة النخبة الكلاسيكية الحاكمة، ومن ثم رؤيتي لانهيار تلك المؤسسات تباعًا بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨.

ولقد حاولت جهد إمكاني أن أتوخى الموضوعية التاريخية، وعدم التأثر بالعاطفة أو الأيديولوجية، أو الشعارات البراقة، وسأكون في غاية الامتنان والشكر لكلّ من يتقدم لي بانتقاد موضوعي ناضج مبني على المنطق السليم والنقاش البناء لعلنا نتوصل إلى الحقائق.

انهيار القيادة الجماعية وانتهاء النظام (الأوليغاركي) (Oligarchy)[1]

كان أول تبدل جوهري شهدته الدولة العراقية هو انتهاء حكم القيادة الجماعية وولادة حكم الفرد، أي نظام (الرجل الدولة والدولة الرجل).

---

١) الأوليغاركي (Oligarchy) هو نظام القيادة الجماعية الذي تحكمه نخبة من عدة أفراد.

فكما بيّنا سابقًا، طوال فترة النظام الملكي لم يستبد قائد واحد بحكم العراق، بل كانت الدولة مبنية على القيادة الجماعية. فبعد أن توج الملك فيصل الثاني على العرش عام ١٩٥٣، وبدأ يمارس مهامه تدريجيًا، احتفظ الأمير عبد الإله الوصي سابقًا ببعض صلاحياته، وكان الساسة البارزون من أمثال نوري السعيد، وفاضل الجمالي، وجميل المدفعي، وأحمد مختار بابان وغيرهم يستلمون الوزارات حسب مقتضيات الدستور وعن طريق إمرار السلطة سلميًا من شخص إلى آخر. أما بعد تأسيس الاتحاد الهاشمي مع الأردن فقد أصبحت السلطة العليا متداولة بين الملك فيصل الثاني والحسين بن طلال ملك الأردن، يشاركهما رئيس وزراء الاتحاد ورئيسيّ وزراء القطرين، وكانت السلطتان التشريعيتان للبلدين في طريقهما إلى الاندماج[٢].

وفي يوم انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ قتل الملك والعائلة المالكة وسقط النظام الملكي ومعه القيادة الجماعية مباشرة، واستلم السلطة ضابطان هما العميد (الزعيم) الركن عبد الكريم قاسم الذي منَحَ نفسه منصب رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة، والعقيد الركن عبد السلام عارف الذي أصبح نائبًا له[٣]. وانشقت الجهات السياسية في العراق إلى شقين: الجهة الأولى ضمّت القوى القومية المؤيدة للوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة (سوريا ومصر) تحت قيادة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وقد التفت تلك القوى حول عبد السلام عارف بسبب تصريحاته الموالية للوحدة والقومية العربية، وكتلة الجهات الديمقراطية واليسارية التي أيدت عبد الكريم قاسم. وشب الخلاف بين الضابطين وكتلتيهما مما حدا بالقوة اليسارية الموالية لعبد الكريم والمناهضة للوحدة العربية أن تطرح شعار (زعيمنا الأوحد.. والأوحد..

---

٢) قانون رقم ٣٠، ١٩٥٨، إعلان تأسيس الاتحاد الهاشمي الفيدرالي. الوقائع العراقية، عدد ٤١٤٤٤ في ١٤/٥/١٩٥٨.

٣) أحمد فوزي، عبد السلام عارف: سيرته.. محاكمته.. مصرعه. (بغداد: مطابع الدار العربية، ١٩٨٩) صفحة ٢٨.

والأوحد)، لأجل التقليل من مركز منافسة عبد السلام عارف. وفي أثناء الأيام الأولى بعد الانقلاب، بدأ مستوى عقليات قادة الانقلاب بالظهور، فقد أخذ العقيد عبد السلام عارف يتجول في معظم أنحاء العراق ويلقي خطابات عفوية غاية في الفجاجة عكست سطحية عقليته وقصوره الثقافي وعدم نضوجه، فقد صرح في أول يوم «جمهوريتنا اشتراكية.. وطنية.. إلهية.. خاكية.. لا شرقية ولا غربية، ولا قصور، ولا سيارات، ولا ثلاجات، ولا تلفزيونات بعد اليوم»[٤].

فدهش الناس وأصابهم الهلع مما سيحدث فقد كان معظم الضباط والموظفين والمنتمين إلى الطبقة الوسطى قد استغلوا التسهيلات التي أتاحتها حكومة العهد الملكي في السنين الأخيرة التي سبقت سقوطها، فاقتنوا البيوت الحديثة والسيارات والثلاجات بشكل واسع عن طريق المؤسسات التعاونية الحكومية والبنوك التي وفرت القروض المالية، وأصاب أولئك الناس الرعب ظنًا من إنهم قد اقترفوا إثمًا لا يلائم مبادئ الثورة لاقتنائهم لتلك الممتلكات الأساسية.

هذه التصريحات التي أطلقها عبد السلام عارف كشفت جهله وبساطته واعتقاده إن اقتناء السيارات والثلاجات وغيرها هي أدلة للغنى الفاحش وضد مصلحة الفقراء، بالرغم من إن معظم الذين اشتروا تلك الوسائل كانوا من أصحاب الدخل المحدود، وقد دفعوا أثمانها من رواتبهم التي كانوا يستلموها بعرق جبينهم معتمدين على تسهيلات الدولة السابقة التي سقطت.

أما بقية الخطب الفجة التي ألقاها عبد السلام عارف فهي:

(أبو خليل.. بسطالك على رأسي.. يابة الأمور كلها صارت بيد أبو خليل). وأبو خليل هو الاسم الذي أطلقه العراقيون على الجندي العراقي. وفي خُطبة ألقاها في مدينة البصرة، قال يصف المدينة: (طاسة ببطن طاسة.. بالبحر غطاسة).

---

٤) نفس المصدر، صفحة ٨٠.

وفي إحدى المناسبات كان عبد السلام يلقي خطابًا فقاطعه أحد الحاضرين عدة مرات بهتافات حماسية، فانزعج عبد السلام والتفت إلى ذلك الشخص قائلاً (ولك إخرس عاد . . خليني آكل خرة[٥] .

كان عبد السلام يتشبه بالرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان يلقي خطبه باللهجة المصرية العامية الدارجة لأجل أن يفهمها الناس غير المتعلمين من الشعب المصري، وخصوصًا الفلاحين.

استفاد عبد الكريم قاسم بذكاء من سخف وتهور عبد السلام وفجاجة عقليته، وشعر بأن الجماهير بدأت تنفض من حوله وحتى العناصر القومية التي آزرته في البداية أخذت تسخر منه . وتمكن عبد الكريم من إزاحة عبد السلام وعزله من مناصبه وإيداعه في المعتقل والإقامة الجبرية في داره فانتهى دور عبد السلام، وبقي هو وحده يحكم البلد باعتباره مخطط ومنفذ (الثورة المباركة) وبقي شعار الزعيم الأوحد ملتصقًا به، ولم يسمح بإجراء انتخابات، ولم يؤسس مجلس قيادة الثورة يقوم بدور فاعل وبقي وحده زعيمًا أوحدًا[٦] .

كان عبد الكريم قاسم يتمتع بشخصية جذابة قريبة من رجل الشارع، وخصوصًا أنه لم يتغطرس وبقي يؤكد بأنه ابن الفقراء (كان والده نجارًا غاية في الفقر)، وبأنه يسعى لرفاه الفقراء، وكانت صفاته قريبة جدًا من صفات عامة الشعب، فقد كان جريئًا، كريم اليد، ينعم من راتبه على الفقراء، وينفق على أصدقائه بكرم، وبقي حتى بعد أن حكم البلاد غاية في التواضع فلم يقتني الأملاك، ولا حتى دارًا يسكنها[٧]. بل اكتفى ببناء جناح بسيط مؤلف من غرفة وحمام داخل وزارة الدفاع بجوار مكتبه لكي لا يضطر لترك

٥) أعتذر لهذه الكلمة البذيئة، ولكنني أنقلها مثلما وردت، وقد استمعت إلى معظم خطب قادة الانقلاب في الأيام الأولى بعد سقوط العهد الملكي .

٦) النص الكامل لوقائع الندوة التي نشرت على حلقات في آفاق عربية. الطبعة الأولى (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٧٨) صفحة ٢١٢ .

٧) أحمد فوزي، أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم؟!! (بغداد : مطبعة الدار العربية، ١٩٩٠) صفحة ١٨٦ .

دائرة عمله، وبقي يرتدي ملابسه العسكرية دائمًا. وحين حل موعد ترفيعه إلى رتبة لواء بعد الانقلاب ثبّت الرتبة الجديدة على كتفيه إلا إنه أصر على أن يبقى يستلم راتب الزعيم (العميد)، وطلب من الكل أن ينادوه بلقب (الزعيم عبد الكريم).

كان عبد الكريم قاسم عسكريًا شجاعًا غاية في الشجاعة، وقد أثبت ذلك في حرب فلسطين ضد الصهاينة في عام ١٩٤٨ حيث أبلى بلاءً حسنًا في معركة كفر قاسم التي بقي الفلسطينيون المسنون يتغنون بها حتى يومنا هذا. هذه كلها صفات شخصية جيدة إلا إنها لا تؤهل أحد ليكون رجل دولة حديثة. فلم يكن عبد الكريم قاسم يملك خبرة سياسية أو إدارية مدنية، بل كان، شأنه شأن كل عسكري، متعودًا على تلقي الأوامر من الضباط الذين يفوقونه رتبة وينفذ قائلاً (نعم سيدي)، أو يصدر الأوامر لمن دونه رتبة ويتوقع جوابًا واحدًا فقط هو (نعم سيدي). ورُب من يتساءل هنا بأن نوري السعيد وجعفر العسكري وياسين الهاشمي كانوا أيضًا ضباطًا، وعلى هذا التساؤل أجيب: نعم كانوا ضباطًا إلا إنهم مارسوا وتثقفوا بثقافات مختلفة فقد درسوا في أسطنبول خارج العراق ثم أُرسلوا إلى برلين ـ ألمانيا، للحصول على الأركان وكانوا جميعًا يجيدون ما لا يقل عن أربع لغات، وبعد ذلك في بداية العهد الملكي كانوا يعتمدون على مستشارين إنكليز يمتلكون أحدث الخبرات الإدارية والسياسية والدبلوماسية. لذلك فقد تطور النظام تدريجيًا، وخصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية وانتشار التعليم، ونمو الطبقة المتوسطة، وتنامي رأي عام أكثر وعيًا وثقافة، ووجود الأحزاب السياسية، فأصبحت صناعة القرار تحت إشراف عدة جهات ويمارس الوزراء وأعضاء البرلمان، إلى حد ما دورًا، وإن كان محدودًا حيث كان بعض الوزراء والأعيان والنواب، حتى الذين فازوا بالتزكية يعبرون عن معارضتهم لبعض اللوائح ويستقيل بعضهم احتجاجًا، إضافة إلى العرائض والمذكرات التي كان أساتذة الجامعة

ورؤساء الأحزاب يقدموها إلى المراجع العليا(٨).

كل هذه الممارسات توقفت بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ ووقعت الدولة بيد رجل واحد هو عبد الكريم قاسم الذي أصبح هو الدولة، فحكم العراق معتمدًا بشكل مطلق على آرائه وحسب تقييمه للأمور. ولم يكن المحيطون به سوى ما يدعى (Yes Men) أي رجال مطيعون لا يتجرأون على مساءلة قرار (الزعيم)، فأصبح كلامه هو الذي يحكم البلاد. والجدير بالذكر هنا هو إن عبد الكريم قاسم لم يكن دكتاتورًا بالمعنى المعروف تاريخيًا عن الرجال الجبابرة الذين استبدوا بسلطاتهم، بل كانت طباع الرجل أقرب إلى الدماثة. إلا أن التأييد الهائل الذي أعربه الشارع نحوه في الأيام الأولى بعد الانقلاب كبطل الثورة (المباركة) جعلت منه زعيمًا أوحدًا لا يحتاج إلى أحد في صناعة القرار. فقد انهالت عليه النعوت في الصحف اليسارية ومحكمة المهداوي التي كانت تذاع في المذياع والتلفاز في معظم أنحاء العراق، ورددتها بقية وسائل الإعلام بكونه (محطم الاستعمار.. الزعيم الملهم.. الزعيم العبقري.. الرجل الرجل.. الرجل المعجزة.. مفجر وقائد أعظم ثورة) وهذا غيض من فيض من عشرات النعوت التي غُمِرَ بها وجعلت من المستحيل لأي فرد أن يتجرأ ويقدم لهذا القائد الخارق القابليات أي نصح أو اقتراح.

وهكذا انتهى نظام القيادة الجماعية الذي ساد طوال العهد الملكي ووُئدت احتمالات التطور التدريجي التي كانت مرجوة بعد ظهور الكوادر القيادية الجديدة من الشباب ذوي التعليم العالي الذين كانوا سيحلون محل جيل الضباط العثمانيين من أمثال جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ونوري السعيد الذين طعنوا في السن وكانوا في طريقهم إما إلى رحاب السماء أو التقاعد. وصارت السلطة تمرر بين الضباط عن طريق العنف والقتل والانقلابات

---

٨) جعفر عباس حميدي، التطورات السياسية في العراق: ١٩٤١ـ١٩٥٣ (النجف: مطبعة النعمان ١٩٧٦) الصفحات ٢٠٠ـ٢٠٣.

التي اجتاحت العراق بعد انقلاب ١٩٥٨.

إضافة إلى انتهاء القيادة الجماعية فقد حدث تغيير جوهري في الممارسات السياسية ومفهوم الوطنية في العراق، فمنذ بداية العهد الملكي كان مفهوم الشعور الوطني يتبع نظام التعددية الحزبية، فالفرد الذي انتمى إلى حزب الإخاء مثلاً وطني يخدم العراق عن طريق انتمائه إلى حزب الإخاء، والشخص الذي ينتمي إلى الحزب الوطني الديمقراطي هو وطني يهدف إلى خدمة العراق عن طريق مبادئ حزبه، وعضو أو مؤيد حزب الاستقلال هو قومي هدفه الأعلى استقلال العراق والبلاد العربية من هيمنة الجانب.. الخ. حتى الحزب الشيوعي الذي كان مرتبطًا مع موسكو ويستلم قراراته منها انضم إلى جبهة الاتحاد الوطني، واعتبر وطنيًا يحارب الاستعمار[٩].

أما بعد انقلاب ١٩٥٨ وتراجع دور الأحزاب السياسية، فقد ارتبط مفهوم الوطنية بشخص (الزعيم) عبد الكريم قاسم. فالذي (يحب) الزعيم فهو وطني ومخلص للجمهورية، أما الذي لا يشعر بالولاء للزعيم فإنه خائن وعميل الاستعمار والرجعية وغيرها من الاتهامات التي أخذت تطلق جزافًا على كلّ من يُشَكُ بشعوره نحو الزعيم. هذا وبعد سقوط عبد السلام عارف وفشل تمرد عبد الوهاب الشواف في عام ١٩٥٩ فقد اتُهِمْت الجهات القومية بالخيانة والعمالة للجمهورية العربية المتحدة ورئيسها جمال عبد الناصر الذي كان بالأمس القريب يُفخّم بألقاب (عدو الاستعمار، وقائد التحرر العربي، وبطل الوحدة العربية)، واتهمته الصحف اليسارية والموالية لعبد الكريم قاسم بالانحراف، وأطلق عليه العقيد فاضل عباس المهداوي في محكمته وكذلك المدعي العام العقيد ماجد محمد أمين، أطلقوا عليه تهمة (عميل راونتري والاستعمار الأمريكي) وكان راونتري مبعوث الولايات المتحدة الذي كان

٩) عبد الأمير هادي العكام، تاريخ حزب الاستقلال العراقي: ١٩٤٦ - ١٩٥٨ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠) الصفحات ٣٢٣ - ٣٢٤.

يتفاوض مع الرئيس عبد الناصر لإيجاد حلول لمشاكل الشرق الأوسط، بينما أضحى الشيوعيون ومؤيدوا (الزعيم) هم الوحيدون الوطنيون المخلصون، وبذلك انتهت التعددية الحزبية والاجتهاد السياسي وأخذت الصحف تزايد في تأييدها (للزعيم) مخافة اتهامها بعدم الوطنية والتشكيك بولائها للجمهورية.

أما الظاهرة الأساسية الأخرى التي شهدت تغيرًا جوهريًا بعد انقلاب ١٩٥٨ فهي مفهوم المواطنة ومن هو العراقي. فقد أعلن قادة الانقلاب منذ اليوم الأول أن (العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن)، وكان هذا الشعار خطأً كبيرًا، فالمفروض أن يكون الشعار الصحيح هو (العراقيون جميعًا شركاء في هذا الوطن)، لكي يكون ثمة مالك واحد للعراق هو الشعب العراقي بأجمعه. فقد أدّى ذلك الشعار الخاطئ إلى شق الشعب العراقي إلى شعبين ـ الشعب العربي والشعب الكردي ـ مما استفز بقية الأقليات التي قطنت العراق منذ قرون مثل التركمان، والأقلية ذات الأصول الإيرانية الذين يسكنون بجوار أضرحة الأئمة منذ القدم واكتسبوا الجنسية العراقية، ناهيك عن اليزيدية في أقصى شمال العراق وغيرها من الأقليات.

وهنا أتذكر جيدًا في إحدى الجلسات محكمة فاضل المهداوي حين جاء وفد من التركمان واشتكوا لعدم ذكرهم من ضمن فئات الشعب العراقي، مما حدا بالسيد المهداوي أن يطلق شعارًا جديدًا (العرب والأكراد والتركمان.. والأقليات الأخرى). وفي جلسة لاحقة للمحكمة كرر المهداوي هذا الشعار الطويل عدة مرات فتداخلت عليه الأسماء فانزعج وصرخ ثائرًا باللهجة الدارجة العامية (ولك.. هاي شيخلصها.. منا وغادي عراقي والسلام). ويعني كفاية هذه المسميات ومن الآن فصاعدًا يجب استعمال اسم العراقي فقط، وقد نسي المهداوي بأننا كنا (عراقي والسلام) لعدة عقود، دون الحاجة لتسمية الأقليات الأثنية وتمزيق وحدة الشعب. وهنا أود أن أذكر أن السلطتين

التنفيذية والتشريعية كانتا قبل سقوطهما عام ١٩٥٨، تضمان أعضاء عرب وأكراد وتركمان وأقليات مذهبية مسلمة ومسيحيين ويهود، وكذلك كان شأن دوائر الدولة والمدارس. وقد دعمت دولة المملكة العراقية ذلك النظام السياسي المتسامح والشامل بمشاريع مجلس الإعمار التي غطت أراضي العراق من شماله إلى جنوبه وشرقه وغربه ما أدّى إلى الترابط الاقتصادي والتزايد التدريجي لتلاحم النسيج الاجتماعي للشعب العراقي برمته.

أما بعد انقلاب ١٤ / تموز فقد دعا رئيس الوزراء العراقي عبد الكريم قاسم الزعيم الكردي المُلاّ مصطفى البرزاني الذي كانت الدولة العراقية قد نفته خارج الوطن قبل عدة سنين، دعاه للرجوع إلى العراق واستُقبل استقبالاً حافلاً[١٠]، ومنحه عبد الكريم امتيازات سياسية ومالية سخية لكي يؤكد العلاقة الجيدة بين العرب والأكراد. إلا إن الخلاف ما لبث أن شب بعد فترة وجيزة بين المُلاّ مصطفى وقادة الانقلاب بسبب تورطه وجماعته البرزانيين بحوادث العنف في الشمال، وبدأ الخلاف يتوسع إلى أن اندلعت الحرب بين حكومة عبد الكريم قاسم والأكراد، وبدأ الجيش العراقي يقصف القرى الكردية البرزانية. وبقي ذلك الشق بين الدولة المركزية العربية في بغداد والأكراد يتوسع رغم محاولات الرأب، وتدهورت العلاقة خصوصًا بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية في عام ١٩٨٠ واستعمال الجيش العراقي للغازات السامة على قرية حلبجة الكردية، وقتل جميع سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً وعجائز وشيوخ، وقد علل رئيس الجمهورية آنئذٍ صدام حسين قراره ذاك بأن أكراد حلبجة كانوا يتعاونون مع الأعداء الإيرانيين ضد الجيش العراقي مما سبب خطرًا محدقًا لأمن الدولة فاضطر لإبادتهم.

وبعد اجتياح الجيش الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وسقوط حكومة صدام

١٠) محمد حديد مذكراتي: الصراع من أجل الديمقراطية في العراق. (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٦) صفحة ٣٦٠.

حسين وإعلان النظام الفيدرالي، بدأ الأكراد بضم مساحات شاسعة من العراق إلى ما سمي (إقليم كردستان في العراق) مما يهدد بتفتيت وحدة مساحة العراق الذي أسسه وبناه المغفور له الملك فيصل الأول ونخبته الكلاسيكية الحاكمة[١١].

كل هذه الظروف التي استجدت بعد انقلاب ١٤/تموز/١٩٥٨ أدّت إلى تداعي المقومات والأركان السياسية والاجتماعية الأساسية التي ولدت وثبتت أثناء العهد الملكي وبقيت تتنامى وتتطور نحو العصرنة والحداثة لمدة ٣٧ عامًا، ثم أخذت تتهاوى مباشرة بعد وقوع الانقلاب كما تبين التفاصيل الآتية:

المؤسسة الأولى التي تهاوت:

نظام الاستحقاق (The Merit System)

منذ ولادة المملكة العراقية حاول الملك فيصل والنخبة الحاكمة أن يطبقوا نظام الاستحقاق في التعيينات في الوظائف والقبول في المدارس والسلك العسكري بغض النظر عن الخلفية العائلية أو الدينية أو العشائرية. وقد يعترض البعض ويقول بأن الفتيات لم يكن المجال متاحًا أمامهن على قدم المساواة كما كان مفتوحًا أمام الفتيان؟ هذا صحيح، ولكن هذه الفوارق بين الجنسين لم تكن حسب تعليمات القوانين، بل خضوعًا للتقاليد القديمة التي بقيت مهيمنة على المجتمع العراقي منذ القدم، وبدأت تتلاشى في عقد الخمسينيات، فلم تسن الدولة قوانين تمنع الفتيات من دخول كلية الطب أو الحقوق ولكن التقاليد المتحجرة لم تسمح للفتيات المسلمات إلا للدخول في سلك التعليم. وكانت أول فتاة انتمت إلى الكلية الطبية هي ملك غنام

١١) مامون أمين زكي، «الفيدرالية تعني زوال العراق»، الخليج العدد ١٠٠٢٩، ٢٠٠٦/١١/٣.

(مسيحية) في عام ١٩٣٣، تبعتها حبيبة بيتون (مسيحية)، وروز موشكة (يهودية)[١٢].

إلاّ إن بعض الآباء من العوائل المسلمة من أصحاب العقول المنفتحة قرروا تحدي التقاليد واستغلوا القوانين المتاحة لتعليم الجميع، فأدخلوا بناتهم في كليات الحقوق والطب اللتان كانتا تكادان أن تكونا حكرًا على التلاميذ الذكور وبعض الطالبات اليهوديات والمسيحيات. فدخلت صبيحة الشيخ داود وأمينة الرحال كلية الحقوق، ودخلت سانحة أمين زكي كأول فتاة مسلمة تدخل الكلية الطبية وتبعتها أمة العزيز الزهاوي ابنة ظافر الزهاوي أحد وجهاء الأكراد، ثم لمعان أمين زكي (شقيقة سانحة) فانفتحت أبواب جميع المعاهد الدراسية أمام الفتيان والفتيات وجلسوا بجوار بعض لتلقي العلوم سواسية[١٣].

ويؤكد البرفسور الدكتور المرحوم سالم فاروق الدملوجي إن الكلية الطبية قبلت خريجي الثانويات من جميع الفئات العراقية الدينية، والأثنية، والاجتماعية، والطبقية بين الطلاب من كافة الطوائف، ويقول:

> كان طلاب الكلية الطبية قاطبة ينتمون إلى شرائح اجتماعية ومستويات اجتماعية واقتصادية متباينة، غير إننا لم نكن نعير تلك الخلفيات أي اهتمام، ولم تؤثر على علاقاتنا الشخصية التي كانت تبنى على الانسجام الفكري والنفسي فقط، إذ كان الشعور بالمساواة وعدم التباهي هو السائد بيننا[١٤].

أما جيلنا نحن فقد كنا على سبيل المثال في عام ١٩٤٥ في مدرسة

---

١٢) سالم الدملوجي، الكلية الطبية الملكية العراقية: من خلال سيرة ذاتية، الجزء الأول (عمان: مطبعة الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣) صفحة ١٩٨.

١٣) سانحة أمين زكي، ذكريات طبيبة عراقية، (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٥) الصفحات ١٩٠-١٩٣.

١٤) سالم الدملوجي، صفحة ٢٠٨.

التطبيقات الأولية للبنين والبنات والتي كانت مدرسة ابتدائية نموذجية وواقعة في محلة الحيدرخانة في ظهر ثانوية دار المعلمات الابتدائية فقد كان التلاميذ والمعلمات خليطًا من المسلمين واليهود والمسيحيين والأكراد والعرب، وكانت مديرة المدرسة الأستاذة سعدية الرحال التي أصبحت لاحقًا قاضية. وأتذكر كنا نصطف جميعًا نحن التلاميذ الأطفال من الصف الأول إلى الصف السادس في نهاية كل أسبوع ايام الخميس لتحية العلم وإنشاد الأناشيد الوطنية، وكانت مديرة المدرسة تستدعي التلاميذ المتقدمين أمام جميع تلاميذ المدرسة لتمتدحهم وتشجعهم وغالبًا ما يكون أولئك التلاميذ (الشّطار) من اليهود والمسيحيين.

هذا وكانت بعثات خريجي الثانويات والكليات متاحة للجميع حسب نظام الاستحقاق، فكلّ من يحصل على معدل مجموع درجات يعادل ٧٥٪ أو أكثر من الفتيات أو الفتيان يستحق السفر على حساب الدولة إلى الخارج للحصول على أعلى الشهادات من أكبر معاهد الغرب، ثم الرجوع لأجل خدمة العراق كل حسب اختصاصهم.

لذلك ففي عام ١٩٥٦ على سبيل المثال حفلت دوائر الدولة والمؤسسات الخدمية الحكومية والشركات الخاصة بأحسن المهندسين والأطباء والأساتذة ممن حصلوا على الخبرات والشهادات العليا، وكان معظم أولئك الجيل من الشباب ينتمون إلى خلفيات عائلية غاية في الفقر إلا إنهم نالوا ما نالوه من النجاح والتقدم العلمي والحرفي والرفاه الاقتصادي والمكانة الاجتماعية العالية نتيجة نظام الاستحقاق الذي كان يُتبع عهدئذٍ.

وكان الجيش يعكس أحسن صورة لنتائج نظام الاستحقاق الذي وفر المساواة لجميع الفئات والأقليات التي يتكون منها الشعب العراقي كما يؤكد الدكتور مأمون أمين زكي في مقاله المعنون «الفيديرالية تعني زوال العراق»[١٥]:

١٥) مأمون أمين زكي، الخليج، مصدر سابق.

كان الوضع العسكري كما يلي: رئيس أركان الجيش الفريق الركن رفيق عارف القيماقجي (تركماني) آمر قوات الحرس الملكي، العقيد طه البامرني (كردي) وكيل رئيس أركان الجيش، اللواء الركن غازي (الداغستاني)، العميد (الزعيم) الركن ناجي طالب (عربي شيعي)، العميد الركن ناظم الطبقجلي (عربي سني)، العميد غازي النفطجي (تركماني)، العميد الركن عبد الكريم قاسم (عربي: والده سني ووالدته شيعية).

هذا وكان العميد الركن عبد المسيح وزير وشقيقه أنيس من ألمع الضباط الذين تخصصوا في الترجمة والدراسات العسكرية باللغات الأجنبية.

بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ مباشرة تهاوى نظام الاستحقاق على إثر ظهور مقاييس غامضة جديدة وخصوصًا بعد المد الشيوعي الذي وصل أوجّه أثناء عام ١٩٥٩ بعد سقوط العقيد عبد السلام عارف وفشل تمرد عبد الوهاب الشواف، وكانت أول فكرة جديدة بعجت نظام الاستحقاق هي فكرة الثوري والرجعي. وقد صُنِفَ الأفراد عشوائيًا إلى ثوري (يؤيد الجمهورية والزعيم) والرجعي أو الأبعد من ذلك المتآمر.

وكان المثال الأعلى للشخص الثوري هو الذي يشارك في المظاهرات ويحمل لافتات الشعارات صارخًا بأعلى صوته وهو يهز قبضته في الهواء هاتفًا بحياة الزعيم (الذي حطم الاستعمار والرجعية وعملائها) و (حرية حرب وأكراد.. حطمنا حلف بغداد) ويكون مستعدًا لتبادل اللكمات مع (أعداء الثورة والزعيم) ومن المستحسن أن لا يهتم القائد الثوري بمظهره وملبسه فالتأنق لا يناسب العمل الثوري. وقد ظهرت بعض الفتيات الثوريات اللواتي لم تكن (ثوريتهن) وعنفهن تقل عن زملائهن الذكور.

أما الشخص (رجلاً كان أو امرأة) المتفرغ إلى دراسته، أو وظيفته أو عمله أو مهنته ولا يشارك بتلك الفعاليات فهو إنسان تافه يعيش على هامش الحياة.

أما الذي يبدي أي نوع تذمر من الأوضاع، فهو متآمر وعميل الاستعمار والرجعية وفي بعض الحالات يتعرض للسحل.

وقد أصبحت هذه الاعتبارات أسس للتعيينات في المراكز الحساسة فقد تعين بعض الأشخاص من ذوي الكفاءات المحدودة في مواقع فنية وحيوية تتطلب اختصاصات عالية وتجارب طويلة كمراكز سيطرة المطارات أو بعض دوائر الأمن والشرطة ناهيك عن مراتب الجيش وكوادر الطب والتعليم وموظفي الدولة استنادًا على مفاهيم الثوريين والرجعيين أو على فكرة تقديم الولاء على الكفاءة. لذلك فقد تقدم الكثير من الذين كفاءاتهم تقل كثيرًا عن أولئك الأشخاص من ذوي الكفاءات العالية والذين صنفوا في خانة التقاعس والرجعية بالرغم من إن أكثرهم لم يكونوا مناهضين للجمهورية أو نشطاء في حقل السياسة. وهكذا انتهى نظام الاستحقاق وتناقصت أهمية الشهادات العالية والمهارات الفنية والخبرة الطويلة وحل محلها مقتضيات الولاء، وخصوصًا بعد وصول حكم حزب البعث، فقد رفّع الرئيس صدام حسين بعض أفراد الحزب من أقاربه وأفراد عشيرته من أدنى الرتب العسكرية والسياسية من أمثال حسين كامل (عريف وسائق لوري)، وعلي حسين المجيد الملقب (كيمياوي)، وأغرقهم بالأوسمة والميداليات والثروات الهائلة، فضرب بذلك جميع القوانين والأنظمة العسكرية.

أما الحادث الآخر فهو حين أحال صدام حسين إلى التقاعد بجرة قلم مجموعة من أكفأ الأطباء ممن خدموا العراق لعدة عقود، وتبوؤا أعلى المراكز الطبية العالمية نتيجة نبوغهم وبحوثهم وإنتاجهم الوفير ورفعوا اسم العراق عاليًا، وكانوا يستحقون أعلى المكافآت، إلا إنهم أحيلوا للتقاعد بطريقة مهينة لسبب واحد إنهم لم ينتموا لحزب البعث[١٦].

---

١٦) رسالة شخصية كتبها البروفسور - دكتور فرحان باقر بتاريخ ٢٧/٥/٢٠٠٩. مصدر سابق.

المؤسسة الثانية التي تهاوت هي الجيش العراقي

فمنذ بداية العهد الملكي ركز الملك فيصل والنخبة الكلاسيكية من أمثال نوري السعيد وجعفر العسكري وصبيح نجيب على خلق جيش حديث يحمي حياض الوطن ويسند المملكة. وبالفعل نجح جعفر العسكري بإنشاء جيش صغير إلا إنه كفوء وفتح أبواب القبول للشباب العراقي، وفي عام ١٩٢٧ خطط صبيح نجيب برامج كلية الأركان العسكرية وعُين آمرًا لها، وكانت تلك الإنجازات باهرة أدت إلى تعزيز النظام الجديد وسيطرة الدولة على الأوضاع العامة، وجلبت العشائر شبه المستقلة والأقليات المتمردة تحت مظلّة السلطة المركزية وبدأ العراق يتماسك من الشمال إلى الجنوب وشرعت الدولة ببناء جميع متطلبات المجتمع.

وبعد زوال قيادة الملك فيصل الأول بوفاته عام ١٩٣٣، اضطرب الجيش وبدأ يتدخل في شؤون الدولة ودخل العراق بفترة عدم استقرار انتهت بحرب مايس ١٩٤١ حيث تخلص الجيش من الضباط الثوريين. بعد ذلك دخل الجيش في فترة انضباط شامل وأصبح السلك العسكري أوسع مجال لجيل كامل من شباب العوائل المعدمة للدخول فيه وتسلق السَلم الاجتماعي فانظموا إلى رحاب الطبقة الوسطى واستلموا امتيازات واسعة من الدولة وتعزز النظام العسكري، وفي عام ١٩٥٧ أضحى الجيش العراقي من أقوى الجيوش العربية، إن لم يكن اقواها. وقد أُرسل قادة الجيش من أمثال اللواء غازي الداغستاني والزعيم الركن ناجي طالب والزعيم الركن عبد الكريم قاسم إلى المعاهد العسكرية الإنكليزية والأمريكية العليا للتدريب واكتساب أحدث الساليب للجيوش العصرية. وأخذ الجيش يستلم أسلحة حديثة حسب مقتضيات حلف بغداد، وتحسنت القوة الجوية تحت قيادة طيارين درسوا في الخارج واستلموا أعلى الشهادات.

ويؤيد هذه المعلومات العميد الركن خليل إبراهيم حسين، وهو أحد

الضباط الأحرار الذين أطاحوا بالعهد الملكي، وقد تخصص العميد خليل بدراسة وتحليل عهد ما بعد الانقلاب ١٤/٧/١٩٥٨، فيقول[١٧]:

> في عهد رئاسة أركان الجيش للفريق الركن رفيق عارف بلغ الجيش العراقي القمة في العهد الملكي من حيث التسليح والتنظيم والتدريب والتجهيز بالمساعدات الأمريكية بعد دخول العراق حلف بغداد.

كل هذه الإنجازات انهارت بعد ١٤/٧/١٩٥٨. فقد صدر الأمر مباشرة بإحالة ٤٤ ضابطًا من قادة الجيش للتقاعد كما يحدث عادة بعد الانقلابات العسكرية وكان بينهم اللواء الركن عمر علي بطل معركة جنين في حرب فلسطين واللواء الركن غازي الداغستاني خريج المعاهد العسكرية الإنكليزية. أما بعد فشل تمرد العقيد عبد الوهاب الشواف وصعود المد الشيوعي في عام ١٩٥٩، بدأت المراتب الصغيرة من الجنود والعرفاء والملازمين بالتطاول على الضباط القوميين والزعماء (عمداء) والعقداء وأصحاب الرتب العالية بعد اتهامهم بالتآمر ضد الزعيم عبد الكريم قاسم والجمهورية. وبدأ قادة الانقلاب يحطم بعضهم بعضًا. فاُتهم أقرب زملاء عبد الكريم قاسم مثل الزعيم الركن ناظم الطبقجلي والعقيد رفعت الحاج سري (مؤسس حركة الضباط الأحرار) وعزيز أحمد شهاب وغيرهم، أُتهموا بالتآمر ضد الزعيم والجمهورية وجُلبوا إلى محكمة المهداوي وحكم على بعضهم بالإعدام ونُفذ الحكمْ في يوم ٢٠/٩/١٩٥٩[١٨].

وكان العقيد فاضل عباس المهداوي يحرض الجنود على سحل «الضباط

---

١٧) خليل إبراهيم حسين، اللغز المحير: عبد الكريم قاسم، بدايات الصعود. موسوعة ١٤ تموز، ج٦ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٩) صفحة ٢٢٤.

١٨) خليل إبراهيم حسين، الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين وحلفائهم وناظم الطبقجلي والقوميين. موسوعة ١٤ تموز، ج٣ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٨) صورة رقم ٣٣.

المتآمرين» ضاربًا بذلك عرض الحائط أبسط قواعد النظام العسكري إذ إن الجيش لا يمكن أن يؤدي واجبه بكفاءة إذا فقد الانضباط العسكري والطاعة والاحترام حسب تسلسل الرتب مهما كانت الظروف، وفي أي وقت وزمان، فكيف يطيع الجندي ضابطه بعد أن أهانه وسحله، وإن لم تكن ثمة طاعة وتنفيذ الأوامر فكيف يتوقع أن يقوم الجيش بوظائفه في القتال لحماية الوطن؟ لذلك فإن الأمم المتحضرة دائمًا تعبر عن احترام عميق لمواطنيها الذين يخدمون في القوات المسلحة ويبقى أولئك الأفراد فخورون برتبهم مهما كانت بعد تقاعدهم أو تركهم للسلك العسكري، فيبقى الجنرال المتقاعد يدعى (جنرال فلان) وكذلك العريف يفتخر بمن يناديه (العريف فلان) ويبقى الاحترام المتبادل بينهم حين يلتقون بالمناسبات .

كل هذه القواعد الأساسية لجميع جيوش العالم انهارت في العراق بعد عام ١٩٥٩ كما يؤكد أعضاء (منظمة الضباط الأحرار) الذين خططوا لانقلاب ١٤ / ٧ / ١٩٥٨ كما يبين العميد الركن المتقاعد خليل إبراهيم حسين كالآتي(١٩):

> بعد حركة الشواف شكل عبد الكريم قاسم لجنة تحقيق برئاسة العقيد الركن هاشم عبد الجبار (كاسترو العراق) آمر لواء العشرين، وفتحت فروعًا لها في محكمة العقيد فاضل عباس المهداوي، وسيق إليها ضباط الموصل من اللواء الخامس، ومن بضعة وحدات للجيش، ولأول مرة في تاريخ العراق الحديث يُعامل الضباط في لجنة التحقيق بهذه المعاملة التي يأباها (شرف العسكرية) والقيم والقوانين الحضارية حيث عُذبوا بأنواع التعذيب ووجهت لهم أبشع أنواع القذف والشتم والإهانات .

بالمقارنة يصف العميد المتقاعد خليل إبراهيم حسين مجلس تحقيق شُكِل

١٩) المصدر السابق، صفحة ٩٥ .

عام ١٩٥٠ للتحقيق مع ضباط أُتهموا بالتآمر على العهد الملكي[٢٠]:

> أُتهمت والمرحوم رفعت (الظاهر إن العميد خليل يقصد رفعت الحاج سري) وعيسى الشاوي في سنة ١٩٥٠ بنشاط سياسي معادٍ للنظام الملكي وبحيازة أسلحة ومفرقعات لاستخدامها ضد النظام، فأوقفنا وتشكل مجلس تحقيق يرأسه المقدم الركن منير فهمي الجراح المعروف بالنزاهة والاستقامة والخلق الكريم وعضوية الرائد الركن خالد المدفعي وضابط آخر. ولم نرَ من المجلس مجتمعًا أو من رئيسه إلا النزاهة والإخلاص والمعاملة الطيبة والشعور بإنسانية الإنسان، ولم نسمع أي كلمة نابية أو إساءة أو تصرف يشم منه ما يسيء لسمعة التحقيق.

هكذا بقي النظام الملكي يعامل الضباط ويحترم رتبهم، حتى المشكوك في إخلاصهم حوكموا باحترام حسب القوانين المرعية، مما جعل الجيش يستمر متمسكًا بالنظام العسكري الصارم وبقي محافظًا على كفاءته العامة إلى يوم ١٤/٧/١٩٥٨. بينما يصرح العقيد عبد الكريم فرحان في محاورة مع عبد الكريم قاسم أثناء ما كان الضباط يبحثون قضايا التعذيب وفلتان النظام وتجاوزات الجنود على ضباطهم قائلاً:

«الجيش فسد وانحل الضبط فيه، وأريد أن أنصحك نصيحة يجب أن تعيد الضبط للجيش وتبنيه من جديد لأن البلد بحاجة إلى جيش قوي، والجيش الآن تسوده الفوضى والشغب»[٢١].

وهنا أود أن أبين نقطتين مهمتين، الأولى هي (وشهد شاهد آخر من أهلها) فالعقيد عبد الكريم فرحان هو أحد كبار الضباط القوميين وعضو منظمة (الضباط الأحرار) يؤكد هنا أوجه التدهور الذي أصاب الجيش العراقي

---

٢٠) المصدر السابق، صفحة ٩٣.

٢١) المصدر السابق، صفحة ٩٥.

بعد الانقلاب. النقطة الثانية تثبت بأن عبد الكريم قاسم لم يكن في الواقع بالشخص الدكتاتوري الظالم الباطش وإلا لما تجرأ العقيد عبد الكريم فرحان لمجادلته بهذه الصراحة. والحقيقة هي إن عبد الكريم قاسم بعد الانقلاب فلتت من يده الأمور ولم يدري كيف يدير شؤون الدولة فسادت الفوضى والاضطرابات وتخلى عنه معظم الضباط ممن أيدوه في بداية العهد الجمهوري مما سهل وقوع انقلاب ٨/شباط/١٩٦٣ الذي أطاح بالنظام وأعدم عبد الكريم قاسم[٢٢].

وبعد تسنم صدام حسين لرئاسة الجمهورية العراقية في عام ١٩٧٩ أعلن الحرب على الجمهورية الإيرانية الإسلامية والتحم الجيشان المتجاوران بحرب دامية دامت لأكثر من ثمانية أعوام خسر العراق بها زهرة شبابه. ثم غزا صدام الكويت في محاولة لإلحاقه بمساحة العراق إلا إن المحاولة باءت بالفشل الذريع، وأخيرًا تعرض العراق في عام ٢٠٠٣ إلى الاجتياح الأمريكي وسقط صدام حسين وأعدم وانتهى الجيش العراقي نهاية مأساوية كبرى.

تهاوي مؤسسة القانون

منذ أن اعتلى الملك فيصل الأول عرش العراق كان من أهم اهتماماته والنخبة الكلاسيكية هي إصدار قوانين عصرية جديدة تحافظ على أمن وحياة وأرزاق العراقيين بدون التضحية بالتقاليد العربية الإسلامية التي يؤمن بها سواد الشعب العراقي. لذلك فقد عهد فيصل إلى لجنتين، كما بُحث سابقًا مع أسماء الأعضاء، وقد استندت اللجنتان على دساتير النمسا ونيوزيلاندا وبعض الممالك الصغيرة في العالم العربي لأجل جعل دستور وقوانين العراق ملائمة للعصر الحديث. ثم تطورت المحاكم وتدرجت فكان ثمة محاكم جزاء والمحكمة العليا واستئناف وتمييز ومحاكم شرعية بما يكفي لإدارة الاحتياجات

٢٢) أحمد فوزي، أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم، مصدر سابق، صفحة ٤٤.

القانونية للبلاد. وقد سُن قانون العشائر وبقي نافذًا لأجل إدارة شؤون العشائر حسب تقاليدها. وقد حرص رئيس الوزراء نوري السعيد والأمير عبد الإله على جلب أعرق وأكثر الخبراء القانونيين دراية ـ ومن ضمنهم العلامة القانوني المصري المخضرم البروفسور عبد الرزاق السنهوري ـ لأجل أن يضطلع بالتدريس في كلية الحقوق في بغداد ولإعطاء الاستشارات القانونية لتطوير نظام المحاكم في العراق. بالمناسبة فإن البروفسور السنهوري الذي كان من الأصوات الصريحة المسموعة في إبداء الرأي أثناء العهد الملكي في مصر وتحت حكم جلالة الملك فاروق، كانت تصريحاته وآراءه مسموعة ومحترمة وتقع على آذان صاغية. ولكن حين تجرأ هذا العملاق القانوني بعد عام ١٩٥٤ وطالب بالديمقراطية واعترض على الحكم العسكري في زمن الرئيس جمال عبد الناصر، تعرض للاعتقال والتعذيب وكُسِرتْ ذراعه اليمنى من قبل شرطة الأمن لكي يلتزم الصمت ولا يتجرأ ثانية على كتابة انتقادات نحو النظام الثوري الجديد. فشد الرجل الرحال إلى بغداد ورحبت الدولة به، واحتفظ بلقب الأستاذية الجامعي (بروفسور) وبقي في رحاب العراق معززًا مكرمًا.

كانت من الصفات الأساسية للقانون العراقي إنه في البداية كفل متطلبات شطريّ المجتمع، العشائري والمدني نظرًا لكون العشائر كانت تكون أغلبية السكان ولكن في نهاية العهد الملكي كانت القوانين في طريقها إلى التوحيد لتصبح صالحة للمجتمع ككل، ولأجل مواكبة تطورات العصر.

ولست هنا بصدد شرح بنية المحاكم العراقية، فهو موضوع مبني على بنود قانونية مثبتة بمصادر حكومية لا تقبل التأويل أو التحليل. إلا إن النقطة المهمة هنا هي بيان المكانة الاجتماعية المحترمة التي احتلها الحكام والقضاة مما أحاطهم بحصانة مهنية وجعل النظام القضائي يتمتع بمجال واسع من الاستقلالية، وكانت الضغوط الاجتماعية التي يمارسها الرأي العام المتعلم تجعل من الصعوبة بمكان لأي مسؤول مهما علا مقامه أن يتدخل في القضايا القانونية وشؤون المحاكم.

كان القضاة والحكام ينتقون من بين الأفراد الذي يشار إليهم بالبنان ومن ذوي النزاهة والسمعة الناصعة التي لا يرقى إليها شك. وكانت سمعة رجال القانون مهمة جدًا وإذا افتضح أحدهم بعدم النزاهة أو الفساد أو عدم الالتزام فستتسخ سمعته ويفقد احترام الناس وقد يتعرض لمقاضاة القانون. وفي عدة مناسبات ثبت عدم تدخل كبار رجال الدولة من أمثال الأمير عبد الإله أو رئيس الوزراء نوري السعيد أو رئيس الوزراء الدكتور محمد فاضل الجمالي بشؤون القضاء مخافة افتضاحهم وانتشار الخبر بين الناس والرأي العام ما قد يؤدي إلى إثارة الشغب والعنف.

كان الحكام والقضاة يعينون حسب نظام الاستحقاق دون الالتفات إلى خلفيتهم العائلية أو انتمائهم العشائري أو أي اعتبار عدا شهاداتهم وخبرتهم وأقدميتهم وطول ممارستهم في مجال القانون. وقد تمكن العديد من الأفراد الذين كانوا ينتمون إلى خلفيات عائلية غاية في البساطة والفقر من تسنم مراكز قضائية استنادًا على كفاءاتهم.

إلا إن تلك الأوضاع القانونية الراقية والمأخوذة من النظام القانوني البريطاني الحديث كانت تجمد وتوضع على الرف أثناء إعلان الأحكام العرفية حسبما تتطلبها الأوضاع أثناء الأزمات وفي حالة إندلاع شغب أو مظاهرات واسعة.

هذا النظام الذي تطور وتعزز عبر عدة عقود تدهور سريعًا بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨. ففي البداية أطلق رئيس الوزراء الزعيم عبد الكريم قاسم معظم المسجونين على أساس الرحمة واحتفالاً بالعهد الجديد وبأن الجميع سيصبحون مواطنون صالحون. ثم أطلق عبد الكريم شعار «الرحمة فوق العدل» وهو شعار غريب يتناقض مع معظم أسس القانون لأن الرحمة لا تتحقق إلا بعد تحقيق العدل وليس العكس. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب». واستنادًا على رحمة (الزعيم) فقد انطلقت النزعات البدائية بين الفئات غير المتعلمة، فإذا كان شخص برقبته ثأر

قديم ولم يجرؤ على أخذه قبل الانقلاب مخافة أن تطاله يد القانون، تجرأ بعد الانقلاب وقتل ذلك الشخص لأخذ الثأر قائلاً إن الزعيم سوف يعفو عني بعد فترة قصيرة في السجن استنادًا على المناسبات والاحتفالات بالنظام الجديد. وأنا شخصيًا اطلعت على عدة حوادث قتل ثأر ارتكبت من قبل أناس كنت على علاقة معرفة بهم عن طريق العمل أو الفعاليات الرياضية، استغلوا مراحم الزعيم واقترفوا تلك الأفعال[٢٣].

ومما زاد في الطين بلّة هو إذاعة إجراءات محكمة الشعب برئاسة ابن خالة عبد الكريم قاسم المرحوم العقيد فاضل عباس المهداوي الذي يؤكد جميع زملائه الضباط بأنه لم يكن له أي خلفية أو دراسة في القانون. وقد اتبع العقيد المهداوي إجراءات غير متعارف عليها وبعيدة كل البعد عن ممارسات المحاكم المعروفة. وكنا ننتظر جميعًا افتتاح محكمة المهداوي أمام أجهزة التلفزيون التي كانت محطة إذاعتها قد أُسست قبل فترة وجيزة من سقوط النظام الملكي وأصبح التلفاز مع المذياع (الراديو) إحدى وسائل الترفيه التي لا غنى عنها للناس في البيوت والمقاهي والنوادي.

وقد سمح العقيد المهداوي للدهماء والغوغاء لحضور محكمته والصراخ بالهتافات والأهازيج الشعبية والأشعار وجلب الحبال لرميها على المتهمين الواقفين في قفص المحكمة تحت حماية القانون. وكان معظم أولئك الذين قاموا بتلك الأفعال، وليس كلهم، من الطبقة الشعبية غير المتعلمة، والتي أوحي إليها بأن ما يقومون به هو عنوان الوطنية وخدمة العراق. وكان المهداوي نفسه يشجعهم وينشد الأشعار الحماسية ويطلق الأمثلة الشعبية والنكات ويتبجح بأن والده كان قصابًا يذبح الخراف، لذا فهو نفسه جزار يقتل الخونة وعملاء الاستعمار.

وكان من الأمثلة التي أدت إلى عدم وضوح الأُسس القانونية لمحكمة

---

٢٣) معلومات من تجارب مرَّ بها المؤلف شخصيًا.

المهداوي تهمة التهجم على الرئيس المصري جمال عبد الناصر وسياسته. وقد وجهت هذه التهمة الكبرى ضد رئيس الوزراء السابق الدكتور محمد فاضل الجمالي الذي كان يرد على الهجمات العنيفة لإذاعة مصر ضد سياسة الدولة العراقية وتفنيده في جريدته (العمل) لسياسة عدم الانحياز للرئيس عبد الناصر، وساق المدعي العام العقيد الركن الحقوقي ماجد محمد أمين تلك التهمة كإحدى الجرائم التي اقترفها العهد الملكي على يد الدكتور الجمالي ضد عبد الناصر «بطل العروبة».

ولكن ما إن حدث تمرد عبد الوهاب الشواف الفاشل في الموصل وأُعلن ضلوع الرئيس عبد الناصر به وبأنه قدم المساعدات للمتمردين، حتى انقلبت الأوضاع رأسًا على عقب وبدأت المحكمة ورئيسها ومدعيها العام بتوجيه أقذع أنواع الإهانات والشتائم لعبد الناصر[24]، ناعتيه بالحشاش وعميل الاستعمار (ناصر الاستعمار) وصنيعة الاستعمار الإنكلو-أمريكي وغيرها من الهجمات التي فاقت أي انتقاد قام به رجال العهد الملكي. وهنا يظهر سؤال منطقي، فإذا كان انتقاد الرئيس جمال عبد الناصر يكون جريمة ارتكبها رجال العهد الملكي وكانت من أول القضايا التي حوكموا عليها، فما التبرير القانوني لتهجم المهداوي وماجد أمين ضد عبد الناصر؟

ولم يسكت الرئيس جمال عبد الناصر عن تلك الهجمات بل أجاب بخطبه بهجمات لا تقل عنفًا ضد حكومة المهداوي، وأطلق لقب (قاسم العراق الذي قسم العراق، وآثم العراق) على عبد الكريم قاسم[25] الذي لزم الصمت ولم ينحدر إلى هذا المستوى من الهراء فكسب بذلك احترام الكثير من العراقيين والعرب وكان تصرفه هذا يدل على نضوج وكياسة. إلاّ إن عبد الكريم شجع المهداوي ومحكمته والغوغاء الذين يأمّوها باستمرار الهجمات

---

٢٤) خليل إبراهيم حسين، موسوعة ١٤ تموز، ج٣، مصدر سابق، صفحة ١٣٧ .

٢٥) نفس المصدر السابق، صفحة ١٣٩ .

ضد نظام مصر الرئيس عبد الناصر. وبذلك ضاعت كل بروتوكولات المجاملة الدبلوماسية والذوق الرفيع وأصول الآداب الكلامية التي كانت تتحلى بها العلاقات بين رؤساء الدول العربية، فأثناء العهد الملكي كنا نسمع عن وجود خلافات عميقة بين العائلة الهاشمية وملوك السعودية أو عاهل مصر الملك فاروق إلا إن لغة المجاملة بينهم بقيت على أعلى مستوياتها، فقد بقي الأمير عبد الإله يلقب الملوك بصاحب الجلالة ويلقبونه بسمو الأمير، بينما يخاطب نوري السعيد رئيس وزراء مصر النحاس باشا مثلاً (بدولة الباشا) وبدوره يرد النحاس المجاملة وينادي نوري السعيد (بفخامة الباشا).

والمؤسف هو إن تلك اللغة الراقية اعتبرت بعد حركة الجيش في مصر عام ١٩٥٢ وانقلاب ١٤/٧/١٩٥٨ في العراق كلغة الرجعية والبرجوازية بينما اعتبرت لغة التهجم والبذاءة بين محكمة المهداوي وإذاعة صوت العرب وتهجمات المذيع أحمد سعيد المقذعة، اعتبرت اللغة الشعبية الثورية، وقد طرق سمعي أنا شخصيًا من بعض الأفراد البسطاء في بغداد ينتقدون عبد الكريم قاسم لصمته ويستغربون عدم استجابته لتلك الترهات.

وأذكر هنا بالمناسبة حادثة غاية في الطرافة وقعت في محكمة المهداوي وأثارت سخرية الجميع، فقد جيء بمتهم أو شاهد ومثل أمام المحكمة وحدثت المناقشة التالية:

العقيد المهداوي: اسمك.

المتهم: أجاب ولا أتذكر اسمه لمرور أكثر من نصف قرن.

المهداوي: عمرك.

المتهم: ٣٥ سنة (وهنا أتذكر عمر المتهم لعلاقته بهذا الحادث).

المهداوي: عملك.

المتهم: عاطل يا سيدي.

المهداوي: أليس لك عائلة، ألست متزوجًا؟

المتهم: لا يا سيدي.

المهداوي: لماذا أنت لست متزوجًا؟

المتهم: أنا لست متزوجًا؟

المهداوي: عار عليك.. كل رجل يبلغ الخامسة والثلاثين ولم يتزوج يجب أن يكون يعاني من الشذوذ الجنسي.. فهل أنت شاذ جنسيًا؟

المتهم: لا.. حاشا يا سيدي.

وهنا همس عضو المحكمة الجالس إلى يمين المهداوي بأذنه مذكرًا بأن الزعيم عبد الكريم قاسم غير متزوج رغم بلوغه الرابعة والأربعين.

فانتفض المهداوي وشعر بخطأه الكبير وهب خطيبًا وهو يهز سبابته في الهواء: إلاّ العظماء وصناع التاريخ والقادة الكبار، فالزعيم قد تزوج الثورة وقضية خدمة الوطن فلم يتسنى له الزواج.

وانتهت المحكمة في تلك الأمسية بتلك التفاصيل التي تلقاها المشاهدون بسخرية لاذعة، وقد شاهدت تلك الجلسة وأنا أمام التلفاز في دار والدي.

أما الحادث المؤلم الذي شاهدته أيضًا فهو محاكمة المرحوم سعيد قزاز وزير الداخلية الكردي الذي ضرب مثلاً بالشجاعة والشمم وتحدى الموت بالرغم من إنه لم يتجاوز الثالثة والخمسين من العمر. فقد اقتيد المتهم سعيد قزاز عدة مرات وكانت قاعة المحكمة تكتظ بالغوغاء الذين يحملون حبال السحل وممن يعتبرون أنفسهم مؤيدين للحزب الشيوعي الذي كان أعضاءه يجوبون شوارع المدن الكبرى بمظاهراتهم وتحرسهم مقاومتهم الشعبية وهم يهتفون مخاطبين عبد الكريم قاسم:

- اعدم.. اعدم.. جيش وشعب يحميك من كل خائن.

- لا تكول ما عندي وقت وأعدمهم الليلة.

- ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة.

جيء بالقزاز في آخر يوم ويجلسه دفاعه إلى القاعة فانهالت عليه الإهانات

وهو واقف كالطود الشامخ داخل قفص الاتهام، ورمى بعض الأفراد الحبال عليه فأصابته على رأسه وجسمه ونهض أحد الغوغاء وألقى الشعر الآتي وهو يشير إلى القزاز:

انظر لتلك البقرة
ذات القرون القذرة
كيف نمت من خرية[٢٦]
وكيف صارت قندرة

وقد بقيت هذه الأبيات في بالي لأنها مأخوذة من شعر للشاعر معروف الرصافي حفظناه في مرحلة الابتدائية يقول فيه:

انظر لتلك الشجرة
ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبه
وكيف صارت شجرة
ذاك هو الله الذي
أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة
وقدرة مقتدرة

وقد أثارت قصيدة ذلك الرجل البذيئة سخرية وضحك أعضاء المحكمة والغوغاء، واستمر رئيس المحكمة والمدعي العام يكيلون الاتهامات والسيد القزاز يجيب على الأسئلة بكل كبرياء ووقار. وأتذكر قامت امرأة بسيطة وأخبرت المهداوي بلهجة كردية بأن القزاز قد اعتدى على ابنها وتسبب

٢٦) اعتذر عن بذاءة الكلمة، ولكنها وردت في محكمة المهداوي.

بسجنه. فسألها المهداوي عن اسم ابنها فأجابت: (سعيد دوسكي). وحين سأل المهداوي القزاز عن ذلك الحادث، أجاب القزاز بكل هدوء وبدون أن ينظر إلى المرأة:

> كان ابن هذه السيدة شقي قاطع طريق وقد قتل العديد من الأشخاص وكان يفرض الأتاوة (خاوة) على سكان القرى من الفلاحين العُزل وأصبح اسمه يلقي الرعب في قلوب الكثير من المسافرين وسكان تلك المناطق لذلك ألقيت القبض على ذلك المجرم بنفسي ووقيت المواطنين من شره.

وكانت تفاصيل الحادث هي إن سعيد القزاز الذي كان متصرف (محافظ) إحدى الألوية الشمالية قد سمع باستهتار ذلك الرجل بالقانون واعتدائه على المواطنين المسالمين فقرر أن يضربه بنفسه فباغته في مخبأه وهو نائم ووضع المسدس على رأسه وكبله وتقصد أن يسحبه من عمامته أمام الناس المساكين الذين ألقى في قلوبهم الرعب، لأجل أن يحطم صولته ويكسر هيبته التي اكتسبها عن طريق القتل والإجرام. وبذلك دحض السيد القزاز اتهامات تلك المرأة، كما دحض جميع الاتهامات التي وُجهت إليه وحين سمح له أن يدافع عن نفسه ألقى المرحوم القزاز دفاعًا قانونيًا بليغًا باللغة العربية الفصحى ثم أنهى دفاعه قائلاً:

> وها أنذا أرى الحبل يتراقص أما عينيّ، وحين أصعد درجات المشنقة، سأرى الكثير ممن لا يستحقون الحياة تحت أقدامي.

وقد قال المرحوم القزاز هذه الكلمات بصوته الهادئ العميق وبلكنته الكردية وحين وصل إلى جملة (تحت أقدامي) قالها بحدة وهو يشير إلى قدميه[٢٧].

---

٢٧) شاهد المؤلف إجراءات محاكمة السيد المرحوم سعيد قزاز واستمع إلى كل هذه التفاصيل، ويمكن التاكد من هذه المعلومات بالرجوع غلى أجزاء محكمة الشعب.

وقد حكم على القزاز بالإعدام لأسباب واهية، ولم يثبت عليه أي جرم قانوني، وكان أهم اتهام وُجِه إليه إنه اضطهد (المناضلين الشرفاء) وقد كان المهداوي يردد هذا الاصطلاح ويقصد به الشيوعيين. ولم يشفع للقزاز كونه خدم العراق بأمانة وصدق ونزاهة ولم يمتلك حتى دارًا خاصًا به بل سكن ببيت خصصته له الدولة ولم يتمكن من شراء سيارة وهو الوزير والنائب المزمن. ومن إنجازاته المجيدة إنه قام بقيادة جهود إنقاذ العاصمة من الغرق المحتم حين كان وزيرًا للداخلية في ربيع عام ١٩٥٤ حين فاض نهرا دجلة وديالى فيضانًا هائلاً والتقت مياههما ووصلت إلى حافة سدود بغداد، وكنا نحن تلاميذ المدارس والكليات نملأ الأكياس بالرمل ونكدسها على حافة (سدة ناظم باشا) التي كانت تحيط ببغداد لتحميها من الغرق والتي بناها والي بغداد العثماني ناظم باشا. وقد كان القزاز في ذلك الحين كهلاً قد جاوز الخمسين من العمر إلا إنه بقي ساهرًا مع التلاميذ وجماهير الشعب يساعدنا على تقوية السدة والمحافظة على بغداد.

وكان بعض النواب قد اقترحوا في البرلمان إخلاء جانب الرصافة ونقل سكانه إلى جانب الكرخ لإنقاذ الأرواح من الغرق. إلا إن سعيد قزاز عارض تلك الفكرة قائلاً إن ذلك سيسبب ذعرًا وفرارًا جماعيًا وخرابًا واسعًا، وسيلقى العديد من العجائز والشيوخ حتفهم سحقًا تحت الأقدام، وأكد بأنه سيتحمل وحده مسؤولية إنقاذ بغداد. وفعلاً وقف الشعب شبانًا وشابات وقفة شخص واحد وواصلوا جهودهم لدرء الكارثة الى أن مرت بسلام ورجعنا إلى بيوتنا مسرورين ومكسوين بالرمال.

كانت محكمة المرحوم سعيد قزاز مثالاً للفوضى وعدم الالتزام بالإجراءات القانونية المتعارف عليها واستمر المهداوي يرغي ويزبد ويطلق الأشعار ويشجع على التجاوز على المتهمين، وبقيت القرارات القانونية التي تصدر على المتهمين رهن إرادة الزعيم عبد الكريم قاسم وحسب ما يرتأيه بشكلٍ مطلق.

وكان من أوضح أوجه تدهور النظام القانوني ومستوى المحاكم في العراق تبني محكمة الشعب السحل كعقاب، فقد صرح المهداوي في محكمته محرضًا «إذا وجد هناك بعض الخلايا للضباط، فلا بد أن يكون مصيرهم السحل من قبل الجنود الأبطال»[٢٨].

فأصبح السحل شيئًا اعتياديًا والتهديد بالسحل عبارة تستعمل بين الناس وحتى الأطفال في أحاديثهم اليومية.

هذا وقد طلعت جريدة (اتحاد الشعب) الناطقة بلسان الحزب الشيوعي العراقي في عددها الصادر في يوم ١٢/٣/١٩٥٩:

«وجاء يوم الثلاثاء وبدأت الجماهير الغاضبة منذ المساء تسحل جثثهم في الشوارع ليكونوا عبرة».

وردد المدعي العام العقيد ماجد أمين الذي يحمل شهادة في القانون «فإذا كان أصحاب الأنوف الطويلة أرادوا أن يدسوا أنوفهم بسياسة العراق فليعلموا إن الشعب العراقي ابتكر طريقة حديثة هي السحل في الشوارع».

ونتيجة لهذه التصريحات فقد جعلت محكمة الشعب عملية السحل التي تتنافى مع أدنى أسس السلوك الإنساني المتمدن، بلة القانون، جعلتها تحمل طابع القانون الثوري. وقد تعرض العديد من المواطنين للسحل أحياءً نتيجة تهمتهم بسب الزعيم أو إنهم ضد «الثورة المباركة» أو حتى لعداء شخصي.

لهذه الأسباب مجتمعة فقد صرح الأستاذ المحامي محمد حديد، وهو أحد أقطاب جبهة الاتحاد الوطني التي ناصبت العهد الملكي العداء، ثم أصبح بعد الانقلاب أحد العناصر السياسية البارزة للعهد الجمهوري، صرح مخاطبًا السيد عراك الزكم رئيس الجمعيات الفلاحية، مقيّمًا محكمة المهداوي قائلاً:

---

٢٨) انظر كتاب محكمة الشعب. الجزء (١٢)، صفحة ٢٢٧.

«هل هناك بلد يحترم نفسه وفيه قاضٍ مثل المهداوي؟»[٢٩]. هذا وقد أصبحت غوغائية محكمة المهداوي ،وإجراءاتها الغريبة وتصريحاته المضحكة، أصبحت مادة غنية للسخرية والازدراء من قبل صحافة وإذاعات البلاد العربية.

واستمر الوضع القانوني بالتدهور وأصبحت المحاكم بحالة شلل تام، وبعد فترة كانت ثمة محكمتان في العراق: محكمة المهداوي تحاكم القوميين (والمتآمرين)، ومحكمة عرفية عسكرية تركز على محاكمة الشيوعيين. إلى أن سقط عبد الكريم قاسم في ٨ / ٢ / ١٩٦٣ واستولى حزب البعث على الحكم. وعلى إثر ذلك اجتاح العراق إرهاب قاتل، فقد جاء أعضاء حزب البعث وهم مشحونون بشعور الانتقام من الشيوعيين الذين اضطهدوهم وعذبوهم أثناء المد الشيوعي في عام ١٩٥٩، إلا إن ردّ فعل البعثيين كان أقسى وأعتى. وأسس حزب البعث منظمة شبه عسكرية باسم (الحرس القومي) التي اضطلعت بنفس واجبات المقاومة الشعبية للحزب الشيوعي سابقًا، واستلم منتسبوها صلاحيات واسعة فقتلوا أعدادًا غير معروفة من الشيوعيين أو من اتهم بالشيوعية وتعرض ضباط وافراد الشرطة لأقسى أنواع العذاب لأنهم حاولوا تطبيق بعض النظام. واستباح أعضاء المقاومة الشعبية من الفتيان الذين لم يتجاوزوا السابعة أو الثامنة عشر بيوت بعض الضباط الكبار كالعقداء والزعماء الذين بلغوا سن الكهولة، وتعرضوا للضرب والإهانات لمجرد اتهامهم بتأييد الحزب الشيوعي أو عبد الكريم قاسم.

وخرج الأولاد والفتيات عن طاعة آبائهم، فإذا حاول أب أو أم منع أولادهم أو بناتهم من الخروج ليلاً للقيام بواجبات الحراسة استجابة لأوامر الحزب أو قيادة الحرس القومي، فقد أزيح الأب أو الأم جانبًا وخرج المراهقون وهم مسلحون وغير آبهين بتعليمات آبائهم.

بعد ذلك قام المشير عبد السلام عارف بانقلاب عسكري وأزاح حزب البعث عن السلطة وبدأ حكم ما سمي بالقوميين العرب وتبادل الضباط أثناءها

٢٩) نفس المصدر السابق.

الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية إلى أن وصل حزب البعث إلى الحكم ثانية في عام ١٩٦٨ تحت رئاسة الفريق أحمد حسن البكر وبعدئذ أصبح نائبه المحامي الشاب صدام حسين[٣٠]. وفي عام ١٩٧٩ استطاع صدام حسين من إزاحة أحمد حسن البكر واستولى على رئاسة الدولة وبدأ حكمه بإعلان الحرب على الجمهورية الإسلامية في إيران وقائدها آية الله الخميني. وتولى صدام سلطات لم يملكها أي رئيس في العالم منذ العصور الوسطى فأصبحت كلمته هي القاطعة وهي القانون وأعلن في عدة مناسبات بأن القانون شيء تافه صغير ويمكن تبديله بجرة قلم وخلال دقائق.

وبالفعل حدث في ٢١/١/١٩٧٠ أن أعلنت الدولة عن اكتشاف مؤامرة للإطاحة بحكم حزب البعث فشكلت محكمة ثورية حكمت خلال ست وثلاثين ساعة بالإعدام على أربعة وأربعين شخصًا ونفذ الحكم بهم حالاً[٣١].

وتكفي أن تصل إلى السلطات أن شخصًا ما أطلق نكتة أو حتى استمع إلى كلمة واحدة تنتقد صدام ليتعرض ذلك الشخص إلى الموت الزؤام. وذلك ما حدث لاثنين من أشهر أطباء العراق وهم إسماعيل التتار وهشام ماهر سليمان اللذان قتلتهما قوات الأمن ومن ثم وضعوا جثتيهما أما دور عوائلهم.

وهكذا آلت مؤسسة القانون من محاكم وقوانين ثابتة ومحترمة وتطبيق القانون حسب إجراءات شرعية، ثم أخذت بالتدهور بعد انقلاب عام ١٩٥٨ حتى انتهت في عقد السبعينيات إلى قتل الألوف من المواطنين بدون محاكمة أو دفاع أو أدنى إجراءات شرعية، ثم دفنوا في قبور جماعية اكتشفت بعد سقوط صدام حسين في عام ٢٠٠٣.

---

(٣٠) Edilar & E Penrose, Iraq: International Relations and National Development (London: Ernest Benn LTD, 1978) P. 353 and P.360

(٣١) Judith Miller and Lauri Mylorie, Saddam Hussien and the Crisis in the Gulf (USA: Time Book, 1990) P.235

تهاوي مؤسسة التعليم

كما بينا سابقًا فإن العهد الملكي كان يولي التعليم أهمية خاصة وقد انتشرت المدارس الابتدائية والثانوية وكانت مشاريع مجلس الإعمار تهدف إلى بناء ألوف من المدارس في مختلف أنحاء العراق إضافة إلى الجامعات. وكانت شهادات تخرج ثانويات وكليات العراق معترف بها في جميع أنحاء العالم. وكذلك بعد انقلاب ١٩٥٨ كان الزعيم عبد الكريم قاسم متحمسًا لنشر التعليم واستمر يطبق مشاريع وزارة الإعمار للنظام الملكي السابق في زيادة عدد المدارس والمعاهد التعليمية. إلا إنه قام بخطوة أدت إلى انخفاض وانحدار مستوى التعليم، فلأجل أن يدخل السرور والاحتفال إلى قلوب الشباب من أبناء الشعب وعوائلهم أصدر عبد الكريم قرارًا شخصيًا دعي بالزحف، والذي بموجبه زَحَفَ أي نجح جميع التلاميذ إلى صفوف أعلى بدون امتحان أو أي مقياس آخر[٣٢].

فامتلأت الكليات بالطلاب الفاشلين، وهنا أيضًا انتهت مقاييس الكفاءة ونظام الاستحقاق. فقد كان نظام التدريس في العهد الملكي مبنيًا على أسس ثابتة فينجح الطلاب أو يرسبون حسب الدرجات التي يحصلون عليها باستحقاق. وكان خريجو الثانويات والكليات الذين يحصلون على معدل درجات عالية يتأهلون لامتيازات تعليمية أخرى كالحصول على البعثات الخارجية أو القبول في كليات الطب والهندسة أو التعيين في الوظائف حسب كفاءاتهم دون اعتبار آخر.

أما بعد انقلاب ١٩٥٨ ودخول الطلاب الذين نجحوا بقرار من الزعيم عبد الكريم فقد اختلفت المقاييس وهبطت مستويات الدراسة. فبعد فشل تمرد الشواف وهيمنة الحزب الشيوعي على المؤسسات التدريسية شاع مقياس

---

٣٢) خليل إبراهيم حسين، ثورة الشواف في الموصل: الصراع بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، ج١، (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٧) صفحة ٢٠٨.

الثوري والرجعي هنا أيضًا. فكل من كان يؤيد الشيوعيين ويشترك في الاحتفالات والهتافات الثورية فهو تقدمي ويستحق الامتيازات، بينما أولئك الذين يصنفون في خانة الرجعيين أو المتآمرين والموتورين (أي القوميين) فيحرمون من الكثير من حقوقهم الشرعية، وتشكلت اتحادات الطلبة في الثانويات والكليات وكان معظمها من مؤيدي الحزب الشيوعي فتعرض الكثير ممن لم تتوفر بهم تلك الشروط إلى الإهانة والحيف ثم استُغني عن خدمات أساتذة من دول عربية أو أجانب ممن كان لهم أعلى الكفاءات التدريسية بعد أن اتهموا بالتآمر على (الزعيم) والجمهورية.

وبعد أن استولى حزب البعث على الحكم انقلبت الآية فأصبح العضو البعثي أو المؤيد للبعث هو الثوري وتمتع بكل الامتيازات واضطُهد الشيوعيون وأصبح الشعب العراقي بأجمعه مواطنون من الدرجة الثانية، وأجبروا على الانخراط في صفوف حزب البعث لأجل تأمين المستقبل ولقمة العيش، إلا إن القادة الحزبيين الكبار والأعضاء الأوائل احتكروا أعلى الامتيازات وحصل أبناؤهم على أعلى الدرجات حتى لو أنهم رسبوا في الامتحانات. وأضحى المدرس أو الأستاذ من الذين غير منتمين لحزب البعث يرتجف رعبًا أمام التلميذ العضو أو المسؤول أو ابن أحد القادة. وأصبح نظام التدريس كالآتي:

على سبيل المثال إذا حصل تلميذ مجتهد على معدل درجات ٩٠٪ وهو معدل ممتاز جدًا ويحتاج إلى ذكاء عالٍ واجتهاد متواصل، بينما حصل تلميذ ابن عضو حزبي شهيد في الحرب العراقية الإيرانية على معدل ٦٠٪ وهو معدل دون الوسط، ولكنه يستحق إضافة ٣٠٪ لأنه ابن عضو و٣٠٪ أخرى لأن والده استشهد فأصبح معدل درجاته ١٢٠٪!! لذلك يفضل قبول ابن الحزبي الشهيد الذي معدله الفعلي ٦٠٪ وأضيفت إلى معدله درجات بشكل عشوائي استنادًا على امتيازات حزبية، يُفَضل على التلميذ الذي حصل على

معدل ٩٠٪ بذراعه وعن طريق قابلياته الشخصية واجتهاده[٣٣].

لهذه الأسباب بدأ مستوى التعليم ينخفض في العراق ثم تدهور في نهاية القرن العشرين، مما حدا بالعديد من الجامعات العالمية أن تسحب اعترافها بشهادات خريجي العراق، وتهاوت المستويات والمقاييس المتفق عليها عالميًا وانتهى النظام الدراسي الراقي الذي أسسه النظام الملكي على أسس الاستحقاق والذي كان معترف به عالميًا.

تهاوي الاقتصاد العراقي

منطقة وادي الرافدين القديمة قدم الزمن أي العراق هي بقعة غنية غاية في الغنى وكان البلد في عام ١٩٥٧ سائرًا نحو ازدهار اقتصادي قل مثيله بواسطة مشاريع وزارة الإعمار، وبلوغ أعلى مستوى الرفاه الذي يطمح لها الإنسان. فالعراق في تلك الفترة كان مباركًا بكميات هائلة من مياه النهرين الكبيرين دجلة والفرات وروافدهما، إضافة إلى منابع وعيون المياه الوفيرة في شماله التي تسقي غابات واسعة من أشجار الكروم وأنواع الفواكه والجوز واللوز والفستق. وكانت معظم المنطقة الشمالية تغطى بالثلوج في فصل الشتاء مما حدا بوزارة الإعمار للتخطيط لبناء الأوتيلات ومراكز الترفيه لجعل الشمال مشتى للسواح وممارسة الرياضات الشتوية. كذلك منطقة الجنوب المغطاة بالبحيرات والأهوار (أرض السواد) التي تعتبر واحدة من أكثر مناطق العالم خصوبة، خصوصًا بعد نجاح مشاريع البزل والتخلص من الأملاح المتراكمة عبر قرون من الإهمال، إضافة إلى احتواء الأهوار على ثروات مائية لجميع أنواع الأسماك، وتجتذب أنواع الطيور المهاجرة خصوصًا أثناء فصل الشتاء، حين يكون الجو دافئًا. لذلك كانت عدة شركات أجنبية تطمح ببناء معامل قرب الأهوار لصيد

٣٣) رجع المؤلف مع عائلته إلى العراق بعد انتهاء حرب العراق مع إيران، ودرّس كأستاذ محاضر في كلية العلوم السياسية ما بين ١٩٨٨ - ١٩٩٠ واطلع على نظام الدرجات في الجامعة.

الأسماك والطيور وجني بعض الأعشاب لأجل التعليب والاستهلاك المحلي والتصدير إلى خارج العراق، إضافة إلى الحصول على مادة (البروتين) من الأسماك والأعشاب لجعلها علف عالي الجودة للحيوانات.

كان تخطيط الدولة قبل انقلاب ١٩٥٨ يهدف لتطوير الاقتصاد وبنائه على أحدث الأسس الاقتصادية بالرغم من وجود ما دعي خطأً بالإقطاع وبقاء وسائل الزراعة القديمة. ولأجل المقارنة بهدف تفهم النظام الاقتصادي في العراق عهدئذ. يستوجب استطلاع أُسس أحدث النظم والنظريات الاقتصادية التي سادت العالم المعاصر وهي ثلاث: الاقتصاد الرأسمالي الحر المبني على نظريات العالم الاسكتلندي آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠)، والاقتصاد الاشتراكي المبني على نظريات العالم الألماني كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٣٠) والاقتصاد الممزوج أو المركب (Mixed Economy) المأخوذ من دراسات العالم الإنكليزي جون كينز (١٨٨٣ - ١٩٤٦) وهو النظام الاقتصادي المتبع حاليًا في معظم أنحاء العالم.

الاقتصادي آدم سميث الذي كان من قادة عصر التنوير نادى بالاقتصاد الحر المبني على الحرية التامة لمعاملات السوق وعارض الاقتصاد المركنتالي الذي بدأ بعد عهد النهضة (Renaissance) والمبني على احتكار الملوك ووكلائهم للتجارة الدولية وحرمان الطبقات الأخرى من ممارسة حقها في المشاركة في التجارة. ويؤكد آدم سميث بضرورة عدم تدخل الدولة في الاقتصاد لأن معاملات السوق مبنية على قوانين ذاتية وضمنية تعتمد على العرض والطلب والتنافس بين التجار الذين يجب أن يمارسوا المضاربات في الأسواق بحرية تامة وبدون أي تدخل من الدولة بأي شكل من الأشكال، إذ إن النظام الرأسمالي المبني على التنافس التجاري الحر الذي يمنع الاحتكار يؤدي إلى ازدهار الاقتصاد ويجعله يفيض ويسيل ليشمل طبقات المجتمع الوسطى والفقيرة

لأنه يوفر فرص العمل للجميع (Trickle Economy)[٣٤].

وقد اتفق العالم الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) مع زميله آدم سميث وأكد على ضرورة اتباع النظام الاقتصادي الرأسمالي الحر والمرتبط بالنظام الديمقراطي وتقسيم الدولة إلى عدة هيئات لأجل منع احتكار الحكام والملوك لسلطة الدولة. وقد ساد هذا النظام معظم دول أوروبا لفترة طويلة، إلا إنه عانى من اهتزازات وأزمات مالية عنيفة، وازداد التفاوت الطبقي واحتكرت الطبقة الحاكمة معظم الامتيازات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ما أدّى إلى تدهور الأحوال العامة للطبقات الأخرى والفقر المدقع للطبقة العاملة وتزايد مآسيهم وابتلاء المجتمع عمومًا بمشاكل عميقة، كازدياد الإجرام والبطالة وجنوح الأطفال وغيرها. كل ذلك نتيجة جشع الرأسماليين وعدم اهتمامهم بالنواحي الإنسانية مما أدّى إلى دفع العديد من الكُتاب من أمثال جان جاك روسو، ودافيد هيوم، وتشارلس ديكنز وغيرهم للمطالبة بإصدار قوانين تحقق بعض العدالة للطبقات الفقيرة.

إلا إن الفيلسوف والمفكر الاجتماعي كارل ماركس اعتبر النظام الرأسمالي برمته فاسدًا ومبنيًا على الربح والجشع واضطهاد الطبقة العاملة[٣٥]، لذا دعا إلى نسف النظام الرأسمالي من أساسه عن طريق الثورة العمالية واستبداله بالنظام الاشتراكي المبني على إلغاء الملكية الخاصة كليًا وسيطرة الدولة على جميع وسائل الإنتاج والمصادر الاقتصادية وتوزيع الثروات بالتساوي على جميع أفراد المجتمع. وانتقد ماركس جميع المفكرين قبله الذين حاولوا إصلاح النظام الرأسمالي واعتبرهم رومانسيين طوبائيين، وإن أفكارهم لن تؤدي إلى إزالة التفاوت الطبقي والظلم الاجتماعي.

(٣٤ Robert L. Heilboroner, The Wordly Philosophes, (New York: Simon ,1967) See chapter 3

(٣٥ C. Wright Mills . The Maxists. (New York Dell Publishing Co. 1962) P. P230- 231

وقد اجتهد ماركس بأن الثورة العمالية ستزيل الطبقة الرأسمالية الجشعة وتوزع الثروات بالتساوي وبذلك تحل جميع المشاكل الاقتصادية وتنحل أسباب الخلافات بين البشر بعد إشباع احتياجاتهم ويصبح الإنتاج الاقتصادي مملوكًا من قبل الجميع تحت النظام الشيوعي.

وقد اشتبكت هاتان الفلسفتان أي الرأسمالية والاشتراكية بصراع جدلي وانقسم العالم أثناء النصف الأول من القرن العشرين إلى معسكرين متنافسين هما المعسكر الرأسمالي - الديمقراطي الغربي تحت زعامة الولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الاشتراكي (الشيوعي) الشرقي تحت زعامة الاتحاد السوفياتي. وأوشك الطرفان على الاصطدام بحرب عالمية ثالثة تُستعمل فيها الأسلحة النووية التي لو اندلعت لأنهت الحياة على هذا الكوكب.

ثم ظهر العالم الاقتصادي الإنكليزي الكبير (جون كينز) الذي جمع الفلسفتين الرأسمالية والاشتراكية بنظريته الاقتصادية المبنية على الاقتصاد الممزوج (The Mixed Economy) أو الاقتصاد المركب حيث دعا إلى سيطرة الدولة على بعض أوجه الاقتصاد وخصوصًا الخدمات الأساسية كالكهرباء والماء والمواصلات مع إبقاء القطاع الخاص يعمل ويزدهر وثم يتعاون القطاعان العام والخاص على توفير وإرضاء حاجيات المجتمع[٣٦].

وقد أثرت نظريات جون كينز على النظم الاقتصادية الحديثة بعد أن عانى النظام الرأسمالي من عدة اهتزازات قبل القرن العشرين مما دفع إنكلترا لاتخاذ خطوات جريئة لبرمجة اقتصادها الحر ولتوسيع القطاع العام. وفي عام ١٩٢٩ انهار سوق الأسهم في أمريكا وحلت الكارثة الاقتصادية والبطالة، فقرر الرئيس الأمريكي فرانكلن روزفلت (١٩٣٣ - ١٩٤٥) الذي اضطر في عام ١٩٣٣ إلى اتخاذ خطوات مبنية على آراء جون كينز فابتعد لأول مرة في تاريخ أمريكا عن النظام الرأسمالي الحر لآدم سميث وأخذ زمام المبادرة وتدخلت الحكومة

---

٣٦) Heilboronor, Opcit, p.p. 247-248

الفيدرالية الأمريكية لأول مرة في العمليات الاقتصادية وقامت بمشاريع كبرى لبناء شبكات طرق برية تربط الولايات والمدن الكبرى، بالتعاون مع الشركات الخاصة حيث وفرت الحكومة الفيدرالية الأموال والتخطيط لحكومات الولايات لمعالجة البطالة والتوظيف في المشاريع الواسعة، فتمكن روزفلت بذلك وبفترة قصيرة من التغلب على الأزمة المالية والاقتصادية وانتعشت الشركات الخاصة، وتقلصت البطالة وحصل الناس على الوظائف التي مكنتهم من شراء السيارات والبيوت مما أدّى إلى انتعاش أسواقها.

وقد بقيت أفكار جون كينز تهيمن بدرجات متفاوتة على السياسة الاقتصادية الأمريكية إلى عقد الثمانينيات حين اُنتخب رونالد ريغان الذي كان يؤمن إيمانًا مطلقًا بالاقتصاد الحر وقرر تقليص دور الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات الخمسين وإعطائهم المزيد من الاستقلالية، وبذلك بدأ الاقتصاد يمر بفترات صعود وهبوط كالسابق. بينما ثبّتت إنكلترا النظام (الكينزي) وتبنته معظم الدول الاسكندنافية.

قُدمت هذه الدراسة السريعة لأنواع النظم الاقتصادية المختلفة والمتواجدة في العالم حاليًا لعلها تساعد القارئ على مقارنة وفهم طبيعة اقتصاد العراق أثناء العهد الملكي وبتفاصيل أوسع وأعمق. وعلى ضوء ذلك يبدو لمن يستقصي أوجه التطورات العامة التي طرأت على المجتمع العراقي حتى عام ١٩٥٨ بأن الأسس الاقتصادية للعراق كانت تتجه تدريجيًا نحو نظام (جون كينز) أي الاقتصاد الممزوج أو المركب (Mixed Economy) حيث تحقق توازن بين فعاليات قطاع الدولة العام للخدمات الأساسية والإنتاج، مع حرية إنتاج القطاع الخاص وتوفير مستلزمات إضافية للمواطنين. هذا التكامل بين القطاعين العام والخاص نتج عن إدارة الدولة لموارد النفط الوفيرة واستغلالها لإنعاش المقومات الأساسية للبنية التحتية كبناء السدود لمنع الفيضانات المدمرة ولتنظيم الري والنهوض بمستوى الإنتاج الزراعي، ومشاريع البزل لاستصلاح

أراض زراعية جديدة واسعة، وبناء المعامل وإنعاش الصناعة، ولدعم التجارة المحلية والدولية، وقد تعاون القطاع الحكومي العام مع القطاع الخاص لإنجاز جميع تلك المساعي.

هذا وقد كانت الخدمات الحيوية اليومية كالكهرباء والماء الصافي وإدارة التلفونات تحت إدارة الدولة وبأسعار معقولة جدًا، بينما كانت أسواق القطاع الخاص للجملة والمفرد توفر المؤن ومنتجات الأطعمة بأنواعها والمشروبات والسلع الترفيهية ولعب الأطفال وغيرها حسب العرض والطلب.

أما الجوانب الجوهرية الأخرى كالمواصلات المحلية والدولية للمسافرين والنقليات فقد كانت مؤسسات الدولة كمديرية الموانئ العامة ومديرية الخطوط الجوية العراقية، ومديرية السكك الحديدية ومصلحة نقل الركاب تقوم بإدارتها وبأسعار مناسبة. وكانت المستشفيات والمعاهد الدراسية الحكومية تقدم خدمات الطب والتعليم مجانًا. وبنفس الوقت كانت مجالات العمل الحر المختلفة متاحة في القطاع الخاص كالمزارع والشركات التجارية والاستيراد والتصدير، والبناء والمكاتب الخاصة للهندسة والاستشارات، وعيادات الأطباء والمدارس الأهلية وغيرها تعمل على قدم وساق ومهيأة لمن يود أن يتعامل معها.

وكان من أهم عوامل قوة الاقتصاد العراقي هو عامل الثقة المتأتية من الاستقرار الذي شهده العراق بعد الحرب العالمية الثانية بالرغم من حدوث بعض الاضطرابات. فقد أغرى تدفق الدولار البترولي وفرص الاستثمار الهائلة أكبر الشركات التجارية والبنوك للقدوم إلى العراق واستغلال تلك الفرص وامتلأت البنوك العراقية والعربية والأجنبية الوافدة بالرساميل وتوفرت سيولة مالية كبرى متاحة لتمويل أكبر المشاريع[٣٧].

وقد امتازت المعاملات الاقتصادية بالحكمة والتوازن بين الاستثمار

٣٧) أنظر جدول رقم (٤) من فصل مشاريع مجلس الإعمار.

والاستهلاك أو بين العرض والطلب. فلم يشهد العراق طفرة استثمارية غير مبرمجة كالإفراط في الإنتاج وبناء العديد من العمارات والمرافق وممارسة الاستهلاك المظهري استنادًا إلى المضاربة الافتراضية، أي الاستثمار السريع والواسع المبني على توقعات متفائلة غير مضمونة وتفوق قابليات الاستهلاك. وكنتيجة لتلك الخطط والاستثمارات الحكيمة لم يشهد العراق حتى في أعلى ازدهاره فترة زاد فيها الإنتاج على الاستهلاك الذي يؤدي إلى الأزمات والركود الاقتصادي. في الواقع بقي الطلب يزيد على العرض مما جعل مجالات التوسع الاقتصادي لا حدود لها على جميع الأصعدة. فقد كانت مشاريع الدولة الكبرى عالية النفقات مثل بناء الطرق الواسعة والسدود وبيوت الموظفين والمدارس والمستشفيات قائمة على قدم وساق ما أدى إلى توفير فرص العمل لجميع المهن وكانت السيولة المالية متوفرة لسد جميع النفقات لتلك المشاريع بواسطة موارد النفط التي كانت تتزايد باضطراد مع الزمن ما أدى إلى فائض كبير في الميزانية العراقية. لذلك كانت الإحصائيات الدولية تشير إلى إن العراق قد بزَّ معظم دول العالم الثالث في تطوره وازدهاره في بداية عام ١٩٥٨ [٣٨]. وكان اقتصاده يمتاز بالثبات والثقة والآمال المستقبلية العراض كما تبين التفاصيل التالية:

● **الزراعة**: العراق معروف كونه بلد زراعي منذ القدم. وقد كان مُلاّك الأراضي يشرفون على إدارة أراضيهم وتوفير البذور وكل المقتضيات في الوقت المناسب للحفاظ على مصادر أرزاقهم ومستواهم المعيشي العالي. وقد أفاد إنتاجهم معظم شرائح المجتمع وكانت مشاريع بناء السدود والنواظم وبزل الأراضي المالحة المذكورة سابقًا في تفاصيل أعمال مجلس الإعمار مثالاً واضحًا للتعاون بين القطاع العام والخاص. فقد بنت الدولة تلك المشاريع من واردات

---

٣٨) Walter Laqueur, The Middle East in Transaction: studies in Contemporary History (Praeger, 1958) P. P 263-265

النفط لكي توفر لملاك الأراضي مياه الري وأحسن الفرص لتحسين إنتاجهم الزراعي فلذلك كانت الأسواق مليئة بجميع أنواع السلع الزراعية وأجودها ولم يعاني الشعب من نقصان في الأغذية بل كان العراق يصدر بوفرة جميع أنواع التمور والفواكه أثناء الفصول الأربعة، وأحسن أنواع الرز العنبر والحنطة العجيبة والشعير إلى معظم البلاد العربية بعد اكتفاء الأسواق العراقية. وقد كانت الدولة تخطط لتوزيع أراضٍ على خريجي الدراسات والمهن الزراعية الحديثة لمنافسة ملاّك الأراضي الكبار، وتطوير النظام الزراعي تدريجيًا، وعدم اتخاذ قرارات مفاجئة بمصادرة الأراضي الزراعية مما يؤدي إلى اهتزازات عنيفة تعيق الإنتاج الزراعي.

● **مشاريع البناء**: كانت الدولة قد شرعت باستثمار أراضٍ واسعة لبناء دور ومراكز سكنية لمعظم شرائح المجتمع كدور الضباط ورجال القانون والموظفين والمدرسين وسكان الأكواخ الطينية (الصرائف) بأقساط تناسب رواتب ودخول أولئك المستفيدون من تلك المشاريع. لذلك فإن الأموال التي خصصتها الدولة للبناء كانت ستوفر فرصًا واسعة للعاملين في القطاع الخاص كمكاتب المهندسين والبنائين، على المدى القصير والبعيد. وفي السياق نفسه كانت مشاريع بناء الجسور والشوارع داخل المدن والطرق الخارجية الواسعة التي تربط بين المدن الكبرى والأقضية كانت ستسهل النقل البري للمسافرين والشركات التجارية وأصحاب وسائل النقل.

تلك المشاريع الكبرى اقتضت استخدام مهارات استشارية وخبرات هندسية عملية واسعة، فخصصت الدولة لها مبالغ وفيرة وجلبت أشهر المهندسين العالميين من أمثال والتر بروكيوس ولوكوربوزييه وغيرهم وتنافست العديد من الشركات العالمية الكبرى عليها، وكان لبعض الأساتذة المهندسين الكبار من أمثال قحطان حسن فهمي المدفعي ومدحت علي مظلوم وشقيقه سعيد والدكتور آرتين ليون رئيس الطائفة الأرمنية والدكتور المهندس جميل

الملائكة خبير هندسة الري وغيرهم ممن كان لهم دورًا رئيسًا في توجيه تلك المشاريع لخدمة مصلحة العراق.

● **ازدهار الهندسة**: كانت مشاريع مجلس الإعمار الواسعة تنتشر في جميع أنحاء العراق وتتطلب خدمات مهندسين من مختلف الاختصاصات لهندسة الجسور والطرق، والهندسة المدنية والمعمارية وغيرها، وقد جلبت الدولة مهندسين أجانب وعرب لسد الحاجة انتظارًا لتخرج المهندسين العراقيين من كلية الهندسة أو رجوعهم من الخارج بعد إرسالهم ببعثات للحصول على أعلى الشهادات من أشهر جامعات العالم في مختلف فروع الهندسة[٣٩].

وقد كان المجال مفتوحاً للمهندسين لفتح مكاتب هندسية خاصة لأجل بناء دور السكن التي بدأت تنتشر في أنحاء العراق نظرًا لتمكن السكان من تحمل مصاريف بناء أو شراء المنازل بعد تحسن رواتبهم. وقد أفادت تلك المشاريع أيضًا العاملين في مهنة البناء وكان رئيسهم أو مسؤولهم الأعلى يسمى (الأسطة) ومعاونه (الخلفة) وكان لهم عدد من العمال الذين يعتمدون عليهم في أعمالهم، وقد وفرت تلك المشاريع لجميع أولئك العاملين فرص عمل ثابتة على المدى القريب والبعيد.

هذا فضلاً عن استفادة مهندسي وعمال الميكانيك الذين توفرت لهم أوسع الفرص للعمل والتوظيف في شركات السيارات واللوريات ومكائن الزراعة وغيرها الوافدة إلى العراق من أمثال شركة فولكس واجن وتاونس وأوبيل، إضافة إلى الشركات العملاقة كفورد وانترنشونال وغيرها، وكانوا جميعًا يطمحون بالحصول على جزء من الثراء الهائل الذي بدأ ينهال على العراق والمبالغ الجسيمة المخصصة للمشاريع الكبرى.

ازدهار الطب: شرعت الدولة ببناء عشرات المستشفيات في جميع أنحاء العراق وقد ركزت وزارة الإعمار على هذا الجانب المهم وكانت الكلية الطبية

---

٣٩) انظر الجداول التي تبين تطور التعليم في العراق في بداية هذا الكتاب.

الملكية توظف أمهر وأشهر أساتذة الطب العراقيين والأجانب لتدريس الطلاب الذين يقبلون حسب نظام الاستحقاق واستناداً على مجموع معدلاتهم(٤٠).

وكان الأطباء خريجو الكلية الطبية، ومعظمهم من عوائل فقيرة، تتلقفهم المستشفيات حال تخرجهم ويعينون حسب اختصاصاتهم في جميع أنحاء العراق، إضافة إلى أنهم افتتحوا عيادات خاصة لمعالجة مرضاهم مما زاد في مدخولاتهم المالية وجعل دراسة الطب مرغوبة بكثرة من قبل التلاميذ من ذوي الكفاءات العلمية العالية.

خلاصة هذه التفاصيل هي إن الوضع الاقتصادي كان يوعد بالآمال العراض، ويتطور نحو الازدهار والنمو بخطوات سريعة كما تؤكد الاحصائيات العالمية(٤١) وكانت فرص الدراسة والعمل والنهوض بمستوى المعيشة متوفرة عن طريق دوائر الدولة أو الشركات الخاصة وقلما كان ثمة شخص كفوء عاطل عن العمل.

كل هذه السمات الاقتصادية الصحية والواعدة بدأت تتدهور بعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨. وكان الجانب الاقتصادي الذي تداعى مباشرة هو الزراعة، ثم تبعها توقف وتشويه مشاريع الإعمار.

هللت جموع الشعب لإصدار الدولة لقانون الإصلاح الزراعي على الفلاحين الذي قضى على (الإقطاع) واستبشر الجميع خيرًا بتوزيع الأراضي على الفلاحين المساكين الذي عانوا الأمرين من ظلم أسيادهم (الإقطاعيين). وبدأت وزارة الإصلاح الزراعي تصادر الأراضي الزراعية من الملاكين وتوزعها على الفلاحين الراغبين حسب تصنيف الأرض إذا كانت سيح أو ديم.

إلا إن الإصلاح الزراعي فشل فشلاً ذريعًا في العراق للأسباب التالية:

١. كان الفلاح جاهلاً جهلاً مطبقًا ولم يحصل على أي نوع من التعليم

---

٤٠) سالم الدملوجي، مصدر سابق، صفحة ١٩٨.

٤١) Walter Laqueur, OP. Cit

عبر الأجيال ويقوم بواجباته الزراعية حسب أوامر شيخ عشيرته أو مالك الأرض. لذلك كان الإنتاج الزراعي يتدفق على قدم وساق مادام شيخ العشيرة أو مالك الأرض يمتلك السلطة العشائرية أو المالية والإدارية ويمسك بزمام مصادر عيش الفلاح وعائلته. وقد تعرض هذا النظام إلى انتقادات الجهات الوطنية الواعية التي طالبت بالدفاع عن حقوق الفلاحين، وكانت مشاريع مجلس الإعمار تهدف إلى تأسيس مدارس ريفية لأبناء المهن الزراعية ولأجل خلق جيل متعلم في الفلاحين. ولكن، بعد صدور قانون الإصلاح الزراعي وزوال سلطة ملاك الأراضي لم يعد هنالك من يدير مقتضيات الزراعة فتهاون الفلاح وترك الزراعة وهاجر إلى المدن.

٢. اكتسب شيوخ العشائر وملاك الأراضي خبرة مهنية وسوقية في إدارة شؤون أراضيهم عن طريق الممارسة والتكرار أبًا عن جد، واستخدموا رجالاً من أصحاب التجربة كانوا يسمون (سراكيل) ومفردها (سركال) وهي كلمة محورة عن الفارسية وتعني رئيس العمل ومكونة من قسمين (سَر) وتعني رئيس و(كار) وتعني العمل ويقابلها باللغة الإنكليزية (Foreman). فلذلك كان الشيوخ وملاك الأراضي وسراكيلهم يهيئون البذور واللقاح والآلات وكل ما تقتضيه المواسم الزراعية في الأوقات المناسبة ثم مراقبة الحصاد وتسويق المنتجات. وكانت تلك العمليات تجري بجدارة واضحة تنم عنها وفرة المنتوجات الزراعية في معظم أنحاء العراق، ونادرًا جدًا كان يحدث قصور في كميات أنواع الأطعمة في الأسواق.

ولم يكن الفلاح يدرك كنه كل هذه الفعاليات وكان يعمل تحت مراقبة صاحب الأرض أو السركال ويخشى العقوبات القاسية إذا تقاعس أو تهاون في أداء واجبه أو حاول الهروب.

٣ . بعد انقلاب ١٤ / ٧ / ١٩٥٨ استلم الفلاح الجاهل فجأة أرضًا زراعية خصبة ولم يكن مؤهلاً لاستغلالها بدون توجيه المالك أو السركال، أو لتوفير المتطلبات الأساسية المتعلقة بالزراعة كتهيأة البذور والتخزين والنقل والتسويق وغيرها. وقد كان قرار الإصلاح الزراعي عاطفيًا ونظريًا أكثر من كونه عمليًا ومدروسًا بعمق وقد نُفذَ بسبب التعاطف مع «الفلاح الفقير المسكين المظلوم»، دون الأخذ بالاعتبار للنتائج. فبعد زوال السلطة العشائرية والإدارية للشيوخ وملاك الأراضي، لم يعد هنالك من يرغم الفلاح على العمل الزراعي الشاق تحت الشمس الحارقة أو أثناء البرد القارص. فتوقفت الزراعة واضطر الفلاح أن يترك أرضه بعد أن فقد معيشته التي كان يوفرها شيخ عشيرته أو مالك الأرض، فهاجر إلى بغداد أو بعض المدن الكبرى ووجد عملاً كخادم أو مساعد سائق سيارة أجرة أو كاسب وغدت زوجته وابنته خادمات في البيوت فتدهورت الزراعة في العراق وشحت الموارد الغذائية، وبدأ البلد يستورد المواد الزراعية بعد أن كان يصدرها بكثرة.

بعد فترة بدأت الدولة تنفق واردات النفط على استيراد الطعام والسلع الاستهلاكية كالرز والحنطة والشعير بعد أن كانت الزراعة أثناء العهد الملكي تكفي الأسواق المحلية وتصدر الفائض الوفير إلى الخارج بينما تُنفق موارد النفط على مشاريع التطور والبناء الكبرى.

أما مشاريع وزارة الإعمار فقد بدأت بالتباطؤ بعد الانقلاب بسبب الاضطرابات العنيفة التي اجتاحت العراق، خصوصًا الصدام المسلح مع الأكراد، وتمرد الموصل وحوادث كركوك وغيرها، مما أدّى إلى فقدان الثقة بسبب انعدام الاستقرار. ثم بدأ عبد الكريم قاسم تبني المشاريع التي خططها مجلس ووزارة الإعمار أثناء العهد الملكي، وينفذها بطريقة عشوائية غير منتظمة حسب رغباته ثم يدّعي إنها من (منجزات الثورة) .

كان رئيس الوزراء اللواء عبد الكريم قاسم يعلن في خطبه بأنه يهدف إلى رفع مستوى معيشة الفقراء إلى مستوى الأغنياء، وكان الرجل ببساطته على اقتناع تام بأنه قادر على تحقيق ذلك أي (رفع مستوى معيشة الفقراء) دون المساس بثروات الأغنياء، وكان يكرر هذه التعابير العاطفية الجذابة ويطرب للتصفيق الحاد الذي يقابل به من قبل المستمعين، إلا إن تلك الأقوال كانت لا تستند على أي تخطيط علمي أو منطقي(٤٢).

لم يكن ثمة شك من إن عبد الكريم قاسم كان وطنيًا مخلصًا، يرغب بشدة لخدمة العراق وخصوصًا الطبقات الفقيرة، إلاّ إن سياسته الاقتصادية كانت تتسم بالعشوائية وتفتقر إلى الخبرة أسوة باتجاهاته السياسية التي لم تكن مدروسة ولا تتبع خطًا واضحًا بالرغم من إنه كان محاطًا بوزراء ومستشارين من الذين يمتلكون كفاءات وخبرات جيدة إلاّ إنهم كانوا تحت الهيمنة الكلية (للزعيم)، ولم يجرؤ أحد على تقديم اقتراح ومعارضة قراراته، وأذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ما حدث في إحدى الاجتماعات لمناقشة تقرير الاستخبارات العسكرية وردت فيه تفاصيل عن تردي الأوضاع في البلاد وخصوصًا عدم التزام رئيس محكمة الشعب العقيد فاضل عباس المهداوي بالأساليب القانونية الصحيحة وتعرضه والمدعي العام، العقيد الركن ماجد محمد أمين لرؤساء دول صديقة للعرب، مما حدا بعبد الكريم أن يعقد اجتماعًا لوزرائه وبعض مستشاريه من الذين شاركوا في معارضة العهد الملكي وكان من ضمنهم السيد عراك الزكم رئيس الجمعيات الفلاحية وعضو الحزب الوطني الديمقراطي، وافتتح (الزعيم) عبد الكريم الجلسة قائلاً: «أريد أن تخلصوا لي النصح وأترك لكم حرية الرأي والكلام وتحكيم ضمائركم». ثم قرأ تقرير الاستخبارات الذي يلقي الأضواء على تدهور معظم نواحي الحياة في البلاد، فسكت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير. فتجرأ عراك الزكم وأيد التقرير وطالب بوضع حد للأوضاع المتردية التي

---

٤٢) خليل إبراهيم حسين، موسوعة ١٤ تموز، ج٥، مصدر سابق، صفحة ١٦٨.

شُرحتْ فيه. لاّ إن أحد السياسيين الكبار من المتمسكين بالديمقراطية ـ ويقال إنه معالي الأستاذ المحامي محمد حديد ـ أسكت عراك الزكم بمقولة جافة تعني ليس بالإمكان أحسن مما كان[٤٣].

وهكذا انفرد رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم، الضابط الشجاع النزيه والمخضرم في الشؤون العسكرية، لكنه كان يفتقر إلى أدنى تجربة في إدارة الشؤون المدنية والدبلوماسية، فانتهى العراق إلى فوضى سياسية واجتماعية واقتصادية واتجه نحو الهاوية.

أما في سياق التدهور الاقتصادي فقد قدم الحزب الشيوعي، الذي كان أكثر الفئات السياسية تأييدًا لعبد الكريم قاسم، تقريرًا عن الأوضاع الاقتصادية وفكرة رفع مستوى الفقراء إلى مستوى الأغنياء، وما آل إليه وضع البلد بعد مرور ثلاث سنوات على الانقلاب وجاء التقرير[٤٤]:

> إن الارتفاع المتواصل في أسعار المواد الاستهلاكية الواسعة قد وصلت أرقامًا قياسية في أسعار اللحوم ومنتجات الألبان في شهر آذار ١٩٦١ لتساوي ٨٤٪ على ما كانت عليه في عام ١٩٣٩ (أي إن الأسعار تضاعفت ثمانية ونصف مرة)، وبزيادة ٤٠٪ منذ عام ١٩٥٨ وقد شهدت أسعار الرز على أصنافه ارتفاعًا خياليًا لم تشهد له البلاد مثيلاً من قبل مطلقًا.

علمًا بأن الرز ومرق الخضروات هو الوجبة الأساسية اليومية لجميع طبقات الشعب العراقي من أغنى عائلة إلى أفقر بيت ولا يمكن الاستغناء عنه. فضلاً عن ذلك إن الحنطة والشعير والفواكه وجميع أنواع المنتجات الزراعية تضاعفت أسعارها لتناقص كميات إنتاجها نتيجة لسياسة الدولة غير المدروسة في تطبيق الإصلاح الزراعي.

---

٤٣) خليل إبراهيم حسين، موسوعة ١٤ تموز، ج٢، مصدر سابق، صفحة ١٠.

٤٤) خليل إبراهيم حسين، موسوعة ١٤ تموز، ج٥، مصدر سابق، الصفحات ١٦٨ - ١٦٩.

ويستمر تقرير الحزب الشيوعي مؤكدًا:

إلى جانب موجة الغلاء المتفاقمة باستمرار يستفحل شر البطالة وأصبح يعاني منها جيش جرار، متزايد من أبناء الطبقة العاملة في المدن. فالإحصائيات الرسمية تُشير إلى إن الذين في سن العمل في العراق (٣٫٦٠٠٫٠٠٠) ثلاث ملايين وستمائة ألف نسمة (كان عدد نفوس العراق في تلك الحقبة ٧ ملايين نسمة) لا يمارس مَنْ هم في سن العمل عملاً اقتصاديًا بالفعل سوى نصف هذا العدد (أي ١٫٦٠٠٫٠٠٠٠) مليون وستمائة ألف نسمة، أما النصف الآخر فهو في حالة بطالة كاملة.

أي إن خمسين بالمائة من الأيدي القادرة على العمل أصبحت في حالة بطالة تامة في العراق الذي هو من أغنى دول العالم بمصادره الطبيعية، وكان في عام ١٩٥٨ يتجه لبناء مجتمع مزدهر واقتصاد متنام ينافس به دول العالم المتقدمة. إلا أن انقلاب ١٩٥٨ أجهض جميع تلك التوقعات وبدأ العراق يتدهور نحو الهاوية.

التعليل المنطقي للبطالة والركود الاقتصادي المذكور أعلاه هو إن عدم الاستقرار السياسي والاضطرابات والعنف الذي اجتاح العراق بعد الانقلاب جعل الشركات الأجنبية تهرب والشركات المحلية تتردد عن العمل. وهنا أورد مقولة للمفكر الشيوعي المعروف (فلاديمير لينين) «إن رأس المال جبان، يهرب حين يشعر بالخطر». وأود أن أصحح مقولة لينين وأقول إن رأس المال عاقل وحذر، وحين يرى الخطر داهم ينسحب إلى المناطق التي هي أكثر أمانًا طلبًا للازدهار، فليس من الشجاعة أن يكون الفرد في دار تلتهمه النار ويبقى متحديًا لها ليحترق ليثبت كونه شجاعًا، هذا تصرف أخرق وجنوني.

فلذلك فقد اهتزت الثقة بأوضاع العراق وكانت نتيجة تباطؤ الشركات

والمشاريع التي تهدف إلى بناء جميع أنحاء البلاد وتتطلب أيدي عاملة ماهرة ومهنية، أدت إلى بطالة أولئك الذين كانوا يعملون وينفذون تلك المشاريع. ويقول التقرير الشيوعي بهذا السياق:

بالرغم من مرور ثلاث سنوات تقريبًا على ثورة ١٤ تموز ورغم إن الحكومة الجديدة تسلمت دون أن يصيبها تخريبات حرب أهلية أو دولية، فإن الحكومة لم تفتتح أي مشروع عدا بعض المشاريع التي بدأ إنشاؤها في العهد الملكي السابق للثورة، ومن بين هذه المشاريع الميناء البحري (أم قصر) الذي طبلت بافتتاحه الحكومة وزمّرت. ولم ينشأ أي مشروع ضخم للري، ولم يفتتح سوى ثلاثة مصانع كانت قد بنيت قبل الثورة.

بالإضافة إلى كل الذي ذُكر أعلاه فقد تفاقم الغلاء وتفشت البطالة وتضخم جيش المهاجرين من الريف (أي العاملين في الزراعة) ما أدى إلى تفاقم أزمة السكن وارتفاع بدلات الإيجار لدرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العراق. فهي تستنزف ٣٥٪ إلى ٤٠٪ من أجر العامل والكاسب ومورد ذوي الدخل المحدود، وبدلاً من انتهاج سياسة جدية من شأنها الإسراع في الحد من هذه الأزمة، وخاصة بالنسبة للطبقة العاملة وسائر فئات الشعب الكادحة، وذوي الدخل المحدود، بدلاً من ذلك تمضي الحكومة في سياسة قائمة على تبذير عشرات ملايين الدنانير على مظاهر الفخفخة والبهرجة لمشاريع وعلى مشاريع تعتبر غير ضرورية في ظروف تدهور الوضع الاقتصادي واستفحال أزمة السكن. فالحكومة ترصد مثلاً ثلاثة ملايين دينار لإنشاء بارك وأكثر من ثلاثة ملايين دينار على إنشاء ساحة رأس القرية وأنفقت ثلاثة ملايين دينار على إنشاء قناة الجيش ودفعت للملاّك الكبير

حكمت سليمان مليوني دينار بدل استملاك أراضيه التي مرت بها القناة.

يشير التقرير أعلاه إلى ساحة رأس القرية التي أقيم بها نصب تذكاري حيث وقعت محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم من قبل شباب حزب البعث عام ١٩٥٩ والاحتفال بقناة الجيش التي كانت آخر مشروع خُطط له أن يُنفذ من قبل مشاريع مجلس الإعمار بعد الانتهاء من مشاريع الإسكان والسدود والمبازل والمصانع والطرق العامة وغيرها من المؤسسات الإنتاجية الحيوية.

هكذا يصف تقرير الحزب الشيوعي الأوضاع المأساوية التي آل إليها العراق بعد ثلاث سنوات من وقوع الانقلاب، بالمقارنة مع الازدهار الذي حققه العهد الملكي كما تصفه التقارير العالمية في عام ١٩٥٨.

ومما يثير الألم العميق هو إن الحزب الشيوعي والجهات الوطنية هاجموا جميع إنجازات مجلس الإعمار ووزارة الإعمار جملة وتفصيلاً وأطلقوا الأكاذيب عن عدم جدوى تلك المشاريع وأكدوا مناطق ضعفها واعوجاجها وخرابها وبأنها تهدف لخدمة الاستعمار الإنكلو-أمريكي، ولمهاجمة «الاتحاد السوفياتي العظيم، صديق الشعوب الضعيفة».

وقد اقتنع الناس جميعًا، المثقفون والبسطاء، بأن مشاريع العهد الملكي لبناء المدارس تهدف لتحويلها إلى ثكنات للجيش الأمريكي، والمستشفيات هي لمعالجة جنود الاستعمار الذين سيسقطون بعد زج العراق وجيشه في حرب استعمارية لا علاقة له بها، وإن السدود التي تخلق بحيرات هي لأجل استعمالها كمطارات للطيارات البرمائية التي ستهاجم الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية. وقد صدرت بيانات مسهبة ومتتابعة اقنعت الناس بهذا الهراء الذي لا يمكن أن يصدقه عاقل، ولكننا صدقناه جميعًا واعتبرناه حقائق ثابتة لأن الأمير عبد الإله ونوري السعيد وتوفيق السويدي والدكتور فاضل الجمالي وبقية النخبة الكلاسيكية هم جميعًا (عملاء) ولا يمكن أن يقوموا

بأي مشروع لخدمة العراق لأن جميع خططهم تهدف لاستفادة الاستعمار وأذنابه.

إلاّ إن الحزب الشيوعي وأعوانه عادوا بعد انقلاب ١٩٥٨ للإشادة بالفوائد الجمة لمشاريع العهد الملكي مقارنة بالسياسية الاقتصادية المشوشة والعشوائية لما بعد الانقلاب.

والأنكى من ذلك إن العراق اتجه بعد الانسحاب من حلف بغداد إلى التعاون الاقتصادي مع الاتحاد السوفياتي فوقّع اتفاقية في عام ١٩٥٩ يؤكد فيها المؤرخ العراقي المعروف العميد خليل إبراهيم حسين المعلومات الآتية[٤٥]:

١. كانت المعدات السوفياتية ذات تكنلوجيا متخلفة وسرعتها بطيئة وإنتاجيتها قليلة وباهضة الكلفة لأنها تحتاج للعديد من المكائن ولذلك فإنها تحتاج لعمالة غالية بالإضافة لمساحات من المنشآت لاحتوائها، فمثلاً معمل جواريب كانت إنتاجيته ٦ ملايين (بوجيني) عمل وكان عدد المكائن ٢٠٠ ماكنة حياكة في حين إنه كان بالإمكان تحقيق نفس الإنتاج بخمسين ماكنة حديثة فقط.

٢. عملية تنفيذ المشاريع كانت بطيئة بسبب تأخر أعمال الهندسة المدنية والخدمية أو بسبب التأخير بأعمال نصب وتشغيل المنشآت لأن الاتحاد السوفياتي لم يلتزم بإنجاز البرامج المحددة لتلك الأعمال وفي الأوقات المحددة وبسبب تماهل الجانب العراقي.

إضافة إلى ذلك فإن معظم المكائن التي استلمتها حكومة عبد الكريم قاسم لم تعد تستعمل في الاتحاد السوفياتي ولم يكن بالإمكان تجهيز أدوات احتياطية لها.

وهنا تجدر الإشارة إلى إن مشاريع مجلس ووزارة الإعمار الكبرى، من السدود العديدة الهائلة الحجم والمشاريع الزراعية الأخرى نُفِّذت أثناء العهد

٤٥) المصدر السابق، صفحة ١٧٣.

الملكي بوقت إعجازي. فبعد أن بدأت الدولة ترسم مشاريع البناء والتطور في عام ١٩٥٢، نُفِّذت أكثر من نصفها بحلول عام ١٩٥٧ أي بمدة خمسة أعوام فقط.

وهكذا توقفت مشاريع الإعمار التي كانت قائمة على قدم وساق أثناء النصف الأول من عام ١٩٥٨ لبناء العراق، بسبب الفوضى التي سادت البلاد بعد انقلاب ١٤ تموز، وعدم الكفاءة في تنفيذ المشاريع التي خُططت سابقًا، وذلك لاستناد سياسات البلاد على قرار رجل واحد هو (الزعيم) عبد الكريم قاسم بعد أن كانت حكومات العهد الملكي تستعين بأعظم وأكفأ الخبراء والمستشارين لأجل رسم وتنفيذ المشاريع وتصحيح الأخطاء إذا وقعت، وإرجاع العمليات إلى مسالكها الصحيحة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. واستمر الوضع الاقتصادي بالتدهور حتى وصل في عقد التسعينيات إلى اضطرار الأطباء والمهندسين وحكام المحاكم وأساتذة الجامعة والموظفين والضباط الكبار إلى اللجوء إلى سياقة سيارات الأجرة (سواق تاكسي) أو حتى إلى التسول، ومارس بعض الفتيات الدعارة لقاء وجبة طعام أو دوزينة بيض، ووقف الناس في طوابير طويلة بغية شراء السلع الضرورية لحياتهم اليومية. وانقطع الكهرباء لفترات طويلة أثناء صيف العراق الحارق وشتائه القارص البرد وأصبح الماء الصافي سلعة نادرة في بلاد الرافدين، وانهارت العملة العراقية وأضحى الدولار الأمريكي يعادل أكثر من ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠ دينار) بعد أن كان الدينار العراقي يعادل ٣٫٣ $ (ثلاث دولارات وثلث الدولار). لم يقف العراقي أثناء سني الخمسينيات بطوابير طويلة لأن السلع وجميع الحاجات كانت متوفرة بالأكوام في الأسواق وبأسعار مناسبة، ولم ينقطع عنه التيار الكهربائي وكان الماء الصافي العذب مبذولاً. هذا ما كانت عليه أوضاع العراق في عام ١٩٥٧، وهذا ما آل إليه في بداية القرن الواحد والعشرين.

وهنا سألجأ إلى المنهجية التي اعتمدها أبو علم الاجتماع الألماني البروفسور

ماكس ويبر (Max Weber) (١٨٦٤ - ١٩٢٠) والمبنية على فكرة النموذج الأمثل (Ideal Type) لأجل مقارنة الأوضاع العامة في العراق الملكي والتي أنجزتها الدولة حتى عام ١٩٥٨ ، مع الأوضاع التي سادت أثناء النظام الجمهوري نتيجة انقلاب ١٤ /٧ /١٩٥٨ .

النموذج الأمثل هو عبارة عن إطار نظري يحتوي على عدة صفات كوّنه ماكس ويبر عن البيروقراطية (Bureaucracy) أي المؤسسة الإدارية سواء كانت حكومية أو خاصة، واختار خمسة صفات على مستوى الكمال للمؤسسة النموذجية المثلى ليس لأجل تحقيقها واقعيًا بل لجعلها مقياس يقارن به المؤسسات التي تعمل في واقع الحياة وتحسينها إلى أبعد حد ممكن[٤٦] .

وقد أُستعملت منهجية (ويبر) أي فكرة النموذج الأمثل من قبل علماء السوسيولوجيا من أمثال (تالكوت بارسونز) و(روبرت مارتن) وغيرهم لمختلف المؤسسات فعلى سبيل المثال إذا أراد شخص أن يؤسس مدرسة، فهو يرسم بعقله أو على الورق نموذجًا مثاليًا لمدرسة ويختار لها خمسة أو ستة صفات يحددها هو بشكل يبلغ الحد الأعلى من الكمال، أي إن تلك الصفات تكون كاملة مئة في المئة، وهو يدرك مسبقًا عدم إمكانية خلق مدرسة في واقع الحياة بهذا المستوى من الكمال، إلا إنه وبعد رسم النموذج الأمثل لمدرسة، يبني المدرسة على أرض الواقع والمدرسة التي بناها إلى أقرب ما يمكن من صفات نموذجه الأمثل لكي يجعلها تقوم بوظائفها بأعلى مستوى ممكن من الكفاءة في الأداء.

لذلك فقد ركزتُ على الصفات الأساسية الآتية لبناء نموذج أمثل (للدولة) وقارنت ذلك النموذج مع الدول الغربية المتقدمة، ثم مع العراق أثناء العهد الملكي وعراق ما بعد انقلاب ١٩٥٨ . الصفات الأساسية هي: نظام الاستحقاق، ومؤسسة القانون، والنظام العسكري، ونظام التعليم،

---

٤٦) David Rosenbloom, Public Administration: Understanding Management, Political and Law in the Public Sector, (Boston: McGrow Hill, 2002) P. 141

والاقتصاد، والديمقراطية، ونظام البرلمان وأخيرًا المعدل العام.

وقد اخترت هنا دولتين ديمقراطيتين هما بريطانيا وأمريكا لأجل مقارنة نظامي دولتيهما مع التغييرات التي طرأت على العراق لإعطاء فكرة واضحة عن المستويات التي وصلها نظام الدولة العراقية قبل وبعد انقلاب ١٤/٧/١٩٥٨.

وبمراجعة النموذج الأمثل لمقارنة وتحديد مدى شرعية نظم الدول المختلفة، كانت بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية تتبع نظام دولة أركانه وشرعيته تقرب من المقياس الأمثل أكثر من أي دولة أخرى، وذلك بحصولها على معدل عام وشرعية تعادل ٨٩٪ أي جيد جدًا. ويعرف المفكر البريطاني المعروف (هارولد لاسكي) معنى الشرعية بإنه مقدار التفاهم والاحترام المتبادل بين الشعب والدولة.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد كان نظام الاستحقاق فيها عام ١٩٥٨ حكرًا على الرجل الأبيض بينما كانت النساء والمواطنون السود وبقية الأقليات العرقية والأثنية تتعرض للاضطهاد والتمييز. ولم يتحسن ذلك النظام إلا بعد عقود من المطالبات والكفاح. كذلك كانت الممارسات الديمقراطية ناقصة لعدم السماح للمواطنين السود والأقليات الأخرى والنساء لممارسة حقوقهم السياسية والاجتماعية كاملة أسوة بالرجل الأبيض. ولكن كان نظام أمريكا العسكري والاقتصادي والدراسي جيد جدًا وقد نال نظام أمريكا عمومًا ومعدل شرعيتها: ٨٤٪، أي جيد.

أما العراق، ففي عام ١٩٥٨ وصل نظام الاستحقاق والنظام التعليمي والنظام الاقتصادي والنظام العسكري إلى درجة جيد جدًا. ولكنني لم أعطِ لنظام المحاكم والقانون درجة عالية بالرغم من تطور ذلك النظام بسبب لجوء الحكومة لإعلان الأحكام العرفية بمناسبات عديدة وأثناء الشغب والتظاهرات مما قلل من شرعيته. كذلك فإن المؤسسة الديمقراطية افتقدت الكثير من شرعيتها

نظرًا لتدخل الدولة في الانتخابات النيابية بشكل مباشر وكان نواب المعارضة ـ وخصوصًا في الألوية والمدن الصغرى ـ يتعرضون إلى ضغوط حكومية لعرقلة انتخابهم وتأمين وصول العناصر الموالية للحكومة.

إلا إن مجلس الأمة لم يكن عاطلاً او محرّفًا كما ادعى الشاعر معروف الرصافي وأيدته الأحزاب المعارضة. فقد كان البرلمان بمثابة بدعة وتجربة جديدة غير مألوفة لإحدى دعائم النظام الديمقراطي، وقد أُسِسَ في بلد نامٍ جديد يتطلع إلى التطور. فالنظام الديمقراطي معقد غاية في التعقيد وقد اقتضى قرون عديدة لكي يتطور في دول الغرب الديمقراطية العريقة وليتكامل ويكتسب صفة الشرعية الحقيقية. ولا أدري لماذا توقعت المعارضة أن يولد البرلمان متكامل الجوانب في بلد عشائري متأخر مثل العراق الذي كان يرضخ تحت حكم استبدادي لعدة قرون.

هذا فضلاً عن السلطة التشريعية ـ البرلمان ـ لم تكن خاضعة تمامًا، كما اتهمتها المعارضة، للسلطة التنفيذية، أي للوزراء ورئيس الوزراء. فقد كان العديد من الأعيان والنواب يعبرون عن معارضتهم لبعض سياسات الحكومة بصراحة في الصحف ووسائل الإعلام ويلجأون في الكثير من الأحيان إلى الاستقالة من مناصبهم احتجاجًا ويشاركون في التظاهرات والاجتماعات الجماهيرية المعارضة دون أن يتعرضوا لأي إجراءات تعسفية. وقد كان البرلمان في أواسط عقد الخمسينيات يشهد تطورات جوهرية بسبب ظهور عناصر سياسية شابة جديدة من المتعلمين الذين درسوا في الدول الغربية وهضموا النظام الديمقراطي، وكذلك العديد من المحامين وأساتذة الجامعة وخريجي الجامعات، كانوا يتهيأون لدخول البرلمان عن طريق المنافسة والانتخابات الحرة الشرعية وطالبوا بصراحة بتعديل آليات الانتخابات البرلمانية وبإزاحة العناصر السياسية القديمة من غير المتعلمين واستبدالهم بعناصر شابة متعلمة قادرة على التكيّف لمقتضيات العصر الحديث. لذلك أعطيتُ الديمقراطية والنظام البرلماني في العراق الملكي ٣٠٪

ولكنه يتجه نحو الـ ٥٠٪ والمعدل العام ٧٠٪ أي متوسط.

أما بعد انقلاب ١٤ / ٧ / ١٩٥٨ فقد أجهضت كل هذه الممارسات وتوقعات التطور وتراجعت شرعية الدولة وتهاوت مكوناتها السياسية والاقتصادية والقانونية وجميع المكونات الأخرى التي خُلقت وثُبتت وتطورت عبر ما يقارب الأربعة عقود في الحكم الملكي، فتهاوت كلها إلى أدنى الدرجات، ولم يحصل معدل نظام العراق لما بعد ١٤ / تموز سوى ٢٣٪ أي فاشل فشلاً ذريعًا، كما يبين الشكل الآتي:

النموذج الأمثل للدولة (أي دولة) مقارنة بنظام العراق مع بريطانيا وأمريكا، ثم المؤسسات التي تهاوت في العراق بعد انقلاب ١٩٥٨

الدولة	نظام الاستحقاق الإداري	مؤسسة القانون والمحاكم والأمان	النظام العسكري	نظام التعليم	الاقتصاد	الديمقراطية والنظام البرلماني	المعدل
النموذج الأمثل للدولة	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪
بريطانيا عام ١٩٥٨	٨٤	٩٠	٩٠	٩٠	٩٠	٩٠	٨٩
أمريكا عام ١٩٥٨	٧٠	٧٥	٩٠	٨٠	٩٠	٧٥	٨٠
العراق عام ١٩٥٨	٨٠	٦٠	٨٠	٨٠	٨٠	٧٠ ٣٠ـ٥٠	٧٠
العراق بعد عام ١٩٥٨	٢٠	٢٠	٢٠	٤٠	٤٠	٠	٢٣

الخاتمة

يحتوي هذا الكتاب على دراسة مقارنة (Comparative Study) للعهد الملكي لفتراته الثلاث: عهد الملك فيصل الأول، وعهد الملك غازي، وفترة حكم الأمير عبد الإله والملك فيصل الثاني، ومن ثم مقارنة الصفات الأساسية للعهد الملكي مع فترات الحكم التي توالت على العراق بعد سقوط ذلك النظام في عام ١٩٥٨ وأثناء العهد الجمهوري.

وقد اتصفت فترة حكم الملك فيصل الأول (١٩٢١ - ١٩٣٣) بكونها بمثابة البوتقة التي صهرت المكونات السكانية الأثنية والدينية والعشائرية ودمجتها تحت الهوية العراقية العربية بعد أن كانت تحت لواء الحكم العثماني التركي الإسلامي لعدة قرون. إضافة إلى ذلك فقد قام الملك فيصل وأتباعه المخلصون (النخبة الكلاسيكية) بتأسيس كافة أركان الدولة الحديثة للعراق، والحصول على اعتراف العالم به كدولة مستقلة عضو في عصبة الأمم.

بعدها دخل العراق في فترة حكم الملك غازي التي افتقرت أثناءها إلى الحنكة والقيادة الحكيمة بعد وفاة فيصل ونظرًا ليفاعة سن الملك غازي وعدم خبرته في الحكم ولتمرد ضباط الجيش مما أدى إلى وقوع اهتزازات عنيفة، وقد انتهت تلك الفترة (١٩٣٣ - ١٩٣٩) بوفاة الملك غازي وهو في ميعة شبابه إثر حادث سيارة. بعدها بدأت فترة حكم ابن عم غازي، الأمير عبد الإله الوصي وولي العهد، ابن الملك علي الهاشمي، وقد امتد حكمه ليصاحب حكم الملك فيصل الثاني الذي اعتلى العرش في عام ١٩٥٣. وقد امتازت الفترة

الأخيرة بتحقيق العراق لإنجازات كبرى في معظم نواحي الحياة, خصوصًا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

خلاصة الدراسة هي إن العهد الملكي خلق دولة حديثة باسم العراق بعد أن تلاشى ذلك الكيان واسمه منذ سقوط العاصمة بغداد على يد هولاكو المغولي في عام ١٢٥٨. بعد ذلك اجتاحت تلك الأرض جنود الأتراك والأعاجم وتبادلوا حكمها وتفتت إلى ولايات وأقسام إدارية وبقيت المنطقة تعرف باسمها التاريخي القديم – بلاد ما بين النهرين – ولم يعد هناك أي كيان يدعى العراق.

وبعد أقل من أربعة عقود من خلقه في عام ١٩٢٠ أضحى العراق دولة قوية متماسكة تخطو بخطوات واسعة وسريعة نحو التقدم والعصرنة. فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتصار الحلفاء على دول المحور رسمت النخبة الحاكمة مسارًا واضحًا لسياسة العراق الداخلية والخارجية. داخليًا أخذت القيادة على عاتقها، بعد أن تضاعف دخل العراق من الدولار النفطي (Petrodollar)، أن تقوم ببناء العراق من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه واضطلعت بمشاريع تنموية كبرى غطت معظم أنحاء الوطن كما تبين فصول الكتاب. وفي بداية عام ١٩٥٨ كان العراق يقف شامخًا بكونه أغنى وأقوى دولة بين كافة البلاد العربية، وطريقه واضح يؤدي إلى تحقيق الإصلاح الاقتصادي والسياسي البرلماني والاجتماعي عمومًا، والنهوض بالمستوى المعيشي العام للشعب العراقي.

أما على صعيد السياسة الخارجية فقد أمنت الدولة حدودها مع دول الجوار كإيران وتركيا والمملكة السعودية، وبدأت القيادة تبذل قصارى جهودها لتحقيق الوحدة بين بلدان الهلال الخصيب العربية. هذا فضلاً عن تعزيز التحالف مع دول العالم الغربي الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية ومحاولة ربط مصالحها مع مصالح العراق والعرب جميعًا. وفي بداية عام

١٩٥٨ كانت جميع أركان الدولة والمجتمع قد تركزت وأصبح العراق دولة يُشار لها بالبنان عالميًا، وكانت أهم إنجازاتها ما يلي:

- تماسكت جميع المكونات السكانية الأثنية والدينية والعشائرية وانصهروا ببوتقة الولاء نحو العراق.

- كان نظام الحكم العراقي عصريًا، عزل الدين عن الدولة أسوة بالدول الديمقراطية الغربية الحديثة، بالرغم من انتماء العراق إلى العالم العربي الإسلامي.

- لم يختلط دخل الدولة بدخل الحكام كما هو الحال في معظم الدول المصدرة للنفط، بل كان الدخل القومي الكلي (Gross National Income) يخضع للسياسة المالية للدولة، وقد اختطت القيادة منذ ولادة المملكة نظام رواتب يشمل جميع العاملين فيها ابتداءً من الملك الذي خصص له راتب معين، نزولاً إلى الجندي أو أصغر موظف. وكانت هذه الممارسة أوضح أوجه عصرنة الدولة العراقية مقارنة ببعض الدول الأخرى. هذا وقد ازداد دخل الفرد العراقي (Per Capita) بعد أن توسعت الطبقة المتوسطة عن طريق نظام التعليم المتاح للجميع وتوفر فرص العمل لكافة أبناء الشعب استنادًا على نظام الاستحقاق، داخل القطاعين العام والخاص ما أدى إلى ارتفاع مستوى معيشة الأجيال الجديدة من أبناء العوائل المعدمة ورفعها إلى مستويات عليا لم يكن يحلم بها آباءهم وأجدادهم.

- تزايدت أعداد المدارس والكليات والمستشفيات والمراكز الصحية والصيدليات والمراكز التجارية وانتشرت في أنحاء العراق، وكانت مخططات مجلس ووزارة الإعمار تهدف إلى مضاعفة تلك المؤسسات الحيوية لتصل إلى أصغر القرى في الشمال والجنوب، وكانت المدارس والكليات تتبع نظام الاستحقاق. فكل من يحصل على معدل درجات عالية يستحق مكافأة مناسبة عن طريق البعثات إلى الخارج والقبول في الكليات بأنواعها العلمية

والأدبية والعسكرية بغض النظر عن الانتماء الديني أو الطبقي أو العائلي.

أما سياسيًا فقد كان النظام البرلماني يتجه نحو الإصلاح ومتاحًا ليستقبل كوادر شابة جديدة تفقه طبيعة الحياة الديمقراطية الصحيحة.

هذه العوامل وغيرها جعلت العراق يتصف بصفة غاية في الأهمية ألا وهي صفة الأمل. شعور الأمل العام اكتنف الجميع بأن العراق سائر نحو مستقبل أفضل بدون شك. حتى الحركات والأحزاب السياسية المعارضة كان يحدوها أمل عميق بأنهم إذا استلموا الحكم فإنهم سيديرون العراق وثرواته الهائلة وقابلياته غير المحدودة بشكل أفضل من الحكام الأوائل. هكذا كانت أماني العراق والعراقيين في بداية عام ١٩٥٨، مشحونة بالآمال بمستقبل أفضل في كافة مناحي الحياة.

إلاّ أن انقلاب ١٤/تموز/١٩٥٨ وقع وبدأت المؤسسات التي بناها العهد الملكي تتداعى نتيجة جهل الضباط قادة الانقلاب وبدأت الآمال البراقة تتلاشى تدريجيًا. فقد شب الخلاف بين قائديّ الانقلاب الزعيم (العميد) عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام عارف بخصوص علاقة العراق مع الدول العربية فقد داعى العقيد عارف بالوحدة مع مصر تحت زعامة الرئيس جمال عبد الناصر، بينما آثر الزعيم قاسم التريث وبناء العراق أولاً، وقد انعكس ذلك الخلاف على الشعب بين مؤيد ومعارض للقائدين، ومما زاد الطين بلّة مجيء الملاّ مصطفى البرزاني، الزعيم الكردي الذي منح امتيازات كبرى استنادًا على الشعار الخاطئ (العرب والأكراد شركاء في هذا الوطن)، بينما كان المفروض أن يكون الشعار (العراقيون جميعًا شركاء في هذا الوطن). بعد ذلك شبّ الخلاف بين الحكومة العسكرية والأكراد وانتهى التقارب بين المجموعتين الأثنيتين العربية والكردية.

وبعد فترة قصيرة بدأت النعرات الحزبية تظهر بُعد أن كانت الأحزاب قد توحدت في أواخر العهد الملكي تحت مظلة الجبهة الشعبية. فبعد الانقلاب

مباشرة أخذ الحزب الشيوعي زمام المبادرة وسيطر على الشارع وبدأت الأهداف الحزبية الضيقة تطغى على المصلحة العامة وأخذت الاتهامات والشعارات توجه شعور الشعب وحماسته تحت غطاء المحافظة على (الثورة المباركة) وزعيمها الأوحد عبد الكريم قاسم. وقد كان لمحكمة الشعب ورئيسها العقيد فاضل عباس المهداوي والمدعي العام العقيد الركن الحقوقي ماجد محمد أمين، كان لهم دورًا واضحًا في تأجيج العنف والتشجيع على السحل ضد من اعتبروهم أعداء الجمهورية والزعيم.

أما بعد فشل المحاولة الانقلابية للعقيد عبد الوهاب الشواف في عام ١٩٥٩، فقد شهد العراق ما دعي بالمد الشيوعي حيث سيطرت المنظمات المرتبطة بالحزب الشيوعي العراقي والتي شملت النقابات المهنية ووسائل الإعلام وغيرها وأخذ منتسبو المقاومة الشعبية من الفتيان والفتيات الصغار يجوبون شوارع بغداد والمدن الكبرى بملابسهم الخاكية وأسلحتهم التي وزعها عليهم الجيش مما همّش دور الشرطة.

هذا وقد ارتكبت مجازر رهيبة كمجزرة القوميين في الموصل، ومذابح التركمان في كركوك، ومجازر في دهوك وتلكيف وغيرها ذهب ضحيتها أناس أبرياء وجهت إليهم تهم التآمر ضد الجمهورية والزعيم. وقد مجدت محكمة المهداوي وجريدة اتحاد الشعب، لسان حال الحزب الشيوعي تلك المجازر واعتبرتها عقابًا مناسبًا لأعداء الثورة.

وحين وصلت تفاصيل تلك الكوارث التي اقترفها الشيوعيون ومؤيدوهم، قرر عبد الكريم قاسم التخلص منهم فبدأ بإبعاد الضباط والموظفين الكبار من مراكزهم تدريجيًا وأرجع الضباط القوميين والبعثيين إلى مراكزهم بعد أن أبعدوا عنها أثناء المد الشيوعي، وقد ظن قاسم أنه سيكسب ولاءهم ناسيًا أن أولئك الضباط القوميون كانوا قد تعرضوا إلى أنواع التعذيب والإهانات البذيئة والضرب المبرح على يد الضباط والجنود الشيوعيين، وحين أرجعوا إلى

مراكزهم كانوا مملوئين حقدًا على عبد الكريم قاسم وعلى كل من احتسب الحزب الشيوعي ومؤيديه. وانعكس الحال وبدأ القوميون يطاردون الشيوعيين ومؤيديهم وتزايد العنف في بعض الحارات ووقعت قتول وأفلت زمام الأمور من يد عبد الكريم قاسم الذي انفرد بمسؤولية قيادة العراق باعتباره (الزعيم الملهم.. والعبقري.. وأبو الثوار.. وأبو الأحرار.. والرجل الرجل... الخ) وأن قائدًا بمثل هذه الصفات الخارقة لا يحتاج لمن يقدم له المشورة. ووقع الرجل في حيص بيص ولم يدر إلى أين تسير أمور الدولة والقانون والشؤون العامة التي أخذت تتدهور سريعًا. هذا ما آل إليه العراق من التدهور بعد انقلاب ١٤ / تموز / ١٩٥٨، مقارنة بما كان عليه أواخر العهد الملكي من استقرار وازدهار.

وفي عام ١٩٦٣ سقط عبد الكريم قاسم بانقلاب عسكري قام به حزب البعث العربي الاشتراكي وكان من أهم أولويات الحزب الثأر من الشيوعيين الذين اضطهدوهم أثناء فترة مدهم ما بين عامي ١٩٥٩ - ١٩٦٠. وبدأت موجة جديدة هائلة من الرعب تجتاح أنحاء العراق على يد شباب الحرس القومي وكان معظمهم لم يتجاوز سن المراهقة فتلاشت نهائيًا معظم ما تبقى من القواعد الشرعية للدولة وانشلت المحاكم واختفى القانون، وقتل العراقي أخاه العراقي على أسس سياسية أو أخذًا لثأر قديم واغتصبت بعض الفتيات في السجون.

بعد ذلك أخذت الانقلابات تقع بفترات قصيرة إلى أن وصل حزب البعث إلى الحكم ثانية وتمكن رجل واحد من أصل قروي هو السيد صدام حسين تمكن من السيطرة على الدولة وجعل العراق بجميع أركانه وثرواته ملكًا خاصًا له ولعائلته، وفسح المجال لأولاده وأتباعه لاستباحة الأموال والأعراض، ثم دخل في حروب مع جيرانه ذهب ضحيتها مئات الألوف من الشباب وخسر العراق ما لا يحصى من الثروات. هذا ما جناه العراق من انقلاب ١٤ / تموز / ١٩٥٨.

أخيرًا أود أن أكرر هنا أن الهدف من هذه الدراسة هو اطلاع الأجيال الجديدة من العراقيين على المستويات الراقية التي حققها العراق أثناء العهد الملكي نتيجة جهود أولئك القادة المخلصون، لعل وعسى أن يمن الباري عزّ وجل برحمته ويظهر قادة جدد في العراق يمتلكون نفس إخلاص ونزاهة وروح تضحية أولئك القادة الأوائل لكي يولد العراق من جديد ويتسنم نفس درجات التقدم والرقي التي توصل إليها قبل انقلاب عام ١٩٥٨ .

الملاحق

الملحق رقم (١)

نص كتاب الأمير عبد الاله الوصي وولي عهد العراق
الى المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة

حضرة صاحب الفخامة المستر فرانكلن د. روزفلت رئيس جمهورية الولايات الامريكية المحترم،

يا فخامة الرئيس :

أحيي في شخصكم الكريم الجهاد والتضحيات التي تسديها امتكم العظيمة في سبيل المثل الانسانية العليا كما احيي في شخصكم العظيم تلك المبادىء السامية التي شنت من اجلها الحرب والتي ساهمتم في صوغها في الميثاق الاطلنطي.

وانه ليسرني ان اخاطب فخامتكم في ظروف اخذت فيها ألوية النصر للحلفاء تخفق في ميادين العالم كلها متمنياً ان يحين يوم النصر النهائي قريباً ان شاء الله وراجياً ان تفوز المبادىء السامية التي من اجلها تكافح الأمم المحبة للحرية والسلام في هذه الحرب. واني لفخور ان تكون بلادي قد وقفت قلباً وقالباً الى جانب الامم الديمقراطية في هذه الحرب الضروس.

يا صاحب الفخامة :

تعلمون فخامتكم ان اول ما يحتاج اليه العالم بعد هذه الحرب هو طمأنينة شاملة للشعوب والافراد كافة ؛ طمأنينة تكون ثمرة العدل الشامل الذي تدعمه القوة وهذا العدل الشامل يجب ان لا تستثنى منه بقعة من بقاع الارض ولا شعب من الشعوب مهما كان صغيراً. وان اية تسوية لمشاكل العالم بعد هذه الحرب لا تبنى على الانصاف والعدل الشامل ستكون مبعث قلاقل وسبب اضطرابات مقبلة للعالم. والعالم غني عن هذه القلاقل فيما لو عولجت المشاكل

السياسية بالحكمة وتحري الحقيقة . ومن المسائل التي تتطلب علاجاً حكيماً مبنياً على الحقيقة والواقع وعلى الانصاف ورؤية وجهة النظر المقابلة هي مسألة فلسطين العربية .

ففلسطين هي احدى البلاد العربية التي انسلخت عن جسم الدولة العثمانية نتيجة الحرب العالمية الاولى وهي لا تختلف في عروبتها عن اي قطر من الأقطار العربية الأخرى التي تتمتع باستقلالها اليوم كالعراق او سورية او اليمن ، فهي عربية بقدر ما (ديفونشاير) انكليزية ، وبقدر ما ولاية فرجينيا امريكية فهي عربية من اوائل تاريخها حتى يومنا هذا ، بالرغم من انها اصبحت ساحة لحروب عديدة وفتوحات مختلفة في التاريخ - ان مطالبة الصهيونيين بفلسطين على اساس علاقاتهم التاريخية بها هو مبدأ خطر كما انه غير مبني على المنطق ، والحقيقة اذ لو قررت شعوب العالم المختلفة اليوم العودة الى البلاد التي عنت اليها بصلة تاريخية قديمة لاستوجب تبديل خارطة العالم الاثنولوجية ولوجب تخلي الكثير من الأمم عن البلاد التي تقطنها اليوم . وحتى لو فرضنا امكان تطبيق المبدأ التاريخي هذا فلا اساس للمزاعم الصهيونية . فان مدة حكم اليهود في فلسطين لم يبلغ الخمسة قرون بينما عاش العرب قبل اليهود وبعدهم نحواً من عشرين قرناً وهم حكامها مباشرة او بالمساهمة في معظم هذه القرون ، كما انهم سكانها المعمرون في الاربعة عشر قرناً الاخيرة .

أما من الوجهة الدينية فان فلسطين بلاد مقدسة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء وان العرب فلسطين تقاليد دينية حرة يشهد لهم بها التاريخ . وليس أدل على ذلك من وصية خليفة الاسلام الاول أبي بكر رضي الله عنه ، للجيش العربي المتوجه لفتح سوريا وفلسطين حيث قال :

« لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له » الخ ....

ولنقارن بين هذه الوصايا الاسلامية وبين ما ورد في التوراة حين افتتح يوشع بن نون مدينة اريحا حيث جاء : «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» ثم : «... واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ...» فمن هذه المقارنة يتبدى سر الوحدة والتآخي بين المسلمين والمسيحيين من عرب فلسطين ، فعرب فلسطين مسلمون ومسيحيون تربطهم وحدة قومية وثيقة بفضل التسامح العربي ، وبروح التسامح ذاته عامل العرب اليهود في فلسطين . فلكل معتقده ومشاعره ولذلك فلا يمكن ان يقال ان علاقة اليهود الدينية بفلسطين تبرر استيلاءهم عليها كما لا يمكن ان يقال ان علاقة اسبانيا الدينية بالفاتيكان تبرر استيلاء الاسبان على روما او ان علاقة الهنود المسلمين بمكة تبرر استيلاء الهنود على الحجاز . هذا ومن المعلوم ان الصهيونية السياسية هي حركة لا علاقة لها بالديانة اليهودية ولذلك فلا يصح ان تستند الادعاءات الصهيونية الى اساس ديني .

اما من الوجهة القومية فقد كانت تقطن فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الاولى اكثرية عربية ساحقة وهي تستحق ان تصيبها نعمة الاستقلال كما اصابت بقية البلدان العربية . اما حرمان اهلها من حق الحياة السياسية الحرة فهو امر لا يتفق وابسط المبادىء التي خيضت هذه الحرب من اجلها ، وما الصهيونية الا قومية اعتدائية تريد ان تحل محل القومية العربية في فلسطين وهذا امر تأباه الأمة العربية من اقصاها الى ادناها فهي لا تحتمل ضيماً او حيفاً يلحق بأي قطر من اقطارها .

اما المشكلة اليهودية في اوروبا تلك المشكلة التي تذرع بها الصهيونيون في هذه الحرب وراحوا يعتبرونها سبباً مبرراً للاستيلاء على فلسطين العربية وجعلها دولة يهودية فهي امر مردود من عدة جهات :

اولاً : ان فتح اوروبا على يد الحلفاء وانقاذها من براثن النازية سوف يسهل عودة اليهود كافة الى بلادهم الاصلية وهم سوف يعيشون في

جو هادىء حر في ظل الحكم الديمقراطي في اوربا . اذن فالمشكلة اليهودية في اوربا يجب ان تعتبر منتهية باندحار النازية .

ثانياً : ان فلسطين لا يمكن ان تكون حلاً للمشكلة اليهودية العالمية فيما لو استعصى حل هذه المشكلة في اوربا فان قابلية فلسطين على الاستيعاب محدودة بشهادة تقارير الخبراء ومنها تقرير السر جون هوب سمبسن الذي يدلنا بصراحة على ان استمرار الهجرة الى فلسطين معناه خنق السكان الاصليين وعدم الحساب لازديادهم الطبيعي المطرد .

ثالثاً : ان المشكلة اليهودية لا يجوز ان تحل على حساب عرب فلسطين الابرياء . فلا يجوز حل المشكلة اليهودية بخلق مشكلة عربية وجعل مليون عربي من مسلم ومسيحي في بلادهم غرباء يرون بأم أعينهم الاجانب اليهود يأتون لاستيطانها وحكمها . وان تحقق ذلك لاسمح الله فستمثل في فلسطين اكبر مأساة في القرن العشرين .

ان الصهيونيين قد يطالبون بحق اليهود في هذا العالم بتشكيل دولة . ان هذا الحق اذا ثبت لجماعة من الجماعات الدينية في العالم وهذا امر غير معقول في هذا العصر فيجب ان يكون ذلك في بلاد غير مأهولة وليس على حساب قوم آمنين في بلادهم .

ان الصهيونيين قد يدعون بأن في مجيئهم الى فلسطين فوائد للعرب اقتصادية وصحية وعمرانية . ان هذه الفوائد لو ثبتت فمقابلها اضرار عظيمة في الاخلاق والعادات وفي الحياة السياسية والاجتماعية . وان العرب لفي غنى عن اية فوائد يأتي بها اليهود ويرومون من ورائها الاستيلاء على بلادهم . ان الاستعمار الصهيوني لأمر يخشاه العرب ويحسبون له ألف حساب .

يا فخامة الرئيس :

ان ابناء الاقطار العربية كافة قلقون على مستقبل فلسطين غير مطمئنين من اجلها وذلك للاسباب التالية :

١ – ان الهجرة اليهودية منذ الحرب الماضية جاءت خلافاً لرغبة اهل البلاد وحقهم الطبيعي في تحديد عدد الذين يدخلونها. ولذلك فقد اصبح عدد اليهود الذين دخلوا فلسطين منذ الحرب العالمية الماضية اكثر من عشرة اضعاف اليهود الذين كانوا فيها قبلها وان كل الصرخات والاضطرابات في فلسطين والبلاد العربية لم تكن الا رد فعل طبيعي للمصير المخيف الذي اوشك ان يؤول اليه اهل فلسطين.

٢ – ان اليهود استولوا على اجود اراضي فلسطين وتركوا الوف الافراد العرب بدون مأوى او ملجأ، ومتى علمتم فخامتكم بأن اليهود اذا ما استملكوا الاراضي جعلوها وقفاً لا يجوز بيعها او التنازل عنها لغير اليهود كما لا يجوز تشغيل ايد عاملة غير يهودية فيها، ادركتم ان الخطر الذي يداهم فلسطين العربية جسيم.

٣ – ان اليهود في فلسطين هم السبب المباشر لحرمان اهالي فلسطين العربية لحد الآن من الحكم الذاتي والاستقلال الذي اخذت تتمتع به الاقطار العربية الواحدة تلو الاخرى وهذا امر لا يرتاح اليه اي انسان يحلاً نفسه الروح الديمقراطي فضلاً عن ابناء البلاد العربية أنفسهم.

٤ – ان اليهود في فلسطين اصبحوا مسلحين ومدربين تدريباً عسكرياً فنياً فقد اصبح لديهم ما يناهز ال ٦٠ ألف شاب مدربين على أحدث أساليب القتال كما ان لديهم معامل لصنع القنابل وقد ظهرت نواياهم العدوانية في الاغتيالات الاخيرة التي كان ابرزها حادث الاعتداء على السر هارولد مكمايكل وحادث اغتيال المرحوم اللورد موين. ونحن نميل الى الاعتقاد بأن هذه الحركات العدوانية هي جزء من حركة صهيونية منظمة عامة تتسلح بشتى الوسائل وتبني اعتقادنا هذا على كثرة الوساطات من شتى الجهات الصهيونية لعدم تنفيذ حكم الاعدام بالمجرمين اللذين أوديا بحياة اللورد موين والامكان المؤمل ان يكون الصهيونيون أول من تبرأ من هذين

المجرمين ويدعون الى تنفيذ حكم الاعدام فيهما. والعرب من حقهم ان يوجسوا خيفة من هذا الخطر العدائي الكامن الذي جاءت به الصهيونية الى البلاد العربية.

٥ — ان العرب يدركون حقاً بأن الصهيونيين انما يريدون فلسطين كواسطة لا كغاية فهم يرون جعل فلسطين باباً يتسللون منه الى الاقطار العربية كافة فيستولون على اقتصادياتها وسياستها بل ويرومون استيطانها. اي انهم يستهدفون استعمار البلاد العربية كافة. والعرب الذين يعشقون الحرية والاستقلال بحكم طبيعتهم وتقاليدهم لا يمكنهم ان يتحملوا اي نوع من انواع الاستعمار، ناهيك الاستعمار الصهيوني.

٦ — ان العرب معتقدون حقاً بأن اتحاد البلاد العربية لا يمكن انجازه بدون فلسطين فموقع فلسطين الجغرافي يجعل ارتباط البلاد العربية أمراً مستحيلاً فيما لو أصبحت في فلسطين دولة غير عربية قد تختلف مصالحها عن مصالح البلاد العربية، وان العرب الذين يعتبرون امر اتحادهم اعز امانيهم القومية لا يسعهم التساهل في امر عروبة فلسطين وفي الحقيقة ان العرب جميعهم كأفراد وكدول يدركون ان قضية فلسطين هي قضية حياة او ممات للاقطار العربية كلها ولذلك فهم يستميتون من اجلها مهما كلف الامـــر.

هذه يا فخامة الرئيس هي بعض النقاط الاساسية التي تجعل العرب يطالبون بحقوقهم الطبيعية في فلسطين تلك الحقوق التي ضمنتها لهم كـــل المبادىء الانسانية. وتعلمون فخامتكم بأن الاعتداء على الحقوق الطبيعية للشعوب هو العامل الاساسي في توليد الحروب والقلاقل وما احوج العالم بعد هذه الحرب الى اقرار مبادىء العدل والسلام واتجاهه نحو التعمير والتعاون المشترك بين الامم بدل الاعتداء والاستيلاء.

بما ان فخامتكم في مقدمة المساهمين في تكوين هذا العالم الجديد وواضعي

امنية فكلنا رجاء في ان فخامتكم ستعملون على نيل عرب فلسطين حقوقهم الطبيعية وبذلك تكونون قد ازلتم عاملاً من اكبر العوامل التي تهدد السلام والاستقرار في الشرق الادنى بل وفي العالم اجمع.

وتقبلوا يا فخامة الرئيس اطيب تحياتي واجمل تمنياتي.

حرر في بغداد في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ١٣٦٤ الموافق لليوم العاشر من شهر آذار ١٩٤٥.

عبد الاله

نص جواب المستر روزفلت على كتاب الامير عبد الاله

البيت الابيض — واشنطن

صاحب السمو الملكي الامير عبد الاله الوصي وولي العهد لصاحب الجلالة ملك العراق — بغداد .

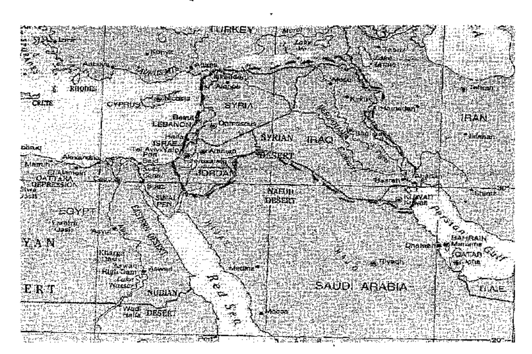
يا صاحب السمو :

تلقيت الكتاب الذي بعثتم به الي بتاريخ ١٠ مارث ١٩٤٥ والذي شرحتم فيه موقف العرب من قضية فلسطين .

اغتنم هذه الفرصة لأعرب لكم عن تقديري لهذا البيان المتعلق بوضع العرب وقد قرأته باهتمام عظيم . اني اعلم ما يساور العالم العربي من قلق شديد في تتبع التطورات المتعلقة بفلسطين وارغب بهذه المناسبة في ان اؤكد لكم من جديد ما سبق تبليغه للحكومة العراقية من ان الحكومة الامريكية ترى انه يجب ان لا يتم التوصل الى قرار ما ، يمس الوضع الاساسي في فلسطين بدون استشارة العرب واليهود استشارة تامة . واني ارتقب مقابلة سموكم بمناسبة زيارتكم القادمة الى الولايات المتحدة . وفي غضون ذلك أبعث اليكم بأحر التحيات وبأطيب التمنيات لرفاه الشعب العراقي .

المخلص فرانكلين د . روزفلت

ملحق رقم (٢)
مشروع الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى



يمثل الخط المرقط باللون الأحمر حدود البلدان العربية التي كان الأمير عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد وبقية النخبة الحاكمة العراقية يطمحون بتوحيدها تحت الهلال الخصيب بعد الحرب العالمية الثانية. ولو تحقق المشروع لتم إنجاز ما يلي:

١ ـ تشرف الدولة الموحدة من ناحية الغرب عن طريق الإقليم السوري وفلسطين على البحر المتوسط، وجنوب الغرب عن طريق الأردن على البحر الأحمر، ومن ناحية الجنوب الشرقي على الخليج العربي، ولأصبحت الدولة أكبر مركز تجاري ومالي في المنطقة.

٢ ـ تشتمل الدولة على جيوش العراق وسوريا والأردن، ولأصبحت أعظم قوة عسكرية في المنطقة.

٣ ـ تحتوي أراضي الدولة على النهرين العظيمين دجلة والفرات وروافدهما وأنهار لبنان والأردن، ولفاض إنتاجها الزراعي وغطّى جميع البلاد العربية. هذا فضلاً عن احتوائها على نفط العراق والكويت مما يجعلها أقوى كيان

اقتصادي في الشرق الأوسط.

٤ ـ توحيد نظام التعليم في جميع أنحاء الدولة، وتشجيع التزاوج بين الشباب عن طريق المنح المالية والتسهيلات الأخرى لأجل تحقيق التلاحم الاجتماعي وقرابة الدم بين السكان.

٥ ـ كان المشروع يهدف لإبقاء فلسطين من ضمن البلاد العربية، وإعطاء اليهود حكمًا ذاتيًا كأقلية دينية فقط.

هوجم مشروع الهلال الخصيب من قبل الحركات الوطنية داخل العراق وخصوصًا الحزب الشيوعي، واتهموا الفئة الحاكمة العراقية بمحاولة وضع المنطقة تحت هيمنة الاستعمار الإنكليزي. وكذلك هوجم المشروع من الخارج مخافة تزايد نفوذ العائلة الهاشمية في البلاد العربية، لذلك لم يُنفّذ المشروع وعفا عليه الزمن.

ملحق رقم (٣)

ترجمة نموذج الفرمان السلطاني الذي كانت تُسيّر به أمور سكان الدولة العثمانية العسكرية والمدنية.

إعلام وخبر صادر عن دائرة المشاة

بخصوص المنقولة مأمورياتهم برتبهم الحالية

الجيش الهمايوني السادس

اللواء ٨٢ رديف طابور بعقوبة

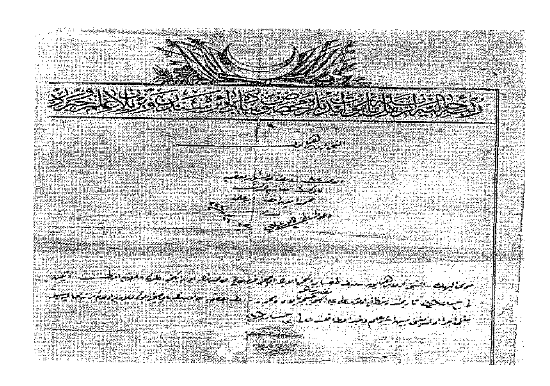
الفوج ٣ ملازم أول

محمد أمين بن علي

الدخول كانون الثاني ٢٢ /٣١٧

.. ١٦ تموز ٣٢٣

إن المومى إليه الذي كان ملازمًا أول في الجيش الهمايوني السادس لواء الرديف الثاني والتسعين فوج قرة داغ الثالث الفصيل الثاني عشر قد تم نقله إلى فوج بعقوبة الفصيل الثالث برتبته الحالية كملازم أول بموجب الأوامر بتاريخ ١٠ نيسان ٣٢٦ ولهذا الغرض أعطي الإعلام.



شعير

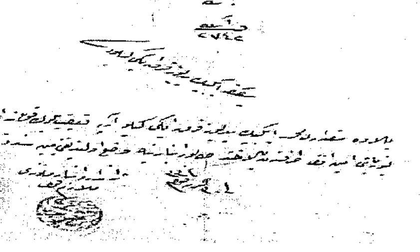
٢٧٤٢

فقط ألفان وسبعمائة وإثنان وأربعون كيلو.

إن الشعير المبين مقداره أعلاه والبالغ ألفان وسبعمائة وإثنان وأربعون كيلو قد تم استلامه من قبل قائد الفصيل اليوزباشي أمين وتم وضعه في مخزن الطابور وهذا سند بذلك.

مأمور مخزن الجندرمة

مــلازم



صور تاريخية



فيصل بن الحسين ـ ملك العراق
(١٩٢١ ـ ١٩٣٣م)



صورة بالزي الملكي للملك غازي بن الملك فيصل الاول (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩م)

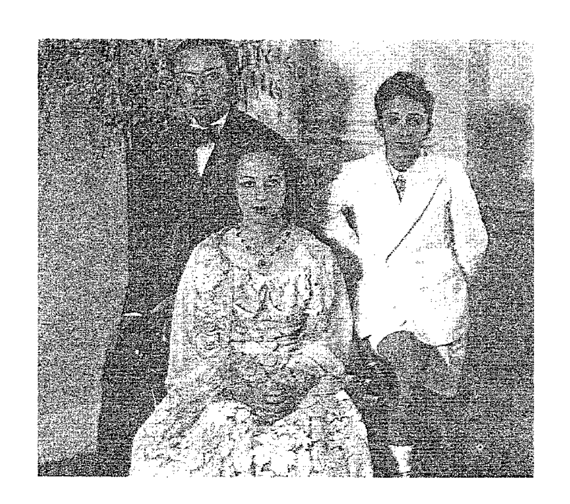


الامير عبد الاله بن الملك علي بن الحسين بالزي العسكري



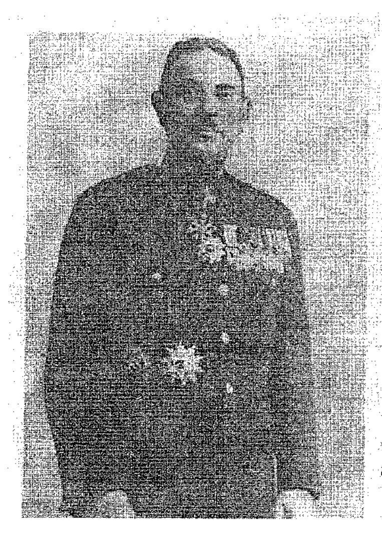
الملك فيصل الثاني بزيه العسكري
(١٩٣٩ ـ ١٩٥٨م)

الملوك الهاشميون الدستوريون الذين حكموا العراق بين ١٩٢١ ـ ١٩٥٨، ولم يستبد أي منهم في صناعة القرار أو في إدارة الدولة.



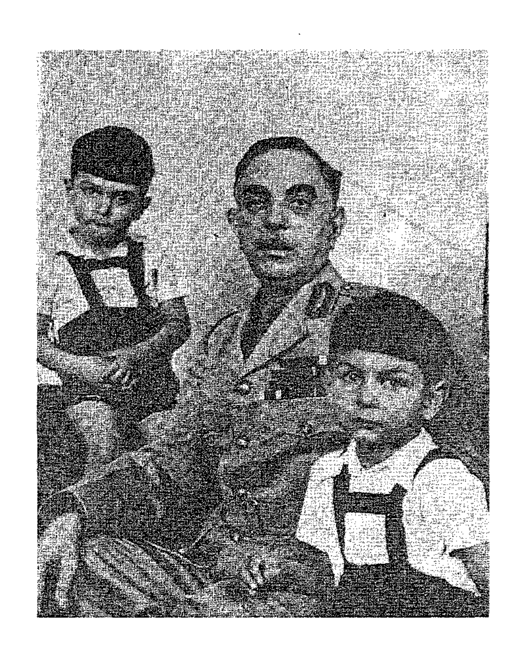
العائلة المالكة العراقية في عام ١٩٤٧ .

المغفور لها جلالة الملكة عالية ابنة الملك علي بين ولدها الملك فيصل الثاني وشقيقها الأمير عبد الإله الوصي وولي العهد . وتصف الدكتورة سانحة أمين زكي في كتابها الموسوم (ذكريات طبيبة عراقية، ٢٠٠٣) الملكة عالية، وكانت قد قابلتها عدة مرات، بأن الملكة كانت مثال السيدة الراقية والمحتشمة والمتواضعة. وقد توفيت الملكة عالية عام ١٩٥٠ وتركت ولدها فيصل يتيم الأبوين وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة.



نوري السعيد وزيراً
للدفاع العراقي سنة ١٩٢٦

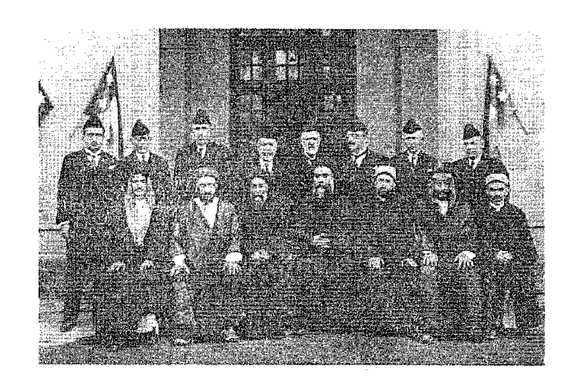
الفريق نوري (باشا) السعيد رئيس وزراء العراق الذي أَحرَقَ شبابه وكهولته لأجل بناء العراق داخليًا وإعلاء شأنه دوليًا، وقُتِلَ في يوم ١٥ / تموز / ١٩٥٨ وأُحرِقت جثته، وسُحِلت في شوارع بغداد ولم يحظَ (الباشا) حتى بقبر يضم رفاته.



الفريق نوري (باشا) السعيد مع حفيديه فلاح وعصام. ولم يمتلك نوري السعيد سوى داره في الصالحية وراتبه من الدولة، فلم يترك لحفيديه أي مصدر للرزق، وقد كان والدهما صباح نوري السعيد قد قُتِلَ ومُثِلتْ في جثته في يوم ١٤ / تموز / ١٩٥٨، فاضطر الفَتَيان إلى الهجرة للعيش في المملكة الأردنية الهاشمية تحت رعاية جلالة الملك الحسين ابن طلال رحمه الله. وقد توفي عصام وفلاح وهما في ميعة الصبا. ولم تحظَ عائلة نوري السعيد حتى براتبه التقاعدي، لذا فقد عاشت زوجته (أم صباح) بعد مقتل زوجها وولدها الوحيد، وهي تعاني شظف العيش معتمدة على مساعدات الأصدقاء.



المغفور له الملك فيصل الثاني وعلى يساره الملك الراحل سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وعلى يمينه رئيس الوزارة العراقية نوري (باشا) السعيد. وقد كان الملك فيصل والأمير عبد الإله ونوري السعيد وبقية النخبة الحاكمة حريصين على تعزيز علاقات العراق مع كافة البلاد العربية.



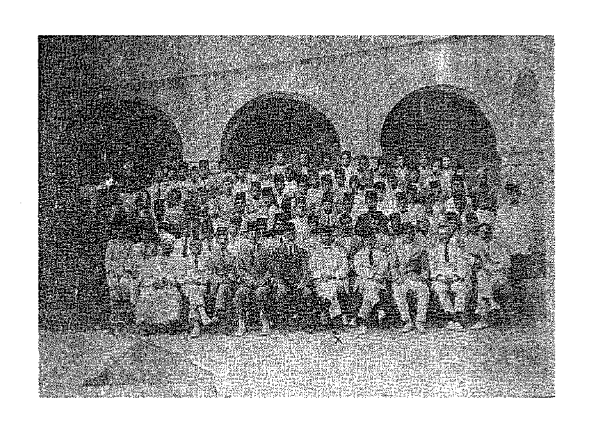
مجلس الأعيان العراقي لسنة ١٩٣٣ :

الجالسون من اليمين: الحاج محمد الأسترابادي، علوان الياسري، الحاج حسن الشبوط، محمد الصدر، محمد علي بحر العلوم، نور الياسري، عداي الجريان .

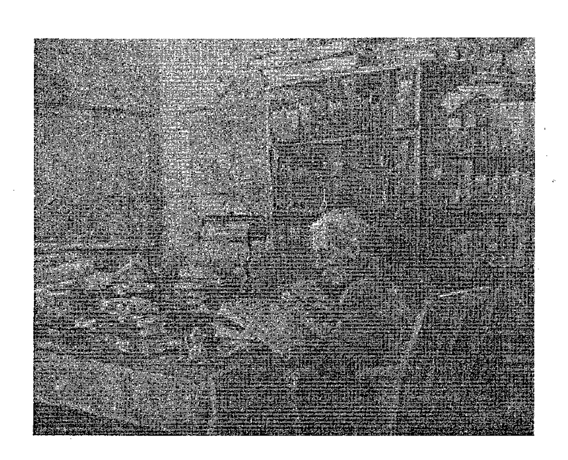
الواقفون من اليمين: عزرا مناحيم دانيال، عبدالله الصافي، فخري آل جميل، قاسم أغا، ياسين الخضيري، أحمد عثمان، مولود مخلص، طه الراوي .



البيك باشي محمد أمين زكي في ملابس الجيش العثماني عام ١٩١٧ . الصورة أُخِذت قبيل سقوط بغداد على يد الجيش الإنكليزي بقيادة الجنرال مود .



محمد أمين زكي (بك، إشارة X) ابن علي، مدير ومفتش معارف منطقة الموصل، شمال العراق في أواسط عقد العشرينيات من القرن العشرين، وهو يتوسط هيئة الإدارة التعليمية للمنطقة الشمالية حين كان العراق مقسمًا إلى ثلاث أقسام إدارية قبل تقسيمه إلى أربعة عشرة ألوية (محافظات) . وحسب تعليمات جلالة الملك فيصل الأول حرص الأستاذ أمين زكي على بناء العديد من المدارس (انظر مذكرات عبد الجبار الراوي، صفحة ٩٥)، حتى في أقصى الشمال حيث تقطن الطائفة اليزيدية بعد أن تمكن أمين زكي من إقناع رئيس الطائفة بأن بناء المدارس الحديثة لا يتعارض مع تعاليم دينهم.

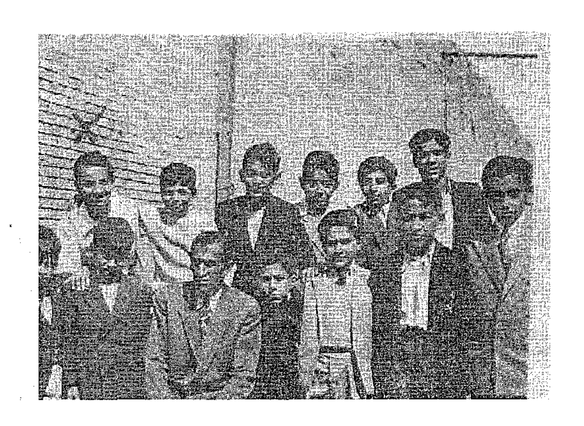


الوالد المرحوم أمين زكي علي في مكتبته الخاصة في داره في محلة الفضل وهو يقوم بأبحاثه الجغرافية. الصورة الأصلية رُسمت بالألوان المائية في عام ١٩٤٧ من قبل الفنان الرئيس (النقيب، المقدم لاحقًا) زيد محمد صالح ابن أخ أمين زكي، وقد نُقلت من قبل المصور الدورادو. الخريطة الكبيرة المعلقة على الحائط المقابل هي خارطة العالم - مطابع فيليبس - لندن ١٩٣١ من تأليف أمين زكي وكانت تُدرَّس قبل الحرب العالمية الثانية في مدارس العراق ومصر وسوريا ومعظم البلاد العربية الأخرى. وللأستاذ أمين زكي أطلسين (أطلس ابتدائي وأطلس ثانوي) وعدّة خرائط أخرى كانت تّدرَّس في المدارس.



الشقيقتان الطبيبتان سانحة ولمعان أمين زكي. سانحة تعتمر القبعة في الصورة، كانت أول فتاة مسلمة تدخل الكلية الملكية في عام ١٩٣٦، ثم تبعتها شقيقتها لمعان التي تصغرها بعامين فأصبحتا رائدتان فتحتا الأبواب لبنات جنسهما من العراقيات لدخول مهنة الطب المشرفة.

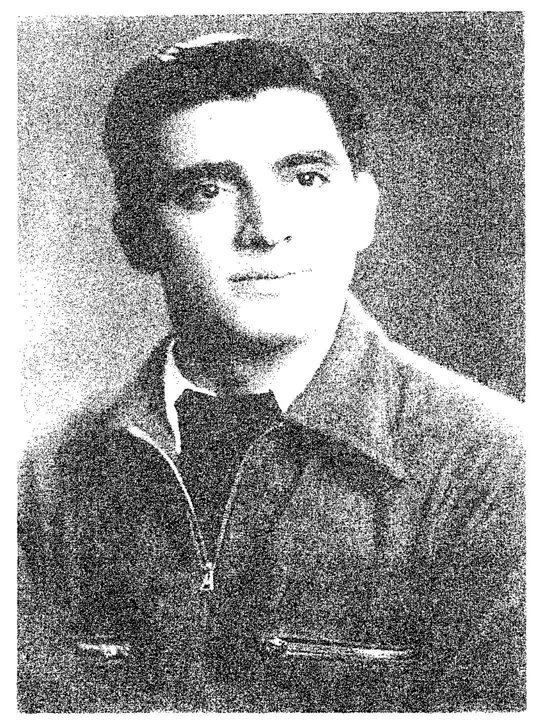
سانحة تخصصت بعلم العقاقير (الفارماكولوجي) ومن ثم في الطب النفساني، بينما تخصصت لمعان بطب الأطفال. درّستْ الشقيقتان في الكلية الطبية العراقية لعدة عقود وخرّجتا أجيالاً من الأطباء العراقيين، وقد تسنمتا مراكز علمية عالمية نظرًا لإنتاجهما الغزير في مجالات اختصاصيهما.



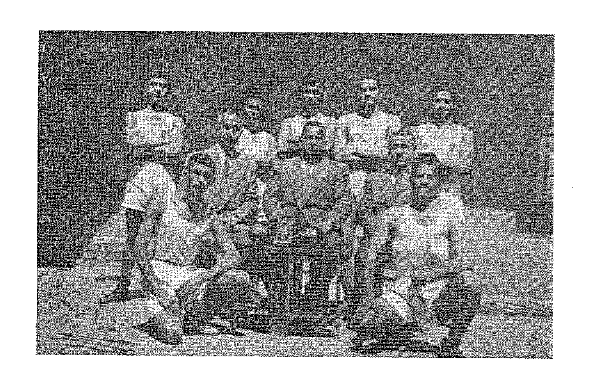
المؤلف مأمون أمين زكي (X) مع بعض زملائه من تلاميذ الصف السادس الابتدائي في المدرسة المأمونية للبنين مع معلم اللغة الإنجليزية الأستاذ جورج كبك أثناء انفجار تظاهرات الوثبة في عام ١٩٤٨ .



وفود التلاميذ والتلميذات والأقليات يحملون أكاليل الزهور إلى مقابر الشهداء الذين سقطوا برصاص الشرطة أثناء تظاهرات الوثبة في عام ١٩٤٨، التي اندلعت ضد معاهدة بورتسماوث وأسقطتها.



المرحوم المحامي خلوق أمين زكي بطل العراق بالملاكمة والمصارعة في عقد الأربعينيات. وكان تلميذاً في كلية الحقوق في عام ١٩٤٨ وكان أحد الشباب الذين اضطلعوا بدور فاعل في قيادة تظاهرات الوثبة التي اندلعت في تلك السنة.



صورة رياضية تاريخية

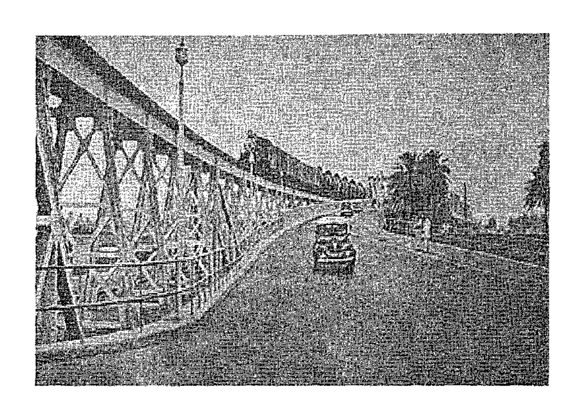
تحت رعاية الأمير عبد الإله الوصي على العرش، فاز فريق مدرسة الرصافة بدَرَقة بطولة مدارس منطقة بغداد في الملاكمة لعام ١٩٥٢.

الواقفون من يمين الصورة: كامل جاسم، مأمون أمين زكي (X)، فخري جواد، شمعون عمانوئيل، طالب فتحي.

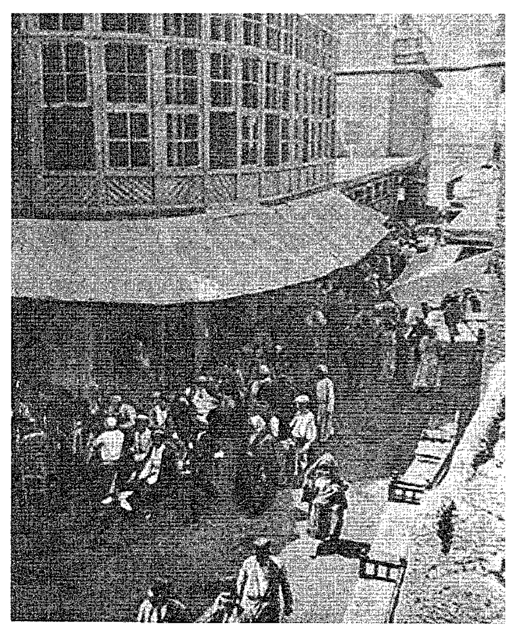
الجالسون على الكراسي من اليمين: الأستاذ عبد الستار القيسي، الأستاذ أحمد يعقوب الشمسي مدير المدرسة، الأستاذ محمد علي صدقي.

الجالسون على الأرض: عبد الباري أحمد وجاسم محمد العبوسي.

الفتيان الذين على صدورهم الأوسمة هم الفائزون. الصورة موقعة من مدير المدرسة.



الجسر الحديدي على نهر دجلة الذي كان يمر بمحاذاة محلة الوزيرية من جهة الرصافة والذي افتُتح في بداية عقد الخمسينيات. وقد سهل هذا الجسر عمليات نقل الركاب والبضائع التجارية داخل العراق وعبر الحدود.



صورة تاريخية لبغداد في بداية القرن العشرين.
مقهى الشابندر على شارع المتنبي في محلة القشلة وقرب سوق السراي.



ـ عبد الكريم قاسم الذي حكم العراق من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٣

الزعيم (العميد) الركن عبد الكريم قاسم الذي قاد مع زميله العقيد الركن عبد السلام عارف انقلاب ١٤/تموز/١٩٥٨. ويعطي عبد الكريم مثالاً حيًا لنظام الاستحقاق الذي كان مطبقًا طوال مدة حكم العهد الملكي. فقد ولد عام ١٩١٤ في عائلة مدقعة في الفقر في حي المهدية الشعبي ـ بغداد، وكان والده قاسم نجارًا بسيطًا اضطره شظف العيش للهجرة إلى أحد الأقضية خارج بغداد. وغداة تخرج عبد الكريم من المدرسة الثانوية أصبح معلم ابتدائية، إلاّ إن ذلك لم يكفي طموحه للتقدم ولوجود الفرص فقدم للكلية العسكرية، وقبل استنادًا على كون معدل درجات تخرجه من الثانوية كان مناسبًا. وبعد تخرجه ملازمًا قُبل في كلية الأركان، وتخرج فيها بتفوق وبدأ يتسلق سلم الترفيعات في سلك الجيش بكفاءاته الشخصية وشجاعته ـ وخصوصًا في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ولحرصه على المبادئ العسكرية، فوصل إلى رتبة عميد ركن، وكان على وشك تسنم رتبة لواء ركن. كل هذه الإنجازات حققها (بذراعه) مستندًا على نظام الاستحقاق العادل الذي مكن عبد

الكريم أن يرتفع بمكانته من الطبقة المعدمة إلى أعلى مستويات الطبقة الوسطى بما يُدعى في السوسيولوجيا (Upper Social Mobility) أي الارتفاع في الطبقة الاجتماعية. ولم يكن عبد الكريم قاسم الوحيد الذي حقق ذلك بل إن أعدادًا كبيرة من الضباط من أمثاله الذين ولدوا في إملاق وفاقة تمكنوا عن طريق التعليم المجاني ودخولهم في السلك العسكري أن يرتقوا بمكانتهم ومكانة عوائلهم الاقتصادية والاجتماعية إلى مستويات أعلى.

كان المجال متاحًا في السلك العسكري والمدني للذين يحملون شهادات عالية ويتحلون بالكفاءة والمثابرة، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا أن يحسنوا أوضاع معيشتهم.

بعد انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ ظهرت مفاهيم ومقاييس شاذة منها حزبية ومنها مذهبية وطائفية وأثنية وانتهى نظام الاستحقاق إلى غير رجعة.

المصادر

كتب عربية

١ . أسعد، فايز عزيز، انحراف النظام البرلماني في العراق . (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥) .

٢ . اسماعيل عبد الله، مفاوضات العراق النفطية .

٣ . بابان، أحمد مختار، مذكرات أحمد مختار بابان آخر رئيس للوزراء في العهد الملكي في العراق . إعداد وتقديم د . كمال مظهر أحمد . (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠) .

٤ . البراك، فاضل، المدارس اليهودية والإيرانية في العراق: دراسة مقارنة . (بغداد: مطبعة دار الرشيد، ١٩٤٨) .

٥ . بطاطو، حنا، العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني لقيام الجمهورية . ترجمة عفيف الرزاز . (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٠) .

٦ . الجادرجي، كامل، مذكرات كامل الجادرجي: وتاريخ الحزب الوطني الديمقراطي، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٧٠) .

٧ . الجبوري، صالح صائب (الفريق) : محنة فلسطين وأسرارها السياسية والعسكرية . (بيروت، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠) .

٨ . الجليلي، عبد الرحمن، الإعمار في العراق: سياسة الإعمار وأهدافه ومنجزاته . (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٦٨) .

٩ . جواد، هاشم، مقدمة في كيان العراق الاجتماعي. (بغداد: مطبعة النجف ١٩٧٥).

١٠ . الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث. (صيدا: مطبعة العرفان. ١٩٧٥).

١١ . الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية. (بيروت: دار الكتب، ١٩٧٦).

١٢ . حسين، خليل إبراهيم، ثورة الشواف في الموصل ١٩٥٩: الصراعات بين عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، ج (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٧).

١٣ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: الصراعات بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين ورفعت الحاج سري والقوميين. ج٢ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٨).

١٤ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين وحلفائهم وناظم الطبقجلي والقوميين. ج٣ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٨).

١٥ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: الصراع بين عبد الكريم قاسم والشيوعيين وعبد الوهاب الشواف وضباط الموصل الوحديين. ج٤ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٨).

١٦ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: سقوط عبد الكريم قاسم. ج٥ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٩).

١٧ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: اللغز المحيّر، عبد الكريم قاسم، بداية الصعود. ج٦ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٨٩).

١٨ . حسين، خليل إبراهيم، موسوعة ١٤ تموز: اللغز المحيّر، عبد الكريم قاسم، صعود. ج٧ (بغداد: دار الحرية للطباعة ١٩٩٠).

١٩ . الحصري، أبوخلدون ساطع: مذكراتي في العراق (بيروت: دار الطليعة ١٩٦٧).
٢٠ . حميدي، جعفر عباس: التطورات السياسية في العراق (النجف: مطبعة النعمان ١٩٧٥).
٢١ . حنظل، فالح: أسرار مقتل العائلة المالكة: أول صفحة دامية في تاريخ العراق الحديث: ١٤ تموز ١٩٥٨ (لندن: دار الحكمة ٢٠٠٨).
٢٢ . الدرة، محمود، الحرب العراقية البريطانية. (بيروت: دار الطليعة ١٩٦١).
٢٣ . الدملوجي، سالم، الكلية الطبية العراقية: من خلال سيرة ذاتية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٣).
٢٤ . الريحاني، أمين، فيصل الأول. (بيروت: ١٩٥٨).
٢٥ . زكي، سانحة أمين، ذكريات طبيبة عراقية. (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٥).
٢٦ . زكي، مأمون أمين، صعود وتراجع المشروع الصهيوني. (لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٧).
٢٧ . الساعدي، حمود، دراسات عن عشائر العراق (بغداد: مكتبة النهضة ١٩٨٨).
٢٨ . ستانفيلد، جاريث، العراق: الشعب والتاريخ والسياسة (أبوظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٧).
٢٩ . السويدي، توفيق، مذكراتي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥).
٣٠ . الشابندر، موسى، ذكريات بغدادية: العراق بين الاحتلال والاستقلال (لندن: رياض الريس للكتب والنشر).
٣١ . شير محمد، سعاد رؤوف، نوري السعيد: ودوره في السياسة العراقية حتى عام ١٩٤٥ (بغداد: مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨).

٣٢. الصباغ، صلاح الدين، فرسان العروبة: مذكرات الشهيد العقيد الركن صلاح الدين الصباغ (الرباط: تانيت للنشر، ١٩٩٤).

٣٣. عبد الحميد، صبحي، أسرار ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق، البداية، التنظيم، التنفيذ، الانحراف. (بغداد: مطبعة الأديب البغدادية ١٩٨٣).

٣٤. عبد الوهاب، عطا، الأمير عبد الإله: صورة فلمية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١).

٣٥. عبد الوهاب، عطا، سلالة الطين: سيرة مأساة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤).

٣٦. العسكري، تحسين، مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية، طبعة ٢ (دبي: جلوبال انفورميشون تكنلوجي (GIT) ٢٠٠٤).

٣٧. العطية، غسان، العراق: نشأة الدولة ١٩٠٨ ١٩٢١. (لندن: دار اللام ١٩٨٨).

٣٨. عفلق، ميشيل، في سبيل البعث (بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٦).

٣٩. العكام، عبد الأمير، تاريخ حزب الاستقلال العراقي: ١٩٤٦ ١٩٥٨ (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠).

٤٠. عواد، كوركيس، معجم المؤلفين العراقيين: في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٨٠٠ ١٩٦٩ (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٦٩).

٤١. فوزي، أحمد، أين الحقيقة في مصرع عبد الكريم قاسم؟ (بغداد: مطبعة الدار العربية، ١٩٩٠).

٤٢. فوزي، أحمد، عبد السلام محمد عارف: سيرته.. محاكمته.. مصرعه (بغداد: مطبعة الدار العربية، ١٩٨٩).

٤٣. الفكيكي، أديب توفيق، تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث،

(بغداد: شركة النصر للطباعة المحدودة ١٩٨٩).
٤٤. الفيل، محمد رشيد، الحدود. (دبي: مركز الخليج للكتب ١٩٩٩).
٤٥. كبة، مهدي، مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨ ١٩٥٨ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٥).
٤٦. النصيري، عبد الرزاق أحمد، نوري السعيد: ودوره في السياسة العراقية (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٧).
٤٧. نعمة، كاظم، الملك فيصل الأول والإنكليز والاستقلال (بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٨).
٤٨. نورس، علاء، فيصل الأول. (جامعة الإمارات العربية المتحدة إدارة المطبوعات، ٢٠٠٨).
٤٩. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (بغداد: مطبعة الإرشاد، ١٩٧١).
٥٠. وزارة الثقافة والإعلام. الذاكرة التاريخية لثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. النص الكامل لوقائع الندوة التي نُشرت على حلقات في آفاق عربية (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧).

المقالات

١. التكريتي، عبد الرحمن، «كيفية اغتيال بكر صدقي العسكري»، آفاق عربية، بغداد، ٢ :٨ ٩، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٧.
٢. حسين، محمد توفيق، «دور اليهودية والماسونية في الانقلاب العثماني ١٩٠٨»، آفاق عربية، بغداد، العدد ١٠١٧، ٣٠/١/١٩٥٢.
٣. خضير، عبد الكريم حسان، «شعراء في حياة الملك فيصل» ذاكرة عراقية، بغداد، العدد ١٤٨٦، السنة السادسة، الإثنين ٢٠/٤/٢٠٠٩.

٤ . سعيد، يعرب فهمي، «حقائق اغتيال الفريق بكر صدقي العسكري»، آفاق عربية، بغداد. ٢ : ٨ ٩ . تشرين الأول/أكتوبر/١٩٧٧ .

٥ . رامز، محمود، جريدة البلاد، بغداد، عدد ٢١٠، ٢١/٧/١٩٣٠، المقالة الافتتاحية .

الوثائق

١ . الكتاب الرسمي لاستقالة المقدم محمد أمين زكي ابن علي (آغا) من مركز مدير مدرسة الضباط المؤرخ ٢٥/٨/١٩٢١، والموقع من قبل وزير الدفاع جعفر باشا العسكري. وانظر أيضًا حوار عصام فاهم العامري مع اللواء فؤاد عارف «تجربتي مع الملك غازي وعهود عبد الكريم والأخوين عارف». فؤاد عارف: رجل كل العهود، ملفات القرن العشرين. الملف ١٢٣، العدد ٧٥٢٥، الأحد ٢٦/١٢/١٩٩٩، صفحة ٣. يؤكد اللواء فؤاد عارف بأن آمر الكلية العسكرية كان محمد أمين زكي (بيك).

٢ . الحكومة العراقية، القانون الأساسي (بغداد مطبعة دار السلام، ١٩٢٢).

٣ . رسالة شخصية كتبها البروفسور - الطبيب فرحان باقر بتاريخ ٢٧/٥/٢٠٠٩ بخط يده استجابة لطلب المؤلف منه، فتفضل بإرسالها مشكورًا، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

English Sources

1. Antonious, George, The Arab Awakening (London: Hamish Hamilton, 1938).
2. Al. Aysami, Shibli, The Ba`th Party: The Period of Foundation, 1940-1949 (Madrid: FARESO, 1977).
3. Carter, Jimmy, Palestine: Peace not Apartheid, (New York: Simon & Schuster Paperbacks: 2006).
4. Dimbleby, Jonathan, The Palestinian. (New York: Qurrlet Books, Inc. 1980).
5. Fisher, Sydney N., The Middle East: A History. (New York:McGraw - Hill, Inc.1979)
6. Foster, Henry A., The Making of Modern Iraq, (New York: Russel & Russel 1935).
7. Fuller, J. F. C., The Decisive Battles of the Western World, and their influence upon history (Great Britain: Paladin, 1970).
8. Ganiu, Zvi, Truman, American Jews and Israel, (New York: Holmes Pub. Co. 1955).
9. Glick, Edward Bernard, The Triangular Connection: America,
10. Israel and American Jews (London: Geary Allen and Unwin 1982)
11. Gom`a, Ahmed M., The Foundation of the League of Arab State (London: Longman Group, 1977).
12. Helmot, Soviet Russia Masters the Comintern, (New York: Anchor Books 1974).
13. Heer, Fredrich, The Mideaval World (New York: A Mentor Book, 1961).
14. Heilbroner, Robert L., The Wordly Philosophers (New York: Simon & Schusten 1967).
15.- Ireland, Philip Willard, Iraq: A Study in Political

Development. (London: Oxford University Press 1937).
16. Izzat, Majid, Oil Revenues of the Government of Iraq (Baghdad: Star Press, 1961).
17. Khadduri,Majid, Independent Iraq: A study in Iraqi Politics since 1932 (London: Oxford University Press, 1951).
18. Lahrman,Hal, «Development in Iraq» The Middle East in Transition, ed. Walter Z. Laquer (New York: Prager, 1958).
19. Lenzowski, George: The Middle East in World Affairs (New York: Cornel University Press, 1972).
20. Marx, Karl, Capital: The Community Manifesto and other Writings, ed. Max Eastman. (New York: The Modern Library Books, 1932).
21. McConnel, John W., The Basic Teachings of the Great Economists, (New York: The New Home library, 1943).
22. Al-Mosawi, Muhsin, iraq's Oil (Baghdad: Al-Jumhuriyah Printing 1973).
23. Munier,S. «Zionism and the Middle East – The Aftermath of the Jewish – Arab War (A Report from Israel)» Fourth International, Vol. 10, No 91949.
24. Persons, Talcott, Theories of Society: Foundation of Modern Sociological Theory. (New York: The Free Press, 1961).
25. Penrose ,Edith & E. F., Iraqi: International Relation and National Development (London: E. Benn Ltd. 1978).
26. Qubain, Fahim I. The Reconstruction of Iraq: 1950-1957, (New York: Prager, 1958).
27. Rosenbloom, David, Public Administration: Understanding Management, Political and Law in the Public Sector, (Boston: McGrow Hill, 2002).

28. Sabine, George S., A History of Political Theory (New York: Holt, Rien Hart & Winston 1961).
29. Shirer, William, The Rise and Fall of the Third Reich (Green Wich, Fawcet Publications Inc, 1960).
30. Stephens, Robert, Nasser: A Political Biography (New York: Simon and Schuster, 1971).
31. Temashef, Nicholas S., Sociological Theory: Its Nature & Growth (New York: Random House, 1967).
32. Van Passan, Pierre, The Forgotten Ally, (New York: Dial Press, 1943).
33. Veblin, Thorstein, The Theory of the Leisure Class (New York: Macmillam Co. 1899).
34. Weintrauh, Stanly, Disraeli: A Biography, (New York: Tally Books, 1993).
35. Zein, Zein N., The Struggle for Arab Independence (Beirut: Khayats, 1960).

Government Document

In the interests of brevity the following documents are listed chronologically with the name of the relevant government mentioned once at the beginning of each list.

Great Britain

1. Original draft of mandate as submitted to the British Cabinet, 5 August 1920, L/P&S/10/919.
2. Telegrams from the high Commissioner for Mesopotamia to the Secretary of State for the Colonies: No. 171, 9 June 1921, L/P&S/10/919; No. 396, 16 August 1921, L/P&S/10/919; No. 123, 2 June 1924, L/P&S/10/919.

3. Letters from Baghdad to London: No. 1445, 28 March 1934, L/P&S/12/2877; 1 October 1934, E6097/1752/93, No. 558, L/P&S/12/2882; No. 236/6, 18 January 1934, L/P&S/12/2882;No. 805,1 January1934,L/P&S/12/2882; No. 269, 20 August 1934, L/P&S/12/2870; No. 61, 31 January 1935, L/P&S/2877; No. 133, 3 March 1936, L/P&S/12/2863; No. 3, 23 March 1936, E1579/332/93, L/P&S/12/2888; No. 274, 4 July 1938, L/P&S/12/2870; No. 288/59/39, 9 January 1939, L/P&S/12/2868; No. 358, 8 April 1941, L/P&S/12/2863; No. 285, 6 April 1941, L/P&S/12/2862; No. 262, 3 April 1941, L/P&S/12/2862; No. 271, 4 April 1941, L/P&S/12/2862; No. 368, 21 April 1941, L/P&S/12/2863; No. 346, 16 April 1941, L/P&S/12/2863; No. 369, 21 April 1941, L/P&S/12/2863; No. 136, 15 May 1942, L/P&S/12/2863; No. 17011, 20 March 1946, L/P&S/12/2863; No. 65, 23 March 1943; L/P&S/12,2877; No. 68, 19 February 1944, L/P&S/12,2877; No. 17, 19 March 1945, L/P&S/12877; No. 134, 30 March 1945, L/P&S/12/2863.
4. Intelligence Reports, No. 1, 15 November 1920, L/P&S/10/962; 1921, L/P&S/10/962.
5. Article in Al-Bilad [Baghdad Arabic newspaper], No. 210, 21 July 1930, L/P&S/10/1071; 17 February 1939, L/P&S/12/2869.

6. Annual Report, 1935, L/P&S/12/2877.
7. Pact of mutual Co-operation Between His Majesty the King of Iraq and the President of the republic of Turkey.
8. London: Her Majesty's Stationery Office, September, 1956.
9. Treaty of Alliance Between Iraq and Great Britain, signed at Baghdad, October 10, 1924. Washington, D. C.: Library of Congress, DS 79/A6, 1925.

Iraq

1. Letters: No. 25, 1599/11, 4 November 1932; No. 15, S/16, 22 February 1933; No. 20 S/65, 28 February 1933; No. 21, S/2858, 6 March 1933; Correspondence Relating to Assyrian Settlement, 1934.
2. Laws: No. 5, 1927, No. 50, 1932; Royal Decree, 28 January 1924; The Organic Law and Its Amendments, 1944; Law No. 3, 1950; Law No. 25, 1952; Law No. 35, 1951; Law No. 43, 1955; Law No. 54, 1956.
3. Petitions from the Assyrian Community, No. 7, C. 837, 1932 VI, Geneva, 14, December 1932.
4. Supplement Petition, 8 October 1933, L/P&S/12/2874.
5. Local Board Assyrian Settlement, 26 February 1933.
6. The Royal Court, Council of Cabinet M. W. W., ،The

coup d`etat in Iraq. , G/15, 259-W. A., 103, 29 October 1936.

7. Proceedings o of the Chamber of Deputies: Extraordinary Session No. 7, 1937; Proceedings, House of Senate, Session No. 17, 1942-1943; Proceedings of the House of Parliament: Extraordinary Session, 1944.
8. The Secret Encyclopedia of the Communist Party in Iraq, Vol. IV, 1948.
9. Announcement by the Third Central Committee of the Communist Party, 14 February 1949.
10. Ministry of Defence, Minutes of the Supreme Military Court, Vol. 5 of 22 Volumes, 1959.
11. The July 14 Revolution in its First Year, 1959.
12. Development of Economic, 1951-1956.
13. Ministry of Education, Annual Reports, 1950-1963.
14. Ministry of Foreign Affairs, The Truth About Kuwait, Vol. II, 1961.
15. Ministry of Information, Annual Report, 1958; Economy of Iraq: Development and Perspectives, 1958-1976-1980.
16. First Proclamation of the Revolution, 14 July 1958.
17. Ministry of Oil, The Revolutionary Government and the oil Negotiation, 1961.
18. Kuwait: The Usurped Iraqi Province, 1961.

19. Central Bank: Annual Report, 1968.

Official Gazette of Iraq

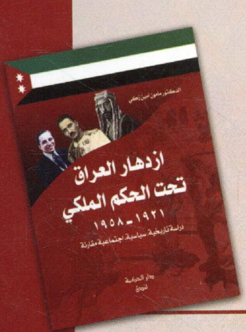
[al-waqa`I al-Iraqiyah]

The Official Gazette of Iraq is the government publication published irregularly to make government proclamation.

Footnotes to the chapters have provided detailed information; thus, the following is a list of publication numbers and dates for the sake of brevity:

No. 311, 25 June 1925; No. 321, 30 July 1925; No. 566, 1927; No. 1619, 22 March 1938; No. 1619, 22 March 1938; No. 1633, 9 May 1938; No. 4144, 14 May 1958; No. 4148, 19 May 1958; No. 1, 23 July 1958; No. 30, 30 September 1958.

تم بحمد الجليل



هذا الكتاب

ثمة هدفان أساسيان لهذا الكتاب. الهدف الأول هو تسليط الأضواء على الخصائص المميزة للعهد الملكي في العراق والتي طالما تعرضت للتحريف والهجمات الظالمة، وتحليل تلك الخصائص بأسلوب موضوعي خالٍ من التحيز، ولمناقشة المعتقدات الخاطئة التي سادت لعدة عقود واقتنع بها جيلنا والجيل الذي سبقنا بكونها حقائق ثابتة لا تقبل الشك أو النقاش. إضافة إلى ذلك محاولة تصحيح الصورة النمطية السلبية، أو بالأحرى المنحطة، التي خلقتها الدعايات المغرضة عن ذلك العهد الذي دام من عام 1921 إلى 1958 وحقق العراق أثناءه تطورات جوهرية كبرى في معظم نواحي الحياة.

أما الهدف الثاني فهو تحذير أبنائنا من الأجيال الجديدة من العراقيين وتجنيبهم الأخطاء التي ارتكبها جيلنا والجيل الذي سبقنا بالانجرار وراء الشعارات البراقة الفارغة وعدم تقديرنا للإنجازات التي حققها قادة ذلك العهد بحكمتهم وواقعيتهم وخلقهم ونزاهتهم وخططهم المحكمة والتي أدت إلى خلق كيان العراق ومن ثم تطويره بعد ثلاثة عقود فقط ليسير بخطوات مدروسة وثابتة نحو التقدم وتعزيز مقومات الدولة الحديثة وتماسك مكوناتها السكانية الأثنية والدينية وامتزاجهم.



HIKMA
...tribution
...on Street
...NW1 1HJ
...383 4037
...383 0116
Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
1 904923 78 X